

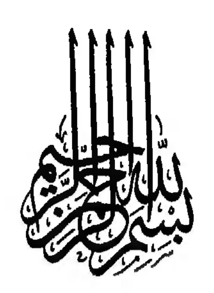
الأحلام وقواها الخفية



تأليف : الدكتورة أن فراداي

ترجمة وتعليق وتقديم
الدكتور عبد العلّي الجسماني

الأحـــلام
وقـواها الخفيـة



الطبعة الأولى

1415 هـ ـ 1995 م



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/٨٠١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

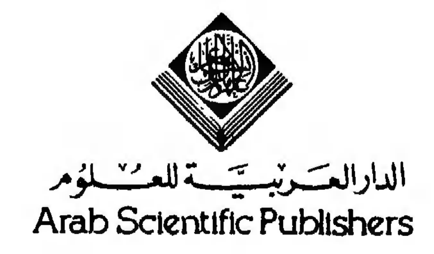
بناية الريم ـ شارع ساقية الجنزير ـ عين التينة
هـاتـف 861311 - 860138 - 811385
ص ب 13/5574 بيروت ـ لبنان
هاتف وفاكس دولي 4782486 (212) 001

الأحلام وقواها الخفية

تاليف
الدكتورة آن فراداي

ترجمة وتعليق وتقديم
الدكتور عبد العليّ الجسماني





محتويات الكتاب

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

القسم الثاني : رواد في مجال الأحلام

الفصل السادس :

الفصل السابع :

القسم الثالث : الأوجه الثلاثة للحلم

الفصل الثامن :

الفصل التاسع :

الفصل العاشر :

القسم الرابع : التطلع الى المستقبل

الفصل الحادي عشر :

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

(قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين) سورة يوسف / الآية ٥.

كان هذا جواب يعقوب، وهو النبي، لأبنه يوسف الفتى اذ قص على أبيه حلمه وهو: (إذ قال يوسف لأبيه يا أبتي إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) سورة يوسف / الآية ٤ . قدمنا الجواب على مدلول الرؤيا للبرهان المستبان. فلو أنزل يعقوب رؤيا ابنه منزلة الحدث العابر لما نصحه بعدم إفشاء متضمنات ذلك الحلم المنبيء عن شيء خطير في مستقبل إبنه الفتى وإخوته الكبار. إذ عرف الأب بشفافية النبوة وفطرة الأبوة إن غيرة الأخوة الكبار ستثار لو عرفوا بمستقبل آخر تكون فيه اليد العليا لأخ لهم ما فتيء يافعاً. ولكن لا محيص من المقدور، والقصة كاملة لا تخلو من عبرة. وما حلم الفرعون بالحلم التنسى عبره وعظاته.

في الآية (٤٣) من سورة الأنفال نقرأ قوله تعالى : (إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور.) عندما نتابع دلالة الآية الكريمة هذه في التفاسير نجدها كلها تجمع على أن الله سبحانه صور للرسول الكريم ﷺ، في منامه جيش الأعداء في قلة لتطمئن قلوب المؤمنين، وبذلك ترتفع الروح المعنوية للمسلمين من شك في أن العزم والصبر يصنعان النصر المبين. وفي رؤيا ابراهيم (عليه السلام) بأن يذبح إبنه اسماعيل بعد إتمام بناء الكعبة وإقدام الأب على تنفيذ أمر جاءه في المنام، تكريس لمكانة الأحلام في حياة البشر. ولأهمية الأحلام في حياة الانسان، انه أثر عن الرسول ﷺ ، قوله :

(ذهبت النبوة وبقيت المبشرات) ولما سئل عليه الصلاة والسلام، عن المبشرات قال (الأحلام)، وعدها درجة من ست وأربعين درجة من النبوءة. وتراثنا زاخر بأمثلة عن الأحلام ومدى اهتمام أجدادنا بها لعلمهم الراسخ انها جزء من شخصية الانسان وحياته غير الظاهرة للعيان. وهذا ما أماط عنه اللثام العلم الحديث وبخاصة التحليل النفسي والأحلام وأن التحليل النفسي ليعول كثيراً على الأحلام في الكشف عما أستبهم من دخيلة الانسان.

فأبن سيرين، مثلاً، (ت ٧٢٨م)، أحد رواة الحديث بالبصرة، اشتهر بالورع، كان حجة في تعبير الرؤيا، وله فيه كتاب. وعبدالغني النابلسي (ت ١١٤٣م) كان معروفاً بالتقوى والاجتهاد في العلم، أخذ الكثير عن ابن سيرين وأضاف اليه من جهده الذاتي، لما رأى ان الأحلام حياة أخرى للانسان لا ينبغي اغفالها. ولابن قيم الجوزية (ت ٧٥١) باع في اقرار قيمة الأحلام ومكانتها من سلوكية الفرد اليومية. وهذا ابن خلدون (ت ١٤٠٦م) يذهب الى ما ينطبق على أحدث النظريات في الأحلام، اذ يقول: (أما الرؤيا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات...) ويستطرد في بيان أسباب حدوث الحلم وبأي الوقائع يأتي وكيف بها ينبىء. ويؤكد ابن خلدون: (الرؤيا موجودة في صنف البشر على الاطلاق ولا بد من تعبيرها).

على مدى العصور جميعها، كانت الأحلام وما زالت، تخلب لب الانسان وتثير فيه مختلف الانفعالات سلباً او ايجاباً بل انها كثيراً ما أوحت وأدت الى اكتشافات واختراعات، ومن يقرأ عن الأحلام وبعض قصص المخترعين يجد امثلة كثيرة تدلل على ذلك. فجالينوس، مثلاً، كان قد قال: (عمدت الى فصد العروق الضوارب لأني أمرت بذلك مرتين في منامي).

فالأحلام على اختلاف نظرياتها وتعددها، يكاد ينعقد الاجماع بين المعنيين بها والمتتبعين لها من المحدثين، على انها (رسائل نابعة من الذات

وموجهة الى الذات). وان ما يذهب اليه المثل السائر بين هنود اميركا: (احترم أحلام إخوانك) لا ينأى بعيداً عن القول المألوف: (الليل يأتينا بالنصيحة)، وهو مثل ينطوي على ما في الأحلام من جوانب تتيح للفرد المكروب مثلاً متنفساً يخفف عنه الضيق النفسي عندما يكون الحلم ساراً أو كيف يحس المرء بالضيق بعد حلم لا تروقه أحداثه.

وتذهب مؤلفة هذا الكتاب لتقول قول الواثق بعد طول البحث والتمحيص في علم الأحلام: (وكلما تقدم الآباء والمعلمون في تعلم سطوة الحلم وقواه في حياتهم الخاصة، فسيكون بمقدورهم الأخذ بأيدي أبنائهم ليتفهموا ما يجلو لهم الألغاز التي تحصل لهم خلال النوم في الليل..) وتذكر المؤلفة في ثنايا كتابها كيف تحول قبيلة (السينوي) ما يطرأ من أحلام قلق وفزع لدى أطفالها الى عناصر قوة وعوامل تربوية والى جوانب متعة وبهجة. والتفصيلات ممتعة حقاً. والمؤلفة تنصح الحالم بأن يعامل الحلم وكأنه مرآة يرى خلالها ما هناك من متناقضات في أعماق شخصيته.

وهذا الكتاب يضم بين دفتيه ما جمعت فيه مؤلفته، الدكتورة آن فراداي، بين التجريب العلمي وأحداث خبرات الحياة الانسانية، وبه أحرزت درجة الدكتوراه الجامعية، وان قارئه سيلمس بنفسه المتعة وسيحس الدهش سيرى كم سبر العلم أغوارا من شخصية الانسان، ومع هذا فهو لما يزل واقفاً منها على مقربة من شواطئها ومن ورائها انفساح الأفق البعيد ومن مفاتيح الكشف عن الشخصية الانسانية هذه هي الأحلام.

وقد أحسنت المؤلفة صنعاً في توظيف علم الأحلام علمياً وتجريبياً في حياة الفرد والمجتمع على حد سواء، وان الربط المحكم هذا، والمشفوع بالبراهين والاقناع، قد أكسب الكتاب ميزة تقترن بخصيصة سيلمسها القارىء الكريم بنفسه. فلا غرو ان يظفر بتقريظ واسع، كما هو مثبت في مطالع صفحاته، فلا عجب بعد أن طبعت منه في طبعته الأولى أكثر من نصف مليون نسخة. وقد ترجمته الى العربية وكل وكدي ازجاء المنفعة

العلميـة والله المستعان، وهو علام الغيوب، فلا يحده زمان ولا مكان.

عبد العليّ الجسماني

قالوا في هذا الكتاب تقريظاً

هذه آراء صدرت عن كتاب مرموقين وصحافة معروفة واسعة الانتشار، كلها أشادة بأهمية هذا الكتاب في حياة الانسان الوجدانية والاجتماعية.

[تعلم كيف تستعمل المعرفة الذاتية الفعالة الكامنة هناك في أحلامك.]

[اذا أنت شئت أن تدرك أو تفهم على نحو جيد المعرفة أو المعلومات التي تعاود حياتك العقلية الشعورية وتلح عليها، فما عليك الا أن تتفهم أحلامك، فهي تنبؤك عن :

* احاسيسك الواقعية ومشاعرك الحقيقية والمثيرة عن الآخرين.

* عما أنت راغب فيه حقاً وما أنت فيه من موقف مضطرب، وما يحتمل أن ينجم مما توصل اليه وما قد تحصل عليه.

* بل انها احياناً تنبؤك عما سيحدث وعما سيقع ـ وذلك حين يستعمل حلمك معلومات كان عقلك الواعي قد أهملها وكان قد اغفلها.

* فاللاشعور عندك، وحياتك غير الواعية لديك، يعرف اشياء انت لم تكتشفها ولم تعرف بعد عنها شيئاً. فحياتك الواعية تحاول ان تقول لك شيئاً معيناً وذلك عندما تعاودك كل ليلة من ليالي نومك. والدكتورة آن فاراداي، وهي واحدة من رواد العلاج النفسي بواسطة استكناه معاني الأحلام، توضح ذلك كيف يمكنك ان تتذكر وأن تدون، وأن تفيد من هذه الرسائل والاشارات التي كانت في يوم ما محيرة للألباب.]

***

[أستطيع القول على وجه التأكيد تقريباً بأن مجمل حياتك كلها سيكون مختلفاً تماماً لو أنك قرأت ودرست هذا الكتاب ـ أحلامنا ترجمة لحياتنا الواعية ولعلك تسألني : لماذا أوصي بقراءته بوصفه واحداً من أهم الكتب التي تنطوي حتى الآن على نصائح التثقيف الذاتي؟ ذلك لأن هذا الكتاب قد غير مجرى حياتي.]

***

[انه لكتاب يشبع رغبة هواة الأحلام ويرضي مطامح المولعين بمعنى الحلم، انه يعطيك أفكاراً أشبه بجولة الطباخ الماهر، مثيراً للجدل والنقاش عن حياتنا العقلية ليلا.]

***

[انه لكتاب مثير وباعث على التحفيز، فهو مشجع على سبر أغوار أحلامنا وشخصياتنا. وهو يمثل المرحلة الأولى في استكشاف مثير. انه لمؤلف بسيط يمكنك من تفسير أحلامك بنفسك.]

***

[إن أحلامنا، عندما تحلل تحليلاً ذكياً، يصبح بوسعها أن تمنحنا التبصر بحقيقة علاقاتنا بالآخرين. فهذا الكتاب يقدم عملية ذات مراحل ثلاث تمكن الحالم من فحص أحلامه وتأملها على عدة أوجه وبعدة معانٍ فثمة رسائل واشارات بالغة الأهمية يمكن ان تظهر بشكلها الموضوعي على ذلك المستوى. يا لها من أمثلة مشهودة ومثيرة للدهشة.]

***

[انها لطريقة أخاذة باتجاه الطرق على أبواب ما للحلم من قوة تكمن فينا جميعاً. مثير للاعجاب وأنت تقرؤه، وهو في الغالب مشوق تماما ـ مع اشارات بارعة الى احلام المؤلفة نفسها. ونظريتها المتضمنة في كتابها هذا، هي مزيج متميز لآراء مشاهير علماء النفس المعنيين بالأحلام، أمثال كارل يونج، كالفن هول، وفريدريك بيرلز، المتمرس بنظرية الجشتالت.]

***

[انه لكتاب فائق الجودة عن الأحلام وأهميتها البالغة في حياة الفرد. وإني لأرجو أن أرى عدداً كبيراً من الناس يقرأون هذا المؤلف المكتوب باسلوب رشيق.]

***

[بتفصيل واضح وبعدد من الأمثلة كبير، نجد الدكتورة فارادي تفسر وتشرح أساليب فنية كالتداعي الحر ـ وهو أن تقول كل ما يطرأ على ذهنك وأنت تعيد ما رأيت في الحلم ـ وأن تمثل دور كل شخص أو شيء شاهدته في حلمك، أو حمل الحالم على أن يقوم بالحوار يدور بين شخصين اثنين من شخصيات الحلم.]

***

[انه لكتاب ممتع وشامل. ويبدو واضحاً أن الدكتورة فارادي قد استخلصت من أحلامها الخاصة معرفة ذاتية ساعدتها على فهم الأحلام مساعدة كبرى.]

***

[تلك كانت بعض الآراء التي عبرت عنها كبريات الصحف المعروفة كاالواشنطن بوست وسواها، وبعض تقريظات مشاهير علماء الناس أمثال كالفن هول، والفن توفلر مؤلف كتاب : صدمة المستقبل، وكتاب : الموجة الثالثة.]

[آن فرادي تنظر الى ظاهرة الأحلام من خلال عدسات لامة جامعة. وللسيدة فرادي من خلفيتها العلمية ما يمكنها من بحث الموضوع على نحو يبعث على الاعجاب. فهي تؤمن بأنه ينبغي بألا ندع البحث في الأحلام أو نكله للمعالج النفساني وحده، وانما يترتب بل يتعين على كل واحد منا أن يعمق معرفته الذاتية بظاهرة الأحلام عن طريق تحليل أحلامنا، وأن يعكف كل منا على تحليل أحلامه تحليلاً ذاتيا.. انه لكتاب مرموق.]

الفن توفلر : مؤلف كتاب : صدمة المستقبل

فضلاً عن ذلك، فان المؤلفة صدرت كتابها هذا بقول إقتبسته من قول سدني جورارد مؤلف كتاب «الشخصية السوية أو السليمة Healthy Personalaity (١) يذكر :

---

(١) نقلة إلى اللغة العربية الدكتور حمد الكربولي (المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

[نبدأ رحلة حياتنا في هذا العالم فيبدي لنا نفسه على حقيقته كما هو. فيتفق أن يعرض في حياتنا شخص معين آخر - كالأبوين، أو المعلمين، أو المحللين النفسانيين - فيروح يوحي الينا ايحاء بأن نرى عالمنا هذا وننظر اليه نظرة صحيحة حسب تفسيرهم هم. وهؤلاء الآخرون يسمون العالم بسمة خاصة، ويلصقون به من الأسماء وينسبون أصواتاً الى ما فيه من كائنات واحداث، فيترتب على ذلك في ما بعد، اننا لا نستطيع ان نقرأ معالم هذا العالم في أية لغة أخرى ولا نسمعه يفضي أو يقول الينا أشياء أخرى مغايرة].

والمهمة هي أن نكسر طوق هذا الانحسار، لنتمكن من استعادة سمعنا، ولنعود مبصرين، وبعدة لغات متكلمين، وبهذا ندع العالم هذا يحدثنا بأصوات جديدة ونمكنه من أن يدون في سفر الوجود جميع معانيه الممكنة.

فاحترس في اختيارك لأولئك الذين يوحون اليك.]

تنهي المؤلفة تلك الأقوال بمثل يتمثل به هنود أميركا وهو:

أحترم أحلام إخوانك

توطئة

كانت تعاودني أحلام، حين كنت طفلة صغيرة، أرى نفسي فيها يطاردني كريمرز Creamers ـ رجال يرتدون مريلات طويلة بيضاء ورؤوسهم مطربشة بقبعات مديدة عالية بيضاء أيضاً. وكان يتزعمهم شخص اسمه بيزلي Basley . وأتذكر انني كنت يومذاك أسأل أمي عن معنى كريمرز هؤلاء، فكانت تجيبني، [اعتقد أنها نوع من الشيكولاته، يا عزيزتي.] لكنني كنت أعرف أنهم ليسوا كما قالته لي أمي. اذ كانوا رجالاً يرتدون بياضاً يطاردونني طوال الليل. ثم عرفت أن بيزلي هذا كان الحارس الصغير المسؤول عن حراسة نادي التنس عبر الشارع، بيد أن ما له من مظهر ينم عن أهميته ووداعته لا يجعل أي تشابه هناك يربط بينه وبين زعيم الكريمرز، وكان يعاودني كذلك في نفس الوقت حلم آخر. ذاك هو [بائع الحلوى] Candied Seller ـ رجل يرتدي بدلة مهرج، بشرة أحد جانبي وجهه يعلوها مرض جلدي ـ كنت أراه منزوياً في إحدى بوابات الحانوت او مختبئاً خلف الأسيجة. فيحاول اعتراض طريقي وتقبيلي عندما أكون مارة من هناك. فلم يستطيع أحد من والدي، ولا المعلمون استطاعوا، تسليط الضوء على الكريمرز أو على بيزلي أو رجل الحلوى. وكل ما فعلوه انهم استبعدوا ذلك بقولهم: [لا شيء يهمك سوى أنها مجرد أحلام]، وكانوا في الوقت ذاته يحضونني حضاً على أن أطرد الفكرة كلها من دماغي وأن استبعدها من ساحة عقلي.

بعد مرور عام على ذلك أو عامين، توقفت هذه الأحلام، لكنني صرت أرى في المنام غيرها، هي الأخرى كانت مبهمة وغير واضحة لي لكنها كانت تقلقني. فلم أجد هناك من كان يساعدني على فهمها. وبعد مضي سنوات كثيرة أحرزت شهادة في علم النفس، وكان الأمل يحدوني الى أن أتعلم عن جوانب اللاشعور ـ اللاوعي ـ للخبرة ▪ بما في هذا الأحلام،

لكن إحباطاً أصابني تارة أخرى، اذ وجدتني قد تعلمت الكثير عن الفئران، وعن زمن رد الفعل في التجارب النفسية، وعن الاحصاء النفسي، لكنني ما تعلمت شيئاً يذكر عن خوالج نفسي. رغبت بعد التخرج في مواصلة البحث باتجاه تحقيق رغبتي، غير ان الاحباط مرة أخرى تصدى لي اذ لم أجد اية تخصيصات مالية ترصد لتمويل دراسة معنى الأحلام، ذلك أن المؤسسات الأكاديمية اعتبرتها موضوعاً ليس من العلم في شيء. أيا كان الأمر، عكفت بعد هذا على البحث عن عملية الحلم وقد حصلت على درجة الدكتوراه في رسالة تقدمت بها بعنوان [العوامل المؤثرة في الاسترجاع التجريبي للأحلام].

Factors Affecting Experimental Recall of Dreams

وكان أملي عريضاً في أن شيئاً معينا ما يهم الانسان يمكن ان ينجم كنتيجة عارضة من هذا البحث، وقد تحقق هذا حقاً، وان لم أكن قد ذكرت في تقارير سابقة من قبل الملامح الممتعة لعملي.

شملت تجاربي متطوعين كانوا يأتون الى بيتي أو الى المستشفى، وكنت أصل بإحساسهم أجهزة تسجيل وكنت أوقظهم عدة مرات خلال الليل ليذكروا لي أحلامهم. وقد أفهمتهم مقدماً بثبات وبحزم بأن لا ينتظروا مني تفسيراً لأحلامهم، وألا يتوقعوا أية مساعدة تخص مشكلاتهم، طالما ان اهتمامي كان منصباً بالدرجة الأولى على قياس مقدار استرجاعهم لأحلامهم وتذكرهم اياها. وقد تقبلوا جميعهم هذا الشرط دونما تلكؤ، معربين عن مدى مسرتهم في تقديم نتائج خطراتهم الليلية الى العلم. على ان أحلامهم تلك علمتني أمراً مختلفاً. فمن حين الى آخر، كان أولئك المتطوعون الخاضعون لتلك التجارب، يحلمون بي على أنني معالجة نفسانية، وبأنني طبيبة، أو أنني أم لهم، أو معلمة يأتونها بأحلامهم أملاً في حل مشكلاتهم والتغلب عليها. وقد اتضح لي أن كل واحد من أولئك المتطوعين، دونما استثناء تقريباً، كان في قرارة نفسه يتوقع نوعاً من

المساعدات الشخصية لدى افضائه بأحلامه والكشف عنها الي.

ان هذا الموقف منهم لم يدهشني قط، ذلك لأن الانسان كان وما فتيء يسعى الى أن يرى ما تنطوي عليه أحلامه من مغزى. كان الناس فيما مضى من عصور قديمة يستشيرون الكهنة والقساوسة، أو غيرهم من ذوي الحكمة ملتمسين عندهم تفسيراً لأحلامهم. وفي الآونة الأخيرة، انتقل هذا الدور الى المعالجين النفسانيين ولكل منهم مدرسته النفسية في العلاج وفي النظرية التي يتبعها في تفسير معنى الأحلام. لكن المتطوعين الذين جاؤني بأحلامهم لم يكونوا (مرضى)، اكثر مما كانت عليه حالتي أيام كنت طفلة وكنت أرى فيها تلك الأحلام. فهم كانوا فقط مستغربين والى حد ما مضطربين بشأن احلامهم التي أحسوا أنها يمكن أن تسهم في حل بعض مشكلاتهم في الحياة، ولكن ما كانت لديهم أية أسباب، أيا كانت، تدعوهم الى التماس مساعدة ما علاجية نفسية مهنية ومتخصصة. وانني في الوقت نفسه، عكفت على التدريب في التحليل النفسي وفق المنهجية الفرويدية غير أنني وجدت أن الطريقة هذه لا تخلو من نزعة تحكمية ساعدتني بعض الشيء على فهم أحلامي الخاصة أكثر مما ساعدني ما كنت قائمة به من بحث. والحق، انني خلصت الى نتيجة مؤداها أنني كنت أقدر على تفسير أحلامي مما كان عليه المحلل الذي كنت استشيره. وفي ضوء ما أوضحته البحوث التجريبية للأحلام والتي تؤكد بأننا جميعاً نحلم بانتظام، لهذا رحت أتساءل ما اذا كان في المستطاع نقل هذه العملية خطوة أبعد الى امام وذلك عن طريق ما يتعلمه شخص ذكي بشكل مقبول استرجاع أحلامه، وكيفية تفسيره لها، واستعماله ما يرى من أحلام لمعرفته الذاتية الى حد بعيد دونما حاجة تدعوه في هذا الى خبير بها. ومن هنا ابتدأت دراساتي التي انتظمها هذا الكتاب.

ينقسم هذا الكتاب أقساماً أربعة. القسم الأول منها [مادة الأحلام] The Stuff of Dreams، يوفر عرضا عاماً لأكثر الجوانب المهمة للبحوث

التجريبية الحديثة الخاصة بالحلم، وهو جوانب أحسبها جوهرية في التوجه الشامل في تفسير الحلم. ففي الوقت الذي يكون فيه جزء من هذا العمل قد انتشر ابان السنوات المنصرمة على نطاق واسع وأن كثيراً من القراء هم بهذا على معرفة مسبقة قبل الآن ، فانني من جهتي قد وجدت من خبرتي الشخصية أن كثيراً من الخرافات القديمة المتعلقة بالأحلام ما زالت سائدة وقائمة وأنها في الواقع قد اقترنت بها أساطير أخرى جديدة. ولدى الناس ميل الى أن يلتقطوا من نتائج البحث الحديث عن الأحلام ما يناسب وجهات نظرهم وما يوافق أهواءهم الخاصة بشأنها، وأن ينسوا كل ما يتعارض ومواقفهم منها. وقد وجدت ايضاً أن كثيراً مما تجمع من تأملات مثيرة وتجارب مبكرة عن الأحلام ابان الخمسينات، كانت قد تم قبولها على أنها حقائق راسخة، علماً بأن البحوث التالية قد أخفقت في اثبات صدق التجارب المبكرة تلك.

أما الآن فأن الأدبيات التي تبحث في الأحلام هي من السعة والكثرة بحيث يتعذر علي أن أحيط بجوانبها كافة، ولهذا فانني اقترحت بعض الكتب والمراجع في نهاية الكتاب من أجل المطالعة الاضافية. والفصل الأول من هذا الكتاب يتناول خلفية عامة للموضوع ومن لديه معرفة وافية به يمكنهم تجاوزه. وتضم الفصول الأربعة التالية نتائج مادة علمية لم يسبق نشرها من قبل، متضمنة نتائج من بحثي التجريبي الخاص بالأحلام. وما توصلت اليه من نتائج قد تمخضت عنها خمسة أعوام من البحث أجريتها في جامعة لندن على حوالي مائة متطوع خضعوا لمعاناة طويلة كل تلك المدة، وهم الذين أرجو لهم أن ينالوا الآن العون الذي كانوا قد حرموا منه في أعوام اجراء التجارب. الفصل الثالث، وهو الفصل الخاص بنسيان الأحلام، هو وثيق الصلة تماماً بالتطبيق العملي للأحلام على فهم الذات. ويعرض الفصل الخامس استخلاصات تتعلق بطبيعة عملية الحلم. والخلاصات هذه، مضافة اليها حقائق عن الأحلام تم بحثها في القسم

الأول من هذا الكتـاب، انما ترتكز الى ما هو متوافر من معرفة حاضرة وهي خـاضـعـة للتنقـيح فـيما بعد في ضوء ما يستجد من نتائج علمية جديدة عن الموضوع.

يسـتـعـرض القسم الثاني النظريات والطرائق التي ينتهجها أربعة مشاهير من الرواد في مجال تفسير الأحـلام في ضـوء النتـائج التـجـريبـيـة الحـديثة. والاسـتـعـراض هذا ليس بالنظري المحض، انما هو يستمد مقوماته من واقع خبراتي الشـخـصـية كلها. فأنا مثلاً أصف عدداً من الأحداث مما عرض لي خـلال تـدريـبـي عـلى التـحليل وفق المنهج الفـرويدي، ومـا طرأ ابان هذا الـتـدريـب بـشـقـيـه الفـردي والجـمـعي، ومن ثم أوضح كـيف اضطرتني التـحكمـيـة الفـرويدية هذه الى هجـرها والتنكب عنها بعد مضي فترة ثلاث سنوات، واني كـذلك استـقي مما تجمع لدي من خبرة كونتها في غضون فترة قـصـيرة وفق منهـجـيـة كـارل يونج في التـحليل ومما أعـقب هذا من تدريب ومـران في العلاج على الطريقة الجشتالتية كما هي متبعة من جانب فريدريك بيرلز Perls، وهذه هي الطريقـة التي أركن اليـهـا الآن في اسلوبي التـحليلي في المجـالين الفـردي والجـمعي، وقد عكفت في الأعوام خمسة العشر الماضية على جمع أحـلامي الخـاصـة بي، التي رأيتـهـا في رحـاب بيـتي ومـضـيت في تفـسيرها وفق ما اقترحه كالفن هول Hall من اسلوب في كتابه الرائد: معنى الأحلام The Meaning of Dreams المنشور عام ١٩٥٣.

يعـرض القسـم الثالث ما اتبعته من منحى شامل ومبسط في كيفية الافادة من الأحـلام في البـيت، متـفـعـة في هذا من الطرائق الأربع كلهـا في ضوء المعـرفـة الحديثة وأنا أسمي هذا [الأوجه الثلاثة للحلم The Three Faces of Dreams] ، طالما أن الأحـلام، من وجـهـة نظري، ينبـغي النظر اليـها من جـوانب ثلاثة. فأمـا أن ننظرها من الخـارج، فهي في الغالب تضع في مجال انتبـاهنا أشـياء كنا قد اخفقنا في ملاحظتها في حياتنا الواعية، أولاً. وثانيا، بمـقـدورنا اسـتـخـدام الأحـلام كـمـرايا تعكس لنا اتجاهاتنا وانحيازاتنا. أو

ثـالـثـاً وأخـيراً، بأن ننظر الى دواخلنا فنعـامل الحلم بوصـفـه رسـالة وجـود تخص حـالـة عـالمنا الداخلي الخـاص بنا، فـيـصـبح بمـقـدورنا في الغـالب استكشـاف المصـدر الخـفي لما لدينا من مـشـاكل فنتمكن من استرداد تلك الجـوانب الدفـينة بعـيـداً من جـوانب شـخـصـياتنا. فما أن تصبح مثل هذه المعـرفـة متـاحـة بواسطة الأحـلام، حـتى يصير بوسعنا تغيير أنماط السلوك اللاعـقـلانيـة والمدمرة، تلك الأنماط التي قد تكون فيما مضى سبباً في افساد قـدرتـنا على تذوق طعم السعـادة والهناءة وتعطيل قـوانا في تحـقـيق مـا نريد تحـقـيـقـه من عـمل بناء في حـياتنا اليومية، وثمة اقتراح بعض الطرائق، بها نتمكن من التغلب على مصاعبنا واستنجاز مهامنا.

وأسـمـيـت الـقـسم الرابع (التطلع الى الأمـام) Looking Forward وقـد ضـمنتـه شـيئاً من آمـالي وتأملاتي عن امكانات واحتمالات المستقبل بشأن ما يكون للحلم من سطوة وقـوة في حياة الانسان. فالفصل الحادي عشر يتوفر على شرح أسـاليب توضح أن اسـتـخـدام الأحـلام مستقبلاً قد يغدو مظهراً مـتـعـاظماً ينتظم حـياتنا الذاتية في كل من المجتمع، وفي رحاب الأسرة، وفي أكناف المعـابد، وفي مجال التـعليم، بل حـتى في ميادين العمل والادارة، كما سيكون ذلك جليـاً كـذلك في كثير من ضروب علم النفس المهني الجديد. وانه لمن نافلة القـول أن نذكـر بأن الجنس البشري اليوم يقف على حافة كارثة مـا لم يتوازن لديه ما حققه من تقدم تكنولوجي مع شيء من النماء النفسي أو الروحي وبسرعـة. واني لمقـتنعة بأن قوة الحلم انما هي الطريق المعبد لمثل هذا النماء، وإني اذ أقـول هذا فـقد أبدو خيالية بعض الشيء، لكنني أحس بأنه من غير حماس ورؤى فلن يكون هناك مشروع جـديد يمكن أن ينتصب على أرض الواقع فـيكون شـاخـصـاً للعـيـان. وفي الفـصل الأخير، بحثت في ما توحي به بعض احـلامنا وتشير اليـه مما لدينا من طاقـات عقلية غريبة خافية فـتـصـبح متـاحة لنا إن نحن تعلمنا كيف نزيح عن طريقنا ما يعترضنا من عوائق انفعالية تفسد علينا حالياً حياتنا الاعتيادية.

أرى أن المحللين النفسانيين قد أضروا بنا اذ قرنوا تفسير الحلم بالمرض النفسي، وعندما أشاعوا فكرة مؤداها أن أي ضرب من ضروب العلاج الذاتي المنطوي على سبر الأغوار Probing depth انما هو أمر خطير. ولئن كان هناك أناس مضطربون حقاً ممن لا يستطيعون التغلب على متاعب الحياة دونما تلقي عون يسعفهم من لدن معالج خبير، فثمة كذلك ملايين من الناس الآخرين الأذكياء والذين هم أساساً من الأسوياء ممن تتوفر فيهم الكفاءة الكاملة تمكنهم من ارتياد أعماق أحلامهم بحثاً عن معرفة الذات بعمق. فأولئك الذين يجرون تجاربهم على قوة الأحلام فيجدون الموقف جد مزعج يلزمهم بطبيعة الحال أن يلتمسوا العون من لدن خبير محترف، ولكن ما توفر لي من خبرة جعلتني على قناعة، بأن قليلاً من الناس هم الذين يكونون من ضمن هذه الفئة. وحتى تلك القلة التي قد تقتضيها الحال الى مساعدة ما سيفيدون من مجرد تذكيرهم بحقيقة ما هم فيه، فكل حاجتهم اذن هي تبصيرهم بأمرهم. وأي امرىء تقلقه حقاً التجارب المقترحة في هذا الكتاب فانه في حقيقة الأمر لا يستثير [أغوال الأعماق (١)] ، وانما الصراعات المكتومة من قبل تحت سطح الوعي الشعوري هي التي يحتمل ان تنفجر في أية لحظة فتسبب الاضطراب المتوقع. واذا ما طغت هذه الصراعات على السطح وبانت خلال عملية تفسير الحلم تفسيراً ذاتياً، فانما تكون قابعة هناك ماثلة بسبب انهيار الشخص تحت وطأة ظروف أشد خطورة.

أعتقد أننا قد دخلنا الآن عصراً جديداً تكثر فيه الثقة بالنفس وتزداد المسؤولية الشخصية وأن ما كان يجري سابقاً من تكتم على ما في الحياة الداخلية للفرد قد هجر وتمت مجانبته وحل التساهل والارخاء لما كان مطلوباً من قبل من امتثال ظاهري. ان الحاجة في العصر الجديد هذا إنما

---

(١) أغوال وغيلان : جمع مفردها غول، وهي أفضل ما يقابل كلمة Monsters (المترجم).

تقتضينا البحث المقصود الموجه للتنقيب عن القوى الكامنة في خوافي الشخصية: القوى التي تشكل محددات سلوكنا الواعي، كما اننا بحاجة الى التواصل في استبصاراتنا من أجل التفاهم العام فيما بيننا، والموضوع الرئيسي لهذا الكتاب انما ينصب على أن معظم ما يعانيه الانسان اليوم من شقاء، انما ينشأ عن جهل بالنفس Self - ignorance أولا، وعن اخفاء ما في النفس Self - Concealment ثانياً. انه لهذا السبب قد كشفت عن كثير مما عرض لي من حياة داخلية وذلك بوصف مجازفاتي الشخصية، وما تمخضت عنه تجاربي عن الأحلام. وفي هذا أحسبني قد أتيت بشيء جديد. ثمة كتب كثيرة تم تأليفها ضمنها المعالجون النفسانيون وصفاً لأحلام مرضاهم وتواريخ حالاتهم، لكنهم أحجموا عن ذكر أحلامهم هم أو أنهم ذكروها تحت أسماء مستعارة. لعل هذا التكتم نابع من خوف يساورهم مؤداه أن الافصاح صراحة عن حياتهم الداخلية الشخصية الخاصة بهم تسلبهم سلطتهم بوصفهم معالجين وتقلل من شأنهم في نظر الآخرين. بيد انني لعلى يقين من أن الاعتماد على مثل هذه السلطة ليس في محله الصحيح في عالمنا اليوم. وأن الأمل ليحدوني الى أن محاولاتي في الافصاح عن مكنون النفس سيشجع آخرين غيري على أن ينهجوا نفس النهج من حيث الانفتاح والأمانة في اشراك غيرهم معهم فيما لديهم من خبرات تخص سطوة الحلم في حياة الانسان.

لعل الوقت جد متأخر بالنسبة لي الآن لكي أحل ما كان يكتنف الكريمرز، وبائع الحلوى، من إبهام وغموض. إن أصدقائي من المحللين النفسانيين والمعالجين النفسانيين والذين أفضيت اليهم بتلك الأحلام قد أغرقوني بوافر من اقتراحاتهم الثرة، ولكن ما من أحد منهم من استطاع ان يمس عندي مستوى الاحساس من حياتي العقلية. والطريق الوحيد المأمون لاختراق معنى الحلم والنفاذ الى اغواره انما هو أمر متروك للحالم نفسه والمسألة في يده وذلك بأن يجوب ارجاء حلمه بأسرع ما يستطيع بعد خبرته

في رؤيـاه لـلـحـلـم. وكلما تقـدم الآباء والمعلمـون في تعلم فن سطوة الحلم وقـواه في حـيـاتهـم الخـاصـة، فـسـيكون بمـقـدورهم الأخـذ بأيدي أبنائهم ليـتـفـهـمـوا ما يجلو لهم الألغاز التي تحصل لهم خلال النوم في الليل، ولعلي أستـطـيع الاعـراب عما أؤمله لهذا الكتـاب في أن يؤدي دوراً ولو جـزئيـاً في تمكين الجـيل القـادم من أن ينمـو في عالم أضحى فيه هذا البعد الاضافي من أبعـاد خبرة الجنس البشري أمـراً مـقـبـولاً كـحق من حقوق كل واحد منهم اكتسبه بحكم ولادته.

آن فاراداي

القسم الأول

مادة الأحلام

الفصل الأول

الحالة الثالثة للوجود

كان عام ١٩٥٣ عـامـاً حـاسمـاً بالنسبة لكثير من الأوهام والخرافات التي كـانت عـالقـة في الأذهان فترة طويلة عن الأحلام. فحتى هذا الوقت، كان الاعـتـقـاد السـائد عـامـة إن الحلم ما هو الا خبرة عشوائية، عابرة، وآنية، يعتمد في حدوثه على منبهات Stimuli مـثل سوء الهضم، واحتقان المثانة، والـقـلـق، أو صرير الأبـواب عـنـدمـا تـتـحـرك والشـخص نائم. وان نومـاً عـمـيـقـاً، خـاليـاً من الأحلام، يبدؤه المرء قبل منتصف الليل، كان وصفة شـائعـة لجلب الصـحـة والسـعـادة، وصـفـة اعـتـقد بها حتى أولئك الذين يفـتكرون أن الأحـلام يمكن أن تنطوي على معنى سيكولوجي أو يرجح أن يكون لها جـانب تنبـؤي. وان الأدبيـات العلمـيـة المتـعلقـة بهذا الموضوع ما اشـتـملت على مـا يناقض آراء كهذه، وما كان في الامكان ايضاً القاء الضوء على الظاهرة الملغـزة التي تقـول لماذا يستذكر بعض الناس أحلاماً يرونها كل ليلة تقريباً، بينما ينكر آخرون كل معرفة بمثل هذه الخبرة.

ان الاكـتـشـاف الذي حـدد نقطة التحول في تاريخ البحث في الأحلام، وأحل الحقيقة محل الأوهام، انما حدث في قسم الفسلجة Department of Physiology بجـامـعـة شـيكاغـو، وشأنه شأن كثير من الاكتشافات العلمـيـة، فـقـد تم بمـحض الصـدفة. اذ كان البروفيسور نثانييل كالايتمان Nathaniel Kleitman، الخـبير المعـروف عـالميـاً في ابحاثه عن النوم، يجـري سـلـسلة من التـجـارب على نوم الأطفـال، عندمـا اخبره أحـد طلابه واسمه يوجين اسرينسكي Eugene Aserinsky، انه لاحظ أحـد عيني أحـد الأطفـال كـانت تتـحـرك وهو نائم حركة سريعة وترتجف رجفاناً تحت الأجـفـان المغلقة المغمضة لمدد قصيرة. نقل الطالب حدث المشاهدة تلك الى

كـاليـتمان، وقـد عـزم كـلاهما على توسيـع مـدى دراسـتهما وتطبيقها على نوم الكبـار للكشف عما اذا كـانت مـثل تلك الحـركات السريعة في العين يمكن رصـدها ومـلاحظتـهـا أم لا، واذا كـان الأمـر كـذلك، فما عـسى أن يكون مـغزاها وماذا تعني.

وفي الوقت الذي تكون فـيـه ملاحظة حركات العين خلال النوم ملاحظة مـبـاشرة أمـراً ممـكـناً وذلك بالوقـوف جنب النائم ورصـد حـدقـتي العـينين تتـحـركـان تحت الأجـفان المغمضة، فان مثل هذا العمل يكون مضنياً إن لم يكن مـسـتـحـيـلاً يتـعذر على المجرب أن ينهض به لأية فترة زمنية مهما كان طولها. لهذا فـان اسرينسكي وكـلايتمان قـد حـسنا طريقـة مـراقـبة حركات الـعـيـنـين عـنـد الأشـخـاص الـنـائمـين بـواسـطـة الـتـخـطـيط الكـهـربائي للمخ. Electro Encephalogramh ، وتعـرف الطريقة هذه عامة بآلة، وماكنة EEG. وهذه وسـيلة تسـتـخـدم لتـقـوم بتسجيل النشاط الكهربائي للدمـاغ بواسطة لواحب، وهي أقـراص صـغيرة يتم تثـبـيـتها على فروة رأس الشخص، فتنقل هذه اللواحب إشارات من المخ الى آلة EEG، التي تكبر تلك الاشـارات بمـقـدار مليـون مرة بحيث تترجم الى نمط تسهل على عين الانسـان قـراءته. يتم تسجيل ذلك على رقاق من الورق يعرف باسم شريط التسجيل ، ونسميه EEG اخـتـصـاراً وهو يمـثل صـورة لتـمـوجـات مخ الانسـان. وبطريقة مماثلة، فان اللواحب المثبتة حول العينين تتبع وتسجل ما يحصل من نشاط كهربائي عندما تتحرك العينان، وبهذا يحصل تسجيل ويتم لحـركـات العـينين - وهذه الحركات يسميها الباحثون : التسجيل الكهربائي لحركات العينين Electro - Eculogram . ويرمـزون لها اخـتـصـاراً بالحروف EOG.

لقـد أحـدث الرواد في جـامـعـة شيكاغـو اختراقاً في قلاع المعرفة، ليس بمـراقـبـتـهم حـركات العين التي تتزامن مع تموجات المخ فحسب، بل هم كـذلك قـامـوا بتسجيلات ليلية مطولة لحركات كل من المخ والعينين، وهذه

عـملية مـا حـاولها أحـد قبلهم. فقد رصدوا أربعة أنواع واضحة متميزة من أنواع تموجات الدمـاغ تـتخلل فترة النوم كلهـا، وتعـرف الآن باسم المراحل Stages ١، ٢، ٣، ٤، لحركات وتموجات الدماغ، المرحلة (١) تعد أخف مـراحل النوم ذلك لأنها وثيـقة الصلة بنوع التسجيل الذي يتم الحصول عليه حين يكون الانسـان في حـالة يقظة، في الوقت الذي تعـتبر فـيه المرحلة رقم (٤) أعـمق مـراحل النوم اذ أن مـا يتم الحـصول عليه من تسجيل له يكون تماماً مماثلاً لحالة السبات أو الغيبوبة Coma.

فـحـتى هذا الوقت، كـان الافتراض السـائد من قـبل أن النوم انما يتألف من انتـقـال تدريجي من حـالة اليـقظة الى حـالة النعـاس، مـتبوعاً بزيادة في العمق المتأتي من المرحلة (١) وانتهاء بالمرحلة (٤) ومـن ثم عـودة ثانيـة تدريجية الى المرحلة (١) فـاليـقـظة في نهاية فترة النوم. ومن خـلال اجـراء تسـجـيـلات مطولة تمتـد على مدى الليل كله. فان اسرينسكي وكلايتمان قد قـدمـا اكـتـشـافاً ملفتاً للنظر ويستأثر بالاهتمام، اذ تبين انه خلال فترة النوم الاعتيادي الذي يمتد لمدة سبع أو ثماني ساعات، كانت هناك أربع أو خمس فترات تحـصل فيها العودة من مراحل النوم العميق الى المرحلة (١) متناوبة مـستغرقة حوالي تسعين دقيقة على وجه التقريب. ففترات نوم المرحلة (١)، ويمضي هناك حـوالي خمس دقـائق تقريباً، قبل أن يستطرد في تقدمه معجلاً ماراً بالمراحل [٢، ٣، ٤] حـيث يبلغ أعـمق حالات النوم. ولعله يمكـث في حالة نومه العميق ذاك في المرحلة (٤) حـوالي نصف سـاعة قبل استئناف رحلتـه صاعداً ثانية ماراً بالمراحل [٣، ٢] عـائداً الى الـفترة الأولى من فترات صـعوده الأول والذي ابتدأه من المرحلة (١) عـنـدمـا أخلد الى النوم أول الأمـر. وهو عـادة لا يلبث عند هذه المرحلة أكـثـر من دقـائق قـلائل قـبل العـودة تارة أخـرى نازلاً الى حالة النوم الأعمق.

والنائم في الدورة الثانية Second Cycle هذه قد لا يبلغ المرحلة (٤) حـتى - ولئن هو بلغها، فانه سيمضي هنا مدة في هذه المرة أقل مما استغرقها

خـلال الدورة الأولى. ثم يعود كرة أخرى صاعداً الى المرحلة (١)، ولعله في هـذه المـرة يمضي حـوالي عشرين دقـيـقـة أو مـا يقـرب من ذلك، قـبل استئنـاف الهبـوط ثانيـة الى نوم أعـمق. وهذه الدورة من الهبـوط والصـعـود تتكرر طوال الليل مـتـخـذة شكل دورات مـتناوبة مـسـتـغرقة حوالي تسعين دقـيقة على وجه التقريب. ففترات نوم المرحلة (١) تـكـون أطول فأطول بصـورة استطرادية، وفترات نوم المرحلتين (٣،٤) تتـقاصر أكثر فأكثر كلما إقترب الصـبـاح. والحـقـيـقة هي أن الانسان عندما يشارف على الانتهاء من فترة النوم يكون قـد أمـضى معظم الوقت من نومه في المرحلتين (١،٢).

يجب التأكـيـد هنا على أن الذي مـر آنفـاً هو صـورة مـثالية لدورة النوم. ذلك أن الأنماط الحـقـيـقـيـة للنوم تتفاوت نوعاً ما من فرد الى آخر، بل هي تختلف بالنسبة للشخص الواحد من ليلة الى أخرى. لكن الحقيقة التي تبقى مـاثلة تلك هي أن الطبيعة الدورية للنوم عامة لم تختف اذا ما برحت وبقيت تظهـر عند آلاف الأشـخـاص الذين أسـهـمـوا في التطوع لاجـراء التـجارب الخـاصـة بالنوم عليـهم في جميع انحـاء العـالم خلال العقدين المنصرمين. من هذا يبـدو ثمـة مكنيـة ذاتيـة عند الفـرد تعـتـمد على ايقاع بايولوجي من نوع معين داخل الجسم.

ان دورة النوم هذه لا تتأثر بوقت رقـادنا عندمـا نأوي الى الفراش، اذا ما بقي وقت رقـادنا هذا قليـلاً أو كـثيراً مـوصـولاً من الليل الى الليل. فـاذا ما أوينا الى فـراشنا في ليلة مـعـينة متأخرين أكثر مما هو معتاد فان فترة المرحلة الأولى (١) تبـدأ أسرع مما هي عليه في الحالات الاعتيادية لدى النوم المبكر. لهذا، فـسـواء علينا إتبـعنا النصـائح الصحية وأوينا الى فراشنا قبل منتصف الليل، أم مكثنا سـاهرين ولعـدة سـاعـات عن النوم مـتـأخـرين، فـان دورة النوم تتبع نمطهـا العـتـيد الرتيب، وفي كل مدة فان نومنا العميق يتم تقريباً خـلال السـاعـات القـلائل الأولى، ومـعظم نومنا الخـفـيف يتم لدى اقتراب الصباح. لعل الشعار [التبكير في النوم صحة ونعمة]، خير نصيحة طبية لنا

لأسبـاب كـثيرة، لكننا في واقع الأمـر لا نسـتطيع زيادة حـصـتنا من النوم الاعـتـيادي العميق بمجرد امتثالنا الى هذا الشعار وطاعتنا اياه. فخلال ليلة نمضي فـيـهـا مثلاً سبع أو ثماني ساعات في نوم متواصل، فاننا نمضي حوالي ١٢٪ من وقت نومنا هذا في مـرحلة النوم (٤)، ونستغرق تقريباً ٢٥٪ من نـومنا هذا في المرحلة رقم (١).

لم تكن الطبـيـعـة الدورية للنوم الاكـتـشـاف الدرامي الوحيد الذي حققه رواد جـامـعة شيكاغو. اذ تبينوا عندما كانوا يلاحظون تسجيل حركة العين، ان المراحل (٢، ٣، ٤) كـانت تصحبها حركات بطيئة في العين أو أنها تصل الى حد سكون العين تماما، في حين ان فترات ابتداء المرحلة (١) كانت بلا اسـتـثـنـاء تـقـريبـا تقترن بحـركـات سريعـة وارتجاف في العين ويكون هذا الارتجـاف على شكل اهتـزازات تظهـر على صـورة حـزم او تكتلات. يتم كل هذا في حالة الصعود من المرحلة (١) وهذه الظاهرة لا يبـدو لها أثر في حالة الانحدار من المرحلة (١) نفـسها عند بدء النوم. كما لاحظ الباحثون كذلك ان حركات العين السريعة هذه ـ أو REM اخـتصاراً كانت تحصل في كلتا العـينين في وقت واحـد مـتزامن، بمعنى آخر، ان كلتا العينين كانت تتحرك في نفس الاتجـاه وكأن النائم في حـالة يقظة يتـابع مسرحـيـة باسـتـعمال كلتـا عـينيـه، وهذه الحـالة هي على النقيض من الحركات البطيئة للعين عندما لا تكون حركة العين سريعة ـ لا ـ س ـ ح ـ ع NREM اخـتـصاراً ـ في فترات المراحل (٢، ٣، ٤) وهي الفترات التي لا تكون فـيها حركات العينين مـتـسـاوقـة ولا يسـودها انسـجـام. وانها يجب أن تكون لعبة مثيرة حقاً تلك التي اسـتأثرت بانتبـاه البـاحثين فاستوقفتهم وهم يلاحظون ذلك الشيء من نقـرات قلم التسـجيل الشديدة تضرب بعنف فوق رقاق الورق خلال فترات الحركات السريعة للعين في المرحلة (١) من النوم.

تمت كذلك، خلال فترات الحركات السريعة للعين REM ، ملاحظة نشـاط مـثـلاً قد أظهر عدم انتظام واضطراب متعاظم في النبض وزيادة غير

طبيعية في معدلات التعرق، وارتفاع في ضغط الدم، كان هناك كذلك ارتفاع متزايد في كمية الأوكسجين التي يستهلكها الدماغ ، وكان يظهر عند الذكور انتعاض كلي او جزئي. ومعظم العضلات أصبحت مترهلة وفقدت قدرتها على الانعكاسات وأن امكن ملاحظة بعض حركاتها الصغيرة كالاختلاج او الالتواء أو التكشير.

كذلك لاحظ الباحثون بمزيد من الدهش والانبهار، انه في الوقت الذي يزداد فيه بوجه عام الحركات الجسمية الكبرى كالتقلب في الفراش أو التمدد، مباشرة قبل بدء س ـ ح ـ غ REM وبعدها فوراً، فان الحركات الكبرى تلك تتناقص حتى تكاد تبلغ حد السكون التام خلال الفترات التي ترتفع فيها الاستثارة المخية البصرية المستقلة.

شبه أحد الباحثين النائم، وهو على وشك الدخول في فترة الحركة السريعة للعين REM، شبهه بالمشاهد في المسرح. فالمشاهد، قبل رفع الستارة، يتحرك ويتململ في مكانه. وما ان ترتفع الستارة تماماً حتى يهدأ ويشتد انتباهه. المسرحية تبدأ فيروح يتابع المشهد بعينيه: فيندهش ويستثار ـ عندما تتوضح الحبكة ألنفسية في المسرحية، فيزداد تنفسه ويسرع، وتتسارع ضربات قلبه. وكلما استمرت المسرحية، فانه تماماً ينغمس فيها، فلا يتحرك ولا يتكلم [ولنذكر هنا أن المشي أثناء النوم والكلام خلال الأحلام، انما يتمان عادة في المرحلة (٢) من النوم]. وعندما تسدل الستارة، فانه يتحرك ويتمدد ، ويستعيد وضعه الجسمي الأول. بالنسبة للباحثين القدامى، لاح التشبيه لهم انه جيد جداً وأنه تقريباً صحيح: النائم بمقدوره حقاً ان يراقب مسرحية خلال فترات نومه وهو في حالة (س ـ ح ـ ع MER) لكنها مسرحية من صنعه هو فيكون فيها هو نفسه المدير، والمخرج، ومدير المسرح المنفذ، والممثل الرئيسي وهو المشاهد، انه هو كل شيء طيلة الوقت. لا بد انه، كما يبدو، كان يحلم.

والفرضية كانت قد تم اختبارها بالطريقة الوحيدة الممكنة، وهي ايقاظ

النائمين خلال فترات REM والاستـفسار عما اذا كانوا يحلمون أم لا. وقد نشرت النتائج التاريخية في مجلة علوم Science عام ١٩٥٣ وقـد تبين ان ٨٠٪ من الحالمين عندما تم ايقاظهم وهم في فترات (س ـ ح ـ ع REM) قـد استرجـعوا أحلاماً واضحة ومفصلة ، يقابل ذلك فقط ٧٪ ممن ذكـروا مـثـل ذلـك عـندمـا أوقظوا من فترات النوم وهم في حـالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM . وكـانت الدهشـة كبرى ومـا أعظمـهـا، اذ حتى ذلك الوقت لم تكن هناك على وجـه الاطلاق طريقـة يهتـدى بها للتـعـرف بدقة عن الوقت الذي يكون فـيـه الشخص النائم انه في حالة حلم، وكان ذلك أحد العوائق الـتي أدت بالبـحث العلمي عن الأحـلام الى طريق مـسـدود يومـذاك. أمـا الآن، فبواسطة EOG و EEG ومـا يتم فيها من تسجيل لنوم الأشخاص، فـقد أصبح في المستطاع أول مرة في تاريخ العلم الاجابة على وجه اليقين عن أسئلـة تـثـار حـول عـدد المـرات التي نحلم فـيـهـا، وعن طول الفترة التي يسـتـغـرقـهـا الحلم، وعما اذا كان حقا هناك أناس لا يحلمون البتة، وأسئلة أخـرى غـيرهـا عـن آلاف المـسـائل المثـيرة عن الأحـلام التي حيرت الجنس الانساني عبر العصور.

الحالة (ح)[1] The D - State

منذ أول تجـربة له أجراها كاليتمان، أكدت بوضوح نتائج دراسات أخرى مـسـتقلة قام بها باحثون آخرون، ما كان قد توصل اليه بأن فترة (س ـ ح ـ ع REM) انما هـي الـوقت الذي يكون الايقـاظ خـلاله كـفـيـلاً باثارة مـا اصطلحنا عليـه تسـمـيـتـه حلماً. وانه لهذا اصبـح يشـار في الغـالب الى فترة REM بأنها حالة البعد الثالث أو (ح) (١) (D - State). بل أن كـثيراً

(١) الحرف (ح) هنا يراد به حالة الحلم (المترجم)

من الباحثين يذهبون الى أبعد من هذا فيدعونها [الحالة الثالثة للوجود( )]The Third State of Exsistence، وهي حالة تختلف في كثير من الوجوه عن حالة النوم الاعتيادي S - State ، كما هي تختلف كذلك عن حالة اليقظة.

ويدعى النوم، حينما يكون من نوع REM، نوماً ذا خصائص متناقضة، وذلك لجملة من الأسباب . ففي المقام الأول، يبدو أنه نوم في حالة استرخاء تام بقدر ما يتعلق الأمر بالشد العضلي وحركة العضلات نفسها، ومع هذا فهو نوم جم النشاط في نواح أخرى عديدة، ثانياً، وفي الوقت الذي يكون فيه EEG لهذا النوع من النوم نوماً من الضرب الخفيف، المماثل أو الشبيه بحالة اليقظة، فان النائمين وهم في مرحلة النوم (١) لا توقظهم بسهولة منبهات مثل الضوضاء ، أو اللمس ، كما توقظهم فيما لو كانوا في مختلف حالات النوم الأخرى، باستثناء أعمق حالات النوم العميق (٤) عند مرحلة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM . لذا فان عتبة اليقظة العالية خلال حالة النوم في مرحلة REM ، تشير، في أحد جوانبها في الأقل، الى أنها حالة من حالات النوم العميق. وبهذا يشار الى أن النائم وهو في حالة نومه من نوع REM انما يكون مستغرقاً في حلمه بحيث أن أغلب المنبهات لا بد منها لكي توقظه من نومه العميق ذاك.

وعلى النقيض مما ذكرنا سابقاً، فان النوم NREM، يشار اليه في بعض الأحيان انه نوم قويم أو سليم. وفي وقت لا تكون حالات الاستيقاظ منه مصحوبة في العادة بنتائج عن احلام جلية واضحة ومفصلة، فأن الذهن بعيد عن أن يكون خالياً من حقائق الأحلام في هذه الأوقات. ومهما يجدر ذكره هو أن الحلم في حالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM يجنح الى أن يكون أقصر، أقل وضوحاً في الصورة، وأدنى شفافية مما تكون عليه الأحلام التي تحدث خلال فترات النوم عندما يكون الموقف هو س ـ ح ـ ع REM، وان الأشخاص يحسون في تلك الحالة انهم انما كانوا يفكرون بدلاً من أنهم

يحلمـون. لهذا السـبب فـان كـثيراً من البـاحـثين يشيرون الى المحتوى العقلي المتأتي من فترات NREM بأنه (تفكير) Thinking ليـمـيزوه عن الحلم الحقيقي الصادر عن فترات النوم في حالة REM. هذه ، على أية حـال، نقطة فـيـهـا وجـهـة نظر وقابلة للنقاش، وان هناك أولئك الذين يذهبون في الرأي الى أن أي نشـاط عـقلي يذكـر بعـد الاسـتـيقاظ من النوم يستحق ان نسـميـه بعـلامـة [عـملية حلم]. هذا الموضوع هو ما سنبحثه بالتفصيل في الفصل التالي.

ولئن كـان النشـاط الظاهري للنائم ينطوي على مـا يشير الى حقيقة خبرته الداخلية، فان هذا الاكتشاف ـ وهو ان محتوى لا ـ س ـ ح ـ ع NREM في العـادة أقل وضـوحـاً من حـيث طبـيـعـتـه من محـتـوى لا ـ س ـ ح ـ ع NREM لا يكون مـقترناً بحـركـات العين الموجـهة السريعة التي تصاحب عادة عملية الحلم في حالة س ـ ح ـ ع REM. لذا فان الباحثين في جامعة شـيكاغـو كـانوا مندهشين أشـد الدهشـة لما شاهدوه من نشاط ظاهر يتخلل فترة ـ س ـ ح ـ ع REM مما جـعلهم يتساءلون عما اذا كان النائم يتتبع في الواقع بعـينيـه مـا يرى من صـور يراها في حلمه أم انه يرى احداثاً في ذلك الحلم الذي هو فـيـه. وقد اتضح ان بعض التجارب التي أجريت تعزز هذه الفـرضـية، لكن المتفق عليه عامة الآن هو ان ليس ثمة ترابط تام بين عمل او نشـاط الحلم وحركة العين، وان كانت القرائن الخاصة بالطبيعة العامة لما نرى من أحـلام، يمكن توكـيدها في الغالب بالرجوع الى تسجيل س ـ ح ـ ع REM، ولنضرب مـثـلاً: لئن كـانت حـركـات العين صـغيرة ومـتقطعة مجزّأة، فـالاحتمال كبير أننا في حالة حلم هادىء مطمئن ولسنا في حلم سلبي مزعج ، بينما الحركات الكبيرة المستمرة في س ـ ح ـ ع REM تكون لها دلالة على أننا حـالمون حلماً ناشطاً مـفـعماً بالانفعال . ـ (وقد دلت البحوث الحـديثـة على أن الحـركة في الأذن الداخلية والتي تحصل خلال النوم المظنون عامة انها ترتبط بالمحتوى السمعي في حالة عملية الأحلام).

يبدو ان النوم في حالة REM انما هو من حيث الأساس عملية بيولوجية، انه نشاط حيوي وهو جزء من نمط شامل ينتظم وظيفة الجسم، يحصل خلال فترات منتظمة عند النوم، بل ان الحالات هذه قد وجدت عند الأطفال الحديثي الولادة، وكذلك عند من يولد أعمى منذ الولادة، وان كانت تتناقض عند هؤلاء الآخرين كلما اضطردوا بالنمو. ومما هو متفق عليه بين الباحثين في الأحلام بوجه عام هو أن الخبرة الذاتية المستمدة من الحلم تهيمن بشكل أو بآخر على العملية البيولوجية الأساسية هذه.

خرافات شائعة حول الأحلام

كثير من الناس مقتنعون بأنهم لا يرون أحلاماً ملونة، لكن البحوث الحديثة استطاعت أن تبرهن على خطأ ظنهم هذا. ذلك أن التجارب قد أوضحت انه اذا ما تم استنطاق الأشخاص مباشرة بعد إيقاظهم مما هم فيه من حلم في حالة س ـ ح ـ ع REM واستيضاحهم عن لون الحلم . فان ٨٠٪ منهم قد ذكروا أنهم رأوا، في مناسبات أحلامهم تلك، احلاماً ملونة. فقد أفادوا أن الأشجار خضراء، والسماء ملبدة بالغيوم دكناء، والباب الخارجية زرقاء ـ فأحلامهم تلك كانت ملونة تماماً مثلما هي الخبرة في مجرى الحياة اليومية. على ان اللون في الأحلام يتم نسيانه بسرعة ما لم يطرأ ما يستأثر بانتباهنا بشكل خاص، ولذا فما لم يحدث استجوابنا عن اللون في الحلم بعد الايقاظ أو اليقظة مباشرة فمن المرجح أن ينسى. ولقد تم الحصول على نتائج مماثلة من أكثر أحلام NREM وضوحاً.

واحدى الحقائق المثيرة المدهشة التي تم الكشف عنها نتيجة لما أجري من دراسات مبكرة هي القدر الهائل من الأحلام التي تحصل لدى كل واحد منا في كل ليلة في حالة النوم الاعتيادي. فالشخص الكبير الاعتيادي يكون معدل ما يحصل لديه من أحلام ثلاث فترات REM في الأقل كل ليلة بل

ربما يكون أكثر من هذا، مما يدل على أنه يحدث لديه ما يقدر بحوالي ألف حلم على مدار العام الواحد مستثناة من هذا العدد جميع الأحلام التي تطرأ في حالة نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM ولا يسترجع من هذا العدد ولا يستذكر الا جزء يسير جداً. وان نسيان الأحلام كان دائما ولا يزال لغزاً كبيراً بالنسبة للانسان، ولكن، ولأول مرة في تاريخ هذا العلم، قد توصلنا الى الجواب وسيأتي ذكره في الفصل الثالث، ويكفي ان نؤكد هنا على ان الناس الذين لا يتذكرون الأحلام قط أو قلما يستذكرونها تحت الظروف الاعتيادية، بمقدورهم أن يفعلوا ذلك فيتمكنوا من تذكرها بقسط أوفر وبنسبة عالية في كثير من المناسبات عندما يجري ايقاظهم مباشرة من نومهم وهم في حالة فترات ـ س ـ ح ـ ع REM في المختبر.

واكبت فكرة : اني لا أحلم أبداً أو البتة، فكرة أخرى اشتملت على أساطير كثيرة شاعت حول عملية الأحلام، وقد تفجرت الأساطير هذه في ضوء ما جد من بحوث جديدة. فما زال هناك مثلاً اعتقاد واسع الانتشار يذهب الى أن الأحلام تحدث على شكل ومضة خاطفة. هذه الفكرة مرتبطة بحلم المقصلة الشهير لرجل فرنسي، يدعى الفريد مورييه، وكان ذلك في التسعينات من القرن التاسع عشر. رأى مورييه في حلمه ذاك انه قد جيء به ليمثل امام هيئة الحكام أيام الثورة الفرنسية، ورأى انه كان يستجوبه روبسبير وحكم عليه بالموت، فأقتيد خلال الشوارع الى منصة الموت. وهناك وضع رأسه على العارضة فهوت عليه السكين. فأحس أن رأسه انفصل عن جسمه فاستيقظ مرعوباً وقد تولاه قلق شديد، وما أشد دهشته اذ وجد حافة السرير من جهة الرأس كانت قد سقطت فأصابت قاعدة رقبته. وكان تعليل مورييه لما حدث هو أن الضربة هي التي سببت الحلم وان صورة الحلم كلها قد ضغطت في حدود فترة جد وجيزة امتدت فقط بين أول ادراك حسي للمنبه وبين حالة الاستيقاظ بفعل وطأة الفزع.

فهذا التعليل بارع كما يبدو وكما هو، بيد أن الشواهد الحديثة تلقي

ظلالاً من الشك على جوهر خلاصته، نظراً الى أن القياسات المتكررة تبين في العادة علاقة وطيدة بين طول رواية الحلم وبين طول فترة REM قبيل يقظة الحالم. وحين يصف الحلم أحياناً نشاطاً بسيطاً كلعبة التنس مثلاً، فاننا نجد ثمة علاقة مباشرة بين ما استغرقته اللعبة من وقت وبين فترة س - ح - ع REM وما اقتضته من زمن. وفي مناسبات أخرى، قد تبدو قصة الحلم انها تستغرق ساعات، أو أيام، بل سنوات، ولكن هنا ايضاً يبدو أن ثمة ترابطاً قائماً بين ما تستغرقه فترة س - ح - ع REM من وقت وبين ما يداخل الحالم من وقت مقتضى للحلم، حين يستيقظ فيتصور النشاط كله كأنه سيناريو فلم من الأفلام. وهناك ما هو قليل من الشواهد التي تشير الى أن أحلاماً موجزة تحدث بمقدار نصف الثانية كما هي الحال في حالة ما رواه مورييه من حلم. ويرى بعض الباحثين المحدثين ان خبرة مورييه المرتبطة بالمقصلة ليست حلماً حقيقياً قط، بل هو وهم أو تصور استقر في أعماق عقله حتى طفا ثانية على اشباح وعيه الشعوري على شكل ومضة واحدة كاشفة سببتها وأحدثتها الضربة التي أصابت عنقه فنبهته بقوة [وهذه فكرة قد أوردها ايضاً فرويد عام ١٩٠٠].

وأيا كان التفسير، فمما لا شك فيه أن مورييه كان على خطأ حين ظن أن الضربة هي التي أحدثت الحلم. ذلك لان الشواهد كلها تشير الى أن الحلم عند الكبار الأسوياء يبدأ بصورة اوتوماتيكية عندما تبدأ فترة الحركة السريعة في العين س - ح - ع REM' وينتهي بانتهائها. وأن المنبهات الخارجية، شأنها شأن صرير الباب الذي يضرب به المثل أحياناً، يمكنها أن تجد لها طريقاً فتتسرب الى الحلم وهو جار فتمتزج به وتكون جزء منه ومن قصته، لكنها ليست بأية حال مسؤولة عن حدوثه أو إحداثه. والمنبهات الخارجية هذه تتحد بالحلم الحاصل في حالة حركة العين السريعة REM في حالاتتقارب تقريباً النصف من جميع المناسبات التي تحدث فيها تلك الأحلام.

والمثل الآتي، وهو مأخوذ من دراساتي الخاصة بالأحلام، أسوقه للتمثل به كنموذج للطريقة التي يتوحد فيها المنبه مع الحلم فيصبح جزءاً منه. ثلاثون ثانية مضت قبل أن تستيقظ المرأة من فترة حلم حركة العين السريعة REM، حيث كنت أسكب ماء بارداً على يدها التي كانت ممتدة فوق ملاية سرير النوم. وعندما استيقظت وسألتها عما كانت تمر عليه بعقلها قبيل الايقاظ، ذكرت الآتي:

كنت لتوي قد قفزت لأدخل عربة قطار كان قد تحرك، فأحسست بالراحة تملأني اذ تمكنت من الصعود اليه قبيل أن يفوتني. فما أن أخذت مكاني واشعلت سيجارة حتى شعرت بماء على يدي. التفت الى مصدره فرأيت مطراً يأتيني عبر النافذة المفتوحة. نهضت من مكاني لأغلق النافذة، فسمعت باب العربة ينفتح من الطرف الآخر؛ دخل منها رجل بزي طباخ جاء فجلس. تظاهر أنه يقرأ في صحيفة كانت بيده، بيد أني شعرت انه كان يختلس النظر الي بزاوية عينه من أحد طرفي الصحيفة. غمغمت بشيء يخص الطقس لاستدراجه الى الكلام وطرد الوحشة عن نفسي؛ لكنه لم يجب. تولاني الذعر فشققت طريقي نحو الباب. لبثت هناك أراوح. بين الجلوس والوقوف، وأنا أحاول الخروج. عندما أيقظتني أنت.

المنبهات المستعملة خلال فترات النوم عندما تكون العينان في حالة لا - س - ح - ع NREM ، يمكن احياناً أن تتداخل مع النشاط العقلي الجاري. فأحد الأشخاص الخاضعين لتجاربي لم ينتبه، مثلاً، الى جرس التنبيه ولم يستيقظ من نومه خلال فترة النوم التي كان فيها في حالة NREM، لهذا دقت الجرس ثانية. فاستيقظ من حلمه وقد ذكر، [كنت قلقاً حول امتحاناتي، اذ لم أكن مهيئاً نفسي لها، وكنت لا أدري ما اذا كان باستطاعتي أداءها واجتيازها، حين رن جرس التلفون. ظننته أن الدكتور س كان يريدني أن اسلمه ما طلب مني من مقالة، فعزمت على ألا أجيبه فلم أرد على التلفون. اني لمسرور أنك قد أيقظتني].

ما تم التوصل اليه من نتائج جديدة قد نسفت كذلك اسطورة كانت شائعة حول الأحلام مفادها أن تناول الأجبان والمخللات في ساعة متأخرة من الليل تزيد من مقدار حصتنا في الحلم. فكما هي الحال في حالات المرض والقلق، فان سوء الهضم يمكن أن ينغص علينا راحتنا فيجعلنا نستيقظ مراراً خلال الليل على نحو أكثر من المألوف، مما يترتب عليه أننا نرى أحلاماً أوفر من المعتاد. ومما يبدو لنا وكأننا في حالت حلم مستمر طول الليل فان ذلك في الواقع لا يعدو كونه زيادة في استرجاع الحلم واستذكاره، وفي الحق، انه خلال الليالي التي لا نكون فيها مرتاحين أو عندما نكون مضطربين فان الحركات السريعة للعين س ـ ح ـ ع REM ـ يمكن ان تنقص هذه من عدم انتظام ومما يعتريها من تعويق، وهي لا تستأنف طبيعتها ثانية في العادة بمجرد محاولتنا معاودة النوم مرة أخرى.

إن النتيجة الأخيرة هذه قد أدت بالقائمين بالبحث الى التأمل في العواقب المحتملة في حالة حرمان الأشخاص تماماً من النوم الذي يكون من نوع س ـ ح ـ ع MER . فهم يرون أن هذه الحالة الغريبة من (النوم المتقطع) ، والتي تستمر متواصلة ليلة بعد أخرى منذ الولادة وما بعدها، فمن المؤكد أن لها وظيفة فريدة لها ضرورة كبرى لازمة للصحة ولوجود الانسان ودوام كينونته على خير وجه. لذا، فعلى الرغم مما تشتمل عليه المسألة من مشكلات أخلاقية جسيمة وما تنطوي عليه من بعض المحاذير، فقد أجريت سلسلة من التجارب المذهلة تناولت الحرمان من النوم في حالة س ـ ح ـ ع MER، شملت كلا من الانسان والحيوان، فتمخضت عن نتائج رائعة.

وظيفة النوم في حالة س - ح - ع REM

أولى التجارب الشهيرة التي أجريت على الحرمان من الأحلام

DREAM DEPRIVATION ، كما سميت في أيامها المكررة تلك، كانت قد تمت في مستشفى ماونت سينال Mount Sinal بنيويورك عام ١٩٦٠، أجراها الدكتور وليم ديمنت W. Dement ، الذي سبق له أن أسهم في البحوث الرائدة عن الأحلام في جامعة شيكاغو. وطريقته تتلخص في ايقاظ الأشخاص عدة ليال متعاقبة متواترة في كل مرة يكونون فيها في حالة فترة REM، وبهذا يتم حرمانهم من حوالي ٩٠٪ من حالات نومهم وهم في فترة REM، ولذا تمت ملاحظة نتيجتين مهمتين.

فأولاً، كانت تبدو لدى الأشخاص النائمين بلا استثناء فترات من س - ح - ع REM أكثر من المعتاد، لذا ففي الليلة الخامسة من ليالي الحرمان كان الأمر يتطلب ايقاظ بعضهم عشرين أو ثلاثين مرة. وبعد مضي عشرة أيام بات من المتعذر الاستمرار في التجارب، وذلك من جراء عودة الأشخاص ثانية في حالة نوم REM في كل مرة يتم ايقاظهم فيها. ثانياً، في ليالي الانتعاش RECOVERY بعد انتهاء الأمد المقرر للتجارب، حينما يسمح للأشخاص بالاستمرار في النوم دون تعرضهم لازعاجات الايقاظ، فان زمن س - ح - ع REM عندهم قد ازداد زيادة ملحوظة، اذ استغرقت في بعض الأحيان حوالي ٤٠٪ من وقت نومهم الكلي. [وان كان هنا مجال كبير للفروق الفردية بينهم]. وقد بدا هنا وكأن الأفراد الخاضعين لاجراء البحوث عليهم كانوا يحاولون التعويض عما فقدوه من نوم خلال فترات س - ح - ع MER يميلون الى أن يكونوا متوترين وقلقين كلما استمر أمد التجارب عليهم. فكانوا يواجهون في اليوم التالي صعوبة في التركيز وكانت تبدو واضحة عليهم علامات التعب، وزيادة العصبية، وفقدان الذاكرة الخفيف البسيط. ولقد علل ديمنت ظهور هذه الأعراض بأنها لا يمكن أن تعزى الى اضطراب النوم فقط، طالما أن أفراد المجموعة الضابطة كان قد تم ايقاظهم وهم في حالة نوم لا - س - ح - ع NREM بنفس عدد المرات ايضاً ومع هذا فقد أظهروا سلوكاً سوياً تماماً. وقد

اختـفت جميع الأعراض عندما سمح للأفراد بالتمتع بالنوم الاعتيادي ثانية. وعبر ديمنت عن قناعتـه بأن الاستـمـرار في الحـرمان فترة أطول وعلى نحو أقسى ينجم عنه تمزيق للشخصية خطير.

أدت التجربة الأولى هذه الى تأمل مثير أعرب عنه أناس كثيرون انتشر في الستينات مؤداه أن الكائن البشري ربما كـانت به حاجة نفسية الى الحلم، حـاجـة الى رحلة ليليـة يركب فيها جناح الخيال ليعوض بذلك عن الروتين الرتيب الكئيب الذي يكون قـد أمـضـاه في سحابة يومه، أو لعله ينحدر الى الأعماق الابـداعـيـة مـن الانـعـاش الـروحـي. ولقـد استـمسك المحللون النفـسـانيـون بهذا البـحث وتشبثوا به معتبرين إياه تأييداً محتملاً وتوثيقاً ممكناً لنظرية فـرويد عن الأحـلام بوصـفـهـا صمام أمـان، للتـعبير والتنفيس دونما ضرر عن الدوافع العـدوانيـة والنوازع الجنسية المحرم عليها التنفيس عن ذاتها في الحـيـاة الـواعـيـة. وللأسف، إن التـجـارب التي أجـريت فـيما بعـد على الحرمان من الحلم في حالة س ـ ح ـ ع REM قد خيبت ظن الذين أخذوا بـتلك الآراء والنظريات، وأخـفـقت في تحـقـيق أي تعـزيز يذكـر يؤيد تلك النظريات الخلابة الخداعة.

وعندما زاد ديمنت فيما بعد فترة الحرمان في حالة س ـ ح ـ ع REM الى خمـس عشرة ليلة وذلك باسـتـخـدام العـقـاقير، تبين له أن الأشـخـاص الثـلاثة الذين كـان يجري عليـهم تجاربه، قد أظهروا اضطرابات سيكولوجية قليلة نسـبياً فقط، فواحد منهم مثلاً أصبح شكاكاً وعدوانياً، بينما صار آخر طائشـاً مـسـتـهتراً ومـتـحللاً من أية مـسـؤوليـة على نحـو يخلو من أية نزعة نمـوذجـيـة، لكن هذه الآثار يمكن ارجـاعـهـا الى تأثير العقاقير. وأياً كانت الحـال، فـان هذين الشـخـصين قـد استعادا اتزانهما الاعتيادي الطبيعي بعد الليلة الأولى من ليـالي اعـادة الانتـعاش. لكن ما قام به باحثون آخرون من تجـارب أخـرى مماثلة أجريت على الحرمان من النوم قد اخفقت باستمرار في التـوصل الى أي تطبيـق ينشأ عنه اضطراب حـقيقي خطير يصيب الشخصية

بعد الحرمان من النوم عندما يكون الحالم في حالة س ـ ح ـ ع REM.

واستطراداً في استبانة أثر الحرمان في حالت س ـ ح ـ ع REM وما يخلفه هذا الحرمان لدى الكائنات البشرية من آثار لها مشاكلها الأخلاقية، فقد وجه ديمنت عنايته الى اجراء البحث على القطط ـ ذلك لأن حالة س ـ ح ـ ع REM قد تمت ملاحظتها عند جميع الثدييات التي جرت دراستها ـ فكان يضع قططه التي يجري عليها تجاربه فوق منصة ترتفع قليلاً فوق مستوى بركة من الماء. وفي كل مرة تبدأ حالة س ـ ح ـ ع REM عند القطة، تسترخي عضلات رقبتها فيتم عندئذ غمس رأس القطة في الماء، فتستيقظ واثبة جافلة. وبعد فترة من تكرار هذه العملية على القطط تعلمت ان تستيقظ حتى قبل ان يلامس رأسها الماء. ان اسلوب بركة السباحة هذا قد أحدث حرماناً تاماً تقريباً في حالة س ـ ح ـ ع REM ، لكن مدة السبعين يوما التي أجريت فيها تجربة التعذيب تلك لم تفلح في احداث اي اعطاب ملحوظ في السلوك. لا شك كانت هناك تغيرات منظورة بدت في سلوك تلك القطط كالزيادة في البحث عن الطعام والنشاط الجنسي، لكن ديمنت كان ملزماً بالاعتراف بأن مثل تلك التغيرات انها كانت في حقيقتها تحسينات طرأت هي من وجهة نظر قطة تنشد البقاء طليقة على سجيتها البهيمية.

يمكن القول، بطبيعة الحال، ما دام ان قسطاً معينا من النشاط العقلي يحدث خارج نطاق فترات س ـ ح ـ ع REM داخلاً في حالات لا ـ س ـ ح ـ ع NREM فان الحرمان الحاصل في حالة REM لا ينجم عنه بالضرورة حرمان تام من الحلم. شيء من الدعم لهذا النوع من الحجاج انما يتأتى من تجارب تعرض فيها الأشخاص المجرب عليهم الى حرمان كامل من النوم ـ وهي حالات لم يحدث أي حلم مهما يكن ـ فترتبت على الحرمان الكامل هذا آثار جد خطيرة ترقى الى حد الكارثة. لعل ثلاثة أيام متتالية من حرمان تام من النوم ينشأ عنها اهتلاسات، أوهام الشعور بالاضطهاد،

فقدان الذاكرة وحتى الهذيان.

على انه ليس من المرجح ان تعزى الآثار المترتبة هذه جزئياً او كلياً الى فقدان الحلم لجانب الخيال المبدع حسب المفهوم السيكولوجي، نظراً الى ان هناك شواهد تشير الى أن الأطفال الخدج (٢). يحتاجون الى النوم، وأن الحيوانات التي أزيلت المراكز العليا من دماغها قد أظهرت زيادة ملحوظة في حاجتها الى نوم من النوع الذي يتضمن س - ح - ع REM بعد أن حرمت من هذا الضرب من النوم. وعندما اذن الاشخاص الراشدون المتطوعون باجراء التجارب عليهم بأن يتم حرمانهم من النوم حرماناً تاماً يشمل فترات انتعاشهم، وجد أن أول نوع من أنواع النوم أرادوا استعادته وتعويضه هو النوم العميق جداً الذي يحصل عادة في المرحلة (٤)، وهو النوم الذي يظهر في جميع أنواع البحوث انه قلما يقترن بنشاط عقلي أيا كان. وإن استرجاع النوم المفقود في حالة REM والذي يبدو لدى الراشدين الأسوياء شديد الارتباط بالحياة التخيلية، انما يرجيء نفسه فيتخذ له مكاناً ثانوياً ولا يهيء نفسه حتى يحين موعد ليال تالية أخرى للانتعاش.

والحق، أن الخصيصة المطردة المتواصلة لدورة النوم الكاملة تشير بقوة الى أن الرأي القائل أن لذلك علاقة بالانعاش الطبيعي الأساسي لمجمل اعضاء الجسم انما هو رأي صائب فيما ذهب اليه، بدلاً من أن تكون العلاقة هذه منصبة على الراحة الخاصة بالعمليات النفسية. ولقد وجد البحث الحديث مؤخراً دعما جماً مباشراً يعزز وجهة النظر هذه. فاحدى التجارب، مثلاً، أظهرت أن الرياضيين الذين يمارسون الألعاب الرياضية بعد الظهر كانوا ينامون في الليلة التالية نوماً عميقاً أكثر من المعتاد، وهو من نوع نوم المرحلتين (٣،٤) وأوضحت تجربة اخرى ان الناس الذين لديهم نقص في هورمون الغدة الدرقية [ولهذا الهورمون تأثير كتأثير التمارين

(٢) المولودون قبل أوان ولادتهم الطبيعية. (المترجم)

الرياضـيـة التي تحـرق بعض الأنسـجـة الجـسمية] لم تكن بهم حاجة الى نوم عميق من نوع [٣ ، ٤] ، أي انهم كـانوا يفـتـقرون الى مثل هذا النوع من النوم العـمـيق، لكنهم استعادوه بعد أن حقنوا بذلك الهورمون. وتأكيداً لهذا الرأي فقد وجد الدكتور أيان أوزوالد Ian Oswald وزمـلاؤه من جامعة أدنبرة عندمـا يكون هورمـون الدرقـيـة هذا مـوجـوداً لدى الأفـراد بكمـيـات فـائضة زائدة ، فان مقدار النوم ونسبته في المرحلتين (٣،٤) يـزداد زيادة هـائلـة. اسـتـخلص الدكـتـور أوزوالد من هذا كله أنه حين يحترق النسـيج الجـسـمي عن طريق اجراء التمارين الرياضية وممارستها أو بواسطة أية وسيلة أخرى، فان النوم في حالة لاس ـ ح ـ ع NREM يعـمل على استعادة ذلك النسيج الى حالته الاعتيادية.

تجـد هذه النظرية، فضلاً عن ذلك، دعماً قوامه انه يحدث خلال النوم في حالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM تدفق وانصـبـاب من النمـو الهورمـوني مـصـدره الجهاز الغدي، فيصب التدفق الهورموني هذا في الدم، ويحصل كل ذلك بخاصة خلال المرحلتين (٣،٤) من النوم. والنمـو الهورمـوني هذا يزيد في تركـيب البروتين ويسـاعـد على نمـو الجـسم والحـفـاظ عليـه وصـيـانتـه واصـلاحـه. ولئن حـرمنا من النوم، فـان كـمـيـة الهورمون تنخفض وتقل، بحـيـث أن اصـلاح الخـلايا الجـسمية وتجديدها يتضرر. ولعل هذا ينتهي الى كـثير من الآراء الضـارة بالصـحـة منها مثلاً فقدان النوم فقداناً تاماً، وهو ما يتـسـاوق والحـقـيـقة الذاهبة الى أن الكمية المطلقة من الوقت المنفق في حالة النوم لاس ـ ح ـ ع NREM في كل ليلة، وهو مـعدل ما يحتاجه الشخص الاعـتـيادي، انما يكون في أشده إبان مرحلتي الطفولة والمراهقة، حين يكون الجسم في حـالة نمـو وفي أوج نشـاطه. ولذا فـان النظرة الشائعة القائلة أن نقص النوم الكافي عند الطفل يمكن أن يعـتـاق نمـوه تبـدو، ارتكازاً الى هذه النتـائج، نظرة راسخة ولها ما يبررها.

فما هي اذن وظيفة النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM ، الذي يعترض

على فترات مـردود النمـو الهورمـوني؟ ازاء هذا يقـدم أوزوالد شواهد وبراهين تبـدو مـقبولة وتحمل على القناعة مؤداها أنه فكما أن للنوم في حالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM غـرضاً هو لتجديد الأنسجة الجسمية العامة، فكذلك هي الحال بالنسبة للنوم في حالة س ـ ح ـ ع REM اذ انه بالغ الأهميـة لنمو الدمـاغ وتجـديده. وقـد كشفت الدراسات التي أجريت على الأطفال الخدج عن أن ٨٠٪ من كافة النوم انما يمضونه في حالة س ـ ح ـ ع REM وذلك خـلال الشـهـر او الشـهـرين اللذين يسبقان الولادة. ذلك لأنه قبيل الولادة فـقـط يـنمـو الدمـاغ نمـواً سريعـاً ـ والحق ان المادة السنجـابيـة من اللحـاء يتـضـاعف سـمكهـا وتنطوي على شكل تجـاويف وتلافيف متداخلة متراصة في الشـهـر الذي يسـبق الولادة. والناس في عـمر الشيخوخة لا يواتيهم النوم من نوع REM الا غـراراً، ولقد تبين أن أدمغتهم تذوي فتذبل ذبولاً وذلك لأن العـمليـات الاعـتيـادية الطبـيـعية لخلايا المخ تكف عن التجديد. لهذه النتيـجـة تطبيقاتها الممتعة منها مثلاً أن الشيخوخة من الممكن ازالتها وذلك باعطاء الأشـخـاص في تلك الأعمار عـقاقير من شأنها زيادة وقت س ـ ح ـ ع REM، بيـد أن هـذا مـا يـزال مجرد تأمل في الوقت الحـاضر ليس غير. وكذلك الحال بالنسبة لذوي العاهات العقلية Mental Defectives فهم ليس لديهم من النوم في حالة س ـ ح ـ ع ـ REM الا قليل، مما يدل على أن هذا النوع من النوم انما هو ضرورة لازمـة للمـحـافظة على نسيج الدمـاغ في انتظام حـسن حيث يمكن أن تتم العـمليـات والوظائف العـقليـة العليا بكفـاءة كـالتـفكير والتـعلم والتـذكر. وقد كشفت التجارب عن أن العقاقير التي تحـول دون تكون البروتين يمكن أن تحـول كـذلك دون تكوين ذاكرات دائمة. وقد وجد الدكتور جي. ستويفا J. Stoyva وزمـلاؤه ـ في جـامعة كـولارادو، وكـان الأشـخـاص الذين يجربون عليـهـم يلبسون عوينات خاصة تجـعلهـم يرون الأشياء مقلوبة، وجدوا أن نسبة النوم من نوع REM كانت قـد ازدادت لـدى المـجـرب عـلـيـهـم زيادة هائلة أثناء تدريبهم على التكيف

للحالات الجديدة تلك. وهذا مما يدلل على أن للنوم من نوع REM أهمية بالغة في مجالات التعلم والتذكر.

ثمة ما يعزز الفرضية القائلة أن ألنوم من نوع REM انما هو نوعاً ما مهم للحفاظ على انتظام عمل نسيج الدماغ انتظاماً طبياً، وذلك ربما يتم بما يتولد عنه بروتين في الدماغ، يأتي التعزيز لهذه الفرضية من بحوث أوزوالد نفسه ، اذ وجد ترددات وارتدادات واسعة في كمية النوم REM لدى المرضى الذين حاولوا الانتحار. بتناولهم جرعات كبيرة من الحبوب المنومة تناولوها في دفعة واحدة ـ تلك الارتدادات أو الأصداء الدماغية تمثل أزمة مباشرة . وكان يبدو عليهم ظاهرياً أنهم قد انتعشوا تماماً من تأثير العقاقير بعد فترة أيام قلائل، ولكن كان هناك خلال الشهر الأول الذي أعقب نقاهتهم قليل من نوم المرحلتين (٣ ، ٤) يقابله كمية هائلة أو مقدار كبير من نوم حالة REM ـ وهي كمية نوم تفوق كثيراً مقدار ما فقدوه خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة التي تلت مدة الانتعاش. لهذا، وبعد تأثر الدماغ بعطب كهربائي جراء العقاقير ، فان نوم س ـ ح ـ ع REM تكون له الأرجحية على النوم من نوع لا ـ س ـ ح ـ ع NREM . أوزوالد يقول أن هذا يذكره بركلة على الظنبوب (٣)، حيث يعقب ذلك عدم قدرة على الحركة مؤقتة تستمر لمدة يوم أو يومين تكون مصحوبة بالعرج، يزول العرج هذا بعدها تدريجياً ومع ذلك فان الكدمة تستغرق حوالي شهرين حتى تختفي.

وأياً كان الأصل الذي نشأت منه دورة REM، فان هناك شكاً ضئيلاً بشأن أهليته بالنسبة لحياة الانسان، بل وربما لحياة الثدييات الأخرى، وعلاقته بعمليات البناء الكيميائي المقتضى للمحافظة على الدماغ في وضع تام من الانتظام والنظام، انما هي الآن أهمية تعكس حقيقة وظائفه

(٣) مقدم الساق، وهو عظم الساق الأكبر وبخاصة حافته الحادة (المترجم).

الرئيسية، هذا فضلاً عما له من علاقة كبرى تتصل بقيمته في المحافظة على ضرورة حق البقاء. ولا تناقض هناك يبرز بين وجهة النظر هذه وبين الحقيقة الذاهبة الى انه ليس ثمة خلل سلوكي مباشر يعقب الحرمان من نوم س ـ ح ـ ع REM. انها لحقيقة جد معروفة تلك التي تقول أن بمقدور الدماغ الاستمرار على النشاط ومواصلة وظيفته على نحو اعتيادي الى حد معين وذلك بعد اصابته بتلف. وان استخلاصي هو أن كثيراً من الخلايا المختلفة ذات وظيفة تمكنها من انجاز مهمة كانت تقوم بها خلايا أخرى تعرضت للتلف، بحيث اذا ما عجزت مجموعة من الخلايا عن أداء وظيفتها في أي وقت من الأوقات، فان مجموعة أخرى غيرها تتولى انجاز العمل الذي كان موكولاً الى تلك التي توقفت عنه لأي سبب من الأسباب. هذا ، وان الحاسبات الالكترونية مبنية في أيامنا هذه على نفس المبدأ العلمي الفسلجي، بحيث أن الأجزاء التي يصيبها العطل أو العطب يمكن استبدالها دونما تدخل فيما هو جار من عمل.

لذا فان وظيفة النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM انما هي اتاحة الفرص للدماغ وتمكينه من مواصلة البناء الكيميائي المعقد المرتبط بمضاعفة عمل الذاكرات والبرامج Programmes . فلا يترتب على الحرمان من هذا النوع من النوم ما يتسبب في احداث خلل سلوكي - وليكن هذا في الأقل لفترة ليست بالقليلة. فالدماغ يستمر على أداء وظائفه كتوحيد ودمج آثار الذاكرة وتكوين معالمها خلال الحياة الواعية، لكنه يمكن أن يعمل بدون أن تتوافر لديه هوامش الأمان الاعتيادية المألوفة فيما لو كان كل شيء على ما يرام من حيث سلامة الخلايا الدماغية كافة . وابان فترة الانتعاش بعد عملية الحرمان من النوم في حالة REM ، علينا أن نتوقع بأن الدماغ سيعمل بجهد مضاعف من الوقت لينجز ما هو مطلوب من مضاعفة الذاكرة وليستعيد لنفسه كامل طاقته وليسترجع تمام كفاءته.

ولنقل ثانية، بأن صدمة عنيفة تتسبب جراء جرعة أكبر مما يجب من

العـقـاقير، قـد تؤدي الى اتلاف جزء كبير من الدماغ ومع هذا فانها لا تحطم كـامل قـدرته في انجـاز وظيـفته. وأياً كانت الحال، فان امتدادات فترات من النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM يكون أمـراً مـرتقباً حدوثه ولعله يستمر فترة أسـابيع بعـد هذا وذلك لاصـلاح واستعادة النسيج الاضافي من الذاكرة والـبرامج التي كـانت في الخـلايا التـالفـة، وانه فـقط في نهاية هذه الفترة من الوقت يصـبح بمـقدور الدماغ استعادة تمام كفاءته وقوته. واذا ما فرض على الدمـاغ اجراء أو واجب من اعادة التعلم يتمثل فيه التزمت ويتسم بالقسوة، كما هي الحـال المفـروضـة على الأفـراد الذين يطلب منهم من البـداية ولأول مـرة أن يتكيـفـوا لرؤية الأشـيـاء خـلال نظاراتهم التي تجـعل تلك الأشـيـاء مـقلوبة، فـعلينا مـرة أخـرى أن نتـوقع حـدوث زيادة ملحوظة من النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM ، وذلك لكي يتـمكن من مـواجهة ما حصل من تغير تام في البرمجة وفي البرامج ذاتها. ولهذا مـا يماثله في عـالم الأطفال حديثي الولادة اذ هم يحتـاجون قدراً كبيراً من النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM وذلك ليـتـمكنوا من مـواجـهـة مـا يتـعرضون له في بيئتهم الجديدة هذه من مقدار هائل من المنبهات الجديدة كذلك.

ان المكنيات MECHANISMS التي تعـمل وفق مـبدأ تعدد الجوانب الوظيـفـيـة وكثرتها تستطيع بوجه عام تحقيق ما هو موكول بها من مهام حتى وأن تعطل جـزء من آليـتـهـا عن العـمل، لكن كـفاءتها تقل فلا تتمكن من انجـاز مـهماتها تلك بنفس المسـتـوى الأول من الجـودة. وبتـعبير آخر، فان الـنشـاط النهـائي انما هو مجرد مجهـود مـشترك تطبـيـقي يتم بين عـدة أجـزاء متـآزرة. وفي حـالة الدمـاغ، كـذلك، علينا ان نتوقع أن التدخل في عملية طبع (نسخ مـتـعـددة) لمعلومة مكتسبة جديدة لا ينتج عنه نسيان تام، ولكن يترتب على ذلك أن تتكون ذاكـرة هي أقل اكـتمالاً مما كـان ينتظر لها فـيما لو تكونت تحت ظروف اعتيادية.

تلخيص واستنباط

أيا كانت وظيفة النوم في حالتي س - ح - ع REM ولا - س - ح - ع - NREM - اللتين ما زالتا يكتنفهما شيء من الغموض ورغم ما طرحنا بشأنهما من تنظير - فانه لمن المرجح أن الخبرة الذاتية التي نسميها الحلم انما هي نتيجة جانبية لعملية فسلجية جوهرية أساسية مرتبطة بالتعلم والمعرفة والتذكر. وأن هذا لا يعني أن الأحلام لا قيمة لها أو أننا ينبغي أن نغفل شأنها. بل على العكس من ذلك، إنها يمكن أن تكون الى جانب هذا كله ذات قيمة كبرى لبقاء الجنس البشري في المرحلة الحاضرة من مراحل تطوره الاجتماعي وذلك بامداد الانسان بمعرفة تنفعه في واقع حياته وفي واقع نفسه، معرفة، لولا الأحلام، لبقيت خافية عليه. وكما هي الحال في مسألة المكونات والمصاحبات الكيميائية للأدوار الخاصة بالتعاقب المرتبط بالنوم وحالاته، وما للأدوار هذه من أهمية تشخيصية كبرى بالنسبة للطبيب، حتى وإن كانت تلك المصاحبات مجرد نواتج وافرازات بسيطة يفرزها الجسم لا وظيفة لها تقوم بها أبداً ، فكذلك هي الحال في الأحلام حيث تكمن أهميتها في توجيه اهتمامنا وانتباهنا الى كثير من الأمور الأساسية اللاعقلانية والمتناقضات القابعة بعيداً في أغوار الشخصية، والتي لا تني تهدد باستمرار بإفساد حياتنا علينا. اضف الى هذا، وكما سأوضح فيما بعد، فان الأحلام تضعنا وجهاً لوجه أمام جميع أنواع المواهب الخافية والطاقات الكامنة، التي نمتلكها ولكننا قد لا نعرفها في أنفسنا. وباقامة جسر بين العقل والجسم والربط بينهما، فان الأحلام يمكن أن تستخدم كمنصة انطلاق بوسع الانسان أن يقفز منها الى تخوم من الخبرة والمعرفة تقع خارج النطاق الاعتيادي من الحياة الواعية عنده، فهي بهذا توسع من آفاق رؤاه ليس بالنسبة الى نفسه فحسب، بل تمتد أيضاً لتشمل الكون الذي يحي فيه ويحتويه.

الفصل الثاني
ما هو الحلم ؟

إنها لحقيقة صادعة ألا يكون هناك حتى الآن تعريف مقنن للحلم رغم مضي قرابة عشرين عاماً منذ ابتداء إجراء البحوث العلمية بشأنه. وإذا ما أخذنا بتعريف قاموس اكسفورد للحلم بأنه [رؤيا، تمثل سلسلة من الصور أو الأحداث، تظهر للشخص النائم]، فمن الواضح إذن أن أي نشاط عقلي يبلوه المرء كخبرة خلال النوم يجب أن يكون حلماً وبالمثل، فإن قاموس (ويبستر) الجديد يعرف الحلم بأنه [تتابع من الإحساسات، والصور العقلية، والأفكار، وسواها، تمر عبر عقل الشخص النائم.] من الناحية الأخرى، نجد البرفسور كالفن هول Calvin Hall، وهو خبير بالأحلام أمريكي، يفضل أن يكون أكثر دقة. فهو يرى [أن الحلم إنما هو تواتر من الصور العقلية، وهي في غالبيتها صور بصرية من حث نوعيتها، تمر بالفرد كخبرات خلال النوم. وللحلم عادة مشهد أو مشهدان، ويشتمل على عدة أشخاص بالإضافة إلى الشخص الحالم، ويتضمن سلسلة من الأنشطة والأعمال والتفاعلات وهذه كلها عادة تنتظم الحالم في أحداثها. فهو (الحلم) يشبه صوراً متحركة أو عرضاً دراميا يكون دور الحالم فيه مزدوجاً إذ هو المشارك والمشاهد معاً. ورغم أنّ الحلم هلوسة، ذلك لأن الحلم ليس له وجود مادي حقيقي ملموس، فإن خبرة الحالم به هي أنه يكون في وضع كأنه يرى شيئاً حقيقياً.] وحسب هذا التعريف، فإن خبرات نومنا الطويلة، الرؤية الواضحة، الفعالة، هي التي تستحق العلامة: [الحلم].

التعريف مهم لا ريب، ذلك لأننا إذا ما أخذنا بالتعريف الأول للحلم بأنه أي نشاط عقلي يبلوه الفرد إبان النوم، فهذا يعني أنه يتعين علينا استبعاد الاكتشاف الشهير الخاص بالبحث الحديث عن الأحلام وهو الاكتشاف المتعلق بفترة النوم في حالة REM بوصفها [مؤشراً موضوعياً]

يدل على حدوث الحلم حقاً. وقد وضّحت التجارب إن العقل يبدو أنه يبقى باستمرار نشطاً خلا النوم وإن الشخص في حالة إيقاظه من فترات نوم لا - س - ح - ع NREM، يسترجع في الغالب صوراً images أو أفكاراً، ظاهرياً لا يمكن تمييزها أحياناً عن تلك الصور التي تحصل خلال فترات نوم REM.

ففي التجارب المبكرة مثلاً، حسب ديمنت وكلايتمان أن الأشخاص الذين كانوا يجرون عليهم تجاربهما كانوا يحلمون فقط في حالة تمكنهم من أن يقصوا ويذكروا وصفاً متماسكاً ومفصلاً لمحتوى Content الحلم: بعبارة أخرى، كانا يستخدمان تعريفاً للحلم مثيلاً لتعريف هول. فلا عجب، إذن من أن تأتي ٨٠٪ من تقارير الأحلام عندما يكون الحالمون في حالة نوم من نوع REM مقابل ٧٪ فقط عندما يكون الحالمون في حالة نوم من نوع لا - س - ح - ع NREM. في تجربة أخرى تعريف الحلم فيها مشابه لما ورد في قاموس اكسفورد حيث يذكر أن الحلم [أية فقرة من المحتوى العقلي المحدد]، وجد كذلك أن ٨٠٪ من الأحلام كانت قد ذكرت عندما كان أصحابها في حالة نوم س - ح - ع REM لكن الأحلام الناجمة عن النوم في حالة لا - س - ح - ع NREM قد ارتفعت إلى ٥٤٪. ففي الحالة التالية من المتعذر القول بأنها فترة خالية من الحلم. وأن المسألة قد اختلطت فيها الأمور أكثر في اليقظة اعتبر تعريف الحلم بأنه [أي شيء يمر عبر العقل]: إذ ذكر في هذه الحالة أن ٧٤٪ من حالات الحلم قد تمت في فترة NREM.

من الواضح أن الباحثين المذكورين لم يكونا الوحيدين فقط في اختلاط الأمر عليهما حول ماهية تكوين الحلم وماذا يكونه بالضبط. فالدكتور دونالد جوادنف Donald Goodenough الذي انضم إلى فريق البحث عن الأحلام في شيكاغو عام ١٩٥٦ ، اكتشف بطريق الصدفة أن بعض الأشخاص ممن كان يجري عليهم تجاربه كانوا يواجون صعوبات مماثلة. واتبع في تجاربه أنه كان يزود الأفراد الخاضعين للتجربة بتعليمات تقضي بأنه

سيوقظهم من نومهم جرس منبه وبإمكانهم إسكاته عند اليقظة وذلك برفع سماعة التلفون الموجود بجانب الفراش من فوق منصته: وكان عليهم أن يذكروا مباشرةما إذا كانوا في حالة حلم، وأن يذكروا المحتوى المفصل لأي حلم يسترجعونه ويتذكرونه. وما أشد دهشة جودانف كانت حين سأله أحدهم بعد أن تلقى قبيل توجهه إلى فراشه التعليمات المطلوبة فقال: [وكيف سأعرف ما إذا كنت قد حلمت أم لا] ولدى تأمل السؤال وجد جودانف أنه لم يكن سؤال من غير معنى إذ لم يكن ذلك الشخص قد تسنى له من قبل استرجاع حلم ما.

وجد جودانف كذلك أن كثيراً من أشخاص تجاربه، لا سيما أولئك الذين قلما كانوا يسترجعون أحلامهم الليلية تلقائياً، وجدهم يخلطون في خبرات أحلامهم. فأحد النائمين استيقظ بعد فترة نوم مؤكدة أنها من نوع REM، وذكر أنه [كان نائماً وكان يفكر]، في حين ذكر آخرون غيره أنهم لم يكونوا متأكدين عما إذ كانوا [نامين وحالمين] أو أنهم[كانوا مستيقظين ويفكرون]. وصعوبة التمييز بين [الحلم] و[التفكير] كانت صعوبة واقعية بالنسبة لكثير من الأشخاص الذين أجريت علهيم التجارب. فقد ذكر رجل مرة أنه أحس بأنه كان راكباً حصانه يمر في طريق مشجر وكان يعي البيوت والبنايات على جانبي الطريق، وأضاف: [حلم كان ذاك أم تفكير: لست أدري.] وذكر شخص آخر كان يعاني نفس الصعوبة في التمييز بين التفكير والحلم فقال: لابد أنه كان في حالة حلم وليس في حالة تفكير، طالما أن أحداث الحلم لم تكن واقعية وليست متساوية مع حقائق الحياة اليومية.

يبدو أن هناك فسحة كبرى بانتظار كلمة (حلم) لأن تكتسب لها معنى متفرداً خاصاً بها. وتبعاً لهذا فإنه لما يبعد هذه الكلمة عن معناها العلمي ولعله إجراء مجانف لروح العلم أن نسأل شخصاً ما عن حلمه. وقد علق ديمنت عام ١٩٦٥ قائلاً: [إنه لأمر مدهش، في ضوء هذا كله، ألا نجد

ثمة من فكر في التوجه إلى متطوعيه في التجارب بسؤال يطلب إليهم فيه تعريف الحلم أو استنطاقهم عما يعنيه الحلم إليهم قبل استخدامهم متطوعين.]

وكان الدكتور ديفيد فولكس DAVID FOOLKES من جامعة وايمنج يأمل في تخطي مشكلة تعريف الحلم بواسطة تغيير أساليب المقابلة. فكان يسأل الشخص المتطوع عما إذا كان يحلم أما لا قبيل سماعه منبه الإيقاظ، فإذا كانت إجابته بأنه كان في حالة حلم فكان يقال له بأنه لا حاجة لذكر حلمه. ولئن أجاب الشخص بأنه لا يستطيع تذكر أي حلم، فالسؤال التالي الذي كان يوجه إليه هو: هل كان هناك أي شيء يمر عبر دماغه. وجد فولكس من هذا أن هناك شيئاً ما يمر عبر عقول ٨٧٪ من الأشخاص حينما يكونون في حالة نوم REM وأن ٧٤٪ منهم يمر خلال عقولهم شيء معين أيضاً عندما يكونون في حالة نوم من نوع لا ـ س ـ ح ـ ع ـ NREM. وكان استرجاع الحلم موزعاً بالتساوي تقريباً بين مراحل النوم (٢، ٣، ٤)، وينتظم في هذا أن فترة NREM كلها كانت قادرة على الحفاظ على النشاط العقلي. وكأن التقرير عن NREM النموذجي كان يبدو أشبه بالحلم نوعاً ما، وهو في هذا يكون أقل شأناً مما يكون عليه الحال في حالة س ـ ح ـ ع REM.

هذه النتائج قادت فولكس إلى أن يحاول تحليل ما يتصل بأحلام س ـ ح ـ ع ولا ـ س ـ ح ـ ع NREM من تقارير. توصل نتيجة لذلك إلى أن الأخيرة هذه كانت أقل انفعالية وانطوت على نشاط جسمي أقل مما انطوت عليه الأحلام في حالة REM: وكانت كذلك أقل مبالغة وتضخيماً، وقد احتوت مشاهدها على مناظر أقل وكانت عادة أقل درامية في طبيعتها. فقد اشتملت التقارير الخاصة بالنوع لا ـ س ـ ح ـ ع NREM [التفكير] أو الأفكار. وانتهى إلى القول: [التقارير الخاصة بالأحلام كانت ميسورة الاستثارة واستحصالها بيسر وبنجاح في جميع فئات الاستيقاظ. إن عملية

الحلم أو أي شكل من أشكال النشـاط الأدراكي يمكن أن يحدث حسبما هو متصور بصورة مستمرة لدى الكائن البشري وهو نائم، وإن فترات س ـ ح ـ ع REM إنما تكـون ذات جـدوى فـقط في تمييـز الأنواع المختلفـة من الأحـلام، بدلاً من الاستـهـداء بها كـعـلامات تدل على وجود الحلم وعدم وجوده.]

إني شـخـصـيـاً أفـضل استـعمال التـعـبيرين (أحلام س ـ ح ـ ع REM و(أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM) للتمييز بين هذين الضربين من الأحلام في الحياة العقلية خلال عملية النوم. إذ أن محتوى حلم NREM إنما هو أشبه بالحلم إلى حد يكفي تسفيه الرأي الذهب إلى أنه إما (ألا يكون حلما) أو أنه (تفكير) فـقط. وهو مع هذا يختلف بما يكفي عن محتوى س ـ ح ـ ع REM إذ بوسع أي فـرد أن يتـعلمـه بأقل جـهـد ممكن من الممارسة، مما يمكن المرء من التـمـيـيـز بين النوعين بسهولة على الدوام بل أن المسألة لتصبح أكثر يسراً وسـهـولة عندما تكون مرتبطة بما لدينا نحن من أحلام من نوع س ـ ح ـ ع REM و لا ـ س ـ ح ـ ع NREM.

وكـمـثـال أريدك أن تحاول التجربة الآتية: متذكراً في الوقت ذاته القواعد العامة وهي أن الأحلام NREM هي على العموم أحلام أقصر Sharter:

أقل وضوحاً	Less vivid
أقل بصرية	Less visual
أقل درامية	Less dramatic
أقل تفصيلاً	Less elaborated
أقل إنفعالية	Less emotional
أكثر نشاطاً	More active
أكر قبولاً وتصديقاً	More Plausible
أكثر التصاقاً بالمشاكل الجارية	More Concerned With the current Problems

أكثر تواصلاً لفظياً	More conversational
أقرب إلى التفكير	More thoughtlike

مما هي عليه أحلام س ـ ح ـ ع REM.

والآن أريد منك أن تقرأ الأحلام الستة التالية التي رآها أحد الأشخاص الذين كنت أجرب عليهم وهو الدكتور (Y)، وبعد ذلك حاول أن تقرر أي ثلاثة منها تأتي من أحلام REM وأي ثلاثة أخرى تأتي من أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM. فبعد كل إيقاظ كنت أسأل الدكتور (Y) أن يذكر أي شيء طرأ على ذهنه ومر في عقله قبيل إيقاظه بفعل منبه الإيقاظ.

أحلام الدكتور (Y)

الحلم (١)

كنت أفكر أنه ربما حصل نوع من الخلل بماكنتك وأنك لن تتمكن من إيقاظي.. وقبيل ذلك كنت أقدم بعض المرضى إلى الدكتور (ب) في عيادته. وكان هناك الدكتور (هـ) جالساً في الخارج وقد علق بقوله: إن كل المشهد مزري ومدعاة للضحك. فرددت عليه: [الغيرة لن تجديك نفعاً ولن تبغلك مأرباً.] وأظن أنك كنت واحداً من المرضى.

الحلم (٢)

كان كله غامضاً مبهماً. كنت أسير في شارع ومعي شخصان وهميان لا أرى غير ظلهما، وكنا نتحدث حول شيء معين لا أدريه. أظن أحد الشخصين كانت امرأة، وثانيهما رجل، لكنني ما استطعت استبانة وجهيهما وما كانت لدي أية فكرة من عساهما أن يكونا. وكنت أقول لهما: [اذهبا من هنا، اذهاب هناك] أو شيئاً من هذا القبيل: كنت أنا الموجه لهما أين ينبغي أن يذهاب.

الحلم (٣)

كنت واقفاً خارج بناية فندق ممتاز، شاهدت هنديين اثنين انطلقا بسيارة كبيرة فارهة. كان أحدهما يبدو مريضاً جداً، وقد حاول الوقوف، وكان يبدو عليه كأنه في النزع وكأنه يحتضر،وكنت أخشى عليه أن يؤذي نفسه. كانا كليهما يرتديان الرداء الأبيض وتخيلت أني رأيتهما في مكان ما من قبل.

وقبل ذلك، كنت قد حلمت فرأيتني في المستشفى (م). وكان هناك شخص ما يقول لي: [هذا ـ المستشفى ـ كان قرب مستشفى القديس (ب)]، فأجبته: [نعم، هذا محتمل.] فقال: [ماذا يصنعون فيها هناك؟] فرددت عليه: [إنه كان وحدة لجراحة الجملة العصبية، وكان يحتوي على عدة أسِّرة للعلاج النفسي.] ثم تناولنا غداءنا وبعد ذلك تمشينا.

ثم كان هناك حلم آخر. وقد حدث هنا في هذا البيت. إنه كان هنا في هذا الفراش وكان يوجد رجل مخابرات سري يفتش عن شيء ما تحت بابي. ما كان يبحث عنه يتعلق بالتجربة. إنه كان يتسمع إلى شيء معين، أو أنه كان يتجسس علي، أو يقوم بشيء من هذا القبيل.

الحلم (٤)

كنت أتناول قدحاً من الحليب هنا في فراشي. وكنت أتحدث إلى شخص ما لم أتبينه من عساه أن يكون. ذلك كان كل ما في الأمر.

الحلم (٥)

كنت قد استيقظت لتوي، مغادراً الفراش عندما انطلق جرس المنبه. سمعت جرس المنبه وأنا ما زلت في حالة حلم وأنا أهمّ بمغادرة الفراش كنت أرى وكأن الوقت صباحاً، نهاية التجربة، وكنت جالساً على حافة الفراش تأهباً لمغادرته. وجونز كان مفروضاً أن يكون هناك ـ كان يعدل أرض الملعب، كما تعرف.

الحلم (٦)

كنت في مستشفى أتحدث إلى شخصين أعرفهما. سألت أحدهما عند من من الناس يعمل ولحساب من من الأشخاص يقوم بالعمل. حسبته يعمل عند س من الناس لكنه نفى ذلك. ثم سألته عما إذا كان يعمل لحساب د. فأجابني، [كلا، إنه توفي منذ أمد بعيد. هل لهذا التاريخ عندك معنى!] ثم انطلقت أسير في شارع أقرأ لوحات الأسماء. وكان هذا الأمر مختلطاً علي بعض الشيء.

قبل ذلك، كنت أرى سيارة من نوع (ميني) حمراء، وكان يقودها رجل لا يحمل إجازة سوق. كنت جد قلق بشأن ذلك. ابتدأت السيارة بالانطلاق فانطلقت راكضاً وراءها بقصد إيقافها. فتشبثت بنافذتها محاولاً سحبها إلى الوراء. حسبت أنه كان علي بل من الأفضل أن أحاول قلبها على جانبها. هذا العمل بدا لي أنه يحدث فيهادماراً لكنه لاح لي أنه أقل ضرراً وأدنى إزعاجاً لهذا الشخص مما لو أنه اكتشف أمره يسوق من غير إجازة. وظننت أنه من الأفضل أن أدور حول السيارة لأكون من جهة السائق فأطرق على النافذة من جهته، لكنني أدركت إن أنا فعلت ذلك فربما تفلت السيارة مني فتنطلق. حاولت باهتياج شديد إيقاف السيارة مكانها لكني ما أفلحت.

الحلمان (٣، ٦) يمكن تشخيصهما حالاً أنهما من نوع الأحلام التي تحصل في حالة نوم س ـ ح ـ ع REM، والتشخيص هذا يرتكز إلى أسس منها: طولها، ووضوحها، وما فيهما من رؤى، ونوعية الدراما فيهما، وحجم النشاط المتضمن في كل منهما . أما الحلم (٢) فيقيناً أنه من لا ـ س ـ ح ـ ع NREM،وتشخيصه على هذا النحو إنما هو على أساس ما يكتنفه من غموض. وكذلك الحلم (٤) فإنه أيضاً هو الآخر نموذج للأحلام التي تحصل في حالة نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، وذلك نظراً لقصره بصورة

أساسية ولغموض النوعية المحادثية فيه، ولخلوه من أية مصاحبات رؤية بصرية. ولغموض الأشخاص يصفون أحلاماً كهذه بأنها [فواصل إضافية] - كما هي الحال في الفواصل التي تتخلل المسرحيات - بدلاً من اعتبارها أحلاماً حقيقية.

وبهذا يتبقى فقط الحلمان (١، ٥) ماثلين للتصنيف، أحدهما حلم من نوع س - ح - ع REM، وثنيهما حلم من صنف لا - س - ح - ع NREM. فكلاهما قصيران وكلاهما يعبران عن اهتمام لا غبار عليه يرتبط بالتجربة الجارية وماهيتها، وهذا كفيل بأن يجعل مكانهما في فئة الأحلام التي تحدث في فترات النوم لا - س - ح - ع NREM. لكن الحلم (١) ينسل من فئة التفكير المجرد في الموقف التجريبي وينضاف إلى فنطاسيا Fantasy مكان الجراحة والانشغال بموقف درامي وجيز يتمثل فيه التحدث إلى أناس معروفين لدى الحلم. أما الحلم (٥) فلم ينهض من مكانه، فالحالم مكث في فراشه مفكراً بـ(جونز). ولهذا السبب، فإن الراصد يجنح إلى تفسير الحلم (١؛ بأنه من فئة س - ح - ع REM ويفسر الحلم (٥) بأنه من نوع لا - س - ح - ع NREM، وهذه هي الحقيقة.

طول الحلم هو محك آخر مهم من محكات تصنيف الأحلام، فأغلب ما يذكر من تقارير تتعلق بالأحلام من نوع لا - س - ح - ع NREM. وإن ما أجريته من تجاربي وجدت أن معدل طول التقارير عن أحلام REM و (٢٥٣) كلمة مقارنة بمعدل تقارير أحلام لا - س - ح - ع NREM إذ يبلغ (٥٩) كلمة فقط. فمعدلات أحلام الدكتور (Y) الآنفة هي (١٣٤) و(٤٨) على التوالي، وإن جميع ما يتصل بتقارير أحلامه من نوع REM هي أطول من تقارير أحلامه من الضرب لا - س - ح - ع NREM.

وأن أحلام الدكتور (Y) توضح فرقاً مهماً آخر يميز بين نوعي الأحلام س - ح - ع REM ولا - س - ح - ع NREM، إذ أن جميع أحلامه من نوع س - ح - ع REM إنما تنطوي على أكثر من حدث واحد. فهو في الحلم

(١)، مثلاً يلفي نفسه مستغرقاً في تفكير يمت بصلة إلى التجربة وإذا به فجأة يتحول إلى الخيال (فنطاسيا) إذ يجد نفسه في عيادة طبيب؛ أما الحلم (٣) فيشتمل على ثلاثة أحداث episodes، هي الهنود، ومنظر المستشفى، ومسرحية (دراما) رجل المخابرات. وفي جميع الحالات، يبدوعليه أنه يعيد ذكر أحداث أحلامه بصورة معكوسة ـ أي، أن ما ذكره أول مرة يتألف من حدث كان يمر به قبيل انطلاق جرس المنبه ومن ثم يعود أدراجه القهقرى تدريجياً مستذكراً خبرات حلم سابق من نمط الحلم الذي يقع عادة في فترات النوم من نوع س ـ ح ـ ع حلم سابق من نمط الحلم الذي يقع عادة في فترات النوم من نوع س ـ ح ـ ع REM.

فلو أمكننا ملاحظته مباشرة خلال النوم، لشاهدنا على وجه اليقين تقريباً حركات جسمية كثيرة تبدو عنده، وهذه الحركات تحصل عادة ما بين حدث وآخر وإبان كل حدث. والبحث يشير إلى أن الحركات الجسمية هذه هي المسؤولة عن قطع حلم جار والشروع بحلم آخر جديد خلال فترة س ـ ح ـ ع REM، ويتم هذا تماماً مثلما هي الحال عندما يطرأ اضطراب طارىء مفاجىء في الحياة اليومية ينبهنا مما نحن فيه من حالة استغراق أو استفكار أو حلم يقظة، فينقلنا الاضطراب هذا إلى حلم يقظة آخر أو يعيدنا إلى حياة الواقع. ففي التجارب ستة أحداث عندما كانوا في حالة حلم من نوع س ـ ح ـ ع REM، وقلما ذكروا مثل هذه الأحداث عندما يمرون بخبرات في حالة نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM . فالحلم (٥)، مثلاً ينتقل من الدكتور (Y) فيتحول إلى [جونز] الذي يسوي أرض الملعب. ولما كانت معظم الحركات الجسمية تحدث غالباً خلال فترة نوم المرحلة (٢) وهي قلما تحصل في مرحلة نوم (٣) ، فمن المحتمل كثيراً أن ما يتم من نشاط عقلي في حالة نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM إنما يكون مقسماً إلى أحداث عدة يكون تذكرها أقل وضوحاً وتواتراً مما يكون التذكر هذا حاصلاً في حالة نوم REM. سنبين في الفصل القادم، أن النوم يبدو أنه

يكف inhibit عملية تكوين آثار الذاكرة في الدماغ وهذا يتأدى بنا إلى نسيان ما كان يجري خلاله.

وإن العجز عن تكوين آثار للذاكرةخلال نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM يمكن أن يكون كذلك هو السبب في عدم وضوح كثير من الأحلام التي تحصل خلال مرحلة النوم هذه. وأحلام الدكتور (Y) توضح هذا الجانب بوضوح . فهو مثلاً حتى في الحلم (١) الذي يعتبر غامضاً حسب معايير أحلام س ح ع REM كان بمقدوره أن يتعرف على زميله وكأنه الدكتور (هـ) وعلى الموقف بأنه محل جراحة الدكتور (ب)، بينما لم يتمكن في الحلم (٢) من التعرف على الشارع ولا على الناس فيه. وهو بعد لم يكن متأكداً مما كان يدور من حديث. فالخبرة كلها كانت أقرب ما تكون إلى الانطباع أو الإحساس، منها إلى حلم حقيقي.

الأرض المهجورة في حالة النوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM

هذا النوع من أحلام NREM التي يجوب فيها الحالم عبر شوارع كدراء يتحدث فيها إلى أناس غرباء ويغلب حدوثه في حالات الإيقاظات المختبرية إنما هو نوع جدير بالتأمل الزائد والشرح المستفيض، وبخاصة عندما لا نجد أحلاماً كهذه تحصل وتسترجع في الغالب تحت ظروف اعتيادية كتلك التي تسود جو البيت. هذا الضرب من الأحلام قد جاء مفاجأة تامة لدى كثيرين من الأشخاص المتطوعين. في تجاربي (إنها أحلام أشبه بالأفكار اللفظية) قال أحد المتطوعين وقال آخر: [أمن الممكن أن يحلم المرء أحلاماً كهذه؟] وأضاف: [إن الأمر يبدو وكأنه يتحدث إلى أشباح ويحس كأنه تائه تماماً.] إن بعض الأشخاص كانوا يعبرون عن قلقهم صراحة إزاء ما يجدون أنفسهم فيه في هذه الأحلام ذات الطبيعة غير المتبلرة(١)، إذ يشعرون في الغالب وهم في غمرتها أنهم مرتبكون غير موجهين فيحسون وكأن

(١) المتبلرة بمعنى المتبلورة : ويراد بذلك الواضحة (المترجم)

أرواحهم هائمة. فأحد الأشخاص، وقد أوقظ من فترة حلم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، قد قال:

كنت أسير بل كنت عائماً في شارع ما، وكان هناك شخص آخر عائماً باتجاهي. ما عرفت من هو ذلك الشخص. ولم أعرف أين كنت. وأظنني سألت الشخص: أين أنا وفي أي مكان كنت. يالله! إنه لموقف يذكرني بأبيات تي. أس. أليوت في مقطوعته الشعرية [غدنغ الصغير] ـ ولعلك تتذكرين تلك الأبيات وفيها يقول:

في الساعات الحائرات قبيل السحر.
في أعقاب الليل اللامتناهي، عند الفجر،
بين حارات حيث الدخان اعتكب،
التقيت واحداً يمشي الهوينا
يخطو نحوي وقد مني أقترب.

لقد أنسيت البقية، لكنن أظن أنه سأل الشيخ سؤالاً ـ نعم ـ سأله عن البقية. وقد كانت الآتي:

أجابني صدى لا أدريه: ها قد أتيت
وإن لم نكن، كما نحن
بيد أني كنت حقاً هناك أرنو
أدركت ذاتي وكأنها مني تقترب
وكان الآخر يتراءى، فبدا مني يقترب.

هكذا كان حلمي يمضي. وإني الآن أدرك عم كان أليوت يتحدث، وماذا هو في أغلب قصيده يعني وإلى أي شيء كان يرمي.

ذلك هو ما كان قد ذكره ذلك الحالم.

ولما كان الاعتقاد السائد هو أن الأحلام هي المصادر الرئيسية للتعبير الفني عن هذه المواقف، فليس من غير المعقول، إذن، الافتراض أن أليوت

---

(١) متبلور (المترجم).

لم يكن يصف في حقيقة الأمر إحدى خبراته التي مر بها وهو في فترة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، ولعله كان يفعل ذلك دون وعي منه. وهذا الضرب من الحلم بالذات يمكن أن يعد أيضاً مسؤولاً عن فكرة قديمة بالية تتعلق بسرد حكايات عن أشباح تطل برؤوسها عند الغسق تطاردها أرواح الموتى وهي تلتمس لها مكاناً للراحة. والحق، أن التشبيه بمفهوم الموقف التطهيري(٢) يبدو جد ملائم وأنه لصائب في وقته وصحته، سيما أن بعض أشخاص تجاربي أعربوا عن إحساسهم بأنهم قد خبروا شيئاً من هذا القبيل. وقال شخص آخر: [كنت وحدي في الشارع تارة أخرى، وكنت أحاول إصلاح شيء أصابه خطأ.] وذكر ثالث: [كنت أتجول، وكنت أحس بوازع داخلي يقتضيني أن أشرح شيئاً ما أو أن أعبر عنه.] فكم، يا ترى، من فكرة قديمة قد بزغت من صميم الأحلام؟ إني لأتساءل.

من المؤكد أن رؤى جان كوكتو Jean Cocteau عن العالم الآخر، عبر أو خلال المرآة في فيلمه المسمى أورفيه Orphee، كان تماماً مشابهاً لحلم من نوع فترة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM ـ عالم حيث توجد أرض غريبة، كدراء، تلفها ظلال، وفيها أناس يمشون وكأنهم في حركات بطيئة أشبه بالحركات البطيئة في الأفلام السينمائية، أو أنهم يتدحرجون تدحرجاً يرددون ترانيم الحظ العاثر وأناشيد القدر، يسيرون وكأنهم يتوارون في سديم مخيف.

في كثير من أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، لا يكرث الحالم نفسه حتى بمغادرة فراشه المريح وما فيه من راحة لكي يفكر، يستشعر، يتحادث، بل يعمل وينشط حتى. ففي الحلم (٤) مثلاً، يتناول الدكتور (Y) قدحاً من الحليب ويتجاذب أطراف الحديث مع شخص ما، وهو في الحلم (٥) يحس أن الوقت صباح وأنه قد حان وقت استيقاظه. فلا عجب، إذن، أن كثيرين من أشخاص تجاربي حين تم إيقاظهم خلال فترات أحلام لا ـ س ـ

(٢) التطهيري: صفة من المطهر (بفتح الميم وسكون الطاء، مكان تطهر فيه نفوس الأخيار الأبرار بعد الموت، وعبر القرآن الكريم عن ذلك فسماه (الأعراف) (المترجم).

ح ـ ع NREM، أحسوا وكأنهم كانوا أيقاظاً وأنهم آنذاك كانوا يفكرون. هذا كان اعتقادهم، رغم أن ماكنة تسجيل تخطيط الدماغ EEG أظهرت أنهم كانوا يغطون في نوم عميق. ففي فترا نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، يبقى العقل عادة في حالة اتصال وثيق بالواقع تقريباً، وهذا خلاف ما يحصل في فترات نوم س ـ ح ـ ع REM، حيث ينسحب الحالم أكثر فأكثر إلى أعماق ذاته فينجذب نحو عالم مكتمل الصور. والأشخاص الذين يوقظون من فترات س ـ ح ـ ع REM، في الغالب يذكرون أنهم يحسون بأنهم تم (استدعاؤهم) أو استرجاعهم من مكان قصي ـ من نوم عميق، عميق ـ ومن المحتمل أن يكون الوهم هذا أو الخداع المرتبط ببعد المسافة فيه يكمن الجواب عن الحقيقة الذاهبة إلى أن صعوبة إيقاظ شخص ما من النوم س ـ ح ـ ع REM هي أشد من صعوبة إيقاظه وهو في إحدى المرحلتين الثانية أو الثالثة (٢، ٣) من فترات النوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM.

يبدو أن النوم في حالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM يفتقر إلى تلك الخصائص الخاصة التي ينطوي عليها النوم في حالة س ـ ح ـ ع REM والتي تعتبر ضرورية لتحويل الأفكار إلى صور واضحة Clear Pictures. فالأشخاص الذين يتم إيقاظهم من فترات نوم س ـ ح ـ ع REM يذكرون عادة أحلاماً لها كثافة الوضوح البصري، بينما نجد ما يذكر من تقارير تصدر عن الأشخاص الذين يوقظون من نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، تستثير استجابات تشير إلى التفكير وحده فقط، فهم يذكرون أنهم كانوا يفكرون أو أنهم قلقون، وتفكيرهم أو قلقهم يرتبطان عادة بأحداث المشكلات الجارية في حياتهم اليومية. وهذا هو السبب الوحيد الذي يكمن وراء تصنيف بعض الباحثين لما يصدر من خبرات تتأتى عن نوم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM بأنها مجرد أفكار بدلاً من وسمها بالأحلام. وأن هذا لا يعني أنه ليحصل دونما ريب، لكن الحلم في هذه الحالة يكون متركزاً عادة أو مشغولاً، بل ولعله يكون مغلفاً بما يكتنفه من خيالات. ففي الحلم (٦)

مثلاً، كان الدكتور (Y) مشغولاً ومنهمكاً طيلة فترة الحلم بمشكلة تتعلق بانطلاق السيارة من نوع [ميني]، وبما كان يمر في ذهنه من حلول محتملة وممكنة لتلك المشكلة. في حين أن ما يقابل ذلك من الحلم من نوع لا ـ س ـ ح ـ ع NREM لم يكلف نفسه بأكثر من التفكير والقلق حول عدم حيازته على إجازة سوق. وقلقه هذا لم يتجاوز حدود فراش نومه.

وفي الوقت نفسه، فإن أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM تتألف غالباً من محادثات مبهمة [أنظر مثلاً حلمي الدكتور Y رقم ٢، ٤]، أو أنها لا تزيد عن كونها كلمات منطوقة، في حين أن هذه الأحداث تبدو في أحلام س ـ ح ـ ع REM أنها لا تزيد عن كونها كلمات منطوقة، في حين إن هذه الأحداث تبدو في أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM أنها جزء لا يتجزأ من الدراما الجارية. فإحدى متطوعاتي مثلاً قد ذكرت لدى إيقاظها من حلم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM إنها لتوها سمعت بوضوح صوتاً، وعلى نحو غير متوقع، يناديها بقوله: [يجب عليك ألا تسمحي لكلبك بتلويث الزقاق.] وسمع شخص آخر من المتطوعين مَنْ يقول له: [يجب أن يكون لنا رمز نتخذه لعصرنا الجديد New Age] فمن المحتمل أننا نستيقظ من حالات أحلام كهذه أحياناً ولدينا إحساس بأننا لتونا قد تسلمنا السر الأعظم لهذا الكون. كان أحد الأشخاص المتطوعين يكافح بجهد عنيف لمدة لحظات من أجل استذكار معلومة لسر رسالة شفوية تسلمها في حلمه، وهي في غاية الأهمية كما ذكر. تلك المعلومات كانت: [القراء الذين يعارضون أعز أماني الرابطة معارضة أشد مما يسمح بها الموقف عليهم أن يملأوا هذه الاستمارة.] وشخص آخر من أشخاص تجاربي لبث زمناً طويلاً يبحث عن عنوان ملفت للنظر لمؤلفه الجديد في الكيمياء العضوية استيقظ مزهواً ذات صباح، ومعه الحل، وكان: [اثنتا عشرة ركيزة تبحث عن إجابة].

والأحلام التي يرد فيها ذكر للقراءة وفيها تكون الكلمات والحروف في الغالب هي السائدة إنما تطوف في عين العقل وتكثر عادة في حالات نوم لا

ـ س ـ ح ـ ع NREM. فإحدى الحالمات ذكرت أن حلمها كان [أشبه بقراءة كتاب أو كأنها كانت تفكر وهي في حالة النوم.] وقال حالم آخر: [كانت ثمة محادثة جارية ولكن لا أدري لماذا كنت أنا هناك ولست أعرف ما إذا كنت مشاركاً فيها. كان الموقف أشبه بقراءة في كتاب ممل، كما تعرف: لكنك ما أن تستيقظ حتى تجد إلا علاقة لذلك ولا رابطة له وأن كل شيء ينتهي بصورة آلية.]

وهذا ما يحصل لمعظم أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM بالضبط. فمن المعتاد أننا ننام خلالها ولا نستيقظ تلقائياً في حالة نومنا ونحن نمر بتلك الأحلام، وحتى إذا اتفق أن بقينا نتذكر حلماً من الأحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM هذه، فإن الحلم هذا عادة يكون باهتاً، عديم اللون، ولا صلة له بالموقف ككل ولذا فهو سرعان ما يلفه النسيان. وهذا ليس بالخسارة الكبرى بالنسبة لنا، إذ أن معظم أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM تبدو أنها تتيح قليلاً مما يمكننا ترجمته إلى ما يخدم أي غرض نافع، كما سأوضح هذا في ما بعد. ولكن من الأمور الأساسية للقارىء هي أن يعرف شيئاً عن أحلام [الأرض المهجورة] الغريبة هذه قبل الشروع في البحث عن حياته المتضمنة في أحلامه الخاصة به.

وأفضل طريقة للظفر بإحساس كامل لطبيعة هذه الأحلام ـ أحلام الأرض المهجورة، هي، بطبيعة الحال، عن طريق الخبرة الشخصية، ولذا فإني أقترح على القارىء الذي لم يتفق له أن مر حقاً بحلم من أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM في مسرى حياته الاعتيادية، أن يطبق على نفسه التجربة الآتية. أيقظ نفسك بواسطة ساعة تنبيه على فترات تمتد لمدة تسعين دقيقة تقريباً، واستمر على هذا المنوال طوال الليل، وكلما إستيقظت دون حالاً ما يأتي في ذهنك عما كنت قد مررت به في اللحظات التي سبقت سماعك منبه الإيقاظ. بهذه الطريقة، ولأنك قد قطعت دورة نومك عند نقاط وفترات مختلفة، فلديك فرصة مواتية أن تتجمع لك عدة أحلام من

النوعين س ـ ح ـ ع REM و لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، وإن لم يكن في المستطاع ضمان ذلك بطبيعة الحال. عد صباحاً إلى هذه الأحلام التي دونتها ليلاً، وتبين أيها يمكن أن ينسلك في عداد أحلام لا ـ س ـ ح ـ ع NREM التي تم وصفها في هذا الفصل. وبدون تخطيط للدماغ بواسطة آلة EEG لا يمكن التحقق من الموضوع بصورة موضوعية. إذ لا يمكن التأكد من تقدير الزمن اللازم للاستيقاظ لعدم وجود ضوابط تدلك على حقيقة اللحظة التي تغفو فيها مباشرة بعد حالة كل يقظة. وبعد عدة محاولات، على أية حال، ستجد الفروق بين أحلام س ـ ح ـ ع REM ولا ـ س ـ ح ـ ع NREM قد أصبحت واضحة المعالم لديك مما لا يدع ثمة مجالاً للشك في أغلب الحالات.

الفروق الفردية في الأحلام

لا معدى عن كلمة تنبيه هنا، هي أن الناس يتفاوتون كثيراً في عاداتهم الاحتلامية، ولعلك واجد أن لا شيء من أحلامك يماثل ما ذكره الدكتور (Y)، الذي كان قد وقع الخيار عليه ذلك لأنه يمثل [المعيار]. لئن كنت كثير الأحلام، كما أود تسميتك هكذا، فستجد أن لديك أحلاماً أطول، وأكثر وضوحاً، وأكثر دراماتيكية: أحلاماً من نوع س ـ ح ـ ع REM وتتسم بكل هذه الخصائص أكثر مما هي عليه عند الدكتور (Y)، مع نتيجة أخرى: تلك هي أن أحلامك من نوع لا ـ س ـ ح ـ ع NREM هي الأخرى شبيهة بالأحلام الاعتيادية وأكثر وضوحاً مما بحثناه في هذا الفصل. وأن أولئك الذين يسترجعون عادة أحلامهم بصورة تلقائية في حياتهم اليومية هم أقرب إلى أن يكونوا كثيري الأحلام، بينما أن أولئك الذين لا يستذكرون أحلامهم تلقائياً إلا قليلاً أو يعجزون عن تذكرها البتة فإنهم قليلو الأحلام.

صعوبة أخرى جديرة بالالتفات إليها هنا، تلك هي خبرات كل من

الحـلمين س ـ ح ـ ع REM ولا ـ س ـ ح ـ ع NREM تميل إلى أن تكون أطـول وتـكـتـسب خـصـائص الحلم كلما اقترب الحـالم من نهاية فترة نومـه، بحيث أنه رغم مـا ستجده من اختلاف كبير بين حلم من أحلامك في حالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM في أواخر ليلة نومك، وبين حلم من أحلامك في حـالـة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM في أواخـر لـيـلـة نـومك، وبين حلم من أحـلامك في حالة س ـ ح ـ ع REM في نـفـس ذلك الوقت رغم هذا كله. فـلن يكون من السهـولة بمكان تمييـز حلم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM عن بـدايـات حلم س ـ ح ـ ع REM. من هنا تنشأ صـعـوبتنا في تقرير حقيقة تلك هي: إلى أي فئة ينتـمي الحلم الأول من أحـلام الدكـتـور (Y) والحلم الأخير من أحلامه تلك.

وأكـثر إرباكاً هي الحقيقة الذاهبة إلى أن خفيفي النوم ـ وهم أولئك الذين توقظهم بسـهـولة المنبـهـات الخـارجـية كالضوضاء مثلاً ـ يذكرون في الغالب مـادة شـبـيـهة بالحلم مستمدة من فترات نومهم وهم في حالة لا ـ س ـ ح ـ ع NREM، بينما يقـتصر عـمـيـقـو النوم في ما يسردونه من أحلام كل فترات س ـ ح ـ ع REM. وأنك حـتى إذا كنت خفيف النوم فبوسعك التمييز بين أحلامك من النوعين س ـ ح ـ ع REM ولا ـ س ـ ح ـ ع NREM.

وفي نهاية النوم تـتعين الإجـابة على السـؤال: [مـا هو الحلم؟] مِنْ جانب الحـالم نفسـه. ومـا أريد أن أخلص إليـه، بوجـه عـام، هو أنه لمن المفـيـد التـحدث عن ضربين نموذجيين من ضروب الأحلام: وهما الحلم س ـ ح ـ ع REM الذي يكون بصـورة رئيـسـية عادة واضحاً وتهيمن فيه في العادة نزعة ذات طبـيـعـة بصرية، والآخـر الخفيف، لا نظير له وهو ذو طبيعة أقرب إلى التـفكير أكـثر منه حلماً خالصاً، ذلك هو الحلم لا ـ س ـ ح ـ ع NREM. تم بحث هذه المسألة بإسـهـاب ذلك لأنها تـتـسـبب في إرباك القارىء الذي ليس له أي إلمام بحـقـائق الأحـلام. على أن الحقيقة الأكثر أهمية هي يتعين على أولئك الذين يرغـبـون في الغـوص أعـمق في مـا هو خـاف ومختف وراء

أحلامهم من حياة، يتعين عليهم أن يتمكنوا من التعرف على هذين النوعين من الأحلام حينما يواجهونها.

الأحلام المقتضبة (٣)

وقبل إنهاء هذا الفصل، ينبغي أن نذكر نوعاً ثالثاً من الأحلام، وهو ما يحصل في مستهل النوم، إنه الحد الفاصل بين اليقظة والنوم العميق. وهذا النوع يعرف بالحلم (النعاسي) hypnagogic. ويتخذ في الغالب صيغة أنواع غير مألوفة من الإحساسات الجسمية، والمحادثات الغريبة، والاهتلاسات المستغربة، تتخذ لها شكل وجوه منفصلة تمر من أمام عين العقل. ومثل هذه الحالات قد تفسح المجال لأحلام كتلك التي يبلوها الحالم خلال فترات REM، يحدث هذا حتى وإن لم تكن فترة بداية النوم مصحوبة بالحركات السريعة للعين. وأياً ما كان الأمر، فإن أحلام النعاس أو الوسن هي أقصر وأقل دراماتيكية مما تكون عليه أحلام فترات س ـ ح ـ ع REM. ولهذا السبب فإنها يشار إليها أحياناً بأنها [أحلام قصيرة] أو مقتضبة أو موجزة dreamslet.

وبوسع القارىء الذي يهتم بالتعرف على الأحلام الموجزة هذه أن يحاول إجراء التجربة التالية. تمدد في فراشك على قفاك، ولكن اجعل ذراعك منتصبة في وضع عمودي، متوازناً على المرفق، بحيث يبقى في وضعه هذا بأقل جهد ممكن. وبهذه الطريقة يمكنك أن تنساب بسهولة وبعمق في حالة من النعاس أو النوم. ولكن توتر عضلة الذراع تتراخى عند نقطة معينة وأنت في حالتك تلك، وبتناقص توتر عضلة اليد فإن ذراعك ترتمي وتهوي على الفراش وعندئذ تستيقظ. عندها دوِّن حالاً كل ما يعن على بالك وما يرد على خاطرك كل ما كان قد مر بعقلك قبيل يقظتك. ستجد النتائج يمكن أن تكون ممتعة بل حتى أنها في المستطاع أن تتيح مادة نافعة لتفسير يتواءم وما سأناقشه في فصول تالية.

الفصل الثالث
لماذا ننسى أحلامنا

لماذا يستيقظ بعض الناس وفي أذهانهم كل صباح يستيقظون فيه حلم ما، في حين يدعي آخرون أنهم طيلة الشهر الواحد بل على مدار العام كله لا يحلمون إلا مرة واحدة أو لا يحلمون؟ إننا مدركون أن الناس لا يختلفون من حيث عدد فترات س ـ ح ـ ع REM التي يمرون بها أو تمر بهم كل ليلة خلال ساعات نومهم الاعتيادي، وإننا نعرف أيضاً أن [غير الحالمين] أو الذين يظنون أنهم لا يحلمون يذكرون من الأحلام التجريبية، بعد إيقاظهم تحت ظروف التجربة، يذكرون من أحلامهم بقدر عدد الأحلام التي يرويها الحالمون أو كثيرو الأحلام. هذه النتيجة أدت بالباحثين إلى أن يستخلصوا من هذا كله أن ما هو شائع ومعروف ظاهرياً عن اختلافات وفروق بين الأفراد فيما يتصل بنشاط الحلم إنما تعزى إلى تفاوت بينهم في ما يبقى عندهم من أحلام تستقر في الذاكرة، وليست هذه فروق ترجع إلى مقدار تكرارات الحلم، وهذا ما حدا بالباحثين إلى أن يشيروا إلى الذين لا يستذكرون أحلامهم أكثر من مرة في الشهر الواحد بأنهم (اللاتذكريون) أو لا استرجاعيون ويشيرون إلى الذين يرون أحلاماً باستمرار بأنهم أناس (تذكريون) أو استرجاعيون.

وغالباً ما يذكر بأن لدى الذين يتم إيقاظهم ببطء وتدريجياً فرصة في استذكار أحلامهم أكثر وأكبر ممن يتم إيقاظهم بصورة مفاجئة وبمنبهات سريعة كساعة التنبيه مثلاً. هذا هو الشائع. لكن الحقيقة هي خلاف ذلك، والعكس هو الصحيح. فقد ثبت علمياً وتجريبياً أن الإيقاظات المباغتة عقب ضوضاء عالية ينجم عنها استرجاع للأحلام المترتبة على الهمس الناعم الرقيق الذي يدل على أن معظم الحلم يتبدد بسرعة فيما يمضي من وقت بين النوم والإيقاظ. ولهذا فإن ما يستخدم عادة في تجميع نتائج

تجارب الأحلام هي المنبهات الطنانة ذات الأصوات العالية وأجراس التلفونات. وأن ما استعملته كمنبه في عملي هو منبه طنان يبعث صوتاً أشبه بصوت الثور الهائج وإن هذا في بعض الأحيان يغيظ أشخاص تجاربي، فهم يعربون بحن قائلين مثلاً: [إني متأكد من أنني كان بمقدوري أن أتذكر لو أنك استخدمت منبهاً ألطف.] في النهاية حاولت الاستجابة إلى رغبتهم هذه، لكن النتائج جاءت سلبية.

إن مقدار ما لدى الأفراد عادة من خبرة أياً كان نوعها قبل الاستيقاظ من نومهم الاعتيادي، كما جرت العادة في استيقاظهم استجابة لساعة التنبيه، بدلاً من الاستيقاظ التدريجي، يمكن أن ينسب إلى ذلك، ولو بنسبة صغيرة، ما يوجد بينهم من فروق فردية في استرجاع ما يطرأ لهم من أحلام في أوقات نومهم اليومية. وأن لدى الذين يتم إيقاظهم بشكل مفاجيء فرصة في الاحتفاظ بمقدار من أحلامهم وبالتالي استرجاعا أكبر ما يمكن أن تتوفر لدى الذين يوقظون بشكل متدرج وبخاصة في الساعة الأخيرة من ساعات نومهم الليلي. عندما يكونون جميعهم في فترة REM.

وقد كشفت تجارب أخرى عن أن اللااسترجاعيين، بحكم اعتيادهم على عدم استرجاع أحلامهم، يحتاجون عادة منبهات لإيقاظهم أقوى مما يحتاجها الاسترجاعيون، مما يدل على أن النوع الأول من هؤلاء الأشخاص هم أعمق نوماً من النوع الأخير. ولعل في هذا يكمن أحد الأسباب وهو أن بعض الناس هم استرجاعيون وتذكريون ذلك لأنهم كثيراً ما يستيقظون من نومهم خلال الليل فيستبقون في ذاركتهم أحلاماً يحتفظون بها أكثر من إخوان لهم من عميقي النوم.

نسيان الأحلام والشخصية:

مهما يكن من أمر، فإن حجم ما متوفر من شواهد يشير إلى أن حقيقة ما بين الاسترجاعيين واللااسترجاعيين من اختلاف في القدرة على الاسترجاع

والتذكر للأحلام، إنما هو اختلاف يكمن في الخصائص النفسية لشخصياتهم أكثر مما هو اختلاف في عمق نومهم أو الطريقة التي يوقظون بها أنفسهم من النوم. منذ عدد من السنوات خلت لاحظ الباحثون باندهاش بالغ ما كان يظهر على عيون اللااسترجاعيون خلال نومهم من حركات سريعة سجلتها آلات تسجيل الحركة السريعة للعين، أكثر وأسرع مما تم تسجيله عن حركات عيون الاسترجاعيين مما دل على أن اللااسترجاعين كانت تمر بهم أحلام أكثر وأنشط مما كانت تطوف بالاسترجاعيين. فلم إذن يذكر اللااسترجاعيون عادة أحلاماً أقصر، وأخف، وأدنى وضوحاً مما يذكر الاسترجاعيون؟

هذا التناقض تمت الإجابة عليه عندما استبان الباحثون نتيجة للبحث العلمي إنه في الحياة الواعية أن حركات العين حينما يكون نظرها مشتتاً بعيداً يتبدد أكثر مما لو كان النظر مسدداً إلى شي معين أو منظر محدد. فعندما عرضت صور على مجموعة من الأشخاص وتم خلالها رصد حركات عيونهم وهم يلاحظون تلك الصور، تبين أن مقدار ما كان قد تم تسجيله من نظراتهم الزائغة لدى رؤيتهم مناظر كاربة للنفس أو تنطوي على التهديد والتخويف، هي أكثر من حركات عيونهم المركزة على الصور الجذابة، وكانت نظراتهم المركزة على الصور المنفرة أقل من مقدار نظرهم إليها. وفي دراسة أخرى، سئلت جماعة من الأشخاص أن يتصوروا حدثاً معيناً، تبين نتيجة لذلك أن ثمة قدراً قليلاً من حركات العين تم تسجيلها، لكن مقداراً أكبر من حركات العين تمَّ رصدها بالتسجيل كانوا يجيلون الطرف في أرجاء المكان بلا هدف وكأنهم يحاولون صرف الأنظار وإبعاد الانتباه عما هم فيه من تخيلات.

علل الباحثون ذلك بإمكان أن اللااسترجاعيين يمكن أن يسلكوا في أحلامهم بنفس طريقة تنقّل العين هذه، فهم يرون أحلامهم، ولا سيما غير السارة منها بنفس الأسلوب. ولعل في هذا يكمن تفسير السبب أن

اللااسترجاعيين لا يتذكرون أحلامهم لأنها لا أمتاع فيها. على أن ما هو متوافر من متراكم الشواهد تشير إلى أن اللااسترجاعيين بالتصميم يحجمون عن تذكر أحلامهم ويترددون في تذكرها، تماماً مثلما هم يتفادون أو يتنكرون وينكرون الخبرات غير السارة وضروب القلق الكابسة الضارة التي يمرون بها في حياتهم اليومية ولقد أظهرت الاختبارات النفسية على وجه العموم أن اللااسترجاعيين أكثر تزمتاً، وأشد التزاماً، وأقوى تحكماً في انفسهم، مما يكون عليه عادة الاسترجاعيون الذين يعربون بجلاء عن قلقهم إزاء مشكلات الحياة والذين هم أميل إلى الإعراب عن اضطراباتهم الانفعالية العامة، كالقلق وعدم الإحساس بالأمان. لعل العزم على التصدي لهذا البعد من الخبرة - وهو ما يدعوه بعضهم وعي الذات Self- awareness والذي يفصح عن اهتمام وثيق بالحياة الداخلية الذاتية للفرد، لعل هذا هو ما يؤلف الفرق الأساسي بين الاسترجاعيين واللااسترجاعيين.

ولا يفوتني أن أتذكر هنا وأذكر بما أتى به كارل غوستاف يونج Jung من تصنيف شهير معروف للناس، إذ صنفهم إلى نمطين: هم الانبساطيون extroverts وهم الذين يوجهون جل اهتمامهم إلى طبيعة علاقاتهم بالعالم الخارجي أكثر مما يوجهونه إلى دواخل حياتهم الداخلية، والنمط الثاني هم الانطوائيون introverts، وهم الذي تتوجه طاقاتهم إلى دواخلهم بصورة رئيسية. ولعل البحث سيكشف مستقبلاً عن أن ما يتم من استرجاع ضئيل للحلم أو كثير إنما يرتبط أوثق الارتباط بمقاييس بعدي الانبساط والانطواء في الشخصية.

كبت الأحلام

لعل المحللين النفسانيين يقولون أن اللااسترجاعيين يكبتون أحلامهم، وبعبارة أخرى، أنهم يطردون عن قصد كل ذاكرة لهم من مجال الوعي

الشعوري ذلك لأن ذواكرهم [أو ذاكراتهم] تلك تحتوي على أفكار ورغبات مزعجة لهم كاربة لحياتهم. يعتقد المحللون النفسانيون إننا جميعنا ـ نحن البشر ـ نؤي بين جوانحنا رغبان جنسية طفلية ونوازع عدوانية، كانت قد أنكر عليها التنفيس عن ذاتها والتعبير عما تريده هي إبان الحياة الواعية لأنها تتنافى والقوانين الأخلاقية السامية التي نفرضها نحن على أنفسنا، لذا فهي تلتمس لها نوعاً من الإشباع الإبدالي في الأحلام. فالمحللون النفسانيون جميعهم يذهبون في حجاجهم إلى أن أننا جميعاً بنوع أو آخر كابتون لأحلامنا، أي أن المكنية الكابتة عندنا تعمل بشكل شمولي وعلى نحو آلي لتموه فتخفي هذه الرغبات المنكورة غير المقبولة فتبدو متجلية في الأحلام، فلا نفقه لها ـ الرغبات المنكرة ـ معنى وهي بعد لا تغيظنا إذا ما انبرت وعبرت عن نفسها تزييفاً في الأحلام. على أن التمويه هذا يكون في بعض الأحيان واهياً باهتاً نلجأ معه إلى الكبت repression لكي نفتت كل ذاكرة لها صلة بالأحلام. إنه بهذا المعنى يمكن أن يقال عن اللااسترجاعيين بأنهم أكثر كبتاً من الاسترجاعيين ـ إنهم يشجبون حياة الاستفزاز ـ القلق التي تتبدى في الأحلام فيطرونها بعيداً ويلقون بها في مطاوي النسيان وهم يعملون هذا اويقدمون عليه أكثر من أخوة لهم [وهم الاسترجاعيون]، أشجع منهم ممن ينتفعون من حياة أحلامهم هذه ويستعملونها من أجل النمو ومعرفة النفس Self - knowledge.

سيتم بحث الوظيفة التمويهية المزعومة للأحلام في فصل آخر آت، لهذا فإنا لن نتابعها هنا، في هذا الفصل أكثر. وإنما يكفي أن نذكر هنا أن كثيرين من المحللين النفسانيين مقتنعون بأن اللااسترجاعيين من مرضاهم يخفقون في تذكر حتى الأحلام التمويهية لأنهم يخشون الفظائع القابعة هناك في أعماقهم من أن يكشف عنها بواسطة تفسير الأحلام فتهيج من قمقمها. وإني لأذكر هنا صديقة لي لا استرجاعية قد أصبحت شديدة الابتئاس بعدما استمر محللها النفساني في تكرار اتهامه إياها بأنها بعيدة الغور من ناحية

حياتها العقلية اللاواعية. وكان رأي المحلل النفساني يقوم على أساس تنكرها لأحلامها التمويهية. فعرضت عليها جلسة تجريبية نتعاون فيها معاً على أن نباغت اللاوعي عنوة وذلك بأن أوقظها من فترات نوم تكون فيها في حالة نوم من نوع س ـ ح ـ ع REM وأن يتم على الفور تسجيل ما تم من أحلام، لكن التجربة أخفقت، إذ أن التسجيل لتخطيط الدماغ وإن كان قد أظهر وجود ثلاث فترات من نوم س ـ ح ـ ع REM خلال الليل، مع هذا فهي لم تتمكن من تذكر حلم واحد عندما أوقظت من فترات نومها الثلاث تلك، علماً أنها كل مرة توقظ فيها تذكر أنها تحس بأنها كانت تحلم. عندذاك اعترفت، بانكسار نفس، إلى محللها بأنه كان محقاً فيما كان يقوله لها، وهكذا استسلمت إلى وجودها الخالي من الأحلام حسب زعمها. إلا أنني اكتشفت فيما بعد أنها كانت خلال كل ليلة من ليالي التجارب تتناول حبوبها المنومة المعتادة، حيث كانت قد اعتادت عليها من قبل. وعندما شككت في الأمر وتبيت الحقيقة استوضحتها عما إذا كانت راغبة في معاودة التجربة ثانية، على ألا تتناول حبوبها المنوّمة في الجلسة الثانية هذه.

إنها وإن كانت مقتنعة بأنها لا تنام بدون حبوبها المنوّمة، فإنها في النهاية وافقت على الإقلاع عنها، فأثمرت تلك ثلاثة أحلام (كبيرة) قدمتها بزهو وانتصار إلى محللها النفساني في اليوم التالي وهي تقول له: [حقاً إني كنت بعيدة عن حالة الوعي عندي! إنها تلك الحبوب المنومة السيئة كانت السبب.] فبالنسبة إلى حالتها، قد تكون الحبوب المنومة هي التي أثرت على تعميق نومها على نحو ما مما أدى إلى بعثرة ذاكرة الأحلام وفقدانها فيما بين وقت المنبه الخاص بالإيقاظ وبين اليقظة التامة عندها، هذا من جهة. ومن الجهة الأخرى، فمن المعروف أن [البربيتوريك] ـ وهو أحد مشتقات حامض البربيتوريك ويستخدم كمسكن ـ يقلل من عدد حركات العين السريعة في فترات REM ، مما يؤدي إلى حالة سلبية وخمول وبالتالي إلى

تذكر للأحلام أقل. وإني في الحالات النادرة التي أتناول فيها حبوباً منوّمة، لاحظت أنني قلما كنت أتمكن من تذكر أي حلم.

هذا، وقد ذكرت من قبل، أنه يبدو أن بعض الناس هم حقاً [خارج نطاق ملامسة حياتهم العقلية الواعية] - أي أنهم تماماً على غير وعي بالأجزاء الخفية من شخصياتهم - وإن فقدان استرجاع الأحلام عندهم إنما هو ظاهرة عرضية - من عرض - Symptomatic - لهذا الجانب. ويتفق أحياناً أن يتصل بي محللون نفسانيون ومعالجون نفسانيون، يطلبون مني إعطاء بعض مرضاهم من اللااسترجاعيين زخماً تذكرياً لأحلامهم داخل المختبر، وذلك لتمكينهم من تذكر قليل من أحلامهم لاستخدامها لغرض التحليل. في الوقت الذي يمكن فيه للمحلل النفساني أن يمضي في عمله مع مرضاه دونما حاجة تدعوه إلى اللجوء إلى الأحلام، لكن مهمتهم تكون أكثر يسراً وأكثر سهولة لو أنهم استطاعوا استبانة بعض أحلام مرضاهم من وقت لآخر. وفي الوقت الذي تفلح فيه الأساليب المختبرية في استمداد أحلام من اللااسترجاعيين المزمنين، يجب في نفس الوقت ألا يغرب عن البال بأنه مجرد إيقاظ الشخص المقاوم والرافض حقاً للتعاون في هذا المجال والطلب إليه أن يتصل بدواخل ذاته الخفية وهو يأبى ذلك، فلا جدوى من محاولة كهذه.

فليس من غير المألوف، مثلاً، أن نجد شخصاً أحياناً يأتي إلى المختبر كان معروفاً عنه أنه لا يتذكر تلقائياً أحلاماً يراها في منامه في بيته فنتوقع منه أن يذكر أحلاماً لدى إيقاظه مرتين مثلاً خلال نومه في المختبر، ثم لا نتوقع منه أن يذكر حلماً ما بعد تينك المحاولتين. ففي ما تبقى من الليل لابد أنه سيرى حلماً ولعله سيتذكره. أو لعله ينجح في تذكر أحلام يراها في الليلة التجريبية الأولى ويخفق في ليال أخرى تالية، حيث يذكر لنا في الغالب أنه كان يحلم لكن الحلم كان يبدو له أنه يفلت من ذاكرته فلا يستطيع أن يسترجعه. فإحدى أشخاص التجربة، مثلاً، كانت تبدو ممتعضة، حين

قالت: [في كل مرة توقظيني، أعرف أنني كنت في حالة حلم من الأحلام، لكنني لا أستطيع استرجاعها. أتحسبين أنها حالة دفاعية؟] مما لا امتراء فيه أنها كانت على حق فيما ذهبت إليه، وإني لعلى يقين من أن أي محلل نفساني يكون محقاً لو أنه ذهب إلى عقلها اللاواعي، وقد أخذ على حين غرة في ليالي النوم الأولى فاسترقت منه أحلامه، قد عاودته حكمته فانتبه وأدرك مغزى اللعبة التي انطلت بادىء ذي بدء عليه فراح يكافح ويتصدى لتلك الألاعيب مما تسبب في كبت الأحلام.

إن كبت الحلم قد يحدث قبيل اليقظة أو حتى في لحظة اليقظة نفسها، بحيث أن الحلم أما أن ينسى تماماً أو شذرات أساسية منه تُنسى. وإن نظرية كبت الحلم لممتعة وبخاصة لأولئك من بيننا ممن أخفقوا في استرجاع أحلامهم رغم ما بذلوه من محاولات غير ناجحة. وإن هذه ليست هي القصة الكاملة فيما يتعلق بكبت الأحلام ونسيانها، كما ستتبين ذلك مؤخراً.

اتضح أن حتى الأشخاص المتطوعين الاعتياديين الذين اعتادوا بانتظام تذكر أحلامهم التي يرونها في بيوتهم في الغالب لديهم مقاومة [لا شعورية] لتذكر أحلامهم في المختبر. فإحدى المتطوعات والتي كانت متحمسة للتجربة قد ذكرت عدة أحلام لطيفة ومثيرة خلال فترات إيقاظها من نومها في حالة REM في ليالي التجارب المبكرة. فهذه المتطوعة لم تستطع في يقظاتها التاليات أن تتذكر من أحلامها الماضية سوى أنها كانت في وسط حلم طويل درامي، ذكرت هذا عندما أيقظتها من حالة حلم. ولقد عبرت عن قدر غير قليل من الجزع وفقدان الصبر لعدم استطاعتها تذكر أي من أحلامها. وقد خاطبتني هاتفياً في عصر اليوم التالي لتقول لي أنها تذكرت الحلم لكنه شخصي خالص مما لا يمكن ذكره. إذ ذكرت [حتى لو أنني تذكرته آنذاك في المختبر، لما أمكنني الكشف والإفصاح عنه. وإني لا شك أنني أستطيع سرده لك. وفوق كل شيء، فإن الأحلام أمور خاصة تهم

أصحابها وحدهم، أليس كذلك؟] إنها لأمور خاصة حقاً، وإن كثيرين ممن يتحمسون للإسهام في تجارب الأحلام وهم غير مدكرين تماماً لما عندهم من قلق دفين بشأن الإفصاح أكثر مما ينبغي عن أحلامهم سواء كان الإفصاح هذا موجهاً إلى أنفسهم ذاتها أم أسروها إلى القائم بالتجربة.

ويعبر أشخاص آخرون في التجارب عن مخاوفهم اللاشعورية وعن مدى امتعاضهم بشأن ما يجري من تجارب عن الأحلام. فأحد الأشخاص الواضح في تعاونه أعرب بما لا يدع مجالاً للشك، بعد أول حلم تجريبي له، عن أننا متورطون بجهد مضن. وكان هذا الشخص قد رأى حلماً شاهد فيه طبيباً في الممر الموصل بين غرفة التجربة التي كان نائماً فيها وبين غرفتي حيث كنت أجالسه لتسجيل أحلامه على مسجل. وكان هذا الطبيب الذي يبدو مظهره شريراً يحاول قطع الأسلاك بين الغرفتين أو إيقاف التجربة. وكان الشخص الحالم هذا على وشك تحذيري، كما ذكر، ولكن المنبه أيقظه، ولما كان الشخص الحالم هذا هو نفسه طبيباً، فقد كان لدي شك قليل في ما يتعلق بهوية المخرب العابث Sabotur المزعوم، وقد أدركت حقيقة تشككي ومخاوفي حينما حصل عند منتصف الليل خلال التجربة، أن الحالم قد أصيب بالصداع النصفي [الشقيقة] مما ألزم بإنهاء التجربة وإيقافها عند ذاك الحد.

لذا فإن المعالج النفساني الذي يتحرى الأحلام ليفسرها وصولاً لبغيته، لن يجد في التقنيات المختبرية الجديدة دواءً ناجعاً لجميع الأدواء. ورغم هذا، فإنها ـ التقنيات ـ يمكن أن تكون جد نافعة وذات جدوى في مساعدة اللااسترجاعيين المزمنين لأن يكونوا واعين لما يمر بهم مما يشابه الأحلام، وإن هذا له قيمته ليس بالنسبة لأولئك ممن يمتهنون العلاج النفسي فحسب، بل أيضاً إنها ذات قيمة كبرى لنا جميعاً، كما ستوضح ذلك لنا فصول تالية من هذا الكتاب مصممة لهذا الغرض.

أما مع الاسترجاعيين، فإن الطرائق الجديدة هذه لا تقدم لهم إلا

القليل، طالما أن عـدداً محدوداً فـقط من الأحلام هذه يمكن الاستهداء به في سـياق العلاج ـ من هذه الأحلام، حلمان أو ثلاثة منها عادة يتم الانتفاع بها خـلال الأسـبـوع، وذلـك في الأعم الأغلب. والحق، فـفي العـلاج النفسي المهني نجد أحياناً أنه حتى هذا العدد القليل يكون مدعاة للاحراج. فعندما ابتـدأت بالتـحليل أول مـرة، احـتفظت لنفسي بمفكرة أحلام سجلت فيها خلال العام الأول فقط ما يربو على (٢٠٠) حلم . وقـد توقـفت في آخـر الأمـر عـن هـذا، نـظـراً إلى أنـه لا المـحلل المشرف على تحليلي ولا أنا نفسي اسـتطعنا مـواجـهـة هذا السيل الغامر من مواد الحلم. وقد قرأت أخيراً، مع اهتمام بالغ وبوافـر الاسـتـمـتاع، أن فرويد في خاتمة المطاف قد مزق مفكرة أحـلامـه الخـاصة، وتعليله كان: [ببساطة أن المادة قد أغرقتني وبي أحدقت من كل جانب كما أحدقت بأبي الهول كثبان الرمال.]

كـذلك، وكما يعرف كل معالج نفساني، فإن كثرة الأحلام أكثر مما ينبغي يمكن أن تكون ذات دلالة من دلالات الأعـراض الراميـة إلى الرفض، كما هي الحـال في قلتها أدنى مما يجب. وإني لأذكر هنا أنني أعتدت على حضور جلسـات مجمـوعـة تحليليـة، فكان بعـضـهم يغـرقنا بتفصيلات من الأحلام وتفسيرها إلى حـد يبـعث على الملل، ويدعـو إلى الضـجر، وأخيراً ذكر قائد المجـمـوعـة التـحليلية تلك أنه عليهم أن يكفوا عن الذهاب إلى التفصيلات المملة وعـدم الغوص في مسائل لا حاجة للكشف عن مواجهتها.

لا جـرم أن الطرائق المختبرية لها جدواها للمعالج النفساني. وإن كثيرين من المعـالجين قـد انتـفـعـوا بها أيما انتفاع، وبخاصة في ما يتصل بمحاولات اسـتـشكاف الكيفية التي يؤدي فيها الكبت إلى نسيان ما كنا يوماً ما نتذكره من أحلام. هذا، وكان فرويد، في عام (١٩٠٠) قد كتب يقول:

[كـثـيراً مـا كـان يحـدث لي، كما كـان يحدث لغيري آخـرين من المحللين النفـسانيين، وإلى مرضى تحت العلاج، أنه عندما استيقظ في إحدى الليالي من أحـداث حلم يوقظني، كما يمكن أن يقـال، فإنني أباشر على الفور بعد

ذلك، وأنا متملك كامل قواي العقلية، أباشر بتفسيره. وفي حالات كهذه، فإنني في الغالب أقاوم إغراء الإخلاد إلى الراحة حتى أصل إلى فهم تام للحلم الذي رأيت: ومع هذا، فقد توالت لدي خبرة تلك هي أنني عندما أستيقظ في النهاية صباحاً، أجدني تماماً قد نسيت كلاً من نشاطي التفسيري ومحتوى الحلم، علماً أنني على علم بأنني كنت قد حلمت وكنت قد فسرت الحلم. وكثيراً ما يحصل عندي أن يسحب الحلم معه إلى مطاوي النسيان نتائج نشاطي التفسيري فينساب بها إلى هناك. وهذا ما كان يحدث لي أكثر مما كانت فعاليتي العقلية تفلح في الإبقاء على الحلم حياً ماثلاً في ثنايا الذاكرة.]

فرويد كذلك كان قد لاحظ أن كثيراً من مرضاه، عندما كانوا يسردون وقائع أحلامهم في غرفة الاستشارة الطبية، يتوقفون فجأة فيتذكرون ويسترجعون جزءاً من حلم سابق كانوا قد نسوه. فاعتبر الشذرات المنسية هذه أكثر أهمية من أقسام الحلم التي تم تذكرها من قبل. فهو قد كتب يقول: [يحدث غالباً أنه عندما يروي مريض ما حلماً رآه، فإن جزءاً منه يكون قد نسيه نسياناً تاماً. وأن القسم المنسي هو ما يمكن أن يتيح أفضل تفهم وفهم وتوجه جاهز يفضي إلى التقاط أطراف ما يراد من الحلم وما يرمي إليه ذلك الحلم. ولعل هذا هو السبب في غوص شذرات من الحلم في مهاوي النسيان.]

وقد توافر مؤخراً لدى برفسور روي ويتمن Roy Whitman وزملائه من كلية الطب، جامعة سنسناتي Cincinnati بولاية أوهايو، توافر لديهم من الشواهد ما يشير إلى أن فرويد قد يكون على صواب فيما ذهب إليه من وجهة نظر تقول أن جزءاً مما كان قد تم نسيانه من الحلم هو أكثر دلالة وأبين مغزى من القسم الذي يتم تذكره. ولنذكر هنا مثلاً له مغزاه. كان هناك شخصان يخضعان للعلاج النفسي، وقد تم إيقاظهما عدة ليال من حالة نوم كانا فيها وهي فترة REM، وكان يطلب منهما ذكر أحلامهما إلى

القائم على التجربة. وفي اليوم التالي تكون لهما جلسة علاج مع المحلل النفساني. ومنذ الجلسات الأولى، كانت أحد الشخصين امرأة، تذكر إلى المجرب ما يتصل بأحلامها المتعلقة بالجنس ولكنها لا تذكرها إلى المحلل النفساني، في حين كانت تذكر إلى المحلل النفساني أحلامها المنطوية على النزعتين الجنسية والعدوانية الموجهة نحو المجرب، وتحجبها على المجرب نفسه. فهي كانت تروي من أحلامها إلى المجرب ما يتلاءم ووجهة نظرها وما ترغب فقط في الإفصاح عنه. أما الشخص الآخر، وهو رجل، فقد أفضى إلى المحلل بكل أحلامه التي تسلط الضوء على قابلياته بوصفه رجلاً، لكنه حذف قسماً منها إذ هو لم يذكر قط تلك الأحلام التي كانت تكشف عن ميوله في الجنسية المثلية ـ وهو الانحراف الجنسي المعروف ـ Homosexuality. ولما لم تكن معاني هذه الأحلام مما يستكنه مرماها مباشرة وبصورة ظاهرة، فقد استخلص ويتمن أن هذين الشخصين قد أدركا بصورة شبه شعورية في الأقل معنى ما تعنيه أحلامهما، ولذا فهما قد عمدا إلى إخفاء مالا يريدان أي فرد النفاذ إلى شخصهما من خلال تلك الأحلام. وفي هذا الضرب من السلوك قد تمكن ذانك الشخصان من التغلب عليها أما بواسطة الكبح Suppression الواعي الشعوري أو عن طريق الكبت اللاواعي، أي اللاشعوري حسبما كنا قد بحثناه.

يكتب ويتمن بهذا الصدد فيقول: [مما يؤخذ على أنه من المسلم به عادة هو أن كل ما يذكر من أحلام خلال الجلسة العلاجية أنها أحلام تنطوي على صراعات رئيسية يعاني منها المريض في وقتها. أن مثل هذه المواقف يجدر أن تحمل المعالج النفساني على أن ينظر إليها بشيء من الشك، ذلك لأن واحداً أو أكثر من واحد من الصراعات النفسية الشخصية الرئيسية المتداخلة، إنما تكمن في ما لم يتذكره المريض من أحلامه.] فهو ـ ويتمن ـ يعتقد أن تقنيات اكتشاف الحلم الحديثة وأساليب تبيانه يمكن أن تكون ذات فائدة إكلينيكية إن هي تم استعمالها وفق منهجية تجاربه في جعل

الأحـلام المنسـيـة حاضر تذكرها ليستخدمها المعالج النفساني في سبيل زيادة مـعـرفـتـه، بما هو دفين لدى الشخص من مخاوف وعوامل مقاوم. وإني لعلى قناعـة بأن المريض الكابت حـقـاً لأحـلامه وأوهامه، سرعان ما يتعلم نسيان أحـلامـه مـن أسـاس مـصـادرهـا وذلـك بـالـلجـوء إلى بعض الطرائق التي لاحظت الأشـخاص في تجاربي كانوا قد استخدموها.

وفي الـوقـت الـذي لا يخالجني فـيـه شك أن قـدراً مـعـيناً من الكبت هو المسؤول عما ينسى من أحـلام، لكن هذه ليـست هي كل القصة، كما ظن فـرويد، طالما أن حـتى أكـثـر الناس انفـتـاحـاً ووعـيـاً بما يجري حولهم من أحـداث الحـيـاة هم كـذلك عـرضـة لنسـيـان الأحـلام. وحتى أكثر الناس أحـلاماً لا يتذكرون أكثر من أربعة أو خمسة أحلام من أحلامهم عند اليقظة في الصـبـاح، علماً أن الدلائل العلمـية، ومنها REM ،تـشير إلى أننا جمعنا تقـريبـاً نحلم مـثل هذا العـدد كل ليلة خـلال نوم يسـتـغـرقنا سبع أو ثماني سـاعـات. والحق أن الدلائل لتـدل على أن مـعظم الأحـلام لا يتم تذكرها البتة، في حين أن أحلاماً أخرى لا تستبقى منها إلا شظايا متناثرات. ولكن لماذا ننسى كثيراً من أحلامنا؟

الميل الشامل لنسيان الأحلام

يـذكـر كـلايتمان أن الاسترجـاع الضـعـيف يمكن أن يعـزى إلى الكفـاءة الضـعيفة في الدماغ خلال النوم، وهو يشبه حالة النائم بحالة الطفل الصغير جـداً، والشـيـخ الكبير جـداً، والشـخص الثـمل جداً! ونجد أوزوالد يوافقه عـلى رأيـه هـذا إذ يذكـر: [أن نسـيـان الأحـلام جـد سريع، وأنه ليس من الضروري اسـتـثـارة الكبت ليـفضي إلى الإخـفـاق في استرجـاع مـعظم مادة الحلم، أكـثر مما تؤدي إلى النسيان هذا حالات النسيان المرضية النفسية التي تعقب الصدمات Post - Traumatic، أو النسيان المتأتي عن حلة الثمل، أو الصدمة الكهربائية ELECTROPLEXY أو أية حـالة من الحـالات الأخـرى

يصاب فيها نشاط الدماغ بعطب مؤقت.] بعبارة أخرى، فإن حالة الدماغ خلال النوم قد يفقد كفاءته في إرساء آثار للذاكرة.

أظهرت التجارب التي أجريت أن الحلم يتطوح بعيداً عن الذاكرة، إذ هو يتشظى شظايا متناثرة، ثم يتلاشى متبخراً تماماً، ثانياً. فحينما يوقظ شخص ما من حالة نوم REM ، فإنه يذكر دائماً تقريباً أنه رأى حلماً جلياً واضحاً. وهذا ما تم إيقاظه بعد خمسة دقائق من رؤيته حلم وهوفي حالة نوم REM فإنه لا يتذكر أكثر من شذرات مما رأى من حلمه ذاك، وإذا ما أوقظ بعد مضي عشر دقائق على الحلم في حالة REM ، فإنه لا يتذكر من حلمه ذاك شيئاً. فعلى أساس عدد الكلمات التي تذكر عن كل حلم بعد انقضاء فترات الدقائق عقب كل حلم نجد انحداراً دراماتيكياً في تذكر الأحلام.

فمن الواضح إذن أنه ما لم يتم إيقاظ الحالم مباشرة بعد حلم وهو في حالة نوم REM ، فمن المرجح أنه ينسى المحتوى العقلي للخبرة التي كان قد مر بها خلال نومه. ومن القيم الكبرى التي أتاحتها الأساليب والتقنيات التجريبية الجديدة الخاصة بالأحلام هي أن كثيراً من هذه الأحلام يمكن الإبقاء عليها وتسجيل محتواها، ولولا التقنيات الجديدة هذه لكانت تلك الأحلام قد طواها النسيان.

تكشف التجارب المكثفة والكثيرة على أن العدو الرئيسي المسؤول عن أحداث النسيان للأحلام هو النوم الخامل أو النوم الفاتر في حالة NREM. فقد تبين أن الأشخاص الذين يوقظون كل ساعة بعد ساعة من نومهم أنهم يبقون يتذكرونها فقط في حالة الاستمرار على التحديق فيها لمدة عشر دقائق. أما إذا تعرفا عليها فقط دون الاستمرارية في التحديق فإنهم ينسونها عند الصباح. فقد ثبت بالتجربة العلمية أن إبقاء الشخص مستيقظاً لمدة عشر دقائق يمكنه من تكوين آثار للذاكرة وتقويتها بحيث أنه يستمر طويلاً في مستقبل أيامه يتذكر الحدث الذي كان قد مر به.

فـمن المألوف، إذن، أن مـا يحتـمل أن نتـذكره من أحلام، إنما هي فقط تلك التي نوقظ خـلالها أو حـال الانتهاء منها مباشرة وأن نبقى في حالة يقظة بعـد استيقاظنا لفترة، ون يتم مثل هذا الإجراء أما عند منتصف الليل، أو في الصبـاح. وفي سيـاق الأحـداث الاعـتيـادي، فإن النائم يستيقظ فقط لفترات جـد وجيـزة إبان نومـه الطبيـعي ليـلاً، ولذا فـهـو لا يتذكر معظم أحـلامـه. لـعلنا جميـعنا مـررنا بتلك الخبرة القـريبـة، المزعـجـة المصـحـوبة بإحـسـاس يبـعث على الانتـعـاش أحـسست فيها أننا يتوزعنا في وقت واحد عـالمنا، وغـالبـاً مـا يحصل هذا لنا في ليال قلقة مضطربة نمضيها بعد تناولنا وجبة نتخم فيها المعدة إلى حد الكظة (١) أو حـيـنما تلفنا حمى ، فـتكون يقظاتنا عند ذاك قـصيرة يترتب عليـهـا أننا نسترجع خـلالها نتـفـاً من أحلام رأيناها ونحن في حـالتنا تلك، فـيبدو لنا معظم تلك الأحلام تافهة أو تلوح لنا أنها ليـست بأكـثر من هراء وأننا سرعان ما ننساها تماماً في الصباح. ففي حـالات كـهذه، لا تكون يقظاتنا طويلة إلى حد يكفي لتكوين آثار للذاكرة نحـتـفظ فيها بما شاهدناه في منامنا من أحلام، لذا فإننا لا نتذكرها إلا لماماً ومن ثم تمضي يلفـهـا النسـيان إلى الأبد. وهذا أحد الأسباب من بين أسباب أخـرى عـندمـا يعترض من الناس أنهم يرون أحـلامـاً كـثيرة خـلال نومـهم عندمـا يمـضـون ليلة غير مريحة لهم يعايشون فيها القلق: وحقيقة الأمر هي أن مـا يحصل لهم أنهم بحكم اسـتيقاظاتهم الكثيرة وبقائهم مستيقظين فترات أطـول يـنـجـم عـن ذلك أنهم يسترجـعـون من أحـلامـهم أكـثـر ويبـقـون يتـذكـرونها، وأنهم لم يروا أحلاماً أكثر مما ينبغي كما يتوهمون.

إن مـعظمنا، شأننا في هذا شأن فرويد، كان قد مر بخبرة استيقظ خلالها من حلم واضح جلي في منتـصف الليل وحـسـبنا أننا سنتـذكره في الصباح. ولـعـلـنـا نـكون قـد كـررناه في أذهاننا مـرات ومـرات بل ولعلنا، كما فـعل فـرويد، حـاولنا تفـسيره، ولكننا مـا أن نخلد إلى النوم بعـد عشر دقائق من

(١) الكظة : إمتلاء المعدة بالطعام أكثر مما ينبغي (الترجم) .

وقت الاستيقاظ تقريباً، فإننا نجد أن الحلم برمته قد توارى من ساحة الوعي العقلي في الصباح. فأنا لا أظن فرويد كان ينوي كبت ذاكرة أحلامه وما يرتبط بها من تفسير ـ وإن هو حاول ذلك، فإنه لم يقصد إليه في جميع الأوقات ولا في كل المناسبات. بل إنني لأشك في شيء واحد ألا وهو أنه لم يدع فترة كافية تمضي بين يقظته من الحلم وبين إخلاده ثانية إلى نوم من نوع NREM، إذ أن مرور فترة كافية ضروري لتكوين آثار ذاكرة وافية بالمرام للخبرة ككل.

لهذا السبب فإنني أنصح أولئك الذين يعتزمون الإبقاء على أحلامهم حية في أذهانهم أن يعمدوا إلى تدوينها حالما يستيقظون بعدها حتى وإن كان هذا في منتصف الليل. فالجهد المبذول في الاستعداد للجلوس وإسراج الضياء وإحضار مستلزمات الكتابة وتدوين وقائع الحلم ـ هذه كلها من شأنها أن تساعد في تهيئة الذهن لليقظة اللازمة للإبقاء على معظم ما نريد من تفصيلات حديثة. كان فرويد ينصح مرضاه بأن لا يدونوا أحلامهم، ظناً منه أن هذا الإجراء يبدأ من مقدار كبتهم. فهو قد حسب أن الأحلام تقاوم كل الجهود المبذولة على طريق إصلاح بناء الذات وإعادة تنظيمها، وإن تدوين الأحلام، كما توهم، سبيل يؤكد مخاوف المرضى. ولكن هذا رأي منه غير أكيد. أياً كان الأمر، فقد توصلنا إلى أن الأحلام تختفي من ساحة الوعي بسبب ضعف الذاكرة وتكوين الآثار هذه أكثر مما يعزى السبب إلى رداءة محتوى الحلم نفسه، ولذا فإننا لا نتردد في إهمال نصيحة فرويد والضرب عنها كشحاً في هذا الشأن وفي هذه النقطة بالذات.

فمعظم تذكرنا التلقائي لأحلامنا إنما يأتي من فترة نومنا في حالة REM قبيل استيقاظنا صباحاً. وأفضل طريقة لتذكرها أن ندونها مباشرة كما أشرنا إلى هذا من قبل. وهذا أسلم السبل، فبدلاً من العودة إلى النوم أو تدويرها في إذهاننا مرات، يجدر التأهب وبذل الجهد لكتابتها.

ومن المعقول أن نفترض بأن ثمة من الأسباب ما يدعونا دائماً إلى أن

نعتقد بأن أفضل سبيل إلى جعل الفرد يتذكر أحلامه هو عندما تكون الشحنة الانفعالية عند ذلك الشخص أقوى مما هي عليه في الحالات الاعتيادية، ذلك لأن قوة الانفعال وشدته، بصرف النظر عما إذا كانت تلك الشحنة الانفعاليةسارة أم غير سارة، تعتبر عاملاً قوياً في تأصيل آثار الحلم وتكوين آثار الذاكرة الخاصة به. هذا ما تمخضت عنه إحدى تجاربي التي قمت بها.

وفي تجربة أخرى، امتحنت فرضية تقول أن الأشخاص الذين يتم تحفيزهم يكونون أفضل في تذكر أحلامهم من أولئك الذين لا يكونون محفزين لذلك والذين ليس لديهم من البواعث ما يحملهم على التذكر. كانت هناك مجموعتان من الأشخاص ينامون في المختبر، وكانوا يعتقدون أن الغرض من التجربة هو فقط بقصد مراقبة حركات العينيني خلال النوم. وقبل توجههم إلى النوم، طلب إلى أفراد إحدى المجموعتين أن يعملوا جهدهم لتذكر أحلامهم في الصباح التالي، في حين ترك أفراد المجموعة الثانية بدون أية تعليمات. فكانت النتيجة أن تذكر أفراد المجموعة الأولى أحلاماً أكثر مما تذكر أفراد المجموعة الثانية، وهذا دل على أننا نميل إلى تذكر أحلامنا حينما نجد ما يحملنا على تذكرها، وهذا أفضل مما لو تركنا وشأننا من غير حافز.

أما كيف تعمل مكنية [تهيأ لتسترجع وتتذكر] فإنه أمر غير مؤكد. لكن الاحتمالات كثيرة. منها مثلاً قد يكون السبب هو تكرار عدد الاستيقاظات خلال سياق الليلة الواحدة. ولعل السبب يكمن في أننا نستيقظ مباشرة بعد حلم خلال فترة نوم في حالة REM. وربما يرجع الأمر إلى أنه ينصب مباشرة على الحلم نفسه، مما يجعل محتوى الحلم أشد وضوحاً وأكثر كثافة وبالتالي أدى إلى سهولة تذكره. وإن شيئاً محقق لا ريب، ذلك هو أن ما يوجه من إيحاءات إلى العقل قبل توجه المرء إلى النوم يتم في الغالب تنفيذها بشكل غامض. فإنني، مثلاً، يمكن أن أستيقظ دائماً تقريباً من

النوم خلال الليل وفي ساعة معينة بدون منبه وذلك، لأوجه إلى نفسي تعليمات ذاتية. وفي مجالات أوسع من هذا، فإننا نجد أن أي واحد يخضع للعلاج النفسي يزداد كثيراً عنده نشاط تذكر أحلامه حين يدرك أن استرجاع أحلامه هذا مما يساعد المحلل النفساني في معالجة المريض. وأن خبرات كهذه، منها مثلاً - العلاج النفسي، الإسهام في تجارب الأحلام، بل حتى الإصغاء إلى المحاضرات والاستماع إليها أو قراءة الكتب عن الموضوع، هذه الخبرات كلها تؤول إلى ازدياد في التنبيه على استرجاع الأحلام ومقاومة العمليات الفسيولوجية الاعتيادية التي تؤدي حتماً إلى نسيان الحلم.

على أن ما تقدم لا يعني أن العمليات النفسية الخاصة بالكبت لا دور لها تقوم به في التسبب بالنسيان، وإن لم يكن هذا الجانب على وعي تام بمتناقضات الرغاب الشعورية واللاشعورية، ومنها الرغبة الشعورية عند المريض في انتشال نفسه وتخليصها من الأميال العصابية neurotic التي تفسد عليه حياته، يناهض هذا في الوقت ذاته كفاح لا شعوري ضاري للإبقاء على ما هو فيه من موقف نفسي، وكل هذا الاحتراب يجري أواره داخل الشخصية. إن ما ذكر آنفاً من خبرات ـ ومنها العلاج النفسي، وتجارب الأحلام، وسواها ـ هذه كلها تسعف ليس فقط في مقاومة العمليات الفسلجية التي تتسبب في نسيان الأحلام، بل لعلها تعين كذلك في التصدي لمواجهة القوى السيكولوجية اللاشعورية المسؤولة عن عمليات الكبت هذه.

الاستذكار التلقائي للأحلام: خلاصة

١ـ العامل الرئيسي في الاسترجاع التلقائي للحلم يبدو أنه الاستيقاظ العرضي والذي يتفق أن يحصل مباشرة بعد الحلم، والذي يتم عادة إما خلال الليل أو قبيل النهوض في الصباح. وأن النائم لا يستيقظ عادةمن نومه في الغالب خلال الليل مما يعني أن معظم الأحلام لا تستحضر عند اليقظة إلى باحة الشعور، ولذا فهي لن يتم تذكرها.

٢ـ ولنسلم جدلاً، على أية حال، بأن الاستيقاظ يحصل إبان النوم خلال الليل، فما الذي يقرر كمية ونوعيةما يسترجع من أحلام أو طبيعة استرجاع الحلم؟ فهناك قبل كل شيء فرصة أكبر في استرجاع مفصل إذا ما اتفق أن استيقظنا من فترة نوم REM تفضل كثيراً مما لو كان استيقاظنا من فترة نوم REM. هذا أولاً.

٣ـ ثالثاً، وإذا ما اتفق أن استيقظنا من فترة نوم REM، فإن ثمة جملة من العوامل تسهم في ما يمكن في النهاية استرجاعه وتذكره، أبرزها:

(أ) للأحلام الطويلة، الواضحة، الكثيفة الانفعالية نصيب في الاسترجاع والتذكر أوفر من الأحلام الغامضة، الخفيفة، الواهية، القصيرة.

(ب) الاستيقاظ المفاجيء ينشأ عنه عادة استرجاع أكثر مما يترتب على الاستيقاظ التدريجي.

(جـ) الناس المنطلقون من ذوي الوعي الذاتي يرجح أن يسترجعوا أحلاماً أكثر جاذبية مما يمكن أن يسترجع مثلها الناس الكابتون.

(د) أولئك الذين يتم تحفيزهم لتذكر الأحلام يمكن أن يكونوا أقدر على استرجاع أحلام مفصلة من أولئك الذين يتركون من غير تحفيز.

٤ـ لنفترض أن بعضاً من محتوى الحلم يتم تذكره لدى الاستيقاظ خلال الليل، فما الذي يقرر ما إذاكان تم تذكره عند فترة الاستيقاظ تلك سيبقى

حـيـاً في الذاكـرة حـتى الصباح؟ إنّ ألعامل الجوهري هنا يبدو أنه يكمن في فـرصـة تكوين آثار الذاكـرة. إذ يجب على الشـخص أن يبقى مستيقظاً فترة طـويلة وهو يدرك الحلم في ذهنه ليـتـيح له التماسك والتـضـام وليـسـمح له لـيكون له أثر في الذاكـرة [يبـقى مـستـيـقظاً فترة عشر دقـائق في الأقل]، وبخلاف ذلك فإن نوم NREM سيتدخل فيمحو كل ذاكرة الحلم.

▪ـ لنسلم بأن أثراً للذاكـرة الخـاصـة بالحلم قـد تكون خـلال الليل، فما الذي يقـرر كـمـيـة وكيفية الاسترجاع الصباحي؟ تشير الدراسات التي قمت بها إلى أن للأحـلام الأطول، الأوضح، الأشـد في الشـحنة الانفـعالية، حظاً في الاسترجـاع أوفـر من تلك الأحـلام الأقصر، الأكـثـر غـمـوضـاً، الأشـد فهاهة.

كما كـشفت دراساتي كذلك عن أن نصف محتوى كل حلم تقريباً كان قد تم تذكـره بعـد استيقاظي في ليلي، ثم تم نسيانه فاختفى عند الصباح، ولذا فـيلزم القـراء الذين يهـمـهـم حقاً مواجهة نسيان أحلامهم أن يأخذوا بنصحي فـيحـتـفظوا بقلم وورقة بجنب فراش نومهم وأن يدونوا أحلامهم حالاً حال استيقاظهم منها.

الفصل الرابع
الحلم طريق معبّد(١) إلى اللاشعور

الفكرة القائلة بأن أحلامنا يمكن أن تملي علينا معلومات تعود بالنفع على ما يتعلق بتصرفنا وسلوكنا في سياق حياتنا، فكرة ترجع في جذورها إلى عصور ما قبل التاريخ. فعلى امتداد تاريخ البشرية يجد المرء ثمة من المسلمات بالنسبة للإنسان بأن عقل النائم يكون على تماس تام واتصال عام بعالم خارق ما ورائي وأن الأحلام يمكن تفسيرها بأنها رسائل وإشارات آتية من آلهة هناك، تتضمن وظائف تنبؤية أو علاجية. لكن تفجر الثورة العلمية في القرن التاسع عشر أفضت إلى ردة فعل عارمة ضد هذا الضرب من التفكير، وقد شملت ردة الفعل هذه الأحلام فأبعدت عنها ـ الأحلام ـ فكرة كانت سائدة وكأنها مجرد خليط من الفنطاسيا ناجمة عن سوء الهضم، أو يتسبب في إحداثها صرير الأبواب، أو تستثار من ذكريات اليوم المنصرم. ومع أن شيئاً من أفكار الماضي بقيت سائدة بين كثير من الناس ممن اعتبروا الأحلام مصدراً من مصادر الإلهام الإبداعي، فإن الرأي المتفق على العموم حسب الرأي القائل بأن الأحلام لا معنى لها رأياً مسلماً به.

هذا هو كان الموقف عند مبتدأ القرن الحالي، حين تبين متخصص بعلم الأعصاب فتبينّ، هو سيجموند فرويد، أن شخصين يتعرضان لنفس ما في يومهما من أحداث أو لعلهما يخضعان لذات المنبهات وهما نائمان، فإنهما ينسجان حواليهما قصتين تماماً متباينتين تحيكان وتعكسان ما كانا قد مرا بهما من خبرات. لماذا، مثلاً، أن ضوضاء أو ضجيجاً يحصل وشخص معين نائم فيرى حلماً كأن أسداً أمامه يزأر وأن الأسد هذا كأنه على وشك

(١) استخدمت المؤلفة تعبير Royal road وتعني طريق ملوكي، وقد آثرت ترجمة ذلك كما في العنوان إنسجاماً مع المعنى العلمي المقصود [المترجم].

مهاجمته، في حين يحلم شخص آخر، وفي ظرف نفس الضوضاء، أنه يستحم بأشعة شخص آخر، وفي ظرف نفس الضوضاء، إنه يستحم بأشعة الشمس على شاطىء البحر الأبيض المتوسط وأنه وهو في حالة استرخائه تلك وفي استدفائه ذاك أنه يستمع إلى أصوات الأمواج تغازل الشواطىء تلك؟ الضوضاء والمنبهات الأخرى ـ هذه كلها تسلمها دماغ النائم، تلقاها مع أحداث اليوم المنصرم، وما هذه كافة، كما يقول فرويد، إلا أسفار «كتب»، نقشت على صفحاتها أعمق صبواتنا وأعذب أحاسيسنا، ونسجنا حولها فنطازياً تنبعث من أعمق أغوار العقل اللاواعي عندنا.

ولذا فهو من هنا انطلق إلى تطوير نظرية عن عملية الحلم، تمكنه من تفسير الإحلام بأنها مفاتيح إلى مشكلات وصراعات محتدمة في طوايا الشخصية. ولعله ليس من المبالغة في شيء القول أن النظرية التي طورها قد اضحت، خلال النصف الأول من هذا القرن، من أهم المؤثرات الفعالة الرئيسية في الثقافة الغربية، وإن الفكر الحديث بشأن الأحلام، كله تقريباً يستمد بعض الشيء من نظريته تلك، حتى حينما يكون ذلك الفكر في تناقض معها. ولهذا السبب فإن تطور نظريته عن الأحلام قد تم تقصيها بشيء من التفصيل هنا ـ وذلك لأنها كذلك إحدى القصص الممتعة والدرامية في تاريخ الاكتشافات السيكولوجية.

اكتشاف فرويد (لسر الأحلام).

لاحظ فرويد، في الأيام المبكرة من ممارساته الاكلينيكية، أن كثيرين من مرضاه كانوا يشكون من أعراض اتضح أنها ليس ثمة سبب عضوي جسمي يكمن وراءها. وكانت تلك الأعراض تظهر أحياناً على شكل ظواهر فيزيقية جسمية منها مثلاً الصداعات، الطفح الجلدي، العمى، أو الشلل، وتظهر أحياناً بشكل خلل عقلي كالمخاوف غير الطبيعية، والوساوس، والأوهام، والاهتلاسات. فاستنتج أن هذه لابد أن تكون

من حيث أساسها وفي أصلها ناجمة عن حالات انفعالية. فهو قد اقتنع بأنها انفعالية الأصل، ووجد أنه إذا أتاح لمرضاه الفرصة بالتحدث بحرية تامة عما يعانون من مشكلاتهم تلك، فإن تلك الأعراض كانت تختفي وتتوارى. ويبدو أن هذا كان يحصل حيثما اتفق أن ذكرى من الذكريات المؤلمة كانت قد طواها النسيان فبرزت إلى مجال النور مع ما يصاحبها من إحساس ملازم لها. استخلص فرويد من هذا أنه لما كانت هذه الذكريات مرتبطة في الغالب بالنزوات الجنسية والنشاطات العدوانية المتأصلة في عهد الطفولة، فإنها قد تم طردها إلى خارج حيز الوعي الشعوري، أو أنها بدت، كما عبر عن ذلك، وكأنها قد استبعدت على هذا النحو إنها مبرحة في آلامها مخجلة في أعمالها. والرغبات المكبوتة هذه، كما يعتقد فرويد، أبعد من أن تكون هاجعة في العقل، ولما كانت منكوراً عليها أن تعبر عن نفسها في السلوك الظاهري على هواها، فقد وجدت لطاقاتها متنفساً يتخذ شكل أعراض جسمية ليس لها أساس عضوي.

لاحظ فرويد أن مرضاه في الوقت الذي يستلقون فيه على الأريكة ـ وهو تكنيك يعرف باسم التداعي الحر Free association ـ فإنهم أحياناً يسترجعون حلماً برهن على أنه نقطة الانطلاق لسلسلة من الذكريات والأفكار. وإن كثيراً من هذه الأحلام قد قادت إلى نفس الدوافع المكبوتة والرغبات الحبيسة التي تسببت في الأعراض العصابية. وعن طريق التحليل الشامل والدراسة المستفيضة لأحلامه وأحلام مرضاه، اهتدى فرويد شيئاً فشيئاً إلى أن الحلم إنما هو نوع من الأعراض العصابية بمقتضى معناها.

وعلى امتداد التسعينات من القرن التاسع عشر، كان فرويد يضغط باتجاه تحليل نفسه تحليلاً ذاتياً، باحثاً ومنقباً في أغوار أعماقه تنقيباً في ثنايا أفكاره وأحاسيسه حتى توصل عام ١٨٩٥ إلى ما أعتقده بأنه سر الأحلام. كان جالساً في إحدى الأماسي في شرفة فندق (بيليفيو)، أحد فنادق فيينا، مطرقاً يفكر بحلم رآه في ليلة سابقة، يتعلق بمريضة بالهستيريا، اسمها

(أرما) ، وقد أخبرته في الحلم أنها لم تزل مريضة وقالت له أنها أبعد ما تكون عن الشفاء. بدت له في الحلم أنها جد مريضة وكان يحس بالقلق إذ ظن في منامه ذاك أنه لابد أن يكون أخطأ في التشخيص وربما كان زملاؤه في رؤياه قد توصلوا إلى نفس النتيجة التي حسبها تعاني منها وهي أصابتها بعدوى نتيجة لزرقة حقنة injection حقنها بها (أوتو) Otto ، صديق فرويد، إذ استعمل محقنة ملوثة dirty Syringe .

من الواضح أن الحلم قد ومض في ذهن فرويد بفعل حقيقة حصلت في إحدى الأمسيات السابقة، قبل الحلم، تلك الحقيقة أن (أوتو) هذا كان فعلاً قد زار فرويد وأخبره بأنه قد سبق له أن التقى بأرما خلال عطلة قضياها في نفس المكان وأنها كانت بصحة جيدة ولكن ليس على ما يرام. تراءى لفرويد أثناء حديثهما ذاك أنه استشف في ثنايا كلام صديقه ما ينم عن التأنيب له فقلق لذلك وحمل قلقه ذاك معه إلى نومه.

هذا الحلم الشهير المتصل بـ(أرما)، والذي يحتل الآن مكاناً بارزاً في تاريخ الاكتشافات الكبرى، كان في واقع الأمر أكثر تعقيداً مما رويته هنا، وقد استغرق فرويد وقتاً طويلاً يتأمله ويقلبه على وجهه، متحرياً مختلف جوانبه بإسهاب كبير. لكن الإلهام الرئيسي الذي طرق فكره أشبه بومضة من ومضات التبصر وهو في جلسته تلك في الشرفة، ذلك الإلهام الذي أصبح في ما بعد أساساً في تطبيقات وممارسات التحليل النفسي ونظرياته، كان يتلخص في ما يأتي:

إن الدافع إلى الحلم إنما كان رغبة وإن محتواه كان هو تحقيق تلك الرغبة.

هذا وقد كتب فرويد يقول:

[الحلم قد حقق رغبات محددة أوجدتها في ذهني أحداث في الأمسية السابقة.. وملخص الحلم.. كأنني لست أنا المعني بمتابعة آلام ارما أو المسؤول عما تعانيه، بل هو أوتو الذي كان يعنيه أمرها. أوتو في حقيقة الأمر كان قد أغضبني بملاحظاته عن عدم شفاء أرما شفاءً ناجزاً، وأن

حلمي مكنني من الانتقام منه وذلك برد التأنيب عليه. الحلم قد برأ ساحتي من مسؤولية حالة أرما، إذ أبان لي أن حالها تلك كانت تعزى إلى عوامل أخرى. فالحلم قد كشف عن حالة خاصة من القضايا كنت من قبل أبتغيها وأرغب في أن تكون كما أريد.]

فكأن الحلم كان رغبة لا شعورية تضافرت مع الدماغ النائم لتعيد من جديد صياغة واقع يهفو الفؤاد إليه والي ما فيه من صبوات تبدت كلها على صورة حلم.

يبدو لنا أن الحلم الذي تدور أحداثه حول [أرما] حلم جلي نسبياً ومستقيم في وقائعه إذا ما تمت مقارنته بكثير من أحلامنا البالغة التعقيد، تلك الأحلام الغامضة والممعنة في الفنطازيا. فلا تبدو الرغبة الكامنة، لأول وهلة، إنها مفزعة وتلتمس التعبير عن نفسها فيه بطريقة جنسية أو عدوانية.

وإن فرويد ليس بملوم إذ هو ينزع إلى تبرئة ساحته من تهمة الإهمال المهني. على أن الحلم ينطوي على ما يشير إلى أنه ـ فرويد ـ قد حقق نزعته إلى تبرئة الساحة وذلك بإلقاء اللوم على صديقه (أوتو)، إذ أرسى عليه وخامة عمل دنيء وعدواني، لا يحلم بإلقائه عليه وتوجيهه إليه وهو في حياته الواعية. بل الأدهى من هذا هو أن فرويد، وهو رجل واسع الطموح، كان يسعى في قرارة حياته اللاشعورية إلى تحطيم أي من زملائه الناجحين المحققين للشهرة وينوي تدمير منافسيه أياً كانوا. أمثلة من هذا الضرب أدت بفرويد إلى الشك بأن العقل اللاواعي يمكن أن يقترف في حالة الفنطازيا أية جريمة لكي يحقق بغية كامنة.

كثير من الأحلام، كالحلم المتعلق بأرما، يمكن تفسيرها على عدة مستويات وأنها تتضمن كثيراً من الرغبات المختلفة. فكان فرويد مثلاً، يرى، خلال إحدى نقاط الحلم، عبر بدلة أرما أن هناك مشكلة ما في صدرها تعاني منها وإن مرضاً معيناً كائن هناك في صدرها. وعندما ناقش

فرويد هـذا الموضـوع فـيما بعـد في كتابـه: تفسير الأحـلام Interpretation of dreams ، كـان قـد ذكـر: [صراحـة أقـول بأني لم تكن تسـاورني في حياتي الواعية رغبة في أن أنفذ إلى ذلك الحد؛] ولعله قال ذلك على أساس يعني به المسألة من حيث متضمناتها الجنسية. إن فرويد، وإن لم يذهب إلى التـفـصيلات هنا، فمن المرجح جداً، وذلك تأسيساً على نظريته المتـعلقة بالجذور الطفلية للرغبات اللاشعورية، إن هذا القسم من حلمه قد أزاح السـتـار ليس فـقط عن رغبة حاضرة قائمة الآن تدعوه إلى الانغماس مع أرمـا في عـلاقـات جنسـيـة محرمـة، ويحاذر من إتيـانها لأسـبـاب تنهى عنها أخلاقيات المهنة، بل أنه كذلك كشف عنده، أنه في أعمق المستويات، لديه رغـبـة طـفليـة مكبـوتة تحـدوه أن يفـعل الشيء الجنسي ذاته في مـضـاجـعـة المحـرمـات. ومثل هذه الرغبة، أعتقد فرويد، تكون مفزعة أيما إفزاع، فهي ترعب العـقل الواعي الأمـر الذي يقـتضي إخـفاءها تمويهاً وتفتيتها تفتيتاً قبل أن تجرؤ على أن تطل برأسها حتى في شكل حلم.

هذا النوع الخـاص من تحـقيق الرغبة في الأحلام إنه هو ما استأثر باهتمام فـرويد أكـثر حين توافر على صياغة نظريته، وإن هذا ما دعاه، عندما أقدم عـلى طـبـع كـتـابـه في نهاية القـرن التـاسـع عشر، إلى أن يسـمـيـه (تفـسير الأحـلام). ولـقـد اعترف صراحـة بأن كـثيراً من الأحـلام لا تتطلب تفـسيراً نظراً إلى أنها تنطوي على رغـبـة واضـحة ومعروفة مباشرة. والأطفال بخاصة مـعـروف عنهم أنهم يواصلون لذات يومـهـم في سـيـاق أحـلامـهـم: فطفلتي الصـغيرة مـثـلاً مـا أكـثر ما تذكر أنها قد أمضت ليلتها تتأرجح في الأراجيح وتتـجـول في حـديقة الحيوانات. وإن (فرويد) حتى أنه كان مستعداً للإقرار بأن الحـيـوانات هي الأخـرى لديها هذا النوع من أحـلام تحقيق الرغبة. فهو قـد ذكـر أن ما يبدو على الكلب النائم من انتفاض واستياف(٢) لعله يعكس عنده نوعـاً من الراحـة كـان قـد خبرها خـلال خبراته السـارة في يومـه ذاك،

---

(٢) الأستياف: التشمم، من الفعل استاف أي تشمم أو شمَّ [المترجم].

وهو يقتبس بهذا الصدد مثلاً هنغاريا يقول: [الخنازير تحلم بالبلوط والأوز يحلم بالذرة]. وهو يستقي كذلك مثلاً يهودياً قديماً صيغ بأسلوب سؤال: [بماذا يحلم الدجاج؟] - والإجابة: [إنه يحلم بالدخن].

أمثال أخرى بسيطة ومباشرة عن تحقيق الرغبات في الأحلام نجدها في الغالب في أحلام الذين تعرضوا لعوق حديث ولدى أولئك الذين يلفون حيواتهم غير مرضية لهم أو ليس فيها ما يسرهم. فصديق لي، مثلاً، وقد أصبح تماماً أعمى منذ أعوام ثلاثة وهو في الستين من عمره، يذكر لي خلال الشهور القلائل الأولى من إصابته بالعمى كان يحلم ليلة بعد أخرى أنه كان لا يزال باستطاعته أن يبصر ويرى، حتى كان يرده إلى واقعه استيقاظه كل صباح فلا يرى غير الظلام، بقي في حاله تلك بين لذة الحلم بالرؤية ويأس الواقع بالعمى حتى استولى عليه القنوط مما دفعه تقريباً إلى محاولة الانتحار، وهو ما فتيء تعاوده أحلام رؤية بالإبصار [بكسر الهمزة]، لكنه قد ألف بعد ذلك حالة عوقه تلك فلم يعد يفزعه الخوف من الواقع. وفي إحدى المناسبات الخاصة الكئيبة من حياتي كنت أرى أحلاماً تتكرر أراني فيها في هضاب زاهية تلوح بأشكالها الجذابة الملونة. وفي إحدى المرات خلال مكوثي في المستشفى أخبرتني مهاجرة ملونة، كانت تشرف على نظام المستشفى، أنها رأت في الحلم بأن زوجها، وهو عامل، قد طوق جيدها بعقد من الذهب جميل. وقد ذكر لي أحد المعالجين النفسانيين أن جنوده خلال الحرب العالمية الأولى كانوا يذكرون له أحلاماً يرون فيها بانتظام أنهم بين أسرهم ورحاب عوائلهم في بيوتهم. والواقع هو أنهم عندما كانوا يحلمون باستمرار عن الحرب، كانوا يبعثون إلى بيوتهم، لأن أحلامهم هذه قد اعتبرت ضرباً من الأعراض المرضية ذات دفاعات ضعيفة وأنها من المرجح حداً قد تنتهي إلى الانهيار العصبي.

ملاحظات فرويد هذه بشأن الأطفال أدت به إلى الاستخلاص القائل أن أحلامهم قد تصبح بسرعة أكثر تعقيداً من هذا النوع البسيط المباشر من

أنواع تحقيق الرغبة، وفي عمر مبكر جداً يبدو أن هناك شيئاً ما يقبع تحت المحتوى الظاهر الواضح للحلم. فطفلتي البالغة ثلاث سنوات من العمر قد ابتدأت تروي لي أحلاماً ترى فيها أن [ليو]، وهي لعبة مخملية لها هيئة أسد، يعضني، أو أنها ترى نفسها ترمي بلعبتها خارج الشباك لأن اللعبة تلك قامت بشيء أغضبها. أعتقد فرويد أن أحلاماً من هذا النوع إنما تمثل تحقيقاً تمويهياً لرغبات جد ـ شريرة مما لا يمكن الاعتراف بها بصورة مباشرة ـ ففي حالة ابنتي مثلاً، فهو ممكن أن يقول، بأن (ليو) إنما هو تمويه يعبر عنها في الحلم الأول، ولعبتها في الحلم الثاني إنما هي ترمز لي، ذلك لأنها منزعجة مني وإنها تعرف إن هي عضتني أو أذتني فإن سلوكها هذا يدل على أنه، ويفسر بأنه سلوك شرير. وهي باضطرادها في النمو، فإن فرويد قد يتنبأ من أحلامها تلك بأن حلمها سيضطرد كذلك في التخفي والتمويه حتى يأتي يوم يتطلب الأمر فيه تفسيراً يرتكن فيه إلى معرفة خبير بالأحلام ليكشف عن الصبوات اللاشعورية الكامنة وراء تلك الأحلام.

أطلق فرويد على الحلم الذي يمكن تذكره، تعبير (الحلم الكامن، ومحتواه أسماه (المحتوى الكامن) . طريقته بتفاصيلها سيتم بحثها في الفصل السادس. فهو قد ربط بكل عنصر في الحلم الظاهر عملية تؤدي تدريجياً إلى المحتوى الكامن الذي أعتقد أنه هو الذي يستثير الحلم الظاهر. كان فرويد، وهو في غمرة انكبابه المضني على إحلامه الخاصة به وفق طريقته هذه، قد تأدت به بحوثه تلك إلى أن يرجع إلى كثير من ذكريات الطفولة وإحساساتها، وهي ذكريات مؤلمة وصاعقة. ولقد كتب يقول: [لأن يكون المرء صادقاً مع نفسه وأميناً مع ذاته، إنما هو أمر ما أطيبه وما أحسنه. فبعض أسرار الحياة يمكن تقصيها هناك في منابت جذورها الأولى، هناك يكشف عن الأصول الوضعية لكثير من التيه والغرور والصلف فتتبدى حقائقها عارية].

إن مادة الحلم الكامنة هذه بالنسبة إلى فرويد دائماً أكثر أهمية من الحلم

الظاهر، الذي اعتبره مجرد غطاء للمحتوى الكامن ذاك فهو قد أصر بثبات طيلة فترة حياته المهنية على وجوب هذا التمييز بين الحلم الظاهر وبين المحتوى الكامن للحلم، وإن الكثيرين من المحللين النفسانيين اليوم ما زالوا غير مقتنعين بتفسيرهم للحلم حتى يكتشفوا مصدره كامناً في مكمن ما من مكامن صراع الطفولة المكبوت.

يذهب فرويد إلى أن الوظيفة التمويهية للأحلام تخدم غرضاً مزدوجاً. فالوظيفة هذه لا تسمح بتصريف الطاقة المكبوتة في ثنايا الرغبات الممنوعة فحسب، بل هي كذلك تتستر على الطبيعة الحقيقية لهذه الرغبات مما يتيح للحالم نوماً مستقراً. لهذا فإن الحلم لا يعمل فقط كصمام أمان للتعبير عن الانفعالات التي تجد لها متنفساً في الفنطازيا، وإنما هو كذلك يعمل كحارس للنوم. على أن التمويه هذا يخفق أحياناً فيستيقظ الحالم من نومه ـ وهنا يكون ضحية كابوس Nightmare. لهذا السبب، فقد حور فرويد نظريته لتقول أن كل حلم إنما يمثل محاولة لتحقيق رغبة.

لبث كتاب فرويد: (تفسير الأحلام) أثيراً عنده طيلة حياته. فهو قد احتوى، كما كتب هو عنه، [أفضل الاكتشافات كافة: الاكتشافات التي واتاني الحظ وحالفني في التوصل إليها. وإن تبصراً كهذا لا يتأتى لما يوفق إليه المرء في الحياة إلا مرة واحدة.] فالأحلام، كما أعتقد فرويد، إنما تعكس (طريقاً معبداً) إلى الأجزاء اللاشعورية من الحياة العقلية التي بقيت حتى الآن بمنأى عن بحث الإنسان في سبيل البلوغ إلى معرفة ـ النفس. وفي رسالة كان قد بعث بها فرويد إلى صديقه (فليس) Fliess وصف فيها زيارة له ثانية إلى فندق (بيليفيو)(٣) حيث رأى في نومه حلمه المعروف عن أرما، وفي معرض كلامه في رسالته تلك سأل: [هل لك أن تفترض أو

---

(٣) من سلسلة رسائل في التحليل النفسي متبادلة بين فرويد وصديقه فلهلم فليس وقد ترجمتها إلى العربية وهي الآن جاهزة للنشر» فهي رسائل تكشف عن جوانب كثيرة من الاكتشافات النفسية: [المترجم].

تحسب في يوم ما أن يرصف سطح المنزل بألواح من المرمر وقد نقشت عليها الكلمات وحفرت على وجوهها الألفاظ؟ ـ في هذا البيت، في الرابع والعشرين من تموز ١٨٩٥، قد تكشف للدكتور سيجموند فرويد سر الأحلام.] وأضاف في رسالته تلك يقول: [في الوقت الراهن يبدو أن ثمة قليلاً من الأمل يلوح في الأفق].

كان فرويد محقاً فيما يتعلق بالنقطة الأخيرة. كان الناشر مأخوذاً أو متأثراً بخصائص الكتاب الذي اعتبره فاتحة عهد جديد بحيث أرخه تأريخاً لاحقاً فجعله يحمل تاريخ النشر لعام (١٩٠٠)، أي مطلع القرن العشرين هذا، وإن استغرقت طبعته الأولى بأعدادها القليلة (٦٠٠) نسخة ثمانية أعوام قبل أن تنفد من الأسواق. واجهت أفكار فرويد في الواقع معارضة قوية من جانب كثير من زملائه المعالجين النفسانيين الذين أجمعوا، شأنهم شأن الرأي العام والسواد الأعظم من الناس، أجمعوا بشكل خاص على القول أننا جميعاً من حيث الأساس مخلوقات ذات نزوات جنسية مقرفة وذات نزعات عدوانية شريرة. ومنذ ذلك الوقت، فإن الكتاب قد مر بطبعات كثيرة وقد تمت ترجمته إلى لغات كثيرة، وهو الآن يحتل مكان الصدارة بين أغلب المؤلفات الكلاسيكية حالياً.

لكن إذا كان لابد الآن من تثبيت لافتة تزين بها واجهة فندق بليفيو، فيمكن تحويرها على النحو الآتي لتقرأ: [في هذا البيت في الرابع والعشرين من تموز، عام ١٨٩٥، استبصارات مهمة عديدة عن طبيعة الأحلام قد بزغت فتكشفت للدكتور سيجموند فرويد]، ذلك لأن البحث الحديث يبين أنه في الوقت الذي أصبحت فيه بعض أفكاره حقاً تمثل فاتحة عهد جديد، فإن أفكاره الأخرى إنما هي في الواقع بعيدة عن مرماها.

الحلم بوصفه حارساً للنوم

يجدر أن نضع في المقام الأول حقيقة بارزة تلك هي أن نظرية فرويد

القائلة أن وظيفة الحلم إنما هي المحافظة على النوم واستمراره يجب إعادة النظر فيها وتمحيصها في ضوء معطيات البحث الحديث. وإن القول بأن الأحلام يمكن أن تعمل بهذه الطريقة، وعن طريق تضافر ضغط المثانة، وآلام المعدة، أو الضوضاء الخارجية هذه كلها تلتحم بقصة الحلم عندما يتفق لها أن توقظنا، يبدو أنه قول يكتنفه شيء من الشك قليل، والحق، لقد أضاف البحث الحديث من الدلائل ما يشير إلى أن للحلم القدرة على أن يفعل كل هذا، بمعنى أننا قد توفرت لدينا الآن قرائن وحالات عن أحلام اقترنت برذاذ خفيف من الماء على الجسم أو الذراع فيكون الحلم رؤية المطر في المنام، وإن منبهاً كرائحة احتراق شيء يتحول إلى حلم يرى النائم فيه حريقاً في غابة، وهكذا. لكن هذا النوع من الحماية للنوم من وجهة نظر فرويد إنما هي ثانوية فقط. فهو في الواقع، يتأمل جانباً واحداً فقط أو اعتبر جانباً منفرداً من البحث الحديث ومن مستنبطاته وحسب، وذلك حين ارتأى بأن المنبهات الخارجية إنما هي تختلط بالأحلام في حالة سيرورتها، لكن المنبهات هذه لا تبتدىء إحداث الحلم.

الأحلام من وجهة نظر فرويد دائماً تستحدثها طاقة الرغاب المكبوتة النزاعة إلى التنفيس وإنها لا تجد لها متنفساً إلا عن طريقها. وفي الوقت الذي تتنبه فيه هذه الرغاب وتنشط عن طريق ما يجد من أفكار في إحداث اليوم، فإن فرويد أعتقد أنها لا يتسنى لها ولوج سرحة الشعور خلال الحياة الواعية بسبب ما أسماه بـ(حاجز الكبت) barrier repression. وخلال النوم فإن قوة هذا الحاجز تنخفض، حسب رأي فرويد، فيتاح للرغبات المكبوتة تلك أن تشق طريقها إلى ساحة الشعور. ونظراً إلى أن الجسم إبان النوم يكون مشلولاً، فإن الرغبات تلك لا تحقق ما ترمي إليه من إشباع لنزواتها في العالم الخارجي [وهي نزوات حسبها فرويد شهوانية، وعدوانية، وإجرامية، ونزعات محرمة!] ولذا فهي تستقر بعض الشيء عن طريق إشباع مراميها بالفنطازيا التي تتجسم على صورة حلم. لكن الرغبات المكبوتة

هذه إذا ما دخلت عقل النائم، كما يرى فرويد بشكلها المكشوف المريع، فإنه يستيقظ من نومه فزعاً منقبض النفس. لهذا فإنها قبل تسربها إلى عقل النائم تتسربل بسربال الحشمة وتتخفى في ثنايا البواقي(٤) البريئة الحميدة لذلك اليوم، والبواقي أو النوافل الطيبة هذه هي التي تمررها إلى فسحة الحلم، وهناك تتلفع وتلف نفسها فتختلط برموز وبآليات حماية أخرى إلى حد أنها تصبح من المتعذر التعرف عليها وسط كل هذا التمويه الذي أحكمته حول نفسها. فيتمكن الحالم بعد هذامن أن ينعم بنوم يتطلبه جسمه وإن ما يحتاجه من نوم كهذا إنما يتأتى بواسطة حلم يبقى معناه خافياً على العقل النائم ويمكث خافياً حتى في الحياة الواعية بعد الاستيقاظ حتى يقيِّض له محلل نفساني فيكشف عن خوافيه ويفسر معانيه.

افترض فرويد أن الرغبات المكبوتة تجعل نفسها عادة محسوسة وتكون لدى صاحبها معروفة عندما يجد مثير فيصبح ماثلاً وينبهها. ولهذا فهو ربط بين ظروف الفرد في الحياة وبين ما لديه من رغبات وأن قوة رغباته هذه تزداد كلما تراكمت، وكلما قلت متنفساتها بأي شكل من الأشكال.

وبوسع المحلل النفساني، بطبيعة الحال، أن يباري في القول بأن حتى أكثر الأحلام فتارة وبهاتة إنما هي رغبات طفلية مكبوتة اتفق إن وجدت لها سبيلاً للتزييف الفعال، ولكن لا يبدو ثمة من سبب معقول يدعو إلى إخضاع الحقائق إلى النظرية على هذا المنوال. وكما سأوضح في ما بعد، فإن المحالات التحليلية النفسية لتفسير الأحلام الواضحة الخالية من التزييف يمكن أن تفضي إلى استنتاجات مرجحة ومحتملة، وإنها يمكن أن تجعل الحالم يتجاوز ويتخطى بعض جوانب من قلق حقيقي يتعرض له في سياق شؤون حياته الحاضرة.

يضاف إلى ذلك، فإن العمل التجريبي الحديث قد أظهر أننا في الغالب نستمر نائمين نوماً رغيداً ونحن نمر بأكثر أحلامنا إصعاقاً لنا، في حين،

---

(٤) البواقي : ما تبقى من أحداث أواخر ذلك اليوم (المترجم).

حسب وجهة نظر فرويد، كان يجب أن نستيقظ فزعين مرعبين لأن وظيفة التمويه قد فشلت، كما يرى هو. فمن خلال عملي التجريبي، مثلاً، ما أكثر ما تجمعت لدي خبرات أيقظت فيها أشخاص تجاربي من نومهم وهم في حالة أحلام يمرون بها ذات طبيعة تنطوي على محرمات واقتراف جرائم قتل، وجميع الأنواع الأخرى من الممنوعات التي هي - كما يحسبها فرويد، ينبغي أن تكون تزييفية تمويهية. لكنني وجدت الحالم أحياناً يكون مسروراً إذا أيقظته ووجدت حالماً آخر، مثلاً غاضباً علي لأنني كنت قد حرمته من متعة كان ينعم بها في حلمه. وفي إحدى المرات أيقظت فيها فتاة كانت في حالة حلم وهي في فترة نوم من نوع REM، أيقظتها عندما قارب الحلم على الانتهاء فذكرت إنها كانت تدور بلا انقطاع حول مستشفى وهي في حالة من اليأس والعناء، كانت تدور بحثاً عن طبيب يمكن أن يجهضها من حمل حملت به من حيوان. وذكرت أنها لم يكن هناك من أحس بوجودها أو من مد يد العون لها. وعندما أيقظتها كانت تنشج نشيجاً في حلمها ذاك وقد أحست عند اليقظة بإحباط وبيأس، وقد انكمشت على نفسها دهشة وهي تتساءل ما عسى أن يكون ذلك الحيوان. فتذكرت أنها يوم كانت طفلة صغيرة، كانت قد أخذت في إحدى المرات فأرة صغيرة تعنى بتربيتها أخذتها معها إلى فراشها وأنامتها معها، وأنها أيام طفولتها كانت تنام أحياناً في الاصطبلات. لهذا حينما أيقظتها قالت: [يا لها من راحة إذ أستيقظ من نومي ذاك. إنها حقاً لراحة تامة حيث ما كان في الحلم ليس حقيقة واقعة.] إني لا يخالجني أدنى شك فيما لو لم أوقظها من نومها، لاستمرت فيما هي فيه من حلمها ذاك ولنسيته فلم تتذكره بعد استيقاظها من النوم عند الصباح.

وفي مناسبة أخرى، كان أحد الطلاب الذكور في حالة حلم رأى نفسه أنه نائم مع أمه في فراش واحد وأنها كانت تربت جسمه وكانت تحتضنه، وعبر عن سخطه عندما أيقظته لأنني حرمته، كما قال، من لذة الاستمتاع

مما كـان فـيـه وإني لأتذكـر، أيضـاً، عندمـا بدأت أهتم أول مـرة بتـقنيات اقـتـنـاص الأحـلام ورحـت أجـري بعض تجـاربي على نفسي. حلمت عـدة أحـلام ممـتـعـة منهـا مـثلاً حلم رأيتني فيه في موقف ومن خلفي أخي يمسد على قـفـاي ويربت على جـسـمي فكنت أحس وأنا في الحلم بلذة فلما نبهني جـرس سـاعـة التـوقيت شـعرت بالحنق والغيظ والاستياء. لهذا فإن وظيفة التـمـويه التي يراها فرويد حتى وإن أخفقت فإننا نمضي في نومنا مستمتعين تماماً بما نراه في أحلامنا من نشاطات ممنوعة.

كنت قـد ذكـرت من قـبل، أنه ليس ثمـة سـبب يدعونا إلى أن ننكر أنّ الأحـلام بوسـعـهـا التـعـبير عن الرغـبـات، وأنه من المرجح جداً أن بعضها يمكن أن تعبر عن الرغـبـات تلك بطرق ملتـوية. فـابنتي مثلاً قد تصورت في فنطازيا حلمـهـا أن لعـبتها المخملية وهي على هيئة أسد، تعضني، لأن عـضـة الأسـد أشد إيلاماً من عضتها هي، فليس من المستغرب إذن أن تجد فنطازيتـهـا تلك طريقـاً لها في حلم ابنتي. فهذا الحلم ما أبعده عن التزييف والتـمـويه، إنه قـد عبر عن نفـسه بهذا القصد الصارخ: إذ أنها (الطفلة) في الحـقـيـقـة قـد روت حلمها لي بابتسامة عريضة تملأ أسارير وجهها، ولم يبد عليها، وهي ترويه، أنها في شيء من الأسى أو الضيق.

وعندي أن العـلاقـة بين النوم والحلم إنما هي علاقة على العكس مما ذهب إليـه فـرويد في نظريتـه. والشـواهد العلمـيـة الحديثة قد أوضحت أنه عندما يحصل النوم ويستمر فترة طويلة كـافـيـة، فإن الأحلام دائماً تكون مصاحبة له: إن النوم، في واقع الأمـر، هو الحارس للحلم.

الحلم كصمام أمان

إن الفكرة القـائلة بأن الحلم هو صمام أمـان من الرغـبـات المكبـوتة، لا تقـوى على الصـمـود في ضـوء مـا استجد من نتائج دراسات حديثة. فأولاً، كما سبق أن رأينا، فإن أغلب أحلامنا، إنما هي تافهة وفاقدة لحيويتها فليس

إذن ثمة من سبب معقول لأن نصر على القول إنها الأحلام كلها تتفجر تحت غطاء التمويه من أجل إشباع فنطازي. وثانياً، فإن المفهوم الكلي الخاص بالتنفيس عن الدافع خلال النوم بحاجة إلى تمحيص طالماً أن هناك من الشك ما يجعلنا نعتقد بأن الخيال وحده لا يتمكن من تحقيق الإشباع الدائم للكائن العضوي. حقاً، إن باحثاً أمريكياً ادعى أنه اكتشف أن الأشخاص العطشانين الذين حلموا بأنهم كانوا يشربون في أحلامهم قد شربوا لدى استيقاظهم أقل من أولئك الذين أخفقوا أن يحلموا بالعطش. وإني شخصياً ليساورني الشك في أن أبني نتائج عامة على مثل هذه الآراء، وذلك لأنه من العسير أن نتبين كيف يمكن تطبيق المبدأ العلمي في مثل هذه الحالات. إنها لخبرة في الحلم شائعة ومنتشرة، أن نجد مثلاً، أنفسنا نبحث باهتياج بالغ عن بيت للراحة عندما تكون المثانة خلال نومنا شديدة الضغط الحاد، لكن أولئك الذين يفلحون في التخفيف مما هم فيه إبان الحلم من المؤكد أنهم لا يتبولون في صباح اليوم التالي أقل من أولئك الذين أحبطت جهودهم أن يفعلوا الشيء ذاته خلال الحلم.

أما ما يخص الدوافع الجنسية والعدوانية، فليس هناك في الواقع من الشواهد ما يشير إلى أنها تجد لها انطلاقاً خلال الأحلام، هذا وإن لدي من الدلائل والخبرات ما يدل على عكس ما يذكره فرويد مثلاً. إذ ليس من المحقق أبداً أن من يحلم بأنه قد مارس الجنس أو نفس عن عدوانية خلال حلمه سيكف في اليوم التالي أو في قادم أيامه عما كان يحلم به أو عما يريد أن يشبع به دوافعه تلك. وحتى التفكير بالمحرمات وما يبدو منها في الأحلام، فإنها تبقى ماثلة في ذهن الحالم ويحاول إشباعها في دنياه الحقيقية. وإني لأذكر هذا حتى من خبراتي الشخصية. وإنّي لا أرى في هذا ما يدعو إلى الاضطراب طالما أن الانفعالات المستحضرة إلى ساحة الوعي الشعوري هي أقل خطورة من تلك التي تبقى حبيسة مكبوتة.

إن نظرية الحلم كصمام أمان ليست بالجديدة على فرويد، فهو كان

قـد أشـار عـدة مـرات في (تـفـسـير الأحـلام) إلى [نـظـريـة الإفـراز] Theory of secretion التي جاء بها و. روبرت W. Robert، في عام ١٨٨٦. فـروبرت هذا كـان قـد شدد على المواد غير المهمة نسبياً التي تكون قد مرت بالفـرد في سـابق يومه، بدلاً من تأكيده على الدوافع والنوازع اللاشعورية. إذ وصف الحلم بأنه [عـمليـة إفـراز جسمية] تعمل كصمام أمان وذلك بإفساح المجـال للتوتر المتجمع خلال اليوم لأن يجد له متنفساً، وقد كتب بهذا الشأن يقـول: [إن الإنسـان المحـروم من قابلية الحلم فإنه قد يأتي يوم يضطرب فيه اضـطـرابـاً عـقليـاً ويختل فـيـه عـقله ذلك لأن مـقـداراً ضـخـماً من الأفكار الناقـصـة، الفـجـة والانطباعات السطحية تتراكم في دماغه]، مكونة سحابة تؤدي إلى خنق قابليته الخاصة بالعمليات الفكرية السوية.

وفي الـوقـت الذي اعترف فـيـه فـرويد بوجـود ذكـريات تـتـعلق بالأفكار وبوجـود أحـداث من اليـوم المنصرم - بواقي اليوم أو متبقيات أحداث اليوم - وإنها يمكن أن تجـد طريقها إلى الأحلام فتتبدى فيها، فإنه لم يرجع إليها أو يعـزو إليـهـا وظيـفـة رئيـسـيـة خـلال عـمليـة نشاط الحلم، كما رأينا خلال استـعـراضـنا لآرائه؛ بل هو رآها مجرد وسـائل بواسطـتـهـا تهرب الرغـبـات اللاشـعـورية المكبـوتة نفـسـهـا لتتسرب على صورة أحلام. فعند فرويد، أن شـخـصـاً محرومـاً من الاحـتلام معرض إلى أن ينهار لأن نوازعه اللاشعورية بقـيت حبيسة فلم تجد لنفسها متنفساً، بينما بالنسبة إلى روبرت فإنَّ متبقيات اليـوم الفـائت هي التي تسبب الاضطراب. فرويد اختلف مع روبرت أيضاً لاسـتعمال هذا الأخير لمصطلح (جسمي) Somatic ليصف به عملية الحلم، ليـصـف به عـمليـة الحلم، واختلاف فرويد هذا إنما ينبع من إصراره على أن الحلم من حيث الأساس ما هو إلا ظاهرة نفسية:

Psychological Phenominon

وفي ضـوء مـعطيـات البـحـث الحـديث، يـبـدو أن روبرت كـان أدنى إلى الحـقـيـقـة مما كـان عليه فرويد. فدورة التناوب المعتادة والاعتيادية في حالتي

نوم NREM/REM إنما هي بشكل أساسي عملية فسلجية تحصل عند الكائن العضوي بفترة طويلة تسبق تكوين الخبرة الذاتية للفرد عن الحلم، فيبدو من المرجح إذن أنه في مرحلة ما من تطور النوع البشري human species فإن السلوك الحلمي قد فرض نفسه في الخلفية الفسيولوجية لعملية REM، لكن تبقى مسألة ما إذاكان هذا السلوك ضرورياً للبقاء فتلك مسألة أخرى. وكان قد مر بنا، إن الكائنات الإنسانية حين تحرم من نوم REM لمدة أكثر من أسبوعين قد أظهر أفرادها حداً أدنى من الاضطراب النفسي، ولكن من المؤكد أن حرماناً يطول أمده فترة أطول يمكن أن ينتج عنه في النهاية انهيار عصبي.

وخلاصة القول، فإن فكرة فرويد عن الوظيفة المزدوجة للحلم - بوصفه حارساً للنوم وكصمام أمان للتعبير الخيالي عن الرغبات المكبوتة - يجب تمحيصها في ضوءمعطياتالبحث الحديث إذا ما أريد لها أن تبقى كنظرية تتسم بالشمول تختص بعملية الحلم. ورغم ما هي عليه من حدود ضيقة فإنها كانت ولاشك تمثل اختراقاً رئيسياً وتقدماً أساسياً في تمكنها من استعادة الفكرة القائلة أن الأحلام يمكن أن تكون وسائل تواصل حافلة بالمعاني - فهي قد استعادت الفكرة هذه ليس من عالم الخوارق ودنيا الماورائيات، بل من صميم أعماق الإنسان وكينونته. وبافتتاحه فكرة تفسير الأحلام واعتبارها أمائر نهتدي بها إلى مشكلاتنا الانفعالية الثاوية وصراعاتنا النفسية الخافية، فإن فرويد بعمله هذا قد مهد السبيل أمام الآخرين ليتحروا كوامن الأحلام والاستهداء باستخدامها وذلك توسيعاً للوعي الإنساني في مختلف الامتدادات التي تقتضيها متطلبات حياته، كما سأصف ذلك فيما بعد. ولعلنا، بعد، ما زلنا بعيدين عن تكوين نظرية شاملة تحتوي ضمن إطارها عملية الحلم ككل. لكن هذا لن يصرفنا بحال من الأحوال عن حقيقة قائمة تلك هي أن بعض الأحلام في الأقل تتيح لنا طريقاً معبداً يوصلنا إلى اللاشعور ويبلغنا حالة الوعي من حياتنا العقلية، وتلك وسيلة تمكننا على نحو أفضل من فهم أنفسنا وإدراك دواخلنا.

الفصل الخامس
للأحـــلام مقاصـــدها

القـول بأن مـقـدار مـا هو متوافر الآن من مادة الأحلام يبدو شيئاً مبتذلاً ولا يعـدو كونه مذقاً(١)، وإن وصلنا إلا مـزيد منه أضـحى اليوم أمراً ميسوراً أكـثـر من ذي قـبل، قـد أدى القـول هذا بكثير من الناس إلى مجانفـة فكرة الحلم بوصـفـه ظاهرة إبداعيـة أو أنه ينطوي على الكثير مما له معنى غزير. والحق، أن السر (بيتر مـيدوار) Sir Peter medawar كـان قد لام (آرثر كويستلر) Arthur koester لأنه وصف في كـتـابه: نشـاط الخليـقـة The Art of Creation، الأحـلام بـأنهـا [انـكـفـاء إلى عصر الظلمات في أول نبـضتها، حين كنا جزءاً منها قبل أن تسلخ ذواتنا egos منهـا] ففي عبارة له أصـبـحت متواترة ومعروفة منذ أن أطلقها يومذاك، أكد السر ميدوار على أن كـثيراً من الأحـلام قـد لا تعـدو كـونها نوعاً من (الضوضاء) الهراء يمكن أن تصـدر عن أية مجزوءة من جـهـاز كهربائي شغال ـ فهو قد كتب يقول: [لا حـاجـة بنا إلى أن نؤكـد على كـثـرة مـا في عـالمنا اليـوم من أجـهـزة المذياع والأدوات الالـكـترونيـة، وإلى أن نقـول بأن كـثيراً من الأحـلام مـا هي إلا تجميع من عناصر فكرية لا تتضمن ولا تنقل أية دلالة معرفية.]

بوسـعي أن أقـول بحكم مـا توفـر لدي من خبراتي الخاصة، بأن كثيراً من خبراتنا النعـاسيـة التي نبلوها في مـسـتـهل إيوائنا إلى مـضـاجعنا وأن بعض أحـلامـنـا ونحن في حـالة نوم من نوع NREM تـبـدو يقـيناً من هذا النوع الـذي ألمعنا إليـه في الفـقـرة الآنفـة. فـعندمـا نسـتسلم للنوم في اللحظات الأولى، مـثـلاً، فإن الفكر المجـرد سرعـان مـا يخلي السـبـيل إلى أحساسات بالسـقـوط، وتؤدي إلى مـا يشـعـرنا بالتـشـويهات الجـسـمـيـة والارتعاشات البـدنيـة، والضـوضـاء الصامة والالتماعات الضوئية الخاطفة للأبصار. فخبرتي

(١) لا طعم له، ليس له معنى (المترجم).

النعاسية الخاصة بي التي كثيراً ما عاودتني تتمثل بنوع من الإنزلاق والسقوط وبالتالي أجفل لهذه الظاهرة فأستيقظ مرتجفة. [وهذه ظاهرة شائعة مألوفة اكتسبت اسماً فنياً تقنياً هو رجفان ارتجاجي عضلي Myo-clonic jerk] وبعض الناس يرون أجساماً تطلق باتجاههم وهم نائمون، تطلق نحوهم من الفضاء، أو يرون وجوهاً غريبة تظهر وتختفي على نحو مخيف خطير. والنشاطات المتكررة الرتيبة المملة التي نمارسها خلال النهار قد تلاحقنا عند النوم. وما أكثر ما رأيت في الغالب بعد يوم في قيادة السيارة مضن ومتعب، رأيت نفسي أشطح بالسيارة يميناً وشمالاً ونحو الزوايا في الممرات أو أراني أتسابق مع سائر السيارات الأخرى، يتم هذا في الوقت الذي أرى فيه الشاحنات والحافلات تتقدم نحوي بصفوف طويلة لا نهاية لها، وغالباً ما يصاحب كل ذلك بإضاءات السيارات وأصوات منبهاتها. وأن الموسيقى التي أنصت أحياناً إليها في المساء تلاحقني في النوم. ويبدو أن ما يجري إبان النهار من استجابات إدراكية متكررة تستمر في مفعولها خلال النوم حتى في حالة غياب ما كان يصاحبها إبان النهار من تنبيه stimulation حسي ـ عضوي، وإن هذا من غير المرجح أن يمثل أي شيء آخر غير (الضوضاء) المتبقية في الدماغ من أحداث اليوم المنصرم.

بيد أن التصور imagery النعاسي يبدو غير مرتبط بأحداث اليوم السابق له. فأنا شخصياً، مثلاً، حدثت لي رؤى بصرية رأيت فيها فتاة ترتدي بدلة زرقاء تتجول في حقل من الذرة الصفراء تداعبها برقة نسائم الهواء اللطيف. كان هذا المنظر من الوضوح بحيث أنني تمكنت في اليوم التالي من رسمه في لوحة. وفي مناسبة أخرى، حدثت لي رؤى عابرة أبصرت فيها تنيناً أحمر وهو يرقص في ساحة مكشوفة. إن النظرية الفرويدية دون شك، تحاول، مثلاً، أن تستقصي هذه الرؤى في نوع من أنواع الرغبات الطفلية المكبوتة ـ وأن نظرية فرويد ـ قد تشدد بخاصة على التنين إذ تعتبره رمزاً symbol ـ لكنني أنظر إلى المسألة من زاوية أخرى، إذ أعتقد بأن الرؤى

هذه ما هي إلا مجرد استجابات عشوائية اعتباطية حدثت كرد فعل لمنبهات بيئية متناقضة حصلت في وقت يكون فيه الدماغ منحدراً من حالة اليقظة إلى حالة النوم، ولذا فهي رؤى لا معنى لها ولا دلالة فيها أياً كانت.

ثمة خبرات مماثلة تطرأ خلال النهار حينما نفسح المجال لانتباهنا بالسرحان أو عندما نستغرق في حلم اليقظة daydream، وإذن فمن المرجح إنها تمكث مستمرة كضوضاء متبقية في ثنايا الدماغ الحي. وسواء أصح أن ينطبق الأمر كذلك على أحلامنا الليلة ونحن في حالة نوم من نوع NREM/REM فتلك مسألة أخرى. يقيناً أن بعض أحلامنا من نوع NREM، ربما هي من هذه الطبيعة أو من هذا الضرب وبخاصة من تلك التي يرى الحالم فيها نفسه وهو (يتجول) أو (يزجي وقته). على أن هذه ليست هي القصة الكاملة، بالنظر إلى أن كثيراً من الأحلام إنما هي أحداث مركبة معقدة مفصلة تشير إلى وجود نوع من أنواع الانتظام والاتساق في مجمل الجهاز الجسمي كله.

أما ما يخص أحلام REM، فهي أبعد من أن تكون مجرد تجميعات غريبة لأحداث وهمية وشخصيات خيالية، إنها في معظمها وفي أغلبها، كما كشف البحث العلمي الحديث، تعكس أنماطاً من الحياة الواعية الحقيقية الاعتيادية. والحق لقد ذكر الدكتور (فردريك سنايدر) Fredeirick Snyder مؤخراً أمام اتحاد الدراسات النفسية ـ الفسلجية للنوم في أمريكا، إن [حوالي ٩٠٪ من أحلام REM أصبحت مقدراً لها بأنها موثوقة وأنها تنوي على أوصاف لمعطيات الواقع الواعي، وإنها بهذا القدر ليست درامية وإنها في ذات الوقت خالية من الخزعبلات.] ويستطرد سنايدر قائلاً:

[.. إن ما يذكره الحالمون من أحلام REM إنما هي عامة حقاً واضحة، متماسكة، محبوكة، روايات مصدقة، تحكي مواقف حقيقية واقعية، تشمل الحالم وأشخاصاً آخرين غيره في أنشطة دنيوية وفي حالات أعمال ومهمات كانوا قد مروا بها يومية. وأن ما يروى فيها من تقارير ومن روايات قد

اعـتبرت بعـد تمحـيـصـهـا أنها تقريباً تمثل الواقع تماماً وأنها واقعية في صورتها البـصريـة الرؤوية، وهي بوجـه عـام تشـتـمل على مـوقف مألوف أو رتيب مـتكـرر، وأنهـا دائماً تـقـريـباً تنطوي على الذات ـ ذات الشـخص الحـالم ـ وتشـملها، وتكون نفس الحالم عادة في حالة تفاعل مع أشخاص آخرين.]

ولقـد ناقش باحـثـون آخـرون مسألة نشاط الأحلام REM وعلقـوا على مـاهيـتـها وما توصلوا إليه منها في المختبرات، وذكروا أنها حالات حاصلة لا امتراء، وقـد قـارنوها بما يحصل للحـالم من أحـلام تلقائية وهو نائم في بيته، وذكـروا بأنها تبـدو أهميـتـهـا من خـلال كـشـفـهـا عما يواجـهه الإنسان من مـشكلات شـخصية وصراعات ذاتية. هذه الملاحظات قد عززتها سلسلة من التـجـارب على الأحـلام أجـراها في جامعة كاليفورنيا البرفسور (كالفن هول) Calvin Hall، وزمـلاؤه، إذ قـارنوا نماذج وعـينات من الأحـلام كانت قد تم جمعـهـا تحت ظروف مـتـبـاينة. مـا توصلوا إليه من نتائج قد أظهرت أن الأحـلام البـيـتـيـة قـد اشـتـملت أكثر ما اشتملت عليه: الجنس، العدوان، المحن، الفـشل، النجـاح، الصـداقـة، فـهي قد انطوت على هذا النوع من العناصر أكـثـر مما انطوت عليه الأحلام التي تمت في ظروف مختبرية، وكانت الأحـلام البيتية تلك، بشكل عام، أكثر حيوية وأوفر إثارة.

أجـريت معظم تجاربي في بيتي الخاص، هيأت فيها للأشخاص المتطوعين لإجـراء التـجـاربة عليـهم، فراشاً دافئاً، مريحاً، ينطوي على جميع الظروف الاعـتـيـادية مـا أمكن ذلك. لكنهم، بطبـيـعـة الحال، كانوا قد تم وصلهم بأسـلاك ترتبط بأجـهـزة التسجيل، وقد أفهمتهم مسبقاً بأنهم سيوقظون عدة مـرات خـلال الليل من أجل أن يرووا لي أحلامهم ـ وهذا الظرف بعيد عن الوضع الطبيعي ـ لكن جهوداً قد بذلتها في سبيل التقليل إلى أدنى حد ممكن من التأثيرات التي قـد يحدثهـا البرد، أو التي تسـبـبـهـا أجواء المستشفى غير الشـخـصـيـة أو الظروف المختبرية. بعد أن أحكمت المواقف والظروف على النحـو الموصوف، وجدت أن ٦٥٪ مـن أحـلام REM كـانت واقـعية

وتعكس مجريات الحياة اليومية، بدلاً من ٩٠٪ وهي النسبة التي كان قد ذكرها سنايدر . وعندما قسمت الليل نصفين، وجدت أكثر من ٨٠٪ من أحلام النصف الأول منه كانت أحلاماً ترهات، مقارنة لها بمقدار فقط ٥٠٪ منها وهي التي حصلت في نصفه الثاني حيث كانت أحلاماً تعكس واقع الحالمين.

وهذه النتائج تعززها نتائج دراسات سابقة وبحوث أجريت من قبل وكلها تؤكد أن الأحلام تميل إلى أن تكون أكثر درامية وأبعد غرابة وأنها تحتوي على مادة حلمية طفلية كلما توالى الليل وتقدم. ولما كان اعتيادياً أننا لا نمكث مستيقظين طويلاً بعد يقظتنا في منتصف الليل لكي نسترجع أحلامنا، فمن المرجح أن معظم الأحلام المسترجعة تلقائياً إنها تنشأ من الفترة الطويلة الاستمرار من نوم REM التي تسبق يقظتنا صباحاً. فليس من غير المعقول، إذن، أن نفترض أيضاً، بأن فرويد كان كذلك يعمل بصدد ما يحدث لمرضاه من أحلام تلقائية مماثلة، مما حدا به إلى أن يرسي نظريته بصورة شمولية على أساس من الخبرات الليلية أكثر دراماتيكية وأشد انفعالية. والحق، فإن ما أبداه أصدقائي المحللون النفسانيون ممن قرأوا ما دونته من أحلام أشخاص تجاربي كانت ردود فعل تعبر عن أنها كانت في أغلبها أحلاماً باعثة على الملل الممض ـ وهي تعليقات لا تشجع كثيراً باحثة في الأحلام ما فتئت ماضية في سبيل ما هي عازمة عليه من كشف عن حقائق الأحلام، باحثة أمضت مئات الليالي دونما نوم من أجل جمع ما يمكن جمعه من مادة الأحلام.

الحلم (النموذجي)

ما تم التوصل إليه من أن أحلام المختبرات هي بكل وضوح أحلام تنقصها جوانب النشاط الجنسي والعدواني، وإنها أبعد من أن تشير إلى ما هناك من صراعات طفلية لا شعورية ـ هذه كلها قد حملت بعض المحللين

النفسانيين إلى شجب الأحلام المختبرية تلك معتبرين إياها تصرفاً تشويهياً ونتاجاً ملتوياً تم التأثير فيه على النشاط العقلي للنائم. وإن مثل هذا الرأي يستدعي ما المقصود تماماً وتحديداً بالحلم [الملتوي] أو غير النموذجي، وهو سؤال سنناقشه عما قليل، ولنسأل في هذه اللحظة، : هل بمقدور أي محلل نفساني الاعتقاد حقاً بأن ما تعكسه أحلام مرضاه من حياة يحيونها تستمر مستقرة لا تلوثها أية طوارىء في ظروفهم الخاصة من ظروف العلاقات العلاجية؟ ففي عملية التحليل، نتعلم بسرعة كيف نستأثر بانتباه المحلل أو كيف نستحوذ على استحسانه، أو على العكس من هذا، سرعان ما نتعلم كيف نعطل عمله ونوئسه، وذلك حينما ندرك ما طبيعة المعلومات التي تهمه وما هي المعلومات التي نريد إفشاءها إليه أو حجبها عنه، وإني لأذكر أنني في إحدى فترات التحليل التي مررت بها وفق الطريقة الفرويدية، لم يمض طويل وقت لأتبين أنه حينما ذكرت ونطقت بخبراتي الجنسية أحسست بحركة الكرسي الذي كان يجلس عليه المحلل خلفي والباعث على صرير كرسيه هو أنه كان كلما سمع شيئاً من الخبرات الجنسية يفيق من استذكاره فيدنو ليستمع أكثر. وكان بعدها يشجعني بعبارات التشجيع أكثر أتلقاها منه ويودعني بابتسامة عريضة. وأبان الوقت الذي كنت أخضع فيه للتحليل، وحتى كنت أضطر فيه إلى شيء من الاستحسان، كنت أجدني أمر بفترات من الأحلام كلها مفعمة بأحلام الجنس وبرموز الجنس، وعندما مررت بحالة من الحالات السلبية وحالات رد الفعل المناقضة واحتجت إلى تغيير في التحليل وفق الطريقة اليونجية (نسبة إلى يونج) وجدتني أجتاز مرحلة أحلام حافلة بالرموز السحرية القديمة ومليئة بالموضوعات الأسطورية.

الباحثون في الأحلام على وعي تام بما هناك من مصاعب تواجه الباحث عندما يريد الظفر بنموذج مناسب عن تقارير تخص الحلم (النموذجي)، نظراً لما هناك من عقبات تجبه ما يراد التوصل إليه من نتائج مجردة عن

التحيز.

والجواب لهذه المشكلات هو أن ليس ثمة شيء اسمه حلم (نموذجي). ما الأحلام إلا نتاج عمليات سيكولوجية معقدة التركيب تتأثر حتماً بما يكتنفها من ظروف حين يتم الحلم بها وتحت وطأتها وأن الأحلام (لا تشوه) بالمؤثرات المختبرية وما يحيطها من قلق وأنها لا تتأثر كذلك بالجو الخاص للوضع التحليلي الذي تتم فيه، وإنما هي - الأحلام - تتشكل بهذه العناصر وبما هناك من ظروف أخرى. إذ أننا حتى ونحن في البيت، فإننا لا نكون بمنحاة من مؤثرات كهذه تؤثر في حياة أحلامنا. فالنساء الحوامل مثلاً في الأشهر الثلاثة الأخيرة من الحمل يحلمن بمرأى الأطفال أكثر من سائر النساء الأخريات، وإنني شخصياً وقت انتهاء علاقاتي الزوجية كانت كل أحلامي تتضمن موضوعات كلها تدل على الانفساخ والخسران والانسلاخ. وحديثاً أوضح البرفسور (روبرت فان دي كاسل Robert Van De Castle من جامعة فرجينيا، وناقش في دراسات مسهبة، أن محتوى أحلام النساء إنما يتأثر كثيراً بدورة الطمث عندهن.

تتأثر الأحلام كذلك بما هناك من عوامل شخصية قائمة في ذهن الفرد. فقد كشفت التجارب، مثلاً، أن الأشخاص الذين يعانون من كآبة يحلمون بالأشياء الباعثة على الكآبة؛ وأن الأشخاص القلقين يحلمون بما يهدد شخصياتهم؛ وأن الشخصيات اللااجتماعية أو المريضة اجتماعياً تكون أحلامها محاقة بالمعوقات اجتماعياً وبما يحول دون نشاطها؛ ويحلم المحكومون بأحكام لإساءاتهم الجنسية المنحرفة، يحلمون بعلاقات جنسية غير مشروعة، أكثر من أي منا؛ وتكون أحلام المرضى الذهانيين مشبعة بموضوعات من الازدراء غير المبررة وإحساس بالاضطهاد والملاحقة لا أساس له؛ وإن أولئك الذين يعبرون عن نوازعهم ونزواتهم في الحياة الواعية صراحة يظهرون في أحلامهم نزعة عدوانية وجنسية أكثر مما يظهره أولئك الذين يكفون مثل هذه النزعات في حياة اليقظة.

فليس بمستغرب إذن أن تدور أحلام الأشخاص الذين تجري عليهم التجارب في المختبر، حول المختبر نفسه وبما يثيره فيهم من قلق. هذا وإن حوالي ثلث الأشخاص الذين كنت أجري عليهم تجارب تضمنت أحلامهم إشارات واضحة إلى ظروف التجربة، وأعتقد أنني قد اكتشفت إشارات رمزية لدى ثلث آخر منهم. والحلم الآتي هو حلم نموذجي يعبر تعبيراً واضحاً عن قلق ظاهري يتعلق بالتجربة:

[كنا نقوم بهذه التجربة. وكان هناك موقف ارتبط به منظر داخل المستشفى. أتذكر فيه أبواباً رمادية. كنت أراني وحيداً هنا، وكان عرضاً ثمة شخص آخر ـ وكنت أنت المجربة موجودة، وأظن شخصاً مجرباً آخر كان موجوداً هناك. وأن موقف الحلم كان يتألف أساساً منك وأنت تنادين علي، وأنا أرد عليك، لكنني كنت أراني في مكان غير المكان الذي كان يتعين علي أن أكون فيه أو كأنني كنت أجيب فيه على غير هدى، أو كأنني كنت أقوم بما يغيظك لأنني لم أستجب إليك في الوقت المناسب. استيقظت لأن أشياء غير مرضية قد طرأت أبان الحلم. كنت أحلم أنني قمت بخطأ ما. ولكن ما هو: لست أدري. وبدا لي أنني أحسست بعدم رضاك.]

فهذا الحلم يتضمن إشارات واضحة إلى الموقف التجريبي وإلي شخصياً. والحلم التالي رواه شخص آخر وهو حلم يصف نفس الموقف ولكن بصيغة أكثر تمويهاً.

[كنا في سيارة نجتاز جبالاً. وكنا ننوي صعود الجبل مباشرة دون اتباع الطريق المريح بالالتفاف حول الجبل. وكان معنا في السيارة أناس آخرون، وكان أحدهم، وهو معالج نفساني، يطل من فوق كتفي يوجه السائق إلى الطريق. وقد بدا لي أنه الموجه للرحلة ولمشروعها كلها وكان ينطق بألفاظ تنطوي على أشياء من استحسان لي. وكان عندي إحساس بأنك أنت كنت ذلك المعالج النفساني.]

وفي الوقت الذي أستطيع فيه الحدس بأن هذا الحلم يشير إلى التجربة

بشكل مباشر، وفيه رأى الحالم مواجهته رأساً إلى وجه الجبل، فأنني لم أكن متأكدة حقاً وتماماً لو لم يؤكد هو النقطة الأخيرة بأن الإشارة هي التجربة إياها. وإني في هذه التجارب لم أكن قد طلبت الربط بالحلم عناصر كان يمكن أن تسلمنا إلى ما هناك من قلق كامن يختص بالتجربة ذاتها. وأن الحلم التالي هو الآخر أشد تمويهاً، وهو بدوره أستطيع التخمين أنه يشير إلى التجربة كذلك وأن الشخص الحالم نفسه قد أكد ذلك.

ذكر الشخص الحالم:

[إنه منظر في الريف، وكان هناك عدد من الشواخص في الخلفية لذلك المنظر، وبدا لي أنه كان لدي وعاء مما يستعمل في المزرعة، وهو كبير وقد لاح لي وسخاً وكان يبدو أنه بحاجة إلى تنظيف. وقد ظهرتي أنت في الخلفية هناك وقد أرسلتي على بعض الناس ليتولوا تنظيفه. وجاء الرد من هؤلاء الناس أنهم جد مشغولين بحيث لا يتمكنون من توفير وقت وليس لديهم أي شخص فائض عن الحاجة ليقوم بالمهمة، فقلت أنا لك: لا تهتمي، أنا لها، أنا أتولى المهمة وأنجزها. وكان ثمة مجرى ماء جد كبير ينساب فيه ويتدفق ماء زلال وقد غمست فيه هذا الشيء ـ الأناء ـ ونظفته بفرشاة. ثم بدا لي، بعد ذلك، أن الليل قارب نهايته، وأنه كان يتعين علي أن أذهب إلى البيت.]

الجملة الأخيرة من حلمه تتيح لي المفتاح بأن ذلك الحلم كان حول التجربة. ومن هذا كان علي أن أنفذ ما يعنيه الوعاء بالنسبة إليه مما كان يسبب له كثيراً من الاهتمام. وكنت في الأيام المبكرة من عملي التجريبي قد طلبت إلى أشخاص تجاربي بأن أضع تحت أسرتهم آنية يستخدمونها توفر عليهم وقتاً للذهاب إلى بيت الراحة. وإن غالبيتهم العظمى قد وافقوا بكل سرور ورحبت باستجابتهم هذه فهي تغنيني عن تفكيك الأسلاك المربوطة بأجهزة التسجيل وإعادة ربطها في كل مرة تقتضيهم الحاجة الذهاب إلى الحمام، إلى جانب أنها توفر علي وعليهم وقتاً. وهذا الشخص بالذات كان

على المستوى الشعوري جد مستجيب إلى هذا الترتيب، لكنني أعتقد بأن الحلم قد كشف عما كان يساوره من قلق دفين حول المسألة هذه. فسرت الحلم بأن الأناء في المزرعة إنما يشير إلى الوعاء المتفق على استعماله بدلاً من الذهاب إلى الحمام، وخمنت أنه قد استعمله خلال الليل وأنه كان مشغول البال كيف يكون الموقف عندما أجد ذلك الوعاء ملوثاً في الصباح. ويشير الحلم كذلك إلى ما يدل على أنه كان يفكر بتنظيفه عند يقظته صباحاً قبل توجهه إلى داره. لست متأكدة عما إذا كان قد فعل كل ذلك، لكنني في اليوم التالي بعد مغادرته، وجدت ذلك الوعاء تماماً نظيفاً وفي داخله ترك قصاصة من الورق وعليها الكلمتان: [ها، ها!](٢).

وفي النهاية تجنبت فكرة استعمال الوعاء واستبعدتها نظراً إلى أن أعداداً متزايدة من أشخاص تجاربي راحوا يحلمون أكثر فأكثر بتلك الأوعية، وبمجاري المياه، وسواها، وأغلبها كانت مصحوبة بمشارع القلق. وأن خصومتي مع المحللين النفسانيين لا تنصب على قولهم بأن أحلاماً كهذه يمكن أن تهدينا إلى ما هو كامن هناك من صراعات من أيام الطفولة، طالما أن كثيراً منها من الواضح أنها هي حقاً كذلك، لكن إختصامي وإياهم يتصل بقولهم بأن التعبير الرمزي في الأحلام إنما هو تمويه يرمي إلى إخفاء مشاعر الحالم وأحاسيسه. إني بدوري أعتقد إذا كان شخص تجاربي يحلم بالمقعد وكأنه وعاء مزرعة فلديه سبب طيب أن يفعل هكذا، ففي مكان ما في خلفية ذهنه يقترن الاثنان اقتراناً لا انفصام له بعملية إرتباطية كانت قد احتلت حيزاً من عقله إبان حياته الواعية في اليقظة.

العقل الناطق (خلال الحلم)

لعل لدى الإنسان الاعتيادي فكرة ضئيلة عن النشاط العقلي الحاد المستمر والمتواصل في العقل وهو في حالة يقظته. والبحث في سيكولوجية

---

(٢) تعبير صوتي يدل على الاستخفاف والازدراء (المترجم).

الأدراك الحسي مثلاً قد أظهر أنه حتى الملاحظة الظاهرية البسيطةتكون مقدماً قد تغربلت تماماً وتم تمحيصها في حدود خبرتنا الماضية عن الموقف الذي لاحظناه، وتكون الغربلة هذه قد تمت بتأثير من خبراتنا الآنفة ومشاغلنا الحاضرة، ويكون هذا قد حصل حتى قبل إحساسنا بها. وكان الشاعر وليم بليك William Blake قد تكلم عن هذه الحقيقة حين قال [الإنسان المجنون لا يرى نفس الشجرة كما يراها الإنسان العاقل]. فإدراكي الحسي لشجرة ما مثلاً يتوقف على ما كنت قد كونته من مئات الخبرات عن أشجار سبقت لي رؤيتها في الماضي - منها مثلاً الشجرة في الحديقة الخلفية للبيت الذي أمضيت فيه طفولتي، والشجرة في الغابة حيث كنت واقفة في يوم فحاول صبي تقبيلي، والشجرة التي تسلقتها وسقطت من فوقها فأنكسرت ذراعي، وهكذا الحال. ويعتمد إدراكي كذلك على ما أنا عليه حالياً من مزاج ومن حالة وجدانية: فعندما أكون مفعمة بالمحبة وبالحب، فإن الشجرة التي اكترث لها عادة تكون حينئذ شجرة حافلة بالبهجة والحياة. إن إدراكاتنا المتباينة للشيء الواحد نفسه فيها، بطبيعة الحال، عناصر مشتركة تمكننا من أن تتواصل في أفكارنا فتلتقي أفكارنا هذه عندها، لكن إدراكاتنا هذه تتفاوت في التفصيلات وفقاً لخبراتنا الفردية الذاتية.

وفضلاً عن هذا، فما أن نرى شيئاً معيناً، أو نشهد حدثاً ما، أو تطرأ على أذهاننا فكرة محدودة، حتى تتوالى لدينا سلسلة من الأفكار تغدو تتحرك ولا يبدو ثمة رابط منطقي يصل بين حلقاتها. فحينما أنظر إلى شجرة مثلاً، واستذكر من جرائها شجرة الليلك في حديقة المنزل الذي قضيت فيه أيام طفولتي، فقد يقفز ذهني إلى صديقة لي من أيام الدراسة في المدرسة، اسمها ليلاً كارلتون، وإلى ذكريات أمضيناها أنا وإياها في مغاني يوركشاير(٣)، ولعلي أتذكر كذلك أولى نزواتي الجنسية، وهكذا. كل هذه

---

(٣) أسم مقاطعة في بريطانيا (المترجم)

الأحداث يمكن أن تتزامن وتتوالى دونما معرفة واعية شعورية مني، ولعلها تظهر فيما بعد على شكل تجمعات غريبة أراها في حلم من أحلامي فتبدو ظاهريا أحداثاً مفككة كأنها لا رابطة تصل بين أطرافها هذه. وبنفس الطريقة يمكن أن يكون رد الفعل عند شخص التجربة حينما رأى في الحلم الوعاء الآنف الذكر، إذ مرت في عقله شبه الشعوري سلسلة من الارتباطات عادت به إلى خبرة المزرعة، ولعلها خبرة قد تكون وقد لا تكون مرتبطة مباشرة بصدمة تدريبه إبان طفولته على كيفية الجلوس على الوعاء الخاص بقضاء حاجة الإفراغ.

ومما يجدر ذكره هنا أيضاً، هو أن أحد أشخاص تجاربي كان قد استجاب إلى كلمة (وعاء) بطريقة أكثر تعقيداً نوعاً ما، مما يدل على أنها قد أثارت في ذهنه سلسلة متواترة من عدة أفكار كلها قد تزامنت في عقله، ففي أحد أحلامه رأى، مثلاً، أن الشرطة قد أغارت على شقته وراحت تتحراها بحثاً عن مخدرات [حشيشة Cannabls]، وجاء بحث الشرطة عن المخدرات في شقته أثر مكالمة هاتفية تلقتها بأن الحالم كان يخبيء كمية قليلة منها عنده. وذكر أنه رأى أنه كان في فراشه عندما اقتحمت امرأة شرطية عليه غرفة نومه، فسحبت غطاء الفراش وألقته جانباً، ثم أعلنت بزهو وكبرياء: [ها قد وجدتها]. ثم مضت بتعنيفه بشدة وقوة، فما كان منه إزاء ذلك إلا أن يستيقظ قلقاً وقد استبد به الشعور بالذنب. وأضاف الحالم بأن المرأة الشرطية بدت له أنها أنا.

أعتقد أن كلمة (وعاء) حالما ذكرتها قد نشطت في ذهن شخص تجاربي ثلاث حلقات من الأفكار في الأقل. فأولاً، ثمة ما كان يساوره من قلق شعوري حاضر بأن الوعاء الممنوع قد تجده الشرطة؛ ثانياً، مخاوف طفولية لا شعورية محتملة كانت في خفايا ذهنه، ومصدر مخاوفه تلك أن أمه، وهي رمز للسلطة، قد تعاقبه في حالة التبول في فراشه؛ وثالثاً، هناك ما يساوره من قلق خفي من أنني سأزعجه بإيقاظه من نومه ولديه أحلام معماة خلال

عـملية التجربة. فالحلم يمكن أن يقال عنه بأنه تكثيف لثلاثة خطوط فكرية منفـصلة، فـيـه بدونا له ـ نحن الثـلاث ـ الشرطية وأمه وأنا، وكأننا شخص واحـد؛ وبدا له فـيـه المخـدرات، والوعـاء، والأحـلام، كلهـا بدت له شيئاً مـوضـوعـيـاً واحـداً؛ وظهـرت كـذلك غـارة الشرطة وتحرياتها، واستكشاف والدته، والتـجـربة هذه كلهـا ظهـرت له وكأنها نشـاط واحد. قد يوافق فرويد على فكرة أن سلسلة الأفكار كـانت قد بدأت خلال اليوم بكامله، فإنه في نفس الوقت قـد يصر على أن التكثـيف قـد تم أثناء النوم كـتـمويه لصبوات خبيثة بدت فظهرت في الحلم. وسنتاول هذا تفصيلاً في الفصل القادم.

بـوسـعـنا أن نتـعلم قـدراً كـبيراً عن النشـاط الارتبـاطي وذلك من خـلال إصـغـائنا إلى الأطفـال وهم يتحدثون إلى أنفسهم خلال لعبهم. فمثلاً، بينما كـان زوجي يكرر ويردد مع نفـسـه وبصـوت مـسـمـوع مـقطعاً معروفاً من مسرحـيـة هاملت Hamlet والـذي يـقـول فـيـه [وجـود أو لا وجـود..] سـمـعت طفلتي الصـغيرة في الطرف الآخـر من الغـرفـة تغـمغم مع نفسها [وجـود، وجـود النحلة، مـشـغـولة النحلة بصنع العسل.. نريد خبزاً وعسلاً وقت الشـاي.. تعـال يا دبي الصـغير تناول مـا تريد من خـبـز وعـسل مع الشـاي..] إن عـمليـات كـهـذه، وهي غـالباً ما يرددها أو تتردد في ألفاظ الأطفـال، إنما تتـوارد دائماً في أذهاننا لكنهـا يطغى عليـهـا مـا نحن مركزون عليـه وإليـه منصرفـون من مهمات في أيدينا أو ما يشغل أفكارنا من عمليات فكرية منطقـية تحاول باستمرار الإبقاء على نسق من الانتظام في مجرى حياتنا اليـومـيـة. وحين ينسـحب التنبيه الخارجي من مسرح الأحداث خلال النوم ويختـفـي المـنـطق الواعي، فإن سلسلة الأفكار المترابطة هذه يمكن أن تعلن عن نفسها جهاراً فتبدو في صيغة أحلام.

وإني لأتذكـر، مـثـلاً واحداً من أحلامي رأيت فيه صديقاً يدعى (كيكي) Kiki ناولني مـفـتـاحـاً وقال لي أنه يخص [تلك الشاحنة ذات اللون الخاكي Khaki الواقـفـة هناك]. وقـد وصف زميل لي الطريقة التي تفضي فيها مثل

هذه العمليات الارتباطية في الواقع في أحلام نراها خلال نومنا. كتب لي يقول: [بينما كنت أتحدر انسياباً مستغرفاً في نومي، رأيت تلك الكرات الملونة التي شاهدتها في فلم عصر هذا اليوم وهي تتدحرج باتجاهي. هذا المنظر ذكرني بلفائف rolls الشيكولاته وبدور role المرأة في المجتمع. والمرأة، بطبيعة الحال تهز وركها وهي تمشي، وسرعان ما وجدتني وجهاً لوجه، أمام ـ هـ ـ واقفة أمامي وإنها كانت تهز وركها بشكل يبعث على الإغواء. وهذا هو ما جعلني تواً أحلم حلماً جنسياً وأفكر بها وأنا في حلمي ذاك.] وفي مناسبة أخرى لاحظت أن ابنتي قد صفت باعتناء فوق الأرض وعاء يحتوي على الأصباغ، وتمثال (كرشنا) أحد آلهة الهندوس ـ ومكانه المعتاد على رف في غرفتها ـ وصورة لجدتها، صفت هذه الأصناف الثلاثة فوق الأرض جنباً إلى جنب. استوقفني المنظر هذا فرحت أتأمل وأتساءل: يا ترى، ما هو المنطق المحتمل وراء هذا التجميع الغريب؛ وبخاصة فإنها كانت جالسة أمام هذه الأشياء بخشوع وبانكسار وقد بدأت بكل جد ووقار تردد الترنيمة الدينية التي كانت قد تعلمتها من قبل وهي: هير [وتلفظها هاري] كرشنا ، هير كشرنا ، هير كرشنا، هير كرشنا ، هير راما، هير راما، هير راما، هير راما.

عند ذاك أدركت مقصدها، وهو أننا كل مرة كنا نغني تلك الترنيمة ونرددها سوية تومض أمام عين عقلها صورة (هاري) Harry صباغ بيتنا، وكرشنا، وتمثاله لديها، وجدتها، فتخيلتهم جميعاً جالسين في صف منتظم يرددن بوقار جاد أسماء بعضهم! ولئن مضى يوم دون أن تقوم بهذا الشيء نفسه، فإنها تتأمل وتتساءل عن غرابة الموقف. وهي إن لم تكن قد فعلت الشيء ذاته في يقظتها فما أكثر ما كانت تحدثني عن أحلام رأت نفسها فيها وهي تتولى ترتيب تجميع تلك الأشياء مكررة المهمة نفسها.

وبالمناسبة، فأي فرد حاول التأمل meditation والاستغراق، فإنه على بينة مما يكون عليه العقل من حديث في خلفيته متواصل لا يهدأ، فالعقل

يقوم بذلك والشخص ينوي محاولة إخلاء عقله مما يعكره من أفكار ضارة مشتتة وليست منه في شيء. ثمة مثال آخر يعبر عن نوع من الارتباطات مهوش، يطلق عليه عادة، اسم [مدرسة الأحد] ذلك لأنه كما يبدو حدث بخاصة عندما يتزامن غالباً مع إطلاق كلمات يتم ترديدها بشكل كلاسيكي تتضمن أسجاعاً معينة. فهي(٤)، بعد عودتها من الروضة عصر ذات يوم، ارتقت كرسياً كان هناك، وراحت تنشد بصوت متهدج ترانيم عيد الميلاد ومنها:

بينا يحرس الرعاة هناك قطعانهم في بهمة الليل
وهي رابضة في حظائرها، تتنزل ملائكة السماء

فتوقفت فجأة عن الإنشاد، والتفتت صوب حصان لها لعبة، وشرعت تخاطبه، [مسكين يا حصاني الصغير ـ الملائكة تأتي لتأخذك إلى الله.] وبعد أن انتهت من إنشادها الترنيمة عدة مرات، أدركت على التو أن [كل ما هو جاثم على الأرض] قد أصبح يعني بالنسبة إليها [حصاناً ميتاً مرمياً فوق هذه الأرض]. فمن الواضح دون ريب، إنها شهدت تلك الليلة وفي ذهنها يجول خليط غريب جاءت به معها من مدرستها وما تعلمت فيها ذلك اليوم من ترانيم، وما تعلمت من تحكم في توازنها، وما كانت قد قرأت من ترنيمات وارتباطات أخرى مما نعلم وما لا نعلم، كلها مرتبطة برؤى بصرية عن بعض الناس، اسمهم رعاة الليل وملائكة الرحمة تنزلت من السماء لتعود حاملة معها حصانها النافق المسكين. إننا وإن كنا نطرح جانباً، كلما تقدم بنا النمو، مثل هذه الإدراكات الزائفة، لكنها تمكث ولا ريب قابعة في ظهارة عقولنا لا تكف تفعل فعلها طول الوقت وهي ثاوية هناك، وإنها من المحتمل جداً أن تقوم بدور فعال في تكوين الأحلام.

وباجتزاء نقول، حين تبدأ المعرفة المتأتية من البيئة بالتوقف وعندما يسترخي العقل العقلاني فلا يعود مسيطراً وقت النوم، فإن جلبة النهار

(٤) تقصد المؤلفة أبنتها (المترجم)

الكائنة في خلفية العقل تتصدر فتظهر بائنة، ولئن نحن استيقظنا، فإننا نظفر ببعضها. وهي كلها تعكس ما كنا قد ألفناه خلال حياتنا الواعية من خبرات ومن ارتباطات. وكلها تنطوي على رغبات مكبوتة وأخرى مشروعة لكننا ما تسنى لنا الالتفات إليها وإرضاؤها. فبقيت تلح ملتمسة سبيلاً للتعبير عن نفسها فوجدت في الحلم خير متنفس لها.

التشبث بالفكرة :

هل ما نراه يتراقص ليلاً لذكريات النهار وما يرتبط بها، أية قيمة لنا سيكولوجية، إذ كنا غافلين عنها غير ملتفتين إليها إبان حياتنا الواعية؟ إذا كان الأمر بالإيجاب، فلعله من الأفضل إذن أن ندعها تأخذ سبيلها وتمضي في مهمتها دونما اعتياق، تماماً كما تفعل العفاريت في قصص الجن عندما تنظف البيوت ليلاً وقت الربيع، دون أن يراها أحد وهي تؤدي مهمتها تلك.

هناك جماعة من العمال تعتقد بهذا اعتقاد اليقين. فهم قد ذكروا أن الحلم يمكن أن يكون مشابهاً لعمليات معينة تجري عادة في الحاسبات الالكترونية. فمن وقت لآخر، هذه الآلات يحول سمارها ـ بعبارة أخرى، تفصل عن المهمة التي تقوم بالتحكم فيها ـ بحيث أن ما تقوم به من برمجة يمكن تحديثها بين حين وآخر، ليؤخذ بنظر الاعتبار ما تم الاتفاق عليه من معدل جديد للرواتب في أعمال معينة يؤدونها، أو لمواءمة ما حصل من تغير في قوانين الضرائب.

وهم (جماعة العمال) مثل هذا يقولون، إن دماغ الإنسان، كذلك والذي يعتبر أشد تعقيداً وأكثر حساسية من أية آلة حاسبة إلكترونية تم صنعها حتى الآن، قد طور (برامجه) الخاصة به لمواجهة مواقف الحياة. وهذه تتضمن برامج لأعمال رتيبة أساسية كالمشي والأكل، وتشتمل على برامج لمعالجة مشكلات في الحياة بسيطة مثل التهيؤ للعمل والاستعداد له، وبرامج

أخرى للتصدي لمواقف انفعالية معقدة كحالات التفاعل الاجتماعي والجنسي مع الآخرين. فالحياة اليومية إذن كل يوم تجبهنا بمشكلات جديدة تتطلب حلاً مما يضطرنا إلى أن نكيف برامجنا القديمة وأن نتعلم أساليب أخرى جديدة، وحين نلتقي بشخص له مظهر جذاب نجدنا نحور من أوقات فراغنا للتمتع بلقائه أكثر، أصحاب (نظريات الحاسبات ـ الكومبيوتر) Computer theories، في الأحلام يرون أننا نسجل المواقف الجديدة هذه خلال النهار ومن ثم، وبعد أن يستحوذ النوم على معظم الدماغ فينأى به عن النشاط، يروح عقلنا الحالم مستعرضاً ما كان حدث لنا في حياتنا الواعية فيوحد المعرفة الجديدة ويدمجها في برامج تكون جاهزة لليوم التالي. وفي ذات الوقت، فإن مقداراً كبيراً من ذكريات النهار، والتي لا علاقة لها بالأهداف البعيدة للكائن العضوي، يتم طردها واستبعادها، ولعل هذا يتم بواسطة تفريغ كهربائي يجري في الدماغ.

وتبعاً لوجهة النظر هذه، فإن الخبرات التي نسميها أحلاماً إن هي إلا ومضات لهذه المادة الجارية في أدمغتنا النائمة التي تتولى عملياتها الليلية في (غربلة المعرفة) information processing. بل إن الآراء لتتواتر مؤكدة بأن قصص أحلامنا إنما هي من مبتكرات عقلنا الواعي، الذي يحاول إضفاء نوع من المعنى والنظام على ما تنطوي عليه المعرفة التي اكتسبناها من أجزاء متناثرة فتتم غربلتها وتوحيدها في كل له معنى. وأخيراً، فما يذكر أنه حتى في حالة استيقظانا صدفة من نومنا إنما يعني اعتياق عملية فعالة كان ينبغي أن تبقى مستمرة إذا ما أريد لكفاءتنا العقلية أن تؤدي دورها كما يرتجى منها. فالحلم، يعتقد، بأنه نشاط حقيقي لغربلة المعرفة، وإن غرض النوم إنما هو إعطاء الفرصة لهذه العملية لكي تتم. فإن نحن حرمنا من فرصة (الحلم)، كما يقول أصحاب نظريات الحاسبات (الكومبيوتر)، فإننا في النهاية ننهار ذلك لأن برامج الدماغ الحالية لا يتاح لها التحديث في ضوء ما استجد من معرفة جديدة. وهذا بالضرورة يفضي إلى سوء التكيف،

والسلوك العصابي neurotic behaviour.

وفي الوقت الذي يكون فيه التشبيه بالحاسبة [الكومبيوتر] تشبيهاً مفيداً، فإنني أعتقد أنه لمن الخطأ التعويل عليه كثيراً واستنباط استنتاجات منه كثيرة. فقبل كل شيء، إن تكنولوجيا الحاسبات قد أصابت حظاً من التطور كبيراً وذلك مذ تمت صياغة النظرية هذه منذ عشرة أعوام خلت تقريباً. فالحاسبات الحديثة لم تعد بحاجة إلى أن يغير مسارها من أجل تحديث برامجها: إذ أن التحديث هذا يمكن أن يتم أثناء قيامها بأداء أغراض متعددة من مهامها. وإني لا أرى ثمة سبباً يحول دون قيام الدماغ بالشيء نفسه أيضاً، ومن الممكن أن كثيراً مما يجري في خلفية الدماغ من حديث وترديد سبق أن وصفته إنما يتألف تماماً من دمج المعرفة الجديدة بالبرامج القائمة الموجودة خلال الحياة الواعية. لهذا، ففي الوقت الذي يمكن أن يكون فيه العقل الحالم مشغولاً بتأمل عملية غربلة المعرفة، فإني ليساورني الشك عما إذا كانت هناك أية غربلة حقيقة تقوم بدور يذكر خلال النوم. إنه ليبدو من المرجح أن النائم يكون في حالة إعادة النظر واستعراض ما كان قد جرى في حياته اليومية وإن نوماً من نوع REM يتيح ظروفاً مواتية لما كان قد تمت غربلته ليزداد اندماجاً وتماسكاً ليتم الانتفاع به على نحو أكفأ. وفي الوقت الذي يكون فيه العقل، بعد الاستيقاظ من النوم، مشغولاً، في تملي المادة المسترجعة واستبانة تفاصيلها، فإني أعتقد أن معظم ما في أحلامنا من أوهام كانت قد نسجت خيوطها خلال سياق حياتنا اليومية.

وفي المقام الثاني، فإن تجارب الحرمان من نوع REM لم تتضمن من الشواهد ما يدل على أن الدماغ (غير الحالم) ينهار بسبب انعدام البرامج أو جراء برامج مخطوءة. وبطبيعة الحال، يمكن المماحكة بالقول بأن مقدار ما فرض من حرمان لم يكن كافياً لدفع الدماغ والضغط عليه إلى أقصى حدوده، لكن رأياً كهذا يجعل النظرية واهنة نوعاً ما.

من ناحية أخرى، فإن حيواتنا تتعرض إلى الأعطاب من غير شك، بصرف النظر عما ننعم به من نوم، وأن الأعطاب هذا مأتاه حقيقة أن سلوكنا إنما يستمد في الغالب ويستقى من (برامج) تم إرساؤها في عقولنا منذ أيام الطفولة وهي برامج قد عفّى عليها الزمن فأصبحت لا تتلاءم وظروف حياتنا ونحن كبار. لنضرب مثلاً فرويدياً قياسياً نوعاً ما. إن صبياً ينشأ في أحضان أم عصبية المزاج قد يتكون عنده خلال نشأته برنامج مزاجي يجعله يتحسس من خلال تعامله مع جميع النساء فيحسب بأنهن جميعاً بحاجة مستمرة إلى الاسترضاء والتهدئة، وأنّ هناك من الشواهد الشيء الكثير مما يكشف عن أن لقاءاته اللاحقة بالنساء اللواتي يختلفن تماماً عما كان قد كونه من انطباع مسبق، قلما تقلل مما سبق أن تكون لديه من برنامج يوم كان طفلاً. فهو لذلك يستمر طيلة حياته في رد الفعل الطفولي إزاء النساء فيحسب بأنهن جميعاً بحاجة مستمرة إلى الاسترضاء والتهدئة، فهو لذلك يستمر طيلة حياته في رد الفعل الطفولي إزاء النساء وتستمر استجابته نحوهن على هذا النحو. أن برامج الطفولة المبكرة كهذه يمكن تشبيهها بالبرامج الأساسية التي يتم تلقيم الحاسبة (الكومبيوتر) بها بعدما يتم تصنيعها في المصنع. فلا يكون التغيير هنا مسألة روتينية تخص الصياغة الليلية لها وإنما مجهود أساسي ورئيسي يتناول إعادة البرمجة، يمتد المجهود هذا أياماً عديدة أو أسابيع كثيرة، أو أشهراً مستمرة، بل أعواماً حتى.

والخطوة الأولى في البحث عن برامج مدثورة كهذه ترجع إلى أيام الطفولة، ومحاولة تغييرها تتطلب أن نكون على بينة منها وأن نتبين كيف هي تقرر سلوكنا. وكما سأوضح تالياً، فإن خبرتي تتيح دليلاً، يبدو لي أنه دليل لا يدحض وهو أن ما يستذكر من أحلام يمكن أن تمكننا من التحقق من هذا. وإنها ـ أحلامنا ـ أحياناً يمكن أن توحي بأنماط سلوكية جديدة أكثر مواءمة للموقف الراهن. والدور الإلهامي للأحلام هذا قد لا يعدو كونه أكثر من مواءمة للموقف الراهن. والدور الإلهامي للأحلام هذا قد لا

يعدو كونه أكثر من نتاج جانبي إذا ما نظرنا إليها من زاوية العمليات البيولوجية في الدماغ، لكنني لعلى يقين من أن قيمتها الإيجابية في حياة الإنسان ترجح كثيراً على أية مؤثرات مباشرة صغرى يحتمل أن تحصل عرضاً في يوم ما نتيجة لنوم متقطع مضطرب. بهذا الاعتبار، يبدو لي أن أصحاب نظريات الحاسبة والقائلين بتلك النظريات إنما يستمدون استنتاجات وهمية عندما يلجأون إلى التشبيه بطريقة جد محدودة من غير ما ضرورة. أنا لا أنكر ما في الحكمة الشعبية من مغزى إذ تقول أنه في الحق لما يساعدنا على حل مشكلاتنا إذ [تنام هي في أذهاننا نقلبها على وجوهها]. فمجرد إحياء مشاغلنا اليومية في عقولنا ومعايشة صداها في خلفياتنا العقلية يمكن أن يكون لهذا كله تأثير تطهيري [تنفيس] Cathar- tic effect مماثل لما يتحقق عندما تتحدث عن مشكلة تقصها على مستمع مجهول. وهنا مرة أخرى يبدو لي أنه من المرجح أننا حين نستيقظ ونحن نحس بأننا التقينا وما تتطلبه المشلكة من حل، فإن الحل هذا إنما كان مسبقاً في ظهار عقولنا خلال اليوم كنا نجيله في أذهاننا، لكن ما هنالك من تهويشات خارجية قد منعتنا فحالت دون وعينا به. ثمة اكتشافات واختراعات جمة قد تكشفت تحت مجهر الضوء وليس بالضرورة في حلم من الأحلام [وإن كان بعضها قد تحقق بواسطة الأحلام فعلاً]، ولكنها استبانت بعدما استرخى العقل الشعوري مما أتاح للهمس الداخلي أن يسمع نداء نفسه. أعتقد بأن الترداد هذا هو مصدر كثير من النشاط الإبداعي، إذ يتسنى خلال الأرتباطات والتداعيات والأفكار الانتشار على امتداد العقل فتلتحم بسلاسل الأفكار والأحاسيس الوجدانية الجديدة. وبهذه الطريقة تتكون ارتباطات جديدة غير متوقعة، مضفية بذلك على الأفكار القديمة معان جديدة. وما المجاز، والتعمية، والتورية، وتطابق المعاني، والاستعارة، ما هذه كافة إلا لغة يستعملها العقل الهامس إلى نفسه بقصد ابتداع صيغ جديدة في الحياة العقلية، وما الحلم من هذه كلها إلا جانب

واحد فقط.

إن مسألة ما يحققه الحلم من وظائف عندما نترك وشأننا من غير إزعاج، يمكن حلها فقط بما سيتم في المستقبل من بحوث وإن ما أنا مقتنعة به هو أن ما نسترجعه من أحلام تتيح لنا معرفة قيّمة حول أنفسنا. وأن التحدث بمشكلاتنا إلى مستمع مجهول تماماً لهي على وجه الإجمال طريقة أقل عوناً لنا مما لو تحدثنا بها إلى شخص معين بمقدوره أن يطبق عليها ذكاءه بشكل شعوري. وبطريقة مماثلة، فإننا بحاجة إلى استخدام عقولنا الواعية إن نحن شئنا الانتفاع بما تنطوي عليه أحلامنا إلى أقصاها: وذلك باستحضارها إلى حلبة الوعي الشعوري وبتعلمنا فهمها كما ينبغي يمكن أن يؤدي بنا هذا إلى إعادة تقييم نمط وجودنا ككل.

القسم الثاني

رواد في مجال الأحلام

الفصل السادس

رواد في مجال الأحلام

انطلق فرويد في عمله الرائد في توجيه الانتباه إلى الأحلام بوصفها تنطوي على دلائل تشير إلى الصراعات الداخلية، انطلق من علمه في العلاج النفسي في الغرفة الاستشارية، وما يترتب على ذلك فيما بعد من طريقة خاصة به في تفسير الأحلام أصبحت غاية في التخصص. إذا كان حلم ما، كما اعتقد هو، يعبر أساساً بشكل تمويهي عما يجري تحت سطح العقل، فآخر شخص يكون بمقدوره فهم معناه هو الحالم نفسه. اعتقد فرويد أن العقل النائم يلجأ إلى بطارية كاملة من مكنيات نفسية تغلف الرغبات اللاشعورية في صيغ تمنع الحالم من أن يعي طبيعتها الحقيقية. فلكي تحل معنى الحلم إذن فالأمر يتطلب، كما حسب هو، ليس فقط معرفة خبير عارف بهذه المكنيات، بل إنه ليقتضي كذلك محللاً نفسانياً مستقلاً عن الحالم. يمكنه التغلب على ما لدى الحالم من مقاومة نفسية تمنعه من رؤية الحقيقة.

وفي الوقت الذي لا يكون ثمة شك في أن الأحلام تعبر عن نفسها بلغة غريبة غامضة تختلف تمام الاختلاف عن الحياة الواعية، فإنه لا توجد هناك، كما سنرى فيما بعد، أسس واقعية يرتكن إليها في اعتبار هذه التحولات تمويهات تضليلية. إن هدف فرويد الكلي، وإن كان هدفاً علمياً في منحاه، فمما لا شك فيه أن النظرية التمويهية التي جاء بها إنما تسلم في الغالب إلى تفسيرات ذات نكهة لها خفايا الحدس والظن بدلاً من نكهة العلم. ورغم هذا، فإنه لشيء أساسي أن نمحص نظريته في تفسير الأحلام تمحيصاً مفصلاً ذلك لأن آراء كثيرة اشتقت منها فأصبحت جزء مما لدينا من فلكلور شعبي. أضف إلى هذا، فإن ما وصفه من مكنيات عن انتقال

الحلم إنما هي مكنيات حاصلة من غير شك، وباستطاعتنا أن نكتسب منه كثيراً من التبصرات النافعة بشأن صورة لغة الأحلام.

نظرية فرويد عن التمويه والتخفي في الأحلام

صاغ فرويد أربع طرائق رئيسية بها يتحول محتوى الحلم الكامن المؤلفة من رغبات لا شعورية مكبوتة، يتحول إلى حلم (ظاهر) manifest، وهو ما نتذكره عند اليقظة. وهو قد اسمى هذه العمليات: التكثيف Con-densation، الأبدال displacement، الترميز Symbolization، والصياغة الثانوية Secondary revision، وهذه كلها يوضحها المثال التالي وهو ما عرض لي خلال خضوعي للتحليل على الطريقة الفرويدية.

أنا مستلقية على أريكة المحلل أقص عليه حلماً رأيته. أروي له أنني كنت أراني محلقة، تغمرني السعادة، في إبهاء مسرح، أحلق ويدي بيد رجل يشبه منوم مغناطيسي هو زميل لي، ولاحظت بشيء من الدهشة أنه يرتدي ربطة عنق فراشية الشكل [بشكل فراشة] وهذا خلاف ما هو مألوف منه. داخلني إحساس بأن المسرح يعود إليه وأنه كان يطوفني في أرجائه. والكراسي والمقاعد هناك كانت تجلس عليها أشكال تذكرني بتماثيل الشمع، ولكن ما أن أدنو منها، حتى أتعرف فيها على وجوه كثيرة منها عرفتها من أيام طفولتي. إننا ـ أنا وزميلي ـ كنا نحييهم كلما اقتربنا من أي منهم. إني وإن لم أكن خائفة من التحليق بذلك الارتفاع عن الأرض، فإني أجد نفسي لعلة لا أدريها بأنني قلقة على الناس الجالسين في مقاعد شرفة المسرح من أن تهوى بهم الشرفة، فاستيقظ فألاحظ بأن التركيب الداخلي للمسرح بأكمله يبدو واهناً للغاية وإنه غير مأمون.

كان محللي يصغي بصبر وأناة، لكنه نسبياً لم يكن مهتماً بوصفي لمنظر المسرح ولم يكن مكترثاً قط لقدرتي على التحليق. والقصة كما رويتها لم تكن بالنسبة إليه أكثر من مجرد (المحتوى الظاهر) للحلم، والمحتوى الظاهر هذا

هو غطاء لا ضرر منه يغلف الرغبات المكبوتة العارمة المكونة (للمحتوى الكامن). ومهمته كانت، كما يحسبها هو، تقتصر على حل رموز الشيفرة وتعرية ما ينطوي عليه عقلي اللاشعوري من رسالة لها معناها. لذا فهو يطلب إلي أن أشرع بالتداعي الحر في الحلم وأن أذكر دونما تلكؤ أي عنصر يطرأ على ذهني من الحلم وإن أربط بين عناصره تلك. كان علي أن أسترخي وأن أدع عقلي يتجول في أروقة المسارح، وأن يذهب بعيداً إلى المنومين المغناطيسين، وإلى أربطة العنق المماثلة لفراشات، وهكذا، وأن أقول أي شيء يرد إلى ذهني، مهما كان غريباً.

وقد يتوارد إلى ذهن المحلل النفساني، أثناء إصغائه، عدد من الأفكار العامة عما تعنيه مثل هذه الأنشطة والفعاليات كالعوم والتحليق مثلاً، وذلك أساساً على ما تراكم لديه من خبرات تجمعت عنده في غرفة الاستشارة، لكنه يحاول أيضاً أن يؤالف في ذهنه ما قد يريده بطريقته الخاصة. ولقد كتب فرويد يقول:

[يجب على المحلل النفسي أن يوجه الشعور عنده بوصفه عضواً مسلماً إلى اللاشعور المرسل عند المريض. على المحلل أن يكيف نفسه إلى المريض تماماً كما تم تكييف سماعة الهاتف لالتقاط أصغر الموجات الصوتية. فكما أن السماعة تحول الذبذبات الكهربائية المرسلة في خط الهاتف إلى موجات صوتية، فكذلك هي الحال يجب أن يكون اللاشعور عند الطبيب.. أي عليه أن يعيد بناء اللاشعور لدى المريض.]

وبعبارة أخرى، فإن العملية التفسيرية إنما هي عملية إلهامية وغالباً ما يشار إليها بأنها عملية الإصغاء بالأذن الثالثة. [للأسف، إن كثيراً من المحللين النفسانيين لم يطوروا هذه الموهبة في أنفسهم وقد عولوا في تفسيراتهم على أفكار ونظريات مسبقة كانوا قد تلقوها إبان سياق تدربهم على التحليل.]

وبما ارتبط في حلمي واقترن به، أن البهو الذي كنت أحلق فيه يقرب

من ذهني فكرة بهو المتوحشين المتشردين Seveges، وإني إذ أرى شخوصاً مروا علي في الماضي يذكرني بالموقف التحليلي الذي يعيش فيه المرء من جديد كثيراً من خبرات طفولته المنسية منذ عهد بعيد. وأن التحليق هكذا يستحضر في الذهن نتفاً من أغنية ألمانية قديمة ترجمتها:

[نرقص معاً في أجواء المساء،

حباً نرقص في سابع سماء

رقصة التطراب من أجل الهناء]

وهنا أتوقف بفعل الإحراج حالما أدركت أن رفيقي في رحلة التحليق في أجواء الفضاء إنما هو محللي وحالما وجدتني أنظر إليه مبتئساً زاعقاً. ولقد كنت كذلك جد مبتئسة إذ استكشف أن عقلي الواقعي اللاعاطفي الأعتيادي وقد راح سراً يتغنى بمل هذه التفاهات الرومانتيكية!

استكمالاً لما لدي من ارتباطات وتداعيات، فقد تم تذكيري بأنني في جلسة سابقة كنت قد اتهمت محللي بتنويمي مغناطيسيا لتقبل أفكاره وقيمه - وهذا تعزيز آخر للحقيقة القائلة بأن المنوم المصاحب في حلمي هو محللي. ولمالم يكن أي منهما يرتدي ربطة عنق بشكل فراشة، أطلقت العنان لفكري يجوب في الآفاق حتى ومضت أمام بصيرتي صورة لصديق لي قديم،واسمه (جم سافيج) والذي كثيراً ما كنا نغيظه لارتدائه ربطة عنق فراشية الشكل مبهرجة. وأتذكر كذلك أنه كثيراً ما كان صديقي هذا يغاظ على أساس اسمه (والذي يعني متوحش)، وهو تماماً خلاف طبيعته المهذبة. وكلمة (متوحش) توحي لي بالفظاظة والجنسية البدائية، وهذا ما يعطي محللي مؤشراً آخر على ما ينطوي عليه الحلم في تضاعيفه.

على أن كل هذا بالنسبة إلى محللي إن هو إلا الخطوة الأولى باتجاه تفسير الحلم، ذلك لأن ما يسعى إليه حقاً لا يكمن فيما هو كائن من رغبة لا شعورية حاضرة، بل هو يبحث عن رغبة لا شعورية غابرة. وإن أحد اكتشافات فرويد المهمة كان يقضي بأن الأحلام التي تشير إلى المحلل إنما

هي إعـادة صيـاغـة لرغـبات راسخة ضاربة في القدم ترجع في بواكيرها إلى أيام الطفـولة حين اقترنت بعض خبراتها بشـخص آنذاك. وقد سمى الطريقة التي يسـقط فـيـهـا المريض رغـبـاته وأحـاسـيسه الوجدانية هذه على شخص المحلل، (النقل) أو التـحويل transference، وقـد وجـد في هـذا أسلوباً فـنيـاً ذا قـيـمـة في الكشف عن أنماط السلوك العـصـابي التي تبنى في بواكير الحياة عند الفرد.

لهذا، فـفي هذه المرحلة من مراحل تداعياتي الحرة، خلص محللي إلى رأي مـؤداه، إن أحـاسيسي الجنسية إزاءه إنما ترتبط في حقيقتها بشخص في ماضي حـيـاتي، لـعله والدي، ولعله أخي، وقـد يكون شـخـصـاً آخـر من أفـراد العـائلة. والحق، فإن تداعـياتي تأخذني من موقف التحليق في الحلم فتنقلني إلى الماضي إلى لعبة اعتدنا أن نلعبها أنا وأخي أيام كنا صغيرين، إذ كنا نعلو كـرسـيين كـبيرين مـوضـوعين على جانبي فراش كبير فنقفز من فوقهما باتجاه بعـضنا، فـيـحـتـضن كل منا الآخـر في الهواء، ومن ثم نهوي فوق الفراش فنروح نتـدحـرج الواحـد فـوق الآخـر على حشية السرير الكبير ذاك. ومثل هذه اللعـبـة قـد تكون قد أوحت لمحللي أنها تمثل لدي رغبات جنسية قديمة مكبـوتة آن أوانها لكي تجـد لنفـسـها متنفساً بشكل تمويهي. وهذا هو المعنى (الكامن) في الحلم، حسب نظرية فرويد.

فـالحلم، أولاً، لا يشير إشـارة مـباشرة إلى محللي، مـثـلاً، أو إلى أخي، فـمـصـاحـبي، بدلاً من ذلك، هو صاحب بهو (المتشردين) وهو يشبه زميلاً منومـاً أعـرفـه يرتدي ربطة عنق فـراشـية. فهذه التوليفة المكونة من شخص المـتـشرد، ومـن المـنوم، ومن المتـوحش، وهي توليـفـة تبين بواسطة التـداعي الحـر أنها مؤلفة من المحلل وأخي، إنما هي نتيجة لما أسماه فرويد (التكثيف) في الحلم، وهو مكنيـة تمويهيـة خـاصـة بواسطتها تتكثف فكرتان أو أكثر في الحلم فـتـتحول إلى صورة image واحـدة أو فكرة مـفـردة واحدة تتجلى في الحلم الظاهر. لا شك أن مـثل هذه المكنيـة مـوجودة قائمة في الحياة الواعية

مثلما هي قائمة في الأحلام، لكنني أرى أنها أبعد ما تكون عن الرغبات اللاشعورية التمويهية، إنها ـ المكنية ـ تعمل على توضيح الأحلام إلى أقصى حد ممكن.

المكنية التمويهية الثانية التي قال بها فرويد، هي (الأحلال) displace-ment أو الأبدال، ويمكن أن يتخذ هذا عدة صيغ مختلفة في الأحلام. فإن انفعالاً معيناً في موقف معين مثلاً، يمكن أن يتبدل إلى موقف آخر، وذلك من أجل أبعاد انتباه الحالم وتحويل انتباهه هذا إلى شيء آخر غير موضوع أحاسيسه الحقيقي. ففي ما رأيت من حلم حلقت فيه، ارتأى محللي أنني قد حولت قلقي المتعلق برغبتي الجنسية، والذي رأيته على شكل (سقوط) من عالم الفضيلة، حولته إلى أناس في الشرفة، أحسست في الحلم أنهم كانوا في خطر يوشكون أن يسقطوا لأن المسرح كان غير مأمون.

يقتبس فرويد لهذا الغرض حلماً تحول فيه الأبدال في الأحساس إلى موقف عكسي تماماً. ذكر فيه كيف أن أحد مرضاه قد روى له أنه استيقظ من نومه ليلاً يضحك، ومع هذا كان بائساً وكئيباً في اليوم الذي تلاه. ولقد قادت تداعياته في الحلم إلى أفكار كامنة تمثل العجز والموت ـ أفكار كانت تراوده ـ فاستخلص فرويد أن الضحك في الحلم كان أمراً معاكساً للتنهدات والبكاء الذي أحسه حقاً عندما كان يفكر بأنه ينحدر من مسرح الحياة. وذكر كذلك أنه قد يكون ضحكة كبح كامل لإحساس معين ينطوي عليه الحلم ـ كما يحدث مثلاً عندما نقف موقفاً خلواً من التعاطف إزاء كارثة فاجعة يقع فيها شخص محبوب. اعتقد فرويد أن كلاً من العكس والكبح في الانفعال إنما هما مكنيتان تمويهيتان تستخدمان لتضليل الحالم وتخريب محاولات أساليب التفسير.

اعتقد محللي أنه اكتشف المكنية العكسية الكامنة في أحلامي. ففيها ـ المكنية العكسية ـ كانت المشرفة على دراستي قد انتقدتني لعدم دقتي، وإن لم يكن معها حق في ما وجهته إلي من نقد في الحياة الواعية. فأدت

تداعـيـاتي إلى حقيقة مفادها إنني كنت أحس بانتقادها ولومها في قرارة نفسي وذلك لعـدم إيلائهـا إياي اهتماماً كافياً. وقد اقترح محللي، إن حلمي هذا في أعـمق مـسـتـوياته يشير في الحـقيقة إلى والدتي التي أحسست أنها لم تمنحني مزيداً من محبتها لي.

اعتقد فرويد أيضاً أننا أحياناً نحول قلقنا من منطقة الأعضاء الجنسية إلى أعضاء أخرى من جسمنا. فشخص يعاني من قلق الخصاء مثلاً، قد يتحول قلقـه هذا إلى مخاوف يخشى منهـا أذى يصـيب أنفه أو أذنه، ولعله يحلم بأنّ له لحـية في وقت كان عقله في الواقع مثبتاً في تفكيره على شعر العانة. وحينما حلمت بسمكة تدخل أذني، فسر محللي هذا برغبة مني في الاتصال الجنسي، وذلك رغم الحـقـيـقـة التي أفـضت إليـهـا تداعـيـاتي التي ترتبط بمسرحـيـة (هاملت)، التي قـتل فـيها الملك بواسطة صب السم في أذنه. وأنه أحساسي الخـاص الذاهب إلى أنني كنت مـعرضة إلى التسميم من جانب محللي وذلك بتـفـسيراته التي أتلقـاها منه بأذني فـاسـمعها كما يقول بها، لم يكن إحساسي هذا ذا بال ولا بذي خطر.

ويتـعين علينا أن نتـذكـر كـذلك، كما قال فرويد، إن من وسائل تشويه الحلم العامة تتألف من تمثيل نتائج سلسلة الأفكار الحاصلة في بداية الحلم، ومن نقطة انطلاقـه في نهايته. وقد كتب في النهاية يقول:

[لئن أحـجم الحلم أو تعـذر في الكشف عن مـعناه، فإنه لمن المجدي أن نتبين النتـيـجـة المفـضية إلى إبراز معكوس بعض العناصر الخاصة في محتواه الظاهر، الذي تتـجلى في أعـقـابه كل مـا في الموقف غـالبـاً من ظواهر فتبدو جليـة واضحة على نحو مباشر.]

فإن أنا حلمت، مثلاً، برئيس أنه قد أكثر على جسمه من الرداء، فمعنى هذا أن لدي رغـبـة مكبـوتة في أن أراه مـعـرى، وأن أنا حلمت بأبي يغـازل والدتي، فمعنى ذلك أنني كنت أتمنى أن يبعدها عنه.

عند هذا الحـد، تصـبح مـسألة التـحـويل في الحلم بجـملتها، كما يراها

فـرويد، مـسألة باعـثـة على السخرية، إذ أنها تفسح المجال لأن تضفي على الحلم أي مـعنى نراه. إذ أن الفكرة الذاهبة إلى أن الحلم يمكن أن يشير إلى أي مـعنى أو مـا هو بالضد من هذا المعنى، إنما هي فكرة تحيل أي علم من الـعلوم إلى مـسـخـرة، ومع هذا فإننا نجـد المحللين النفـسـانيين مـا برحـوا يحاولون الادعـاء بفلسـفة [طرة أنا الرابح، كتابة أنت الخاسر] ويحسبونها من العلم شيئاً. وثمـة مـبدأ أسـاسي في أي علمٍ من العلوم فـحواه أن النظرية التي لا يمكن أن تناقض وتدحض فـهي حـقـاً ليـست بالنظرية البـتـة. وفي الوقت الذي أقضي فـيـه بأن بعض ضروب التـحويل تحصل في الأحلام تماماً كما تحـصل في الحـيـاة الواعـيـة، فإنني اختلف تمام الاختلاف مع وجهة نظر فـرويد الرامـيـة لى أن التـحويل إنما هو وسيلة خداع مباشرة تطرأ في العقل النائم غـايتها تضليلنا. فقد ألفنا مثلاً أن نرى رجلاً يرفس كلباً يعترضه وهو يفـعل ذلك تنفـيـسـاً عن شـحنة انفـعالية تراكمت عنده بعد ساعات عمل مـضنيـة في دائرته، وليس ثمـة مـا يحول دون تحول انفعال كهذا وظهوره في الحلم. وبالمثل، فإن ابنتي حينما تكسو دبها المخملي بلباس ساتر وبحفاظات مـثلما يحصل لها بالذات لدى ترطيـبـها ملابسها الداخلية، فهي لعلها تفعل ذلك محاولة منها لإبعاد ما يلحق بها من قلق أحدثه أنا لها.

فـيـمـكـن، إذن، أن يـكـون محللي على صـواب عندمـا عـزا إلى تحـويل إحـسـاسي بالقلق جراء الناس الجالسين في الشرفة المتداعية الواردة في حلمي الذي رأيت فـيـه نفسي محلقـة، أرى أن هناك تفـسيراً أبسط وأكـثر عقلانية. ذلك أنني بعـد أن ترسخ في ذهني بأن المسرح يمثل غرفة الاستشارة ويرمز إليـهـا وفـيـهـا قـد تم بعث لأشكال وأشـخـاص ترجع إلى أيام الطفـولة، فـالحـقـيـقة تكمن في أني جعلت أنظر إليها إنها ليست مأمونة بل إنها وسيلة خطيرة فأحـسـست بأن التحليل قد يكون عملية تنطوي على مجازفة قد تنهار فـيها كثير من أيقونات الطفولة فتهوي من مكانها الرفيع في خيالي، إلى واقع منظور إليها فيه بعين القتامة، فالقلق في هذه الحالة إنما هو في مكانه الحقيقي

حيث هو، ولا داعي لاستحضار مفهوم التحويل والأبدال لتفسير هذا الجزء من الحلم.

وبالمثل، فإني أعتقد بأن الحلم الذي رأيت فيه المشرفة على دراستي كانت تعتقد أن عملي إنما كان تماماً على وجهه كما هو ـ ذلك أنني كانت لدي إحساسات ذهانية أشعر معها بعدم الطمأنينة إلى قدراتي التي تأدت بي إلى أنني أحس بأن ما أقوم به ليس بجيد إلى حد يكفي. وحقيقة ما أدت إليه تداعياتي الحرة بأنني كنت أنتقدها لم تكن حقيقة مفاجئة طالما أنني كنت أشعر بأنني كنت مهملة من جانبها وإنها لم تكن لتهتم بي بين حين وآخر. وسواء أكان الإحساس هذا له ما يبرره، فإنه لأمر مطروح للتحليل، لكنه على أية حال من غير المرجح أن تكون له أدنى صلة بالتحويل أو الأبدال.

فحينما تحدث التحويلات، يقول فرويد، فإنها تجبه عقلنا الواعي في الغالب، وإن عقلنا لهذا يحاول إضفاء معنى على الحلم وذلك باجراء عمليات يطلق عليها الصياغة الثانية Secondary Revision وهذا هو الميل الطبيعي من جانب الحالم اذ هو يحاول ان يجعل لما يرى من حلم معنى مقبولا، بعد استيقاظه من نومه. لهذا فهو ـ فرويد ـ قد كتب يقول :

(ان من طبيعة عقلنا الواعي ان يرى قواعد مادة معينة من ذات نوعها، فهو يوطد دعائم ما بينها من علاقات وان يجعلها متساوقة مع ما ترمي اليه من تطلعات على نحو كلي واضح).

ولقد وصف (هافلوك اليس) Havelock Ellis الانجليزي المتحمس للأحلام ، وقد عاصر فرويد ، وصف الموقف على نحو اكثر شفافية ، اذ كتب يقول بشأن الصياغة الثانية :

(بوسعنا ان نتصور الشعور النائم يحدث نفسه قائلا : ها قد قدم سيدنا: الشعور اليقظ الواعي ، وهو الذي يتولى أهمية بالغة في العقل والمنطق وسواهما. هيا تعجل! أجمع الأشياء بسرعة. رتبها ـ رتبها على اية صورة كانت، فانها تؤدي الغرض ـ هيا رتبها قبل ان يدخل ويتسلم المسؤولية).

واني لمتيقنة بأن قسطا معينا من الصياغة الثانية تأخذ دورها في الأحلام، لكنني لا أرى فيه ثمة أي سبب يدعونا لوصف العملية بأنها اكثر تمويها من التكثيف والتحويل.

والطريقة الرابعة والأكثر أهمية التي اعتقد فرويد بأن الرغبات الكامنة التي تظهر فيها على صورة تمويه في الأحلام هي طريقة الترميز Symbolization، وهي عملية يتمثل فيها شيء محدد، او فكرة معينة كائنة في المحتوى الكامن. فيستعاض عنها بشيء او بفكرة. فتبدو ماثلة في الحلم الظاهر. وقد كتب فرويد يقول:

[لعل الترميز أو الرمزية تمثل أهم فصل متميز في نظرية الأحلام. هذا وإن قسطاً كبيراً من أدبيات التحليل النفسي مكرس إليها ـ الرمزية.]

الرمزية في الأحلام من وجهة نظر فرويد

نظراً إلى أن فرويد كان يعتقد بأن أبرز القوى الحافزة للأحلام هي رغبات جنسية طفلية دفينة؛ لهذا فهو قد وجه جل اهتمامه إلى قدرة العقل لأن يلتمس له ما يعوض عن مظاهر الأعضاء الجنسية والنشاطات الجنسية عامة. فهو بمراقبته وملاحظته لتداعيات مرضاه، خلص إلى أن أي شيء مستطيل مدبب تقريباً إنما يرمز في الحلم إلى القضيب ـ كالعصي والمظلات، والأعمدة والأبراج العالية، والأشجار، والموز، وأشباه هذه كافة مما لا حصر لها. وهو كذلك وجد نفس النوع من الرمزية القضيبية في الأحلام، في الأشياء التي تكون ذات وظيفة اختراقية، مثل الخناجر، والمدي (السكاكين)، والرماح، والأسلحة النارية الصغيرة، ووجد الرمزية الجنسية أيضاً في الأشياء التي ينصب منها الماء كالنافورات، ومضخات الماء [المرشات]، والحنفيات.

وهو اعتقد كذلك بأن الأعضاء الجنسية الأنثوية يرمز إليها في الأحلام بالأشياء المستدير والأوعية بوجه عام، كالحفر، والتجاويف، والأواني،

والصناديق، وصناديق حفظ الثياب أو الأسفاط، والبوابات الكبيرة، والجيوب، وهلم جرا، وكذلك تسلك في هذا الجانب الأبواب والبوابات الكبيرة، في حين ارتأى إن الخزانات Cupboards، والغرف، والمواقد ترمز إلى الرحم بخاصة. وانتهى إلى القول بأن الأحلام التي يرى فيها النائم نفسه في حالة اهتزاز، أو حركة مجلبة للذة من أي نوع كانت تقريباً، سواء كانت من نوع ركوب الخيل، و الهزهزة والنوسان فوق النواسة، أو تسلق درج أو ارتقاء سلم، والطيران أو التحليق، هذه كلها ربطها بنشاطات اللذة الشبقية كالاستمناء والجماع.

ولأن تواتر التداعيات المرتبطة بالأشياء والفعاليات التي تظهر في الأحلام قد تكون مرتبطة بأفكار جنسية مدثورة، وبمواقف منسية، وبرغبات مكبوتة، فإن فرويد خلص إلى القول بأن هذا النوع من الرمزية الجنسية شامل من الناحية العملية. وهذا يعني أن بمقدور المحلل أن يحدس ويخمن معنى الحلم قبل أن ترتبط به أية تداعيات وقبل أن تنسب إليه أية اقترانات. وهو قد أقر: في تفسير الأحلام، بأن مثل هذه الاستنتاجات ستولد لدى كثير من القراء عدم ثقة بها. فهو قد تمثل القراء يسألون: كل منهم من وجهة نظره: [أحقاً أنا أعيش في معمعان رموز جنسية؟] هل كل ما يحيط بي من أشياء، وكل ما ارتدي من ملابس، وكل ما ألمس أو أمسك من أدوات وأشياء، هل هذه كلها رموز جنسية وليست سواها؟ وهو بدوره يجيب على مثل عدم الثقة هذه أن يطلب إلى قرائه بأن ينظروا إلى ما في التراث الشعبي، والأساطير، وأقاصيص الجن في أصولها الأساسية وليس في صيغتها الغنائية المحورة بعد مراقبتها، وإلى العامية، فإنهم سيجدون شواهد جمة كلها موسومة بالرمزية الجنسية الصارخة متمثلة حتى في النشاطات العقلية الواعية. ففي لغة العامة، مثلاً، يشار إلى القضيب بأنه أداة، أو آلة، أو مثقب، أو صنبور، له مهمة خاصة، ويشار إلى المرأة الحامل فيقال بأنها لديها [كيكة أو كعكة في الفرن]. لهذا السبب، يرى

فـرويد، ينبـغي ألا ندهش أن نرى مثل هذه الرموز تظهر في الأحلام، وأن بعـضـهـا قـديم قـدم اللغـة نفـسـها، وإن بعضها قد تمت صياغتها بصورة شـعـورية واعـيـة عبر العـصور حتى وقتنا الراهن. وآخر الصياغات الحديثة هذه السيارة أو الطائرة، في حين كانت الفرس أو الحصان هما الرمز المعول عليه في الماضي.

وجـد فـرويـد كـذلـك أن رمـوزاً أخـرى ظـهـرت بـتـكـرارات كـثيرة في الأحـلام. فـالمـلـوك والملكات مـثـلاً، يرمـزون إلى الوالدين، وإن الأمـراء والأمـيرات في الأحـلام يـرمـزون إلى الأخـوة، ويـمـثـل الشرطة في الأحـلام السلطة ويرمـزون إلى المحـرمـات عند الأطفـال. كما وجد أيضاً ثمة مواقف كـاملة تتكرر باستـمـرار في الأحـلام مما حـدا به إلى القـول بأن موضوعات أحـلام محددة تكون (نمـوذجـيـة) ولذا فـيـمكن تفسيرها بأن لها نفس المعنى مـتى مـا تكررت وان حـدثت. فـمـعظمنا مـثـلاً، حـصلت لنا أحـلام رأينا أنفـسنا فـيـها عراة أمام الناس؛ وهذا المشهد، من وجهة نظر فرويد، يعني رغـبـة في استعادة التشبث بخبرة من خبرات الطفولة المبكرة في عدم استشعار الخـجل من العري، ومعناه كذلك الاستمتاع بجنة عدن قبل استيقاظ القلق لدينا، وقـبل أن يحصل الطرد من جنة عـدن تلك، وقـبل بدء الحية الجنسية وشروع مـهـمات النشـاط الحـضـاري. والأحـلام التي يرى فـيـها النائم موت عـزيز عليـه، فسرها فرويد بأنها تمثل رغبة من رغبات الطفولة الدفينة الرامية إلى اسـتـبـعاد منافس، وإن أحلام عدم إدراك القطار واللحاق به هي أحلام (مـواسـاة): إذ أن القطار المسافر هو رمز الموت، وإن الحالم يطمئن نفسه أنه ليس بميت، بينما فسر أحـلام السـبـاحـة والماء بأنهما يمثلان أوهام الحمل، والـرحـم، والـولادة ـ ويـراد بها مـقـدار الأمـان الفـائق. وأحـلام السراق، واللصـوص، والأشـبـاح، ترمـز، بالنسـبـة إلى فرويد، إلى ذكريات الطفولة أيام كـان الوالدان يقـربان فيه فراش الطفل وهو نائم. وقد كتب فرويد بهذا الشأن يقول:

[تحليلات أحلام القلق هذه قد مكنتني من استبانة كنه هذه الرؤى الليلية على نحو أوفى دقة. وفي كل حالة، فإن السراق إنما يرمزون لأب النائم، بينما تمثل الأشباح شخصيات أنثوية وهي في أردية نوم ليلية.]

ومع هذا، فإن فرويد أصر على أن ما يبديه الحالم المريض من تداعيات ترتبط بأي حلم يراه، تعد ركناً أساسياً في التفسير النهائي للحلم. وهذا الأمر على هذا النحو لا لأن الارتباطات والتداعيات يمكن أن تؤدي إلى اكتشاف كثير من الرموز الشخصية الخاصة فحسب، بل لأنه حتى الرموز ذات الطبيعة الشمولية والموضوعات الناسعة كذلك يمكن أن تنطوي على معان محددة مختلفة بالنسبة إلى كل حالم على حدة. لهذا، ففي حلمي الذي رأيتني أحلق فيه، كان يمكن أن يعزو محللي فيخمن بأن تحليقي يشير إلى أحاسيس لذية حتى من قبل أن أربط معه ـ الحلم ـ أغنية الحب الألمانية، لكنه ـ محللي ـ احتاج إلى تداعياتي وذكرياتي ليرجع إلى لعبة القفز فوق الفراش، التي كنت ألعبها مع أخي أيام الطفولة.

ثمة حلم آخر من أحلامي أرويه وهو يظهر بوضوح عملية الرمز في حالة العمل والنشاط، رأيتيني فيه عند مدخل قصر بكنجهام Bucking-ham Palace انتظر موكب الملكة لتصل بعربتها الملكية عائدة من زيارة لها كانت تقوم بها لمستشفى (مارسدن) الملكي في تشلسي Chelsea ، وأنا في حلمي ذاك كنت أحس باستشارة متزايدة وبنشوة متعاظمة حتى بلغت حدا لم اعد معه اتمالك نفسي، وحينما ايقظني منبه الساعة عند هذا الحد، احسست حقا بأنني كنت مخدوعة الى حد يتسم بالفظاعة وانني قد اسقط في يدي، وانني قد هويت بشكل مفاجيء من ذلك العلو السامق والارتفاع الشاهق. واني في حياتي الواعية، ما كنت لاشعر بمثل هذه النشوة او الأفتتان بالملكة، ولا حتى في طفولتي، واني في معظم حياتي المهنية كنت قد اعتدت كثيراً على رؤية ومشاهدة عربة الملكة تمر في المنطقة، لقرب مكاني من محل اقامتها. لهذا بدا لي من الوهلة الأولى انه من المعقول جدا ان تكون

الملكة تعويضا عن شخص آخر، ولما كنت قد قرأت آراء فرويد، فقد تراءى لي انها تقوم في الحلم مقام أمي، ولقد وجدت تعزيزاً لهذا بطريقة خادعة مضللة، وذلك ابان الربط بين فكرتي وبين (مارسدن) الملكي، وجدت نفسي اكرر الكلمات (المارسدن الملكي)، وهو يعني بطبييعة الحال دار الملكة، وهو في حقيقة الامر قصر بكنجهام، فسلسلة الافكار المترابطة تلك هي التي أنتهت في الحلم الى قصر بكنجهام ومن هناك وصل الى الملكة، او بالعكس.

وهذا الموقف ما فتيء قائماً اذ يفسر بعد سبب الأستثارة والاندهاش تفسيرا دقيقا، وان كنت اعرف بناء على الأصول الفرويدية، ان العربة او السيارة انما هي تعبير رمزي عن العضو الجنسي الانثوي للأم وهو ورد من ترابط بين سيارة الملكة واقترابها من مدخل القصر. وان مقدمة السيارة يذكرني بانبوب الحقنة الشرجية التي كانت تعطيني اياها امي ايام طفولتي وان لم تكن بي حاجة اليها من الناحية الطبية. ولهذا فان استثارتي لا تشير الى وصول عربة الملكة، والتي تتركني بعد مغادرتها ايام ومرورها من امامي غير مكترثة، وانما تعزى استثارتي تلك الى اختراق انبوبة الحقنة لشرجي حينذاك. اني من الناحية الشعورية، لاتذكر كيف كنت انتظر عملية الحقنة بفزع ورعب، لكن الحلم كان يوحي لي حقا بأن العملية كانت تملؤني باندهاش جم حتى لقد كنت قلما (اتمالك نفسي). فأني لذلك لا اجد صعوبة تساورني بشأن قبول فكرة التفسير الفرويدي في هذا المجال، ومؤداها احاسيسي المضطربة المتأصلة في اعماقي ازاء امي وهي احاسيس مصدرها خبرات من ايام طفولتي الباكرة.

وحينما وجدت نفسي على خلاف مع محللي حول هذا الحلم بالذات، انما كان الخلاف يتركز على اصراره على ان الحلم كان تمويها لذاكرة الطفولة، بينما اراه انا الهام ممتع يكشف عن عمليات عقلية مترابطة موسعة واضحة. فكنت اعاني من صعوبة تذكر بشأن تقبل فكرة التفسير وفق المنهج

الفـرويدي، ومـا تعـرضت الى ضـغط من محللي بخـصوص هذا الموضوع او فـيما يتـعلق بالتـغلب على المقـاومـة العقلية عندي. والحق، ان الحلم بأكمله كـان واضـحـاً لدي حـتى قـبل وصـولي الى محللي بأسـاليب ملتـوية من ايام الطفـولة، فـلا ارى ابدا ثمـة سـبـبـا يدعو قلقي الى ان يحاول ان يخفي عني المعنى الحقيقي في الحلم.

فـهـذا الاخـتـلاف في الرأي، وان كان ضئيل الاهمية في تفسير هذا الحلم بالذات والخـاص بمـشـاهدة الملكة، فـانه قـد اضحى في مواقف ومناسبات اخـرى أبعـد مـغـزى واكثر جدوى. وما أكثر ما ألقت التفسيرات الفرويدية بـكلكلهـا علي شئت ام ابيت، رغم حـقـيـقـة ان العناصر المترابطة لدي وفي احـلامي لم تكشف عن اية عـلامـة تفضي الى رغـباتي الجنسية، سواء ما كان منهـا مـوجـهـاً ازاء محللي او مـا كـان يرتبط منها بايام طفولتي المبكرة. ولقد وجـدت هـذا الضرب من التـوجـه في الخبرة المشتركـة وهي تجـمع بين مختلف اعـتقادات المرضى الذين يخضعون لاساليب التحليل وفق المنهج الفرويدي، واني لاعـتـقـد ان الخـلـل لا يكمن في تفكير المحللين، وانما يكمن في البنيـة اللاعلمـية لنظرية الاخفاء او (التمويه) disguise نفـسها، والتي تشجع مـثل هذه التـفـسيرات المبـتسرة. والحق ان هناك كثيراً من المحللين النفسانيين في الوقت الراهن من يتـحـرزون من هذا التـوجه وهم قد جانبوا اليوم المعتقد الفرويدي التقليدي هذا.

المنحى الاختزالي والتحريف في تفسير الاحلام

ان فـرويد نفسـه، في كـثير من الجوانب، لم يكن فرويدي المعتقد، وقد لاحظ النقـاد ان مـا قـدمـه في كـتـاباته من بيـانات عن احلامه وعن احلام مـرضـاه، قلما تمتـد في ماضيها الى خبرات جنسية طفلية، فكثير من الخبرات تلك تقـتصر على الرغـبـات اللاشعورية من ايام الرشد، وهو اذ عزا هذا في كثير من الحالات الى الجذر والتعقل، فأنه مع هذا اتاح للتفسير مجالات لان يكون محـتـملا عدة وجوه وعلى عدة مستويات، فهو كتب يقول:

(تبـدو الاحـلام في الغـالب ان لها اكثر من معني واحد، فهي لا تنطوي على تحـقـيق عدة رغبات مرصوفة الواحدة منها جنب الآخرى فقط، بل هي قـد تتـضـمن سلسلة مـتـواترة من المعاني او تحقيق لرغبات منضودة الواحدة منهـا فـوق الاخـرى، في ادنى قـاعـدتها يأتي تحـقـيق رغبة يرجع تاريخها الى بواكير الطفولة).

ايّا كـان الأمـر، فـانـه- فـرويـد- بقي مصرا على ان الاحـلام يجب دائماً تأويلهـا بالرجـوع فـيها الى حدث موضوعي حصل في حياة الحالم، وان كان قـد دعـا الى ان هذا الحدث الموضوعي قد يكون مرده الى خبرة خيالية وليس الى خبرة حـقـيـقـية في حياة الحالم. (ففي حلمي مثلا اذ رأيت هجوم امي او اعـتـدائهـا الجنسي علي لم يكن اكثر من وهم مستمد من خبرة الحقنة الشرجية ايام كنت طفلة). فهو قد حاول حيثما كان ذلك ممكنا ان يحصل على مرضي يربط ارتبـاطهم مع الاسس الموضـوعـيـة في احلامهم بواسطة عملية الترابط، في مكان مـا من اعماق العـقل، تبقى مختبئة خافية، ويمكن استجلاؤها فقط في حـالة اختراق حـاجز التمويه، وان اعتقاده بأن الحلم يلجأ الى التكثيف،

والتحويل او الابدال، والرمز، والصياغة الثانية لاخفاء معناه الحقيقي، مكنته - فرويد- من التمسك بهذا المعتقد بصرف النظر عما قد يؤول اليه التفسير، او بغض النظر عما يمكن ان تكون عليه قناعة المريض، والحق، ان اصراره على ان المحاولات يمكن ان تضفي على المحتوى الظاهري للحلم معنى، قد استبعد تماما.

كان لرأيه هذا اثر وضع التفسير الفرويدي للحلم في نفس فئة التنجيم astrology، حيث يمكن تفسير اية قراءة لخريطة البروج لتلائم جميع وقائع الحياة، فان لم تكن تلك الوقائع واضحة الحصول وغير حقيقية الان، فيظن بانها ذات صفة حقيقية تعبر عن مستوى خفي عميق لا يتسنى لغير المطلع التعرف على خفاياه، فاذا ما اظهرت خريطة البروج ان شخصا ما، مثلا، متكتما لا يفضي بسره لاحد، فان كان الشخص هذا حقا كتوما، فان القراءة هذه يهلل لها ويستبشر بطالعها بأنها قد صحت، في حين انه اذا كان سلوكه الظاهر ينبيء عن انه انسان مكشوف في السر والعلن، فان القراءة يتم تأويلها على انه في سره ينطوي على شيء متضمن في طبيعته التي لا هو يعرف عنها ولا احد أخر سواه. وكذلك التفسير الفرويدي للحلم، فمن اي طرف تأتيه يتراءى لك وكأنه لا مأخذ عليه، فان اصاب التفسير المرمي بالنسبة للمريض، كما هي الحال في حالة تحليقي وفي حالة الملكة في الحلمين اللذين رويتهما، فقد تم الادعاء والزعم بان التفسير سليم، وان اخفق التفسير في مس جوهر الحقيقة، فانه يزعم بأن مقاومة المريض للاقرار بالحقيقة انما هي مقاومة عالية، وعند ذاك تعتبر عملية الاخفاء والتمويه في الحلم قد حققت غرضها، من هنا نرى ان التفسير يتم وفق هوى المحلل الذي ينتهج النهج الفرويدي.

ان الاعتراف بهذا هو ما آل بأخلص حواريي فرويد في بواكير ايام التحليل النفسي الى ان يبدأوا بالابتعاد عن اطراء استاذهم في تفسير الاحلام، والمع واحد من بين هؤلاء كان المعالج النفساني السويسري كارل

غوستاف يونجC.G.Jung(١)، الـذي عبر بـوقت طويل قـبل اقتراب وقت اوان البـحث الحـديث عن الاحـلام، عن رأيه بالقـول انه لمدين لشخصه في محاولة ارجـاع جميع الاحلام الى الرغبات، ففي فقرة ينتقد فيها فرويد، كتب يونج يقول:

(بما ان حـيـاة الانسـان ليـست وقـفاً على هذه الغريزة الاساسية او تلك، وانما هـي مـؤلـفـة مـن عـدد وفـير من الغـرائز، والحـاجـات. . . والعـوامل الشرطيـة النفـسيـة والجسمية، لذا فان الاحلام لا يمكن تفسيرها من جانب هذا العنصر او ذاك، مـهما بدا بسـيطا وجـذابا مثل هذا التفسير. . . . فليس من نظرية بسـيطة من نظريات الغـرائز بمـقـتـدرة على الاحاطة بذلك الشيء الجـبـار الخـفـي الملغـز، الا وهو النفس البشرية، كـلا؛ ولا يمكن كـذلك الاحـلام التي هي تعبير عن هذه النفس أن تدرك كنهها. . حقا هناك احلام تنطوي على رغـبـات مكبـوحـة وعلى مخاوف، ولكن مـا بالنا بتلك الجـوانب التي لا تحـيط بها الاحلام ولا تتضمنها؟ الاحلام قد تتيح التعبير عن حقائق تـتـعـذر مـقـاومـتـهـا، وعن بيـانات ودلالات فلسـفـيـة، وعن اوهام، وعن خـيـالات هائمـة، وعن تطلعـات وتوقـعـات، وعن خبرات لا عقلانية، بل وحـتى عن رؤى تواصل روحـيـة (تليـباثية) تخاطرية، والى جانب هذا، ثمة امور كثيرة لا يعلمها الا اللّه).

ان مـا يبـذل من جهد لتتبع كل حلم وإرجاعه الى الرغبات والصراعات الـطـفليـة تعـتبر من وجـهـة نظر يونغ ليس فـقط اجـراء خـاليـا من النزعـة العلمـية، بل هو ايضا اجراء يمكن ان ينطوي على تجاوز واعتداء على كرامة المريـض الخـاصـة، ويمكن القـول كـذلك، ان الاجـراء هذا يمنع المحلل والمريض على حـد سـواء من ان يريا ان بعض الاحـلام قد تنطوي على انواع

(١) إني اذ أقـول هذا فـلا انكر دور المنشـقين الآخرين على فـرويد، أمـثـال (أدلر) و (فلهلم شـتيكل) و(أوتو رانك)، من رواد الحـركـة التـحليليـة النفـسية، فلهؤلاء اراء أصيلة ولكن آراء يونج كـانت أعمق تأثيراً (المؤلفة).

مختلفة من المعاني لا تقل قيمتهافي الاخذ بيد المريض باتجاه فهم ذاته، فهذا المنحى الذي اقترحه يونغ في النظر الى عناصر الاحلام وخصائصها وشخوصها وطبيعتها، اعتبر كل ذلك جوانب تعكس شخصية الحالم بدلا من النظر اليها على انها ذكريات. تكونت لدي في الغالب خبرة جعلتني ادرك ان ارتباطات احلامي وتداعياتي الحرة تشير الى ضرب ذاتي من ضروب التفسير بدلا من كونها تشير الى ما كان ملتزما به محللي من نمط تفسير موضوع فرويدي وساصف عدد ا من هذه الحالات في فصول قادمة، لكنني اقتبس هنا الان بخاصة مثلين جليين اسوقهما توضيحا لما قصدت اليه.

ففي الحلم الاول من هذين الحلمين، والذي حدث مباشرة بعد زواجي، الفيت نفسي منتظرة في طابور طويل مؤلف من نساء حوامل لاضع طفلا، كانت الفتاة التي قبلي تعاني من صعوبة في الوضع، وكنت انتظر دوري بشيء من التوجس والتخوف، ولكن حين حان دوري، وضعت مولودا، وكانت بنتا، وضعتها من غير معاناة تذكر، وقبيل تسليم الطفلة الى السيد المبجل، تحسست رأسها لاتأكد من نتوء صغير عرفت بوجوده بالحدس والتخمين، كان النتوء هناك، فاستيقظت وعندي احساس بانجاز كبير وسعادة غامرة.

وقد فسرت الحلم بانه انفراج (وهو في نظر بعض الدوائر الدينية ضرب من الاستهلال للحياة الروحانية) عن مصدر منه بزغ نوع من حياة جديدة، فالطفل الوليد، وهي البنت، اولتها بانها ولادة نفسية جديدة عندي، فهي تمثل جزءاً من نفسي كنت قد كرستها للايمان بالله، وان ما تحسسته من نتوء في رأسها هو الاخر رمز لما هناك من شعور شامل يعم بني الانسان، شعور بان للحلم دلالة روحية تتعلق بجانب او مرحلة من مراحل حياتي الزوجية، وان كنت في واقع الامر قد زهدت في ان احتفي بهذا الزواج او ان اربطه باي مظهر خارجي كالعقد في الكنيسة مثلا، فالحلم كان، في

حقيقة الامر، ينبؤني بانني كنت لأرى حياتنا الزوجية الجديدة معا بأنها ضرب من ضروب الحياة الحافلة بالمعنى انسجاما مع ما يتطلبه الموقف بانجاب الذرية وتحقيق السعادة في رحاب اسرة صغيرة فحسب، وانما تساوقا مع ما تقتضيه المتطلبات الاشمل والتي تنطوي على توفير اوثق الروابط الوجدانية والفكرية. والحق، كنا انا وزوجي قد شرعنا لتونا في مشروع دراسي يستغرق منا بضع سنين ولقد أملنا ان يتاح لنا قبيل انتهائنا منه اللقاء لنعمل سوية، احسست ان الحلم انما حدث لينبأني بان مشروع دراستنا هذا كان نوعا من الولادة الجديدة بالنسبة لي، او انه ينبيء عن ميلاد جانب لم يكتمل بعد من جوانب شخصيتي، فكنت شديدة التأثر به.

لك ان تتصور، اذن، مقدار دهشتي حينما انبأني محللي بأن الباعث على الحلم انما كانت رغبة لدي بان ألد من غير احساس بألام الوضع، وبانني حولت مخاوفي تلك على الفتاة التي كانت امامي، وفوق هذا، فأنه قال لي بان التنبؤ في رأس الطفلة قد اثارته في نفسي رغبة مكبوتة مبعثها امنية ان يكون لدي عضو الذكورة، وان السيد المبجل في الحلم كان يرمز، حسب رأي المحلل، الى القابلة او الحاضنة التي سيعهد اليها بالوليد بعد الولادة، واضاف محللي ذاك، بان احساسي بالسعادة بعد اليقظة كان انعكاس ورد فعل لما كنت اشعر به من خوف وتوجس لدى اقتراب ايام الوضع.

ان ما بدا مني من رد فعل كان، وما فتيء، هو ان تعسفا قد انزل بالحلم وبتكويني النفسي الذي احدث ذلك الحلم، فقد شعرت في قرارة نفسي ان محللي لم يحسن الاستماع الي قط، وانما هو قد فسر الحلم على هواه طبقاً لما كونه من احكام وافكار مسبقة عن النساء وحسب النظرية الفرويدية في تفسير الاحلام. ففي تفسيره لحلمي ذاك، قد اغفل تماما المغزى الديني للحلم وتجاوز مشاعري الغامرة العامرة بالغبطة وقد اهوى باحساسي بالانجاز وبما حققته الى منزلة التفاهة المبتذلة، الحق انني كنت ارغب في ولادة من غير ألم (ومن من النساء من لا ترغب في هذا)، وحقا كذلك،

انني كنت ساستخدم حاضنة لتعاون في تعهد الوليد المنتظر، ولكن التفسير الفارغ، الخاوي من المعنى، ما علمني شيئاً، فالأمر لا يزيد على ما قاله هوراشيو لهملت Hamlet: (لا حاجة بنا، يا سيدي، الى شيخ ينهض من ثنايا الرمس لينبأنا بهذا).

بعد مضي بضع سنين رأيت حلما اخر له مغزاه، وقد بدا في جانب من جوانبه مرتبطا بالحلم الاول، وانه هو الآخر كان يتطلب تفسيرا ذاتيا. رأيت فيه رجلا كان قد تواطأ مع عشيقته لاغتيال زوجها، وكانت تلك العشيقة تبدو امرأة صارمة، ، باردة الطبع، كانت بعد ذلك تجلس في محطة تحت الارض تحرس تابوت زوجها وهو مفتوح، وكان واقفا هناك عدد من الجنود ببزاتهم الرسمية الزرق ممن تآمروا في القتل وهم يقدمون التعازي الي الارملة الباكية، وبغتةً قد اختفت تلك المرأة عندها رفع الجنود غطاء التابوت ليروا ما في داخله. ما كان مني الا ان اهرب من المكان فزعة، سمعت الجنود ينادون وهم يتصايحون مرددين عبارة (الكلبة، الكلبة) فاستيقظت مرعوبة وقد استحوذ علي القلق، وانا اصرخ (سأقتل نفسي في عالم المرأة).

ومرة اخرى اقول، ان هذا كان كذلك حلماً مثيرا وواضح المعالم، وقد احسست ان جميع الشخوص فيه كانت تمثل جوانب من شخصيتي الخاصة بي- فالجانب الانثوي الصارم المتواطيء مع الجانب الذكوري المتأرجح الضعيف كان يتآمر لاغتيال ما أحسست بأنه يمثل (نفسي الحقيقية)، التي بقيت نثاراتها وبقاياها مختلطة متكومة داخل ذلك التابوت، وان الجنود ببزاتهم تلك هم يبدون كأنهم شخوص من الثورة الفرنسية، كانو يمثلون الجانب الثائر من طبعي انا، طبعي الغاثر الغاضب الذي لم يكن راضيا عن جريمة القتل تلك. ان ما حدا بي الى تفسير الحلم تفسيرا ذاتيا انما هو امر مبسط: ففي ذلك الوقت كان زوجي الاول قد حقق نجاحاً في مهنته واستقر في ميدان عمله، فراح يهددني باستمرار بأنه سيتخلى عني ما لم

اترك عملي الوظيفي واتفرغ للعناية به وبشؤون البيت. واني من جهتي بعد كل سني دراستي الطويلة هاتيك، قد شعرت بأن مثل هذا الطلب انما يشبه تحطيم جزء من نفسي، وأنني مع هذا كنت احب الا نفترق، فكنت اسائل نفسي عما اذا كنت اقدر او لا اقدر على ان افعل ما يرضيه من غير الحاق الضرر البليغ بذاتي انا. فالحلم كان يخبرني بكل جلاء بانه ليس بمقدوري ان افعل ما يرضيه، وان النتيجة قد تكون القتل، وانه لمن الخير لنا الافتراق.

لا حاجة بي الى القول، بأن محللي لا يملك مثل هذا الهراء الذاتي، وهو ما يعتبره تهربا من امور اكثر اهمية، فهو قد اصر على اقتفاء آثار هذا الحلم بالعودة الى ما كنت قد عانيته من اجهاض ابان بواكير حياتي الزوجية، رغم حقيقة ان ليس ايا من ارتباطاتي وتداعياتي ولا في مواقف حياتي الارادية عن احتمال انفصال زواجي، ما يشير الى ذلك الحدث المنسي الذي طوته الايام، فهو قد التزم القول بانني كنت انظر الى الاجهاض بانه اغتيال، رغم حقيقة كوني لم اكن قد انطوت احاسيسي على مثل هذا الشعور يومذاك، كما انني لم اشعر بشعور الذنب الذي استثير لدي عندما ذكر هو هذا الحدث ولن تستثره تداعياتي ولا ما يرتبط بالحلم نفسه، لهذا، فقد داخلني شك بأنه هو الذي اعتبر الاجهاض قتلا، ولست انا التي اعتبرته كذلك.

وانا انظر الى هذين الحلمين والى ما اتلقاه من علاج، اني لاشعر بالغضب اذ سلمت قيادي لغيري فابتعدت عن سلسلة افكاري وذلك باتباع روتين مطول ارضى محللي ولم يوصلني الي مبتغاي، ولم يكن ذا علاقة بما عندي من احاسيس، ان الحلمين قد نقلا الي بوضوح موقفا كان جزءا من شخصيته قد ولد فيه وترعرع اثناء السنين المبكرة من زواجي، لكن ذلك الموقف قد تعرض لخطر التدمير والقتل لو اني استسلمت الى متطلبات زوجي تلك، لو انني وعيت هذه الرسالة واستوعبت فحواها، لفصمت الصلة هناك وآنذاك، بدلا من الاستكانة وتعريض نفسي الى الاستخذاء لمدة

عامين اخرين.

انه هذا الضرب من (الاعتساف في التفسير) هو الذي ادى ببعض الناقدين للتحليل النفسي لان يصفوا ممارسيه ومتعاطيه بانهم (قتلة الاحلام) Killers of dreams . واننا لنجد في الاعوام الاخيرة ان كثيرين من بين المحللين النفسانيين انفسهم قد ظاهروا مثل هذا الانتقاد. ومثل ذلك ما كتبه (فريتتش وفروم)، في كتابهما (تأويل الاحلام) Dream Interpretation اذ قالا:

(لكل منا سماته النمطية وهناته الذاتية، وترتبط انماطنا هذه وهناتنا ارتباطا وثيقا بما نتقبله من نظريات، وللتصدي لهذه الهنات والوقوف بوجهها، فاننا ننصح المحلل بان ينسى نظرياته في الوقت الذي يقوم فيه باجراء التفسير والتأويل، وعليه، بدلا من ذلك، ان يركز اهتمامه تعاطفيا على بؤرة ما يصدر عن المريض من افكار وان يسمع صداها).

ينقل الدكتور والتر بونيمWalter Bonime، في كتابه: الانتفاع الاكلينكي بالاحلامThe Clinical Use of Dreams، قصة شديدة الشبه بتلك التي قصصتها عن نفسي، قصت عليه احدى مريضاته كيف ان حلما له دلالته من احلامها قد افرغه من مغزاه محللها السابق واظهره بانه ذو نتائج مفعمة. رأت نفسها في حلمها ذاك تسير في بهو ابوابه من كلا الطرفين مقفلة، مما جعلها تشعر بالوحشة تماما وانها عزلاء من اي شيء، وبينما كانت تمشي فوق سجاد قديم بان في ضياء الابواب، مما جعلها تماما تحس الوحشة والخور، ففسر محللها الفرويدي حلمها بأن البهو الطويل يرمز الى رحمها وقال لها انها كانت تشعر بالاهمال في حياتها الجنسية.

وفيما يأتي يجتزيء بونيم شيئاً من رد فعلها لذلك التفسير كما روته بنفسها اليه.

(كان تفسيره بالنسبة لي صدمة. انه تفسير لم يدق الجرس عندي- اي لم يتطرق الى صلب الموضوع، لم يكن فيه ما يمكن ان اعرفه، ولم احس

بـالاسـتـشـارة بطريقـة مـؤلمة، وانما احس بطريقـة مجزية تلك هي انني كنت استشعر الاستثارة عندما يكون التفسير منطويا على ما يدعو الى التعرف على شيء مـا، وحيـنما يحملني على ان اعـمل شـيئاً محددا وانهض به في حـيـاتي البيـتية، وبدلا عن هذا، فقد صدمت واحسست بالأسى، وشعرت ان ثمة شـيئاً مـفقوداً في التفسير، اذ كان هناك في الحلم شيء اكبر واكثر، وتحسست انني كنت افتقد شيئاً ذا قيمة ينطوي عليه الحلم على نحو ما).

وهي تروي حلمـها ذاك الى بونيم بعد تسع سنين من رؤيتها له، اضافت تقول:

(مـا فـتئت استطيع ان ارى ذلك البـهـو بابوابه الكثيرة المغلقة، اني لعلى يقين من ان الحلم كـان يعكس ما كنت احسه من طريقة في الحياة حييتها في ذلك الوقت، شـعـرت بان جميع الابواب كـانت مـوصـدة بوجهي، وان بقية حـيـاتي ستكون امـامي رحلة طويلة شـاقـة كـامدة خاوية... ولو تأتى لي آنذاك ان افـهـم معنى ذلك الحلم وان اعرف بوعي تام كم كنت يائسة بشأن مـا يخـص زواجـي، لاتخـذت مـا يـلـزم من خطوات لأتخلص منه في الوقت المناسب يومذاك، بدلا من الانتظار خمس سنوات بائسة طويلة).

يعـتبر بونيم واحـدا من المحللين النفسانيين الذين تزداد اعدادهم باضطراد ممن يرفـضـون التـوجه الفرويدي التحكمي والحتمي في تفسير الاحلام؛ فهو يرى الحلم حدثا وجوديا يجب ان يتاح اليه المجال (ليتحدث عن نفسه to speak for itself) بدلا من النظر اليـه بوصـفـه رسـالة بالغـة التـمـويه والاسـتـخـفـاء يجب حل لغـزها. ان كـثيرا من منحى بونيم يمكن تلمسه في اثاره الراسـخـة في افكار يونغ (فـهـو يقر بفضل يونج عليه وانه اليه مدين)، الذي ابتـعـد من عهد مبكر عن فرويد واتخذ لنفسه سبيلا في تفسير الاحلام يتسم بالمرونة خـاصـة. وان يونج بوصفه معالجاً نفسانياً ممارسا، لم تغب عن ذهنه حـقـيقة فحواها ان الاحلام بوسعها احيانا ان تكشف عن حقائق مؤلمة يقـاومـهـا الحـالم فلا يريد ان يراها ماثلة، لكنه (يونج) جعله مبدأ رئيسيا لا

ليستخدم هذا تبريرا من اجل الاصرار على تفسير يقحمه بصرف النظر عن موافقة المريض ورضاه. وحتى اذا ما اعتقد المحلل بأن تفسيره صحيح وسليم ولا تشسوبه شائبة، فان يونج كان لا يرى هذا مجديا ما لم يقره المريض نفسه عن خاطر طيب بدون حمله على الاحلام من بحث حديث، وهو يكشف من غير شك عن الطبيعة المتقلبة المتلونة للاحلام، انما يحمل في طياته تحفظ يونج بشأن هذا الموضوع تماما.

منحى يونج في تفسير الاحلام

في الوقت الذي تكون نظرية فرويد في الاحلام قد غالت في تبسيط المسألة بارجاع جميع الاحلام الى تحقيق الرغبات، فأن يونج قد عارض هذا الرأي، اذ ذهب الى ان نظرية (التمويه) او الاخفاء انما هي في مجملها جد معقدة ومتداخلة مما لا يجعلها جديرة بالقبول. بل هو آثر ان يقتبس من التلمود Talmud ليدين بذلك فرويد في اعتسافه في تفسير الاحلام، فقد ورد في التلمود:

[ان الحلم ينطوي على التفسير في نفسه]

لذلك انتهى يونج الى القول:

[وبعبارة اخرى فأنني اتخذ الحلم على انه مسلم به مقطوع بصحته. الحلم حدث طبيعي وليس ثمة سبب واحد تحت الشمس يدعونا الى ان نفترض بأنه اداة خداعة غايتها ان تضلنا سواء السبيل].

نفس النقطة هذه تناولها بملاحة وظرافة الدكتور (هـ. ج. بينز)H.G.Baynes احد اتباع يونج ومؤيديه، اذ وصف مناقشة فرويد لموضوع الوظيفة التمويهية للاحلام، بأنها تشبه زيارة قام بها زائر انكليزي الى باريس فظن الباريسيين يتحدثون رطانة خالية من المعنى لكي يستغفلوه ويسخروا منه!

لهذا فان يونج قد ركز اهتمامه على المحتوى الظاهر للحلم، وقد شرع

باماطة اللثام عما يكشف عنه الحلم بدلا من التركيز على ما يخفيه. فالحلم قد يعبر في بعض الاحيان عن صراع خفي او مشكلة دفينة، وفي احايين اخرى، كما تبين يونج، قد يومىء الى المستقبل وذلك بازاحته الستار عن احتمال غير معروف في الحياة او في النمو النفسي والتطور السيكولوجي. فالطبيعة الغريبة الرمزية للاحلام، كما يراها، هي ببساطة الصورة الطبيعية للغة العقل عندما يعبر عن نفسه خارج نطاق الحدود الضيقة للفكر العقلاني، وانه في الوقت الذي يقبل فيه توجه فرويد العام في تفهم اللغة الرمزية هذه وذلك بالتنقيب في ثنايا تداعيات الفرد والبحث في طواياها عما يكمن في الاساطير وفي الفولكلور وسواها، فأنه في الوقت ذاته قد عارض تماما اصرار فرويد على ارجاع كل شيء الى بواكير الخبرات الجنسية المترسبة في ايام الطفولة. فهو يذكر، مثلا، ان الحية قد ترمز الى عضو الذكورة في بعض الاحلام، لكنها في احلام اخرى قد ترمز الى الشفاء Healing ، او قد تشير الى الحكمة Wisdom، وقد تمثل في احلام اخرى، الشر evil، كما هي وظيفتها في الاساطير الاغريقية، او الشرقية، او المسيحية، على التوالي. واذا كان بمقدور العقل اليقظ ان يستخدم هذه الرموز فلم لا يستعملها العقل الحالم؟ كذلك فأن الدائرة المستعملة على نطاق واسع في الأساطير الشرقية لتشير الى التكامل والتوازن (المندالا)(٢)Mandala يمكن ان ترمز في الاحلام الى تكامل الشخصية ولا علاقة لها ايا كانت بالاعضاء الانسالية الانثوية، وإني لعلى يقين من ان يونج كان يمكن ان يفسر حلمي عند الولادة، كما فسرته انا، في حدود ثيمة الولادة المقدسة لا كما وردت في الاساطير، وهي ولادة تمثل مرحلة جديدة من مراحل النماء الروحاني او النفساني.

والحق، ان يونج قد اعتقد بأن الحلم يمكن تفسيره، على اي وجه يراه

---

(٢) المندالا أو الحلقة السحرية عند الهندوس والبوذيين رمز الكون. واستعارها يونج واراد بها رمز الذات، لأن الذات عنده هي نقطة الوسط في الشخصية (المترجم) .

الحالم اكثر ملاءمة، فهو يقول، البداهة تشير الى انني اذا ما حلمت بشخص اعرفه جيدا، فيلزمني ان اعرف الشخص في الحلم كما اعرفه في الحياة الواقعية. واذا ما حلمت، مثلا، بأبي أو أمي، او بصديق حميم، فمن المرجح ان الحلم يشير الى هؤلاء الناس مباشرة وانه يقترن بمقدار ما بيني وبينهم من علاقة وطيدة، وان الحلم محمولا ومفهوما على اساس المستوى الموضوعي، فقد يشير هذا الحلم الى نوع من القلق او التنافر، او نية خفية لدى ضدهم، فالحلم في مثل هذه الحالة انما يعبر عن مشكلة ملموسة ترتبط بالعلاقات القائمة بين الجوانب التاريخية والخرافية والاسطورية وعلى اساس مستوى ذاتي كجزء من مكونات شخصيتي. فليدي ماكبيث Macbeth، قد تمثل جانب التطلع والطموح من شخصيتي، في حين يمكن ان تمثل الفتنة Beautyالنائمة الجزء الراقد الكامن من طبيعتي. فبالنسبة الى يونج لا يوجد شيء اسمه تفسير (صحيح)، اذ ان الحلم يمكن ان يكون تفسيره ناجحا حينما يكون ذا معنى للحالم وعندما يكون استخدامه من جانبه استخداما بناء.

كان يونج، على اية حال، تحكمياً في احد الموضوعات، وذلك باصراره على ان كل حلم انما يختص بموقف حاضر في حياة الحالم وليس بمرتبط بشيء من ماضٍ يتصل برغبة طفيلية او خيال عابر، كما اعتقد فرويد وبهذا فان يونج قد استبق في التنبؤ بما تم فيما بعد في بحوث اجريت عن الاحلام، كما اوضحت ذلك في الفصل الخامس، حيث سبق وان بينت بأن الحلم يكشف عما يجري في يوم الحالم من احداث، وان الحلم قد يلقي ضوء على ما لدى الحالم من تغرضات واتجاهات انحيازية لاشعورية. وفي الفصل الرابع من هذا الكتاب وصف لحالة الفتاة التي حلمت بأنها حامل وكانت تبحث عن وسيلة للاجهاض، وقد وصفت حالتها بانها كانت تفكر في مضاجعة زميل لها في الدراسة زنجي لكنها كانت تخشى الحمل، فظهرت رغبتها في الحلم.

لعل الحلم في مواقف ومناسبات اخرى، كما يرى يونج، يعمل بوصفه مكنية تعويضية لموازنة الاحاسيس المتنافرة حول شخص ما او حادثة معينة. فأن يونج نفسه قد وصف في سيرته الذاتية: ذكريات، واحلام، وتأملات، حلما من احلامه هو عن خبرة تعويضية، وكان في الوقت الذي رأى فيه الحلم، حواريا مخلصا لفرويد، يصغي ويتعلم ويعمل بمعية ذلك المعلم الذي اكبره كثيرا ومجده تمجيدا شديدا. بعدئذ، وما كان اشد دهشته، اذ وجد نفسه يحلم بفرويد بأنه: (تاعس منكود الحظ، موظف في خدمة الامبراطورية النمساوية، وانه ميت مهزول ولكنه لما يزل شبحاً يمشي بهيئة مفتش كمارك) وقد فسر يونج حلمه هذا بأنه تصحيح، وانه تعويضي، او انه ترياق لشعوره العالي ازاء فرويد، موضحا ان شيئا ما، في داخله عرف بأنه عليه ان يعامل الاستاذ بشيء من الحذر والحيطة وان يتحفظ في نظرته اليه.

يقول يونج ان الحلم يبرم نوعاً من التوافق الداخلي بين الاتجاهات الشعورية واللاشعورية عند الفرد، وفي اي وقت نجابه فيه بحلم مبهم، يقترح يونج، علينا ان نسأل انفسنا سؤالا: (عن اي اتجاه شعوري يعوض هذا الحلم؟). واني من جهتي ما زلت اتذكر بوضوح حلما كان يعاودني باستمرار كنت ارى فيه نفسي مقطوعة الرأس، كان هذا في فترة من فترات حياتي كنت يومذاك اهيء ذاتي واعد نفسي لتطوير حياتي الفكرية على حساب احاسيسي الوجدانية، وعندما اتخذت منحى متوازنا ازاء الحياة، انقطع الحلم فلم يعاودني بعد ذاك.

كان يونج في الحقيقة مقتنعا بان الاحلام تكشف عما هو كائن فينا من مصادر معلومة ثابتة وعما لدينا من حكمة لاشعورية. وهذا الاحتمال يبدو ان فرويد ألمح اليه في بعض كتاباته، لكن ما أنصب عليه التحليل الفرويدي هو اعتباره الحياة اللاشعورية في مجملها مجالا لنوازع الطفولة وغرائزها، ملقيا بذلك عبء المسؤولية الخاصة بالعلاج والشفاء النفسي والتكامل

الذاتي برمتـه على العـقل الشـعـوري العـقـلاني، ان يونج باعتقاده بان لدى الكائن البشري ميـلا تكوينيـا ينزع الى الصـحة النفسية، وهو ميل مماثل لما عنده من قـابليـة فطرية للشـفـاء من جروحه عندما يتعرض لآفات مرضية، فـهـو- يونج- لهذا تبـدت له الاحـلام في الغـالب انها تعكس نشاطات هذا الدافع الداخلي النزاع الى التماس الصـحـة والنضج، ويتضافر مع هذا الدافع العقلي الشعوري.

ولقـد كـان هذا الاكـتـشـاف هو ما ادى بيونج الى ان يولي اهتماما خاصا باسـاطير العـالم الدينية وما في العالم هذا من خرافات وملاحم بحثا عن ابرز مـا في الكون من رمـوز لها دلالتها ينطوي عليها العقل البشري، وفي الوقت الذي فسر فـيـه فـرويد الاسـاطير والاحلام المتعلقة بالعبادة انها مجرد خواطر تعكس اولى خبرات الطفل عن والديه، فأن يونج نظر اليـهـا بوصـفـها تعبيراً عـن وعي الانسـان بما لديه من دافع داخلي ازاء النماء ونحـو التكامل، ولقـد فـسر يـونـج كـل ذلـك ضـمـن اطـار نـظـريـتـه المسماة (اللاشـعـور الجمعي)collective unconscious وفـيـهـا وجـد اساسا مشتركا يجمع بـين مخـتـلـف خـصـائص الجـنـس الـبـشري، بما في هـذا مـا اسماه الـنمط البدائيarchetype. وحـينما لا تكون في احلام المريض اية ارتباطات تتصل بـحـيـاته الحـاليـة،، فأن تفسير الحلم يمكن التماسـه في النماذج او الانماط البدائية هذه.

فما يبدو للحالم من صورة imageعن اله اسماها يونج (النمـوذج البدائي للنفس) archetype of the self وهي قـوة التكامل الكائنة في اهاب كل فـرد، وهي القـوة التي يمكن ان تجـد تعـبيرا لها في المندالا. اعـتقد يونج انه تمكن من اكـتـشـاف صـورة نمطيـة بدائيـة اخـرى مـتـضـمنة في موضوعات الاحـلام، تـلـك هي (الظلام المزدوج)، او الشـيطان الشـخصي الذي يطارد البطل كما ورد في اسـاطير وخـرافـات لا حـصر لها، محاولا الشـيطان هذا ان يجعل المرء يشـعـر بالاغتراب في ذاته على نحو ما بل يسعى الى تحطيمه. وقد

اطلق على هذا الاكتشاف عقدة (الظل)shadow complex ونظر اليـها انها تمثل رمـز الظلام، وانها الجـوانب المكبـوتة من الشـخصية، وهي الجوانب التي تلح باستـمـرار باحـثـة عن الاعتراف والتـعـبير عن نفـسها لدى جميع الكائنات البشرية، حـتى وان كـانت خـصـائصـهـا تتفاوت من شخص الى اخـر. وفي ضـوء هذا الرأي فسرت حلما مـتكررا كـان يعـاود احـدى النساء كـانت تتطوع في تجـاربي المتـعلقـة بالبـحث في الاحلام، وان يونج قد اعتقد بان مـا ينشـده الانسـان من تكامل انما يمكن الظفر به في الظل هذا، وليس في التهرب منه.

فـفي حلم المرأة المذكـورة آنفـا، كان الشخص الظل يمثل تجربة شخصية خـالصـة، توحي بما يرد في بعض القـصص كـقـصة: قضية الدكتور جيكل والمستر هايد الغربية(٣)، بدلا من كـونها تذكـر باسـاطير قديمة. وان مثالا آخـر اكـثـر اسـتثارة من طراز النموذج البدائي قد حصل لي في احلامي ابان ايام حلمي الثـاني، حـينما كنت ارى ليلة بعد اخرى، ان قططا وكلابا وذئابا تطاردني، وكنت احـيـانا اتفـاداها بمـجـرد الهرب منهـا ولكنني كنت احـيانا اصـمـد امـامـهـا لقتالها بالعصي وما اكثر ما كنت اتغلب عليها اما بالضرب بالعصي او بتـقطيـعـهـا بمـدية كنت احملهـا، ومما أدهشني ان هذه الاحـلام كـانت تعاودني في اسابيع الايام القلائل الاولى من احساسي بالحمل بالطفل، منذرة اياي بأن جـسمي على نحو ما بدا يعي بما تتوعده من (طبيعة حيوانية) آتيـة وذلك بفترة طويلة قبل ان يعي عقلي الشعوري ذلك.

ثـم، في اواخـر ايام حملي، اتخذت الاحـلام المعـاودة تلك مـسارا غـريبـا جـدا. اذ حلمت انني صـادفت في الطريق كلبا يشبه ذئبا، وعندما هاجمني، رحت اضربه بعـصـا كـانت مـعي حتى انهكته فلم يعد يستطيع ان يتحرك. عـرفت انني سيطرت عليـه فلم يعـد بمقدوره ايذائي، لكنني استمريت في ضربه حـتى ادركت انه مـات. وبعـد ان مات، لاحظت اثناء موته ان عينيه

(٣) ترجمتـها إلى اللغة العربية وقدمت لها بمقدمة ضافية وتعليقات وافية (المترجم) .

قد استحالتا الى لون الذهب واصبحتا خطرتين، وقد تحول وجهه الى وجه امرأة، ادركت وانا في غمرة الفزع ان تلك المرأة استدعيت لتنتقم مني لموت الكلب، فاستيقظت مذعورة وبدا لي انني كنت اردد (ايكوب، ايكوب).
تذكرت مباشرة ان هذه انما هي اسماء (هيكوبا) و (هيكات) وكل ما اعرفه عن هذه انها اغريقية قديمة. ايا كانت الحال، فقد جعلت تلك الاحلام تطاردني مما اضطرني الى الذهاب الى المكتبة لابحث في الكتب عن هويتها، وان احساسي الاستخفائي قد تحول الى نوع من الاستياء وعدم الراحة حينما اكتشفت ان (هيكوبا) Hecuba، انما هي زوجة الملك بريام Briam ملك طروادة المندحر، بقيت تناكد يوليسيس اوعوليس Ulysses المنتصر وكانت قد سبيت اليه، فضاق بها ذرعا فحولها الى كلبة ودفع بها الى عرض البحر داعيا عليها باللعنة، بينما كانت (هيكات) هذه (تيتانا) Titan، الأم الجبارة التي كانت مستحوذة على الطبيعة النباتية وعلى الولادات، وكانت لها ثلاثة رؤوس حيوانية، واحد من تلك الرؤوس هو رأس كلب.
لم أكن لاتابع التلميحات الاسطورية هذه، ولكن تراءى لي ان هذه الاحلام انما تتناغم على نحو معين مع ما في عقلي من مكنونات تتحدث في حدود اللغة الاسطورية وبمصطلحاتها من اجل تحذيري من ان الجانب الغريزي من ذاتي، الذي احاول جاهدة في الاعتلاء فوقه والتسامي على نزواته كان اقوى سطوة مما كنت ادرك حقيقته. يبدو لي انني كنت في الواقع أدمر قوتي وطاقتي مخالفة بذلك ارادة طبيعة الأمومة، التي ستنتقم مني ان انا تماديت اكثر، كان هذا تحذيرا بان علي ان اتعلم التعايش مع هذه القوى القائمة في نفسي وان اتقبلها، فهي قوى اقدم واشد سطوة من طموحاتي الشخصية الرامية الى معرفة ومهنة والى تطلعات فكرية، وان يلزمني ان اكف عنها مهما كانت الاخيرة هذه من الاهمية في خطة حياتي الذاتية. وان ما حلمت به من مشاهدتي للكلب وما حلمت به كذلك عن هيكوبا وهيكات كنت قد قرأت عنهما ايام كنت في المدرسة ولعلها ارتباطات منها

علقت في ذهني، ولكن يقينا لم اكن لاتذكر شيئا منها وقت ان حلمت بها. ومع هذا، فقد بدا لي في النهاية ان الدلالة في عقلي الحالم قد استخدم في خاتمة المطاف تكثيفا خالصا لهاتين الصورتين القديمتين القويتين ليوضح لي، اذ لم توضح لي احلامي السابقة، ان قوى الظل التي كان يجب علي ان ادمجها في حياتي لم تكن مجرد سمات خلقية شخصية كنت حتي الآن قد اهملتها، وانما كانت تمثل شيئاً اقوى بكثير مما يظن. ان اللغة المجسمة لمحللي الفرويدي لم تكن من الكفاءة لتحقق العدل لقوى الحلم هذا ولما ينطوي عليه من نوازع وجدانية.

موضوع نمطي نموذجي آخر، اعتقد يونج بأن التحليل الفرويدي اخفق في الانصاف اليه هو ما كان معبرا عنه في الاساطير الشائعة الخاصة بالروح الحارسة للامير المحب في قصص الجن وفي قصص السرانة، الهة الحب، فقد وجد في الغالب ان الصور الذكورية تظهر في احلام الاناث من مريضاته، وان الصور الانثوية دائماً تظهر في احلام الرجال من مرضاه، وفي كلتا الحالتين تبدو الشحنات الانفعالية مبالغا فيها مما يوحي بأن في الأمر ما هو أعمق من مجرد التطلع الى الاشباع الجنسي. وقد اطلق عليهما بالتعاقب عقدتي (الانيموس) (٥) animus و (الأنيما)(٦) anima. ورأى انهما يمثلان نوعا آخر من مبدأ التعويض الاساسي في التكامل الكلي الشخصي- وهذا ينطوي على حاجة تدعونا الى ان نقر بحقيقة اننا جميعنا لدينا في دواخل نفوسنا كثير من خصائص الجنسين المتضادين المتعاكسين تكمن في اعماق تكويننا لكن طبيعة حضارتنا تقتضينا باغفالها واهمالها. ولذا، فيلزم المرأة ان تهذب وان تروض، بطريقتها الفريدة، ما في تكوينها من الخصائص الذكرية كالمبادرة والجوانب الفكرية التي تمكنها من النمو نموا متكاملا، بينما يلزم الرجل كذلك ان يؤالف في ذاته المؤهلات الانثوية الاساسية في شخصيته كالرقة والبداهة. وان كلا من (الانيموس) و (الانيما) ايا منهمايطغى على شخصية المرأة او الرجل فيتجاوز.مقداره

الطبيـعي في شـخصية اي منهما، فان سجايا وسمات الجنس الآخر هي التي تكون بارزة اكـثـر، لهذا علينا ان نرقب احلامنا، كما نصح يونج، لنتبين نوع الرسالة التي بعثت بها الينا ما في داخلنا من خصائص ذكرية خاصة بالرجل او انثـوية مبعثها تكوين المرأة، ليتسنى لنا استعادة التوازن في داخل التركيب النفسي الخاص بنا.

ان نـظـريـة يـونـج عن الانماط الاوليـة واللاشـعـور الجـمـعي هي نظرية مـعـقـدة، ولا يمكن الخـوض في بحـثـهـا هنا في هذا المجـال تفصيلا. وقد اكـتفيت بدلا عن ذلك بالحاق قائمة بمراجع في نهاية هذا الكتاب لمن رغب من القـراء في مـتابعة الموضوع اكثر. ليس مقصدي في هذا الفصل ان اناقش مختلف جـوانب نظريات فـرويد ويونج المتـعلقة بتفسير الاحلام (اذ ان ذلك يـسـلتـزم افـراد مجلدات)، وانما ارمي هنا فـقط الى تدبر تلك الجـوانب ذات الصلة المبـاشرة بالطريقـة الشـاملة الخاصة بتفسير الاحلام والتي سابسطها في فـصـول تـالـيـة. وان الـسـبب الذي دعـاني للتطرق الى نظرية يونج في هذا المـجـال هـو انـه رأى، كما رأيت انا، ان ثـمـة ضرورة قـائـمـة تقضي بتـوجـه خـاص إزاء احـلام محددة مـعـينة كـالاحـلام المرعـبة والاحلام ذات الطبيعة الخـارقـة ولست اعـرف مـا اذا كانت هذه الاحلام تنبع عن طبقات قابعة في اعماق النفس، وهذا هو مـا يعـتقده يونج، لكن الحقيقة هي انها لمن المظنون انها هي كـذلك وانما فـعلا هي على هذا النحو، ولذلك فلا يمكن تجاهلها. واني سأعـالج مـثل هذه الاحـلام في الفـصل العـاشر تحت عنوان (النظر الى الداخل).

في الوقت الذي اعـتـقـد فـيـه فرويد جازما انه اكتشف سر الاحلام، وان يونج لبث مـتـواضـعـا إزاء مـا ظنهـا ظاهرة كبرى عن عـقل الفرد البشري، فـهو- يونج- كتب يقول:

(ليس لدي نظرية عن الاحـلام، فـلا أعـرف كـيف تنشأ الاحـلام، واني تمامـا لفي شك في مـا اذا كـانت طريقـتي في مـعالجة الاحلام تستحق حتي

التسمية- طريقة- واني لاشاطر قرائي تغرضهم ضد تفسير الاحلام وموقفهم منه بوصفه جوهراً او خلاصة لاجراءات اعتباطية غير مؤكدة. ولكني، من جهة اخرى، اعرف اننا اذا ما تأملنا حلما من الاحلام بما يكفي فترة طويلة وعلى نحو واف- واذا ما قلبناه على وجوهه المختلفة، ما اوتينا الى ذلك سبيلا، فان شيئا ما تقريبا دائما سينجم عنه ويتأتى منه. وان (الشيء ما) هذا، ليس هو مما يمكننا ان نزهو بطبيعته العلمية او مما يسعنا ان نعقله، وانما هو ينطوي على دلالة عملية ومهمة ترشد المريض الى الاتجاه الذي سيهديه اللاشعور اليه).

ولأن يونج قد اعتقد بأن اللاشعور مهمة استباقية او وظيفة توقعية، لهذا فهو قد حاول معالجة الاحلام على صورة سلسلة موصولة الحلقات بدلا من التصدي لها مجزأة، فأولا، يحصل ان يلقي حلم معين ضوء على حلم اخر اشد غموضاً، وثانياً، ان ما يحرزه مريض من تحسن او خلافه يمكن استباره مما تحدث من تغيرات في احلامه خلال فترة معينة من الزمن، وكمثال طيب يستدل به على سلسلة الاحلام المتلازمة، هو ما تعرضت له من خبرة ايام كنت حاملا، عندما طفقت اقاتلها حتى سيطرت عليها، وانتهت السلسلة بمواجهة ومجابهة مع الطبيعة وقواها بعدما قتلت تلك الحيوانات. وهذه سلسلة احلام لعل يونج لا يرتضيها ولا يسر بها لكي تنبيء بمأساة نفسية محتملة، ما بالك اغير طريقتي في النظر اليها من وجهة نظر يونجية. ان ما يجعل سلسلة الاحلام اكثر اتباعا حينما تمتد فترة طويلة فتستغرق عدة سننوات.

وليس بأقل أهمية من حيث النتائج، هو ما فتحه عمل يونج من امكانية استخدام شيء من تفسير الاحلام من جانب اناس اعتياديين هم خارج نطاق الأجواء المهنية السائدة في غرفة الاستشارة. فهو قد نصح بخاصة مرضاه وقراءه بأن يتأملوا كثيرا في احلامهم حتى يطل عليهم المعنى، واحدة من طرائق التأمل التي نصح بها خاصة هي طريقة (الحوار الذاتي

الداخلي)، وفيـهـا يتـحـاور الحـالم مع واحـد من شـخـوص حلمـه . وهذه التـقنيـة، بوسعي القول من خبرتي، يمكن احيانا ان تتيح نتائج رائعة. لعل المحـاورة، باديء ذي بدء، تبـدو مجهـدة شـاقـة وتلوح كأنها مصممة بصورة مـصطنعـة، ولكن مـا ان يتم البـدء بها حـتى تتلو ذلك لحظات يظهـر فيها الشـخص المتـصـور(بفـتح الواو) في الحلم، وقـد اكتسب شيئاً من خصائص الحـيـاة يختص بها، وكأنه ينطق باشـيـاء تبـعث على الدهشة- فكأنه يتحدث حـديثا واقعيا عن شيء من الجوانب المكبوتة او المبعدة النائية من الشخصية. وهذا اساسا هو منحى (فريدريك بيرلز) Fredrick Perls وقد تضافرت جهوده مع جهود (كالفن هول) Calvin Hall ، هـو الآخـر احـد الرواد المحـدثين في ميدان بحث الاحلام، وكلاهما اقتفى اثر يونج في اخراج تفسير الاحـلام من غـرفـة الاسـتـشارة، وبسطه في سوق العرض ليكون في متناول الجميع .

هوامش الفصل السادس

(٤) اني اذ اقول هذا لست بحال من الاحوال براغبة في ان انأى بعيداً عن ذكر المنشقين المهمين الآخرين الذين جانبوا اراء فرويد في بواكير الحركة التحليلية النفسية، امثال ادلر وفلهلم شتيكل واوتو رانك، وسواهم ممن كانت لهم اراء اصيلة سواء منها ما يتصل بالعلاج النفسي بوجه عام ام ما يختص بتفسير الاحلام خاصة. بيد ان يونج كان اكثرهم ابتعاداً ولا سيما في مجال الاحلام، وقصدي في هذا الكتاب عرض اهم الافكار التصاقا بفكرة: فسّر احلامك بنفسك (المؤلفة).

(٥) الانيموس هو الجانب الذكوري في شخصية المرأة حسب رأي يونج (المترجم)

(٦) الانيما حسب رأي يونج هو الجانب الانثوي في شخصية الرجل (المترجم).

الفصل السابع
الاحلام وتطبيقاتها في المجال العملي

منذ منتصف بدء اعوام القرن العشرين هذا، والاهتمام يتنامى بشأن احتمال تمكن الناس الأعتياديين من ان يفسروا احلامهم بانفسهم دون اللجوء الى خدمات المعالجين النفسانيين المحترفين. وهذ المنحى كان قد اشترعه يونج حين وضح ان الاحلام يمكن ان تنطوي على معانيها دونما حاجة تدعو الى تفسيرها بأنها اخفاء لرغبات مذقة مكبوتة: رغبات ليست بمستساغة. وهو بهذا قد استبعد ضرورة الحاجة الى مفسر محايد ينفذ من خلال مقاومة الحالم الى تحري الحقيقة، من جهة اخرى، فان نظام يونج في تفسير الاحلام انما هو نظام معقد وهونوعا ما نظام لا يخلو من تعقيد وابهام، متضمنا نظامه هذا معرفة بعلم الاساطير القديمة وبمقدار من الحدس هو فوق متناول الأعتياديين من الناس.

ومنذ الحرب العالمية الثانية، على اية حال، كان هناك باحثان نفسانيان امريكيان- احدهما كالفن هول وهو باحث في التجارب على الاحلام، والآخر هو فريدريك بيرلز، وهو معالج نفساني غريب الاطوار- هذان الباحثان قد اخذا الموضوع برمته بعيدا عن غرفة الاستشارة وجعلا تفسير الاحلام أمرا يتسنى لنا جميعا في حياتنا اليومية. فهما وان تناولا الموضوع من جانبين مختلفين ومن وجهتي نظر متباينتين وطورا نظريات تختلف عن بعضها تمام الاختلاف فيما يتصل بالانتفاع بالاحلام واستخدامها، بيد اني ارى ان طرائقهما المستعملة تلك انما هي طرائق متكاملة. وسأوضح في فصول تالية كيف ان بعض الاحلام تنسجم ومعطيات طريقتيهما مع ما تتيحه من نتائج نافعة، بينما نجد بعض الاحلام تبدو اكثر ملاءمة مع نمط معين من انماط التفسير ولا تتفق مع نمط اخر سواه.

طريقة هول في تحليل محتوى الحلم وتفسيره

تناول (كالفن هول)، الذي كان مديرا لمعهد بحوث الاحلام في ستاكروز، مشكلة تفسير الاحلام بصورة اساسية من وجهة نظر علمية. وخلال فترة الاربعينات، لم يعد هول مقتنعاً بنظريات المحللين النفسانيين بشأن الاحلام وعبر عن عدم رضاه هذ على اساس انها نظريات قائمة بصورة رئيسية على نماذج شاذة ليست بقياسية من الاحلام تقدم بها مرضاهم في طور العلاج. لهذا فهو قد شرع حقا بجمع عينات واسعة من الاحلام مصدرها اناس اسوياء استطاعوا تذكر احلامهم في ظروف اعتيادية مرت بهم خلال نومهم في بيوتهم. اذ طلب الى هؤلاء الاشخاص ان يدونوا ما يتذكرونه من احلامهم على استمارات مطبوعة تتضمن اسئلة محددة تخص بنية احلامهم، وطبيعتها وحبكتها، والانفعالات فيها. اعقب ذلك ان هذه الملامح للاحلام قد تم ربطها ومقارنتها بما اتيح من معلومات تم التحقق منها موضوعيا تتصل بعمر الحالم وجنسه ومهنته، وما الى ذلك ليتوفر للمرة الاولى تقرير متكامل الصورة عما يحلم به عادة اناس من مختلف المشارب.

ففي هذه الدراسة الرئيسية، التي تعتبر ايذانا بتوجه مهم جديد في سيكولوجية الاحلام ، وهو ما يعرف الآن بتحليل محتوى الحلم analysis of dream content(وهو ما لا يجوز الخلط بينه وبين تفسير الاحلام)، كان(هول) قد جمع وحلل ما لا يقل عن عشرة آلاف حلم من احلام اناس اسوياء. وقد ضمن هول نتائج تحليله هذه، وما توصل اليه من استخلاص بشأن طبيعة الاحلام ومعناها ، ضمّن ذلك كتابه: معنى الاحلام ، The Meaning of Dreams نشر عام ١٩٥٣ وهو نفس العام الذي تم فيه اول مرة اختراق كبير في مجال بحوث الاحلام وذلك عندما تم اكتشاف فترة Rem التي تعتبر المؤشر الموضوعي بشأن الاحلام. وان لارى في هذا

توافقا يبعث على الغبطة لما له من تأثير على تحديث افكارنا عن عملية الحلم نفسها وعن نظيرها السيكولوجي الا وهو الحلم نفسه. وفي الوقت الذي استطيع فيه اعطاء لمحة موجزة عن نتائج هول وما بلغه من استنتاجاته، فأني لأوصي بقراءة هذا الكتاب المهم والممتع، ولعله الاول من نوعه في تطويع تفسير الاحلام ووضعها ضمن نطاق المجال الواقعي للناس الاعتياديين.

وبأختصار، فقد وجد هول ان اماكن الحلم انما هي بوجه عام جد اعتيادية، فهي لا تتعدى في العادة كونها بيتا او سيارة، او شارعا مألوفا، او متجرا معروفا اذ قلما يحلم الناس احلاما تتعلق باماكن عملهم، كالمكتب مثلا او المصنع، وهذا ما حمل هول على ان يخلص الى القول بأن احلامنا تظهر لنا اعراضاً عن اعمالنا كالنشاط والقيام بجهد، او الدراسة، او المضاربات التجارية، وتجنح الى تقريبنا من الفعاليات الترويحية. وقد توصل في الوقت ذاته إلى ان الافعال العدوانية، والانفعالات السلبية كالخوف، والغضب، والحزن، قد رجحت على انفعالات المودة والاعمال الحميمة، والانفعالات الايجابية والمسرة. وان معظم الشخصيات التي تظهر في الاحلام انما تمثل للحالم اناسا أحتكّ بهم كثيرا خلال ساعات حياته الواعية، وكذلك شخصيات مجتمعية عامة معروفة لا يتكرر ظهورها في الحياة العامة الا قليلا. من هذا كله استخلص هول ان الاحلام قلما تهتم بشؤون الحياة الاعتيادية، وهو استنتاج تعززه حقيقة تقول انه وان كان يجمع احلاما كل يوم من طلاب يلتقي بهم خلال الايام الاخيرة من الحرب مع اليابان، فهو لم يتسن له قط الحصول على مثال واحد يتعلق باسقاط القنبلة الذرية.

كتب (هول) يقول: (ان الحلم وثيقة شخصية، انه رسالة موجهة الى الذات، فهو ليس قصة منشورة في صحيفة ولا هو مقالة مسطورة على صفحات مجلة)، والتعبير هذا يشبه ما كان قد ذكره (الفريد ادلر) عن الحلم

حيث وصفه (انه رسالة شخصية موجهة الى النفس) تتضمن دلائل واشارات تتعلق بمشكلات شخصية وصراعات لم يتم حلها بعد. وكان (هول) مضطرا بحكم ما توالى لديه من شواهد علمية، الى ان يخلص الى القول، كما خلص يونج الى القول قبله، انما الحلم ببساطة هو لغة الصور الطبيعية للعقل النائم تقوم بترجمة الافكار الى صور فكرية مجسمة، دونما اية نية لتضليل الحالم او خداعه. فهو يتفق ويونج على ان الحلم انما يكشف باوضح ما يمكن وبطريقة اشد اقتصادا عن الحالةالقائمة لحياة الحالم الداخلية وانه غير معني اساسا ببعض الصدمات الطفلية المكبوتة منذ امد بعيد، وان كان هذا لا ينفي في بعض الحالات ان تنعكس مثل هذه الصدمات احيانا في بعض الاحلام. والحق ان ما ذكره (هول) هو ان الحلم يعكس على اوضح وجه وادقه ملخصا لما يفكر به الحالم اثناء نومه. فهو- الحالم- معني بذاته، وبعلاقاته باولئك المحيطين به، وبمأزمه وبما يقلقه، يمكن القول ان الحالم يمضي معظم وقته وهو يعبر عن منغصاته خلال نومه- منغصات ومزعجات تتعلق بوضعه كشخص، مفكرا كيف يراه الآخرون، وكيف هو ينظر اليهم، وما يحس به كيف سيكون وضعه في هذا العالم وماذا سيحل به في دنياه.

ان الطريقة التي يرى الحالم فيها نفسه، مثلا، انما يعبر عنها في احلامه بمقدار ما يضفي عليها من ادوار ابان يقظته. فهل هو ينظر الى نفسه اثناء يقظته انه ضحية لعدوان معتد عليه، هل يرى نفسه قويا او ضعيفا، هل هو جبان هياب او شجاع مقدام؟ وبنفس الصورة تبدو له في احلامه نظرته عن الآخرين، فالشخص الذي يستشف من تصرف ابيه معه، مثلا، انه رجل متزمت او انه مستبد فأنه يراه في حلمه بهيأة ضابط او شرطي. ويذكر (هول) انه عندما يظهر في احلامنا اشخاص غرباء او شخصيات لا نعرفها، فانهم دائماً على وجه التقريب انما يمثلون تجسيدا لادراكاتنا عن اناس نعرفهم في حياتنا الواعية حق المعرفة. والادراكات هذه تتباين،

بحيث يتراءى للمرء وكأنه يرى امه في احدى الليالي ساحرة ويراها في ليلة اخرى تبدو له بزي ملكة. لم يواجه (هول) صعوبة كبرى في تقصيه للهوية الحقيقية لأمثال هذه الاشكال والشخوص التي تظهر من تداعيات الحالم خلال نومه.

ويبدو ان الموقف في الحلم انما يعكس كذلك احاسيس الحالم ومشاعره حول عالمه الحقيقي وذلك بتحويل افكاره الى لغة قوامها الصور. فاذا ما كان يحلم باستمرار وكأنه يرى نفسه في اماكن ضيقة جداً عليه، فان احلامه هذه تعكس احساسه عن عالمه الواقعي وكأنه يكاد يأخذ بخناقه، واذا ما كان يحلم دائماً ببحار مائجة، او غارات جوية جائحة، او زوابع رعدية هائجة، وما شاكل ذلك، فأن احلامه هذه انما تمثل فكرته الحقيقية عن عالمه الذي يراه مليئاً بالتهديد والتحطيم والتدمير. (فكثير من الناس يحلمون الآن بالقنبلة الذرية علما ان فكرة التهديد الذري قد اصبح الان في عداد المحتويات العامة القابعة في عقولنا، لكن الارتباطات العقلية تقريبا دائماً تمثل ما ترمز اليه القنبلة الذرية في الحلم بأنه احساس وقلق في حياة الحالم الواعية اكثر من كونه قلقا بشأن ما سيقع من حرب او سواها).

يذهب (هول) الى ان الشخص النائم يستطيع رؤية افكاره مجسمة في هيأة صور، واننا لندرس الاحلام لكي نتبين منها ما كنا نفكر به اثناء النوم. ان الافكار التي تتراءى لنا في الاحلام تكون اكثر اثارة وابلغ افصاحا عما هي عليه افكارنا في الحياة الواعية التي يعتم عليها ويقمعها رقيب العقل الواعي لتتساوق وصورة الذات التي نريدها لانفسنا كما نرغب نحن وكما هي عليه ذواتنا بالفعل.

كان (هول)، مثله في هذا مثل (يونج)، محجما عن الرأي القائل بأن الحلم لا شأن له باخفاء او تشويه الافكار المتضمنة في الحلم، وهو لهذا يعزز وجهة نظره هذه بمناقشات قاطعة فهو قبل كل شيء قد توصل الى ان كثيرا من الاحلام التي يرويها المجرب عليهم يمكن تشخيصها مباشرة من

جانب الحالم نفسه بانها بيانات رمزية تشير الى احداث جنسية، دونما حاجة تدعوهم الى استشارة محلل مختص. اذ ما جدوى طمس معالم شيء في حلم ما، طالما ان الشخص لدى استيقاظه يدرك توا ما في ثنايا حلمه ذاك؟ واحد الأسباب التي تمكننا من ترجمة احلامنا هو ان ما تستخدمه احلامنا هذه من رموز انها تشبه تماما ما نستعمله من مسميات ورموز خلال حياتنا اليومية الدارجة مثل البندقية، والاداة، والديك، او الأجرة، وما ماثلها. ويرى (هول) ان (فرويد) بترويجه هذا الى ما يقوض دعائم نظريته عن الاحلام القائلة بان غرض الحلم انما هو التمويه والاخفاء، نظرا الى انه من غير المعقول القول بأن الحلم حين يلجأ الى استخدام صورة البندقية او المفك لأخفاء فكرة القضيب، اذا كان الحالم في حياته الواعية يفكر بان قضيبه يمثل سلاحا او اداة للفك.

وجد (هول) ايضا، كما وجدت انا كذلك، ان حالما ما قد يرى حلما رمزيا يتمثل فيه نشاط جنسي في ليلة سابقة وقد يتبعه نشاط جنسي حقيقي في ليلة لاحقة. وهنا يتساءل (هول): أمن المعقول الظن بان العقل النائم يحضر في ليلة لاخفاء تام وفي ليلة تالية يكشف ما كان يخفيه؟

واخيرا، فان (هول) يحاجج القول ان مجرد التكثير من الرموز الجنسية في نظرية التحليل النفسي يجعل نظرية التمويه والاخفاء مدعاة للسخرية. ففي بحث اجراه في ادبيات التحليل النفسي، وجد (١٠٢) رمزا مختلفا من رموز في الاحلام كلها تشير الى معنى القضيب، ووجد (٩٥) من هذه الرموز تشير الى الرحم، ووجد كذلك (٥٥) رمزا فيها يدل على الاتصال الجنسي، اذ وجد ان هذه كلها تمويهات تعبر عن الجنس وما يشتق منه. ومن هنا ينطلق هول الى القول: اذا كانت هذه كلها مجرد اقنعة تخفي افكارا جنسية محرمة، فان هذا يعني ان تفسير الاحلام يتضاءل شأنه الى حد الاكتشاف الممجوج الذي يجعل منا وكأننا جميعا مصابون بالهوس الجنسي، وحتى اذا كان هذا صحيحاً فانه امر لا جدوى منه وليس بذي غناء. ولعل اجدى

طريقـة واكـثـرها عقلانية هي ان نتقبل العلاقة التي تربط بين الاشياء المدببة والقـضيب كشواهد قائمة بذاتها ومن ثم نسأل لماذا يختار شخص ما او يميل الى ان يختـار رمـزا واحـدا بعـينه ليـدل على العملية الجنسية- كأن يختار مثلا رمـزا يدل على العـدوانيـة كـالبندقية او السهم- بينما يجنح شخص آخر سواه الى اخـتيار رمز مغاير للاول تماماً، كأن يختار نافورة ماء. خلص هول نتيجة لبـحـوثه الخـاصـة الى القـول ان مـا يظهـر من رموز تخص الجنس في مختلف احـلام الناس المتـباينة انما ترتبط ارتباطا مباشرا بمشاعر الحالم نحو الجنس في ذلـك الـوقـت بـالـذات، وهـنـاك مـن يراها- الرمـوز- تنطوي على النزعـة العـدوانيـة، ومنهم من يحسـبـهـا مـفـعـمة باستمرار الحياة وحيويتها، وهلم جرا.

يتـفق هول ومـا يذهب اليـه يونج على ان اللغـة الرمـزية للاحلام انما هي صـيـغة جد مكثفة للتعبير الذي ما أن نفهمه وندرك مغزاه حتى يجلو لنا كثيرا من جـوانب تفكيرنا الذي يغـيب عن مـلاحظتنا بأن سـيـاق حياتنا اليومية، حين نكون منهـمكين في تنظيم حـيـاتنا والافـصـاح عن ذواتنا بمـفاهيم من الـلـغـة مجردة. وهو بهذه المناسـبـة وتدعيما لرأيه يتـمـثل بقـول تورجنيف، الكاتب الروسي الذي يقـول: (ان الصـورة لتعكس على التو ما تتطلبه مئات الصفحات من وصف في كتاب).

وان هول مـقـتنع بأن اي واحد يتبع هدي قواعد بسيطة يتمكن من تفسير احـلامـه الخـاصـة به. فهو يرى ان الاحلام انما هي صور لما يفكر به العقل اثناء النوم، ويذكـر ان (اي فـرد ينظر الى صورة ما ثم يقول ماذا تعني يجب ان يكون قـادرا على النظر الى صـور احـلامـه والقول ماذا تعنيه. ان ما يعنيه الحـلم لا يمكن ان يوجـد في نظرية تبـحـث عن الاحـلام، انما نجـد مـعنى الحلم كـامنا هناك في ثنايا الحلم نفسه وفي تضاعيفه). وفي الوقت الذي نجد فـيـه (هول) ينصح الناس المضطربين عقليا الذين يلزمهم ان يلتمسوا النصح للعـلاج، بالا يفسروا احـلامـهـم بانفـسـهم تفسيرا ذاتيا، فانه شديد الاعتقاد

بان اي شخص سليم العقل يمكن ان يصبح خبيرا في فن تفسير احلامه، وهو استنتاج قد توصلت اليه فعلا خلال ما قمت به من بحوث في هذا المضمار، وستتبين ذلك في فصول تالية من هذا الكتاب.

وثمة من وجهة نظر (هول) اربع قواعد تتبع لتفسير الاحلام، يجب دائماً اخذها في الاعتبار، وهذه القواعد هي:

١- ان الحلم ابداع من صنع عقل الحالم ينبئه كيف يرى نفسه، وكيف ينظر الى الآخرين، والعالم من حوله، والى دوافع ونزواته، وما الى ذلك، وعليه فلا يجب ان يقر على انه دليل الى الواقع الموضوعي - وبتعبير آخر، انه لا يعطينا الحقيقة عن الاشياء وحولها، وانما هو فقط يقدم لنا صورة مجسمة كيف تبدو لنا تلك الاشياء.

٢- ان الحالم مسؤول عن كل ما يظهر له في حلمه، فاذا ما حلم عن شيء ما، مهما كان الشيء هذا فظيعا او سخيفا، فلا بد انه كان قد فكر من قبل به وقد ساورته فكرته وراودته خبرته.

٣- لدى الحالم عادة اكثر من مفهوم عن نفسه وعن غيره من الناس الاخرين وعن العالم من حوله، وعن اندفاعاته ونزواته، وان المفاهيم المتعددة هذه تتراءى له في احلامه فتبدو له مجسمة.

٤- ينصح هول، مقتفيا بذلك خطى يونج، بوجوب قراءة الاحلام على صورة سلسلة منتظمة بدلا من تأويلها منفردة مجزأة، فهو لهذا يقول لا ينبغي قط تفسير حلم ما دونها استشارة حقائق الاحلام الاخرى والاستهداء بها كسلسلة متصلة لبيان كيفية ارتباط افكار الشخص بعضها ببعض وسبيل اتساقها معا. وغالبا ما يبدو معنى حلم من الاحلام من الوضوح والجلاء التام، وان مثل هذه الاحلام البادية الوضوح كثيرا ما تسلط الضوء على ما في ذهن الحالم وعقله من نتاجات رمزية معقدة. فما في عقل الحالم من ارتباطات يجب دائماً ان تتيح استنتاجات نافعة. ان بحثي في مجال الاحلام قد رسخ لدي قناعة بقيمة ما ذهب اليه (هول) من تفسير واقعي وعملي

معتمدا المنهج العلمي والحس الباده، وهذا ما اظهرته نتائج ابحاثي في الامثلة التالية المستمدة من وثائق دراساتي الشخصية عن الاحلام ومن خبرات الذين اجريت عليهم تلك التجارب: ان الاحلام معنية بما يلي:

(أ) كيف ارى نفسي

هذه سيدة، وهي زوجة رجل اعمال، اعتادت على امضاء جل وقتها تولم بنجاح ولائم حافلة تستقبل فيها زملاء زوجها، فراحت اثناء ذلك ترى احلاما تعاودها باستمرار تتخللها احداث تفسد تلك المناسبات الاجتماعية. ففي احد تلك الاحلام، رأت الخادمة وهي تصب الشوربة فوق المائدة كلها فتشوه المنظر، وفي حلم آخر رأت نفسها تتحدث لغة اجنبية بلهجة عامية، علما ان تلفظها كان سليما لا تشوبه شائبة؛ وفي حلم ثالث اكتشفت في آخر لحظة ان وجبة الطعام التي اعدتها وكانت على وشك ان تقدمها على المائدة تتألف فقط من النقانق(١) والفاصولياء الجافة المطبوخة.

وحينما راحت تتأمل احلامها تلك وتفكر فيها، وفي ضوء آراء هول بشأن الاحلام، فان زوجة رجل الاعمال هذه ادركت لتوها كم هي في قرارة نفسها كانت في الواقع تحس بالقلق وعدم الامان ينساب في ثنايا ذاتها في الخفاء تحت ذلك المظهر الانيق البراق الذي كان يبدو عليها وتظهر به. فهي تتحدر من خلفية اجتماعية تنتسب الى أسرة لا ترتقي الى مستوى اسرة زوجها، وهي في حياتها العقلية الشعورية وان لم يساورها ارتياب بشأن قدرتها علي الاندماج في بيئة زوجها، فان جزء من وعيها كان باستمرار يخشى اذلالا مصدره اصل تحدر زوجها ومستواه الاجتماعي. وان مزيدا من التداعيات قد اظهرت انها- السيدة- كانت قد ضاقت ذرعا بحياتها جراء ما فرضه عليها وضع زوجها، ودون قصد منه، من اجهاد عضلي وتوتر نفسي.

روت امـرأة مختـصـة بالعلوم حلما يتسم بالوضوح فذكرت انها رأت نفسها جـالسـة لاداء امـتـحـان في الأدب الانكليـزي وانها تؤدي الامـتحان ذاك في اقليم تهدده مخاطر ثورة زنجـية. فما ان دخلت القاعة حتى وجدت نفسها في مـوقف بيئس اذ لم تكن قـد هيأت نفـسها لذلك الامتحان لهذا لم تتمكن من الاجـابة على سـؤال واحد. وقد حانت منها التفاتة خلال النافذة، فشاهدت في الخـارج هناك اهل المنطقـة متسلحين بالرماح والفؤوس، لذلك قررت ان تغـادر على عـجل فـاسـتـيقظت من نومها في غمرة هربها من مشهد الحرب تلك.

ولما لم يكن هناك في حـيـاتها امـتحان قائم او وشيك، فقد طلبت منها ان تـربط بهذا الحلم مـا يرد على ذهنهـا من ذكـريات. فـذكـرت ان الحلم من خـشـيـة الاخفاق في الادب الانكليزي كان امرا يساورها ويلازمها. وان هذا الامـر قـد ادهشـهـا ايما ادهاش ذلك لانها في العلن تزدري دنيا الادب الذي اهملتـه تماما واعـرضت عنه في اعـوامها الماضيات وكانت منصرفة بكل قواها الى المجـالات العلمـيـة. غير أن احـلامـها راحت تحكي قصة مختلفة تماما اذ جـعلت تلك الاحـلام تكشف عن قلق وعن مـشـاعر بالعجز حيثما احست وكلما شـعـرت بالعـجـز عن اجـتـيـاز اي امـتـحـان في بعض مواقف الحياة المحـددة. وفي هذه الحـالة فـقـد تم تذكيرها بصف تحضر فيه دروسا مسائية، يحاضر فـيـه محاضر، وان لم يكن اختصاصه الادب، بل هو مختص بالعلوم، الا انه كـان يكثـر من التـمـثل باشعار من شعر شكسبير وسواه من الشعراء الآخـرين. وكشف القسم الآخر من الحلم بوضوح عن اسباب قلقها البالغ، لا خـشية من الاخفاق في امتحانه والفشل فيه، بل لخوفها من ان يقل شأنها في نظره، امـا الثـورة الزنجـيـة في الحلم فـانها توضـيح عن اهتـيـاج النزوات الجنسـية عندها، وبايحاء مني، اعترفت على استحياء ان مشاعرها نحو ذلك المحـاضر قـد تجـاوزت كـثيرا حدود الاحساس بالصداقة. فالحلم قد اظهرها في مـواجـهـتـهـا للمـوقف الذي تمثلتـه حافلا بالخطر ومفعما بالتهديد، وكان

تصديها في حلمها للموقف بالهرب، وهربها هذا انما يعكس مشاعرها الجنسية. ولقد ايدت هذا الرأي واضافت اليه ان ما رأت فيه نفسها من احلام اخرى وفيها يطاردها رجال او حيوانات ربما تشير الى ما يستقر في اعماقها من مخاوف تتعلق بالجنس.

هذان فقط مثالان يوضحان ما يذهب اليه (هول) في توكيده على ان أي فرد يلتقط مائة حلم من احلامه ثم يتفحص دوره فيها سيتبين له في خاتمة المطاف ان بمقدوره ان يكتب مقالا بعنوان:

(ماذا ارى في نفسي)

(ب) كيف ارى الآخرين

روت احدي زميلاتي حلما رأت فيه رجلا جاريا في الشارع بسرعة وهو يرتدي مزردة(٢). وقد ارتطم بها فأوقعها ارضا، فاصابها برضوض بسيطة طفيفة. فمضى في جريه ذاك وكأن شيئاً ما لم يحدث. فاتقدت غضبا عليه لغلطته وفظاظته ولعدم اكتراثه بها لذلك فقد عزمت علي ان تتظاهر باصابتها بجروح ابلغ مما اصابها في الواقع، وذلك لتضطره الى دفع تعويض لها عليه ان يدفعه.

وقد افضت الي انها في واقع حياتها الواقعية ان زوجها قد اخبرها لتوه انه على علاقة حب بامرأة اخرى، وانه قد ازمع على ان يتزوجها. عند ذاك احست زميلتي بها جرح مشاعرها جرحا بليغا، ولا سيما مما بدر منه من عدم اهتمام بشأنها وبمصيرها. ولقد تمكنت على الفور من تشخيص ذلك الشخص الذي ظهر لها في الحلم بأنه زوجها، وقد اعربت عن دهشتها بعظيم ما فكرت فيه في الغالب معتبرة اياه (ذكرا مكبلا(٣)). وقد ارتعبت كذلك عندما علمت ادركت من حلمها ذاك انها كانت قد تجاوزت المدى في غضبها اكثر مما احست في الواقع بالاساءة، لما بدر منه من سلوك ازاءها، وانها قد إنتوت تماما ان تجعله يدفع الثمن كفاء سلوكه ازاءها وقد

اقـرت بعـد تلكؤ ان الحلم كـان صـحيحا في كشفه عن أن اخر شيء كانت تفكر به وتتـوقـعـه هو ان يفلت ذلك (الذكـر المقيد) من هيمنتها وان يسعى الى انعـتـاق وانطلاق. وقـد اعـتـزمت كـذلك ان ترقب سلوكـهـا المشـحون بالميـول الانتـقـامـية المدمرة، تلك الميول التي ادركت معها انها ميول لا تخدم غرضاً سوى زيادة الموقف سوءاً.

أتذكـر حلما يدعـو الى الضـحك رأيت فـيـه نفسي مع رجل صديق لي في سـيـارة مـتـجـهين صـوب حـاجز كمارك عند حدود تقع بين بلدين، وعندما اقـتربـنـا مـن المكان، اصر صـديقي على ان اوقف السـيـارة امـام حـانوت حلويات، وذهب هو الى الحـانوت لشراء شيء من الحلوى. عـاد وهو يحمل مـدفـعا مصنوعا من الشيكولاته، وحين سألته عما ينتوي ان يصنع به، اشار اليّ ان اتبـعـه وقد سار خلال حقل يخترقه سياج يمثل حدا فاصلا بين ذينك البلدين. فما كـان منه الا ان نصب المدفع امـام الحـاجـز واشعل فتيلا بعناية وهو يقـول تلك هي الطريقـة الوحـيـدة التي يتـمكن بها من اجـتـياز الحدود واختراق الحـاجـز وقـد اكدت له ان جوازاتنا سليمة وانه ليس معنا ما يدعونا الى الـقـلـق. لـكنه مكث غير مـقـتنع بما قلت، وعندمـا انطلق ذلك المدفع بشكل فـاتر، قـذف به فـرمـاه باتجـاه السـيـاج، وقد تمكن بعد لأي من أن يسـتـقـر على قـمـتـه، وهو في حالة مزرية، ثم هوى على الجانب الآخر من السياج.

وقـد تأدت التـداعـيـات الى ذكـريات الطفولة (او الخيالات والاوهام) يوم شـاهدت مـهـرجا (شخص مضحك) ينطلق من فوهة مدفع، وهذا ما يشير الى هـذه الـلحظة بالذات من هذا الوقت، اذ رأيت صـديقي وهو هنا يرمـز الى المـهـرج ذلـك الـذي اصر عـلى ان يضطلع باصـعـب دور في حين كـان بوسـعـه ان يقـوم باداء أدوار أيسر وأسـهل كثيرا مما كان قد قام به. ان صورة الحلم وهي تعكسه لي منقذفا من فوهة المدفع عبر السياج لا يمكن بحال ان تعبر عن عـميق احـاسيسي اوفى مما عبرت عنه على ذلك النحو الهزلي الملائم

حقا.

يوضح المثال الثاني هذا نقطة ساتولاها بالشرح مع شيء من الاسهاب في الفصل القادم، واعني بذلك ان الاحلام في الوقت الذي تكون فيه معنية بما يفكر به الحالم او بما يحسه ازاء اناس معنيين او نحو احداث متفاوتة، فأنها- الاحلام- يمكن احيانا، وبعد تأملها وتفحصها، ان تكشف عن بعض الحقائق الموضوعية التي كان الحالم نفسه او الشخص الذي يفكر فيه، يحاول تفاديها ويجتهد في اجتنابها خلال ساعات حياته الواعية. وفي هذا الحلم بالذات وجدت صديقي قد اخذته الدهشة مما فيه من احداث، وانه قد اقر بعد تردد باضماره مشاعر تتسم بمضايقات وملاحقات لا عقلانية، جعلته كثيرا ما ينغمر في ما كان يبدو للاخرين انها اساليب مضحكة وتكتيكات ملتوية في سبيل اخفاء نزواته تلك.

(جـ) كيف أرى العالم

روى لي احد الذين كنت اجري عليهم التجارب من الذكور أنه حلم وكأنه يجري فحصه تمهيدا لأجراء عملية له خاصة بأرتفاع ضغط الدم عنده. وكان جهاز قياس ضغط الدم الذي رآه في حلمه ذاك عبارة عن صليب من الخشب كبير وقد تم تشبيح جسمه على ذلك الجهاز وتثبيته من الرسغين، ذلك بامتداد ذراعيه على طول عارضة الخشب الافقية. وان الممرضة الواقفة على جهة احد الذراعين كانت زوجته، اما الواقف على الجانب الآخر فكان رئيسه في العمل، استيقظ من نومه ومن حلمه وهو يسمع صوتا يقول: (ينبغي ان نجري العملية له فورا والا فان الضغط سيفجر قلبه).

ففي الحياة الواقعية، لم يكن الحالم يتمتع بصحة موفورة فحسب، وانما كان كذلك قد اخضع نفسه لتوه الى فحص طبي شامل، وهو ما يحتمل ان يكون قد أوحى الى ذهنه بذلك النوع من الحلم. ولم تكن ثمة صعوبة تذكر تحول دون ان يتبين من حلمه ذاك وان يستشف من خلاله انه لم يكن على

شيء من الصحة العقلية كبير مثلما كان يتمتع به من صحة جسمية كشف له عنها الفحص الطبي الدقيق. انه وان كان يرى نفسه يحيا حياة طبيعية وانه بصحة تبدو له جيدة، الا ان الحلم اظهر له بوضوح لا غبار عليه انه (صحية) لتوترات يتعرض لها وهو دائب بين البيت والعمل، وان ما سمعه من الفاظ لدى استيقاظه انها كانت توحي اليه بضرورة إجراء تغييرات جذرية على اسلوب حياته قبل فوات الاوان.

وشخص آخر روى لي حلما انه وصديقة له كانا يسيرات متشابكي اليدين بنشوة، في واد هادىء، حين بدا لهما فجأة شق في الارض امامهما، راح الشق هذا يتسع اكثر فأكثر، وحاول ان يجتازه قفزا ساحبا صديقته معه. لكنها كانت مذعورة وقد قاومت محاولته تلك، وكانت النتيجة ان تخلى عن محاولة سحبها الى جانبه، وقد هوت في اعماق هوة بدت انها سحيقة. وبينما هو كان واقفا على الحافة الاخرى يرى وابلاً من الاحجار يتراكم فوقها وهي تتوارى تحت ذلك الركام، بدا له ذلك المنظر الطبيعي الخلّاب وكأنه يتغضن او يتكسر فاستولى عليه الخوف من انه هو ايضاً سينسحق تحت وطأة تلك الجلاميد المتدحرجة المتهاوية من الجبل باتجاهه.

ويربط الاحداث بالحلم، ذكر ذلك الشخص انه خلال العامين الماضيين كان على علاقة سعيدة بالنسبة اليه منطلقة من حدود القيود. يمارسها مع تلك الفتاة التي انبأته فيما بعد انها تحس في احشائها جنيناً يتحرك. انه من جهته اذن لها باجهاض الحمل، لكنها رفضت ذلك، معربة له عن رغبتها الملحة في الزواج الشرعي منه والابقاء على حياة الطفل. غير ان الشخص المعني هذا احس احساسا شديدا انه ليس بمستعد للزواج، وبما انه كان مغرما بالفتاة ومتعلقا بها، فقد استجاب الى مطلبها فوافق على الزواج منها، ان الحلم قد اوضح بجلاء كم كان هذا الشخص فاقدا الامل في كل ما يتعلق بالموقف: اذ رأى وكأن العالم يتهاوى تحت قدميه ومن حواليه، مترتبا على ذلك انه لم ينج هو والفتاة.

وبمتابعة الحلم خطوة ابعد، واذا ما قبلنا مقولة هول بأن الحالم هو المؤلف الوحيد لحلمه وانه المسؤول الفريد عن كل ما تقع فيه من احداث، فمن الجلي الواضح اذن ان صاحب الحلم هذا كان يرغب في قرارة نفسه في تحطيم الفتاة لعدم (مطاوعتها اياه) في قبول الاجهاض، ويتضح هذا من التسبب في جعلها تسقط في تلك الهاوية. ويرجح انه تحت وطأة الاحساس بعقاب الذات لاضماره مثل هذه الرغبة، لذلك فانه قد استجلب لنفسه الموت الذي تراءى له في ذلك الحلم، واني لا ادري ما اذا كان قد تزوج الفتاة ام لا، لكن الحلم قد اشار بوضوح الى انه سيكون على ضلال ان هو فعل ذلك.

(د) كيف ارى نزواتي

في الوقت الذي لا يكون فيه هناك ادنى شك في ان فرويد كان محقا فيما ذهب اليه من ان كثيراً من الاحلام انما هي تعبير عن دوافع جنسية وعدوانية، فان هول يذهب في نقاشه الى ان معظمنا لا حاجة بهم لان يلجأوا الى الاحلام لكي يكتشفوا ان لدينا مثل هذه الدوافع. وان ما هو بمقدورنا ان نتعلمه علي اية حال انما هي الطريقة التي نستبين بها نزواتنا في اي وقت من الاوقات والكيفية التي نأمل فيها ان نشبع دوافعنا او نرضيها.

شخص ممن اجري عليهم تجاربي في الاحلام، وهو شخص متزن هاديء الطبع معتدل المزاج، كان يرى احلاما متكررة يشهد فيها باستمرار اعمال تعذيب وحشية تجري امامه، وهو يحتج عليها ولكن دون جدوى. وقد وجد ذلك مزعجاً له فالتمس مساعدتي لكي يفهم احلامه تلك، فاقترحت عليه ان يتأمل في مضمون رأي هول الذي يقول فيه بأننا نحن انفسنا مؤلفو كل ما يحدث في عالم احلامنا، وكان ما أشد دهشته اذ ادرك انه هو نفسه كانت من بعض نواياه في الاقل يتمنى حقا ان يرى الآخرين يقاسون من الذل والاذى، فأحلامه قد كشفت عن ان هذه طريقته في التنفس عن هذا (الجانب المعتم) من طبيعته اذ كان يتوخى معالجة مواقف يقترف فيها اناس

اعمالا عدوانية هو في قرارة ذاته لا يقرها (ولا يحلم بارتكابها).

فتاة ممن كنت اجري عليها تجارب الاحلام، حلمت انها كانت تتزلج على الجليد هابطة من اعلى جبل الى سفحه. وقد فزعت فزعا شديدا اذ رأت نفسها تتطوح باتجاه حافة منحدر سحيق، وعندما احست انها على وشك ان يبتلعها الموت، في تلك اللحظة انحرفت الزحلوفتان(٤) جانباً فبلغت مأمنا وتخلصت من موت كان ينتظرها. ان ما يقترن بحلمها هذا من ارتباطات كشفت عن ان التزحلج على الثلج جعلها تستذكر استثارات لذيذة ومغامرات مقبولة لديها، وهذه كلها ذكرتها بلقاءاتها الغرامية مع عشيقها الجديد. وقد اخبرتني انها كادت ان تقع في شراك حبه، لكنه بدوره لم يظهر مبادلتها نفس المشاعر والاحاسيس. كان هناك، كما ذكرت، شيء من البرود يكتنف العلاقة بينهما، وان الحلم قد صور برود العلاقة هذه بابرازها على شكل عمل تمثل على مسرح الثلج. وان الحلم قد اوضح كذلك انها كانت تخشى ان تسمح لنفسها بالانطلاق الى اقصى الغايات تماما خوفا من ان تتعرض الى الألم والاذى. لهذا فهي قد كبحت مشاعرها من ان (تنطلق على سجيتها وكيفما تريد) وأبقت عليها حبيسة معها في مخدعها مما نجم عنه ان الاشباع الجنسي عندها كان أبعد ما يكون من تحقيق مبتغاه تماما.

(هـ) كيف ارى صراعاتي

خلص هول من خلال تحليله لآلاف الأحلام الى ان كل انسان يناضل باستمرار من اجل حل خمس صراعات اساسية، وهو يصف هذه ويصنفها بأنها صراعات تقع بين الحرية والأمان، وبين الحق والباطل، وبين الرجولة والانوثة، وبين الحياة والموت، واخيراً صراعات بين المحبة والكراهية وتتمثل في علاقة الطفل بأحد ابويه او كليهما. وهو يضيف ان الاحلام غالبا ما تتيح لنا معلومات قيمة تتصل بها نكابده من صراعات في اي وقت من أوقات حياتنا اليومية، وتنبئنا عن اتجاهاتنا ازاء هذه الصراعات.

واقترح ان أذكر هنا فقط مثلين اثنين من خبرتي الخاصة.

اعتدت ان ارى حلماً تتكرر علي احداثه اذ كنت اراني فيها يتعين علي ان اختار بين واحد من بيتين: بيت حديث مشيد كله تقريبا من الزجاج يقع وسط ريف مفتوح فوق رابية عالية، او ان اختار كوخاً صغيراً ملموما على شاطيء البحر تصطفق به امواج عاتية في جو عاصف. ان القرائن قد كشفت عندي عن صراع داخلي بين ان اختار وظيفة (عامة)، ويرمز لها هنا (بيت من زجاج)، وفيها يمكن ان اترقى في العالم الاكاديمي، وهنا ترمز له (الرابية العالية)، او ان اصطفي حياة مستقرة تنعم بدفء الألفة وهي الصق بالجذور الوجدانية الاصلية وبالوجود و (البحر) يرمز الى الوجود هنا ومن الواضح فان المنبه هنا يرتبط بحقيقة تهديد زوجي لي بأنه سيتخلى عني ويهجرني ما لم اتخل عن عملي واكرس حياتي كلها الى الاسرة لهذا فان الحلم قد اوضح بجلاء كيف كنت احس ازاء هذه المعضلة اذ كان بوسعي الاحتفاظ بحريتي واستقلالي (ويتمثلان في العمل) ولكن الثمن هنا هو الوحدة والعزلة، فيما يقابل ذلك اذا كنت اتوق الى الطمأنينة والراحة (ويمثلهما البيت) فان هذا يكون بمجازفتي على نحو ما في ان اكون مغرقة اغراقاً انفعالياً. اي تحاصرني انفعالاتي. ومن هنا يبدو ان الحلم كان حالة واضحة من حالات الصراع بين الحرية والأمان، وان محللي، على اية حال، قد اصر على ان الحلم كان يمثل صراعا بين الرجولة والأنوثة، وفيه يكون الاختيار بين العمل ويمثل رغبتي في امتلاك القضيب، وبين اختيار البيت فيه تقوم العلاقات الوجدانية وتمثلها الرغبة في ان اكون امرأة كاملة الأنوثة وبحق وحقيقة، (وسأعود للحديث عن هذا الحلم فيما بعد في نفس هذا الفصل).

في الوقت الذي فصمت فيه عرى زواجي الأخير، كانت تعاودني احلام شتى: منها اني تارة ارى فيها اسناني تتساقط، واراني تارة اخرى في بيت

صديقة ثرية وقد لففت جسدي ببطانية واحدة فقط، واحياناً اراني اجوب شوارع كئيبة تحتشد فيها اشباح شائخة(٥) وهنانة(٦). وكنت استيقظ في الصباحات وانا متبلدة الاحساس، مشتتة الذهن، موزعة النفس فيشق علي ان انهض نفسي من فراشي، وبالربط بين احداث هذه الاحلام فانه ليبدو جليا انني كنت أحس في قرارة نفسي بأنني قد قاربت الكبر في السن، واني لم اعد جذابة، وانني قد انتهيت، رغم كوني ما فتئت فتاة وانا بصحة ممتازة. وبمرور الوقت راحت تستجدّ عناصر جديدة في أحلامي وكأنها تحاول ان توقظني مما انا فيه من خمول. ففي احد الاحلام مثلا رأيتني اثناء سيري حافية القدمين في الظلام، وقفت على مقربة من سيارة وعرض علي سائقها ان ينقلني بسيارته الى المسرح. وعندما اومأت اليه بأنني حافية واني من الملابس اكاد اكون عارية، رد يقول لي أنني سأجد هذه كلها في السيارة، فتلكأت اول الأمر قبل ان اقبل العرض، ثم استيقظت بعد ذلك وانا احس بنشوة(٧) واشعر بتفاؤل. ورويدا رويدا تغيرت ادراكاتي ازاء ذاتي بعدما ادركت ان الحياة ابعد ما تكون عن مقاربة نهايتها وان ما كنت قد مررت به لم يكن هو آخر الدنيا وان احلامي التالية قد حددت بوضوح معالم وعيي المتنامي بشأن احتمالات وامكانيات جديدة آتية. واني لأفسر هذه الاحلام في حدود الصراع بين الحياة والموت، حتى وان كان موتا رمزيا. وغالباً ما ينعكس هذا النوع من الاحلام فيترأى لكبار السن ويبدو لهم في احلامهم، وهم في واقع الحال يواجهون مشكلة الاقتراب من الموت. فبالنسبة لحالتي فان الحل الواضح الصريح انما يكمن باتجاه الحياة، اما بالنسبة لكبار السن فالافضل هو التقبل التدريجي لما ليس منه بد.

يجب الا يغرب عن البال ان كتاب: معنى الاحلام The Meaning of Dreams كان قد تم تأليفه قبل اكتشاف انواع النوم في حالتي NREM و REM عام ١٩٥٣، لذلك فان هول عندما الف كتابه هذا، لم يكن أنذاك ملما تماما بمختلف انواع الاحلام التي يطلقها عقل النائم. ولهذا فان

عـمله كـان يقوم كله على مجرد اساس احلام تم تذكرها تلقائياً حدثت له في منـامـه، ويـرجـح، كما سبق ان رأينا، انها تتألف من الاحـلام المبـهـجـة والمثـيرة، وهـي تحـصل عـادة في دورة النوم في حـالة (REM). اذ لو كـان هـول يـومـذاك، عـلى دراية كـافـيـة بـجـولات الـنوم في حـالة (NREM) وبتـهـويات الاحـلام ورقتها في حالة النوم (REM) لـكان من المرجح الا يبـقى مصرا على الرأي بأن الاحـلام ان هي الا حـصيلة كد الذهن بالتفكير الجـيـد الشـاق، كما سبق ان بحثت في الفصل الخامس، فان الدليل الجديد يوحي بان دمـاغ النائم وبشكل عـشوائي غير منتظم، ينفتح على مادة كانت من قـبل فيه مختزنة من احداث النهار.

ان المنحى التـفـسيري عند هول، لم يتأثر من الناحـيـة الاخرى، بالدليل الجـديد هذا، بوصـفه الدليل الوحيد الاخاذ في تفسير الاحلام على اساس . وباعتبار الاحلام في هذه الحالة تنطوي على مادة جد نافعة تعين على التفسير والتأويل، وإنّي اشك، على اية حـال، فـيما اذا كـان العقل الحالم يستعرض اتجـاهـاتنا عن انفسنا، واتجـاهاتنا حـول اناس آخرين غيرنا، وعن كل مـا حـولنا، بطريقـة منتظمـة. ولهذا فـفي جميع محاولاتي الخـاصـة التي قمت بها مـسـتـخدمة طريقة هول في تفسير الاحلام وفي التطبيق، لم اجد طريقته هذه ذات جـدوى كـبيرة في انطبـاقـهـا بشكل متسق على جميع فئاته التي ذكرها. ولا أنا واجـدة من الضروري الضـغط باتجـاه ان الحلم لا ينبغي إعتباره دليلا على واقع مـوضـوعي. بل اني في الحـقـيـقة، لافضل في الوهلة الاولى معاملة الحلم على انه صـورة لحـدث مـوضـوعي افلت من ملاحظة الحالم اثناء حياته الواعـيـة. ولقد توصلت خلال مجريات عملي الى ان الاحلام يمكن ان تكون احـيـانا نافـعـة للغاية في اجتلابها الى حيز انتباهنا حقائق قد اغفلناها خلال اليـوم امـا لاننا مـا احـببنا مواجهتها والتصدي لها او لاننا شغلنا عنها آنذاك انـشـغـالا حـال دون مـلاحظتـهـا حـقـا والاهتمام بها. وسأتناول مـثل هذه الاحـلام في الفـصل القادم تحت عنوان (النظر الى الخارج). واني فقط عندما

اقتنع بان الحلم لا ينطوي بعد تمحيصه على اية حقيقة موضوعية، فسالتفت حينذاك الى طريقة هول للاستهداء بها، وان كنت اشعر ان ما اتبعه من منهج مباشر انما هو منهج مثالي في ارتياد عالم الحقيقة الذاتية.

ايا كان الامر، فن طريقة هول كانت طريقة واحدة فقط في فهم الاحلام- وتلك هي ترابط الافكار- واني في الوقت الذي اتفق فيه على ان طريقته هذه اساسية في معظم الحالات، فانه يجدر التنويه بان ثمة طرائق واساليب اخرى تتيح معلومات اضافية قيمة. واحدى هذه الطرائق هي منهجية يونج (في الحوار الداخلي) interior dialogue لفهم الاحلام، وهي منهجية لم يستخدمها هول قط. وهذه الطريقة هي لباب المنحى الجشتالتي الذي طوره فريدريك بيرلز، وهو منحى اجده نافعاً بوجه خاص عندما يكون الحلم عصيا على التفسير والافضاء بمعناه باتباع طريقة التداعي الحر Free associationفي تأويله، او عندما يتطلب الامر تفسيرا متعمقا.

طريقة بيرلز ومنحاه في تفسير الاحلام

فريدريك بيرلز (ويعرف باسم فرتز) توفي في آذار عام ١٩٧٠. وهو نمساوي المولد، وتدرب في فيينا ليكون محللا نفسانيا على الطريقة الفرويدية، ثم جاء في الاربعينات ليعيش في امريكا، وانه سرعان ما توصل الى قناعة بان العلاج النفسي التحليلي المهني قد سار باتجاه مغلوط عندما ركز اهتمامه بصورة اساسية ورئيسية على المرضى العصابيين الذين كانوا على استعداد لتلقي علاج وتحليل مكثف يمتد عبر سنوات طوال لكي يكيفوا انفسهم الى معايير مجتمع هو ابعد ما يكون عن الصحة وانه قد شعر ان العلاج الفردي قد تضمن مواقف ليست بواقعية وان النشاط الذاتي، شأنه شأن النشاطات الاخرى في الحياة، ينبغي ان يتم توجيهه ضمن اطار جماعات. لهذا فهو قد شرع بتصميم طرائق مكثفة وقصيرة الامد للعلاج في جماعات محددة وتكون الطرائق هذه خاصة بالناس (الاسوياء) normal الراغبين في حيوات مفعمة بالصحة التامة. فهو كتب يقول: (انها دائماً اجساد حافزة لي وللجماعة على حد سواء ان ارى ما كانت سابقا مجرد اجساد آلية متحركة قد عادت اليها الحياة لتدب فيها من جديد).

ان طرائق بيرلز، وتعرف الآن باسم العلاج وفق المنهج الجشتالتي (والجشتالت كلمة المانية ومعناها الكل: اي بمعنى نسق او نمط متكامل)، قد اصبحت طرائقه جزءا من حركة في العلاج مألوفة وشائعة رئيسية في امريكا ويطلق عليها اسم: حركة الطاقة الانسانية الكامنة The Human Potential Movement، وتتضمن جماعات متناظرة، ومشاغل تنشيط للحواس، وسوى ذلك، وتوجيه كل ذلك باتجاه النمو الشخصي وتنمية الذات. وفي الاعوام القلائل الاخيرة من حياته، كرس بيرلز جهوده الى اقامة مشاغل علاجية على منهجية جشتالتية، اقامها في معهد (ايزالبين) في

كـاليـفورنيا. (ومن اجل تفصيلات اوفى عن كل ذلك انظر قائمة المراجع في نهاية هذا الكتـاب)* . وفي اخـريات ايام حياته، وانتهى الى قناعة مؤداها انه حتى العلاج الجماعي قد اصبح من الطرائق البالية، وفي عام ١٩٧٠، قبيل وفـاته بفترة وجيـزة، افتتح مجمعا في كولومبيا البريطانية في امريكا حيث يتاح لـلـسـاكـنـين المـقـيـمين في ذلك المجـمع الانطلاق والصراحـة والامـانة وهـم يمارسـون انشطة عـلاقـاتهم اليومية، فهم بتعاطون ذلك طبقا لمنطوق صلات جشتالتية:

علي ان اتدبر حـيـاتي وشؤوني وعليك انت شؤونك. انا ما جئت الى هذه الدنيـا لأحـيـا حسب توقعات شؤونك. فلا عليك انت في هذا العالم ان تحيا وفق أمـالي. فـانت لك ذاتك وانا لي شأني ومألي، لئن اتفق ان نلتقي كلانا، فتلك نعمة براقة. والا فان التجربة قاسية خناقة.

يقـال ان كل فلسـفـة تستحق الاهتمام يجب ان تنطوي على تطبيق عملي، ولهذا فـان العـلاج النفسي طبقا لطريقة الجشتالت قد اصبح اليوم يعرف بانه المصاحب الفعال للوجودية(٨) existentialism الـتـي تهـتـم بـمـسألة (الوجـود- هنا- والأن). فـبيرلز لم يكن لديه من الوقت ليـعود الى ما هنالك من ارتباطات كانت تقترن ببعض صدمات الولادة traumas الطفليـة المبـهـمـة، لكنه ركز اهتمامه، شأنه في هذا شأن يونج، على استكشاف الكنز الدفين الكائن في اعماق الشـخـصـيـة، فـهـو يتيقن ان ما يبديه ألمريض من تداعـيـات حـرة بشأن فكرة او حلم قـد افضت بالمعالج النفساني لان يدور دورة ممتـعـة حـول المشكلة دون الوصـول اليـهـا او بلوغ لبها. فهو قد اطلق على هذه العـمليـة اسم (الانفـصـال الحر)، واراد بهذا التعبير هروب الافكار التي يسـتـعـملهـا المريض ليتحاشى مواجهة عصابه بوصفه مشكلة له. ولهذا فأنه- بيرلز- ركـز انتبـاهه على السلوك الحـقـيـقي كما هو مـوجود في الموقف الذي تكون فـيـه الجماعـة- من ذلك مثلا تعابير الوجه، نبرة الصوت، وضع الجسم، الحـركـة او الاشارة، رد الفعل ازاء الآخرين، وهلم جرا وكل ذلك

يتم من اجل استكشاف (الفجوات) الكائنة في الشخصية الحاضرة للفرد. وان بيرلز ليذكر بان الفجوات هذه او الثنايا انما كانت قد تسببت بفعل رفض اجزاء محددة ومعينة من الشخصية لكي يتم تحاشي وتفادي الألم. ولذا فان مهمة المعالج النفساني يجب ان تتركز على ما يتفاداه الشخص في وجوده الحالي وواقعه الحاضر، وعلى المعالج ان يأخذ بيده وان يساعده على التخلص من المواقف المؤلمة، وان يمكنه من تكامل الاجزاء المستبعدة من الشخصية واستكمالها في كل متكامل في مجرى حياته.

رفض بيرلز اية فكرة تتعلق بالعقل اللاواعي، مفضلا على ذلك التفكير في ان الشخصية تشبه كرة مطاطية تطفو على سطح الماء وتتدحرج عليه ولا يبان منها في الوقت الواحد الا جزء يسير. وان المعالج النفساني الجشتالتي يتعامل فقط مع ذلك الجزء المنظور منها ضمن سياق تلك اللحظات التي يظهر فيها ذلك الجزء. لذلك فهو لا بد من ان يحاول تتبع اي عرض من الاعراض المرضية في الماضي من ايام صدمة الطفولة، فانه دائماً يسأل الشخص: (ماذا تشعر الآن وفي هذه اللحظات) ففي احدى المرات مثلاً كنت احضر جلسة علاج جماعية وفق الطريقة الجشتالتية، وكان يبدو واضحاً ان احد اعضاء الجماعة كان يستعمل فأفأته وتمتمته ليعبر بذلك عن خصومته للاخرين دونما وجل او خوف من الانتقام او المقابلة بالمثل، ذلك لانه: من يجرؤ، بعده على ان يكون قاسيا ليهاجم رجلا يعاني مثل هذه العاهة؟ وكان هناك رجل اخر كان يستخدم تهوره وطيشه كوسيلة لتحاشي مسألة علاقاته الجنسية، وثمة امرأة مريضة ضمن المجموعة ايضاً كانت قد تعلمت ان الصداع كان وسيلة تعفيها من الاعمال الرتيبة ومن تبعات اقامة الولائم ومن مصاحبة زوجها في المناسبات الاجتماعية.

نظر بيرلز الى الحلم بوصفه مكسباً مضافا اتيح في صيغته رسالة موجودة قائمة وكائنة تنبئنا بدقة عن موقعنا بالنسبة الى انفسنا وبالنسبة الى العالم من حولنا في الوقت الراهن الذي نكون فيه. واذ وصف فرويد الحلم بانه

(الطريق المعبد الى اللاشعور)، نجد بيرلز ينعته بانه (الطريق المعبد الى التكامل)، ذلك لانه رأى فيه امكانية استعادة الاجزاء المفقودة من الشخصية واعادة انتظامها في كل متكامل.

ان طريقة تعامله (بيرلز) مع الاحلام هي اعتباره كل صورة (عقلية)Image في الحلم، سواء كانت هذه الصورة ترمز الي انسان او حيوان او نبات او معدن، اعتباره اياها جزء مهماً من النفس كان مستبعداً عنها فاسقطناه على الصورة العقلية هذه. وفي هذ ألحاله يطلب من الحالم ان يمثل دور كل صورة طرأت له وبشكل متسلسل وان يعيش مرة ثانية احداث الحلم وخبراته من زاوية كل مخلوق تمثله الصورة ومن وجهة نظره. وان مواجهات تستحدث بين هذه الصور وعندما تصطدم وتعترك، فان الحالم يدرك انه قد حقق شيئاً مهماً. وحيثما احس الحالم ان فكره خاليا او انه نعسان، فانه يدرك انه يحاول تحاشي شيء ما. ولهذا السبب، فانه لمن المستحسن ان يناقش الفرد الحلم بضمن مجموعة او مع شخص اخر باستطاعته تفسير هذه الاشياء وتأويلها. والهدف هو ان تعمل على تجميع الاجزاء المتناثرة من الشخصية في كل منسق بعضها مع بعض بحيث تؤول الى اكتمال نهائي وليست الى اعاقته او تأخيره. فافضل طريقة لاستخدام الحلم والانتفاع به، كما يذكر بيرلز، هي ليست بتقطيعه الى قطع مفككة ومن ثم تفسيره بعدئذ، وانما افضل سبيل في ذلك هو وضعه في محك الحياة ومن ثم يجب ان يحيا المرء احداثه مجددا.

كخطوة اولى، كان بيرلز يطلب من الحالم ان يعيد سرد حلمه بصيغة المضارع لكي يجعله يعيش احداث حاضره الحالية ومن ثم عليه ان يعيش مجدداً الاحاسيس الحقيقية التي شعر بها اثناء الحلم. وعندما كان مثل هذا الاجراء يتم ضمن جماعة، كان بيرلز يراقب عن كثب تعابير الوجه، وما يجد هناك من حركات واشارات وغير ذلك مما يبديه الفرد وهو يقص احداث حلمه، على اساس ان ما يظهر على الشخص من اشارات وأمارات

وحـركـات، هذه كلهـا تتـيح عـلامـات محددة يستهدي بها الى ما هناك من مناطق صراع قـابعـة في ثنايا الحلم. فـاحـد المعـالجين الجـشـتالتيين، مثلا، اخبرني عن احـد اعـضـاء مجمـوعـتـه التي كان يتولى علاجها وقد قص عليه الشـخص هذا حلماً مطولا ينطوي على تفصيلات شتى، وكان حلمه قد بدأ بدخـول الحـالم بناية مكتبـه مـبـتدئاً باتخاذه المصعد. وعند نقطة البداية التي ابتـدأ الحـالم فـيـهـا يقص حلمـه، لاحظ المعـالج ان الحـالم ما ان ذكر لفظة (المصـعـد) حـتى دارت عـيناه دورة خاطفة نحو اليسار ثم عادتا الى وضعهما الطبـيعي من جديد، مما حمل المعالج على ان يسأله عما اذا كان فاته شيء اراد ان يذكـره قـبـيل اتخاذه المصـعـد. حاول الرجل ان يستبعد السؤال ويتناساه وذلك بقـوله انه فـقط لمح باب حـجـرة صغيرة بجانب المصعد، وانها ليست بذات اهميـة طالما هي كـانت مليئة بنفـايات مـتـعـفنة. فما كان من المعالج، بطبيعة الحال، الا ان اهتبل الفرصة فالتقط الفكرة فطلب من هذا الشخص ان يـمـثل دور النفـايات وهي ملقـاة في الحـجـرة، الامـر الذي أعـقب هذا بدوات وافـشـاءات تنم عن أجـزاء كـانت خـافية في حياة الحالم، كان يحاول اغـفالها والاعراض عنها ذلك لانه اعتبرها (بالية).

فـفي الوقت الذي لاحظ فيه فرويد ان تلك الاقسام او الأجزاء المنسية او المهـملة من الحلم لدى رواية الحلم لاول وهلة هي ذات اهميـة بالغة، الا ان طريقـتـه في اجلاس المريض على اريكة وجلوس المحلل خلفه يقلل في الواقع كـثيراً مـن عـدد الـدلائل والقـرائن المتـاحـة والتي يمكن ان تؤدي الى فـهـم للحلم افـضل. امـا طريقـة يونج في العـلاج، والتي يتم بمـقـتضاها جلوس المعـالج والمريض وجـهـا لوجـه، فـانها تمكن المعـالج من مـلاحظة اية تعابير وجـهـيـة او حـركـات جسمية تتيح شواهد ومفاتيح يستدل بها على ما لدى المريض من صراعـات دفينة، ولهذا فان الطريقة الجشتالتية تسمح للمجموعة ككل من ملاحظة بعضها بعضا وان تفعل الشيء ذاته.

كـثير من المعـالجين ألجـشـتـالتـيين يرون انه من المفيد وضع كرسي يكون

مـواجـهـا لما يسمونه (المقعد الساخن)، إذ يحتله او يجلس عليه عضو الجماعة عندمـا يقـوم هذا بتمثيل الادوار في ما رآه من حلم، بحيث يستطيع، عندما تلتـقي صـورتان من صـور الحلم في حـالة حوار، يستطيع الحالم الانتقال من احـد الكرسيين الى الآخر وهو يقوم بتمثيل اجزائهما المختلفين. والغرض من هـذا هو التـخلص من اي وضع جـسـمي او توتر يحصل من جـراء القـيـام بتـمـثيل دور واحد فقط دون الآخر، وبهذا فانه بانتقاله بين الكرسيين يكون في كل مرة قد بدأ بداية جديدة تخلصه من توتره.

وكـمـثل على الكيـفية التي يؤدي بها المنحى الجشتالتي غرضه، فاني اعتزم هنا ان اتوفـر على ذكـر حلمي المتكرر والذي كـان يعاودني وارى لي فيه بيتين سبق لي وصـفـهما في فـقرات قلائل سابقة. اذ تبين لي من خبرتي ان المنحى الذي يكون كله جشتالتيا ذاتياsubjective، وذلـك عندمـا ينظر الى جميع عناصر الحلم بوصـفـهـا جـوانب تبرز شخصية الحالم، يكون هذا المنحى قيما بشـكل خـاص لدى تطبيـقـه على الاحـلام المعـاودة المتكررة، نظرا الى انها يحتـمل ان تكون احـلامـا تعكس صراعـات مـستمرة تثيرها من وقت لآخر مـواقف خـارجـيـة مـرتبطة بتلك الصراعـات. واني ايضـا وجـدت الطريقـة الجشـتـالتية ذات جدوى عندما يكون المنحى المباشر للتداعي الحر قد اخفق في اتاحـة اي شيء يذكر او ذي بال او عندما يدع الحالم يشعر ان هناك شيئاً ما مهماً لم يتوضح كما ينبغي.

فـفي حـالة حلمي عن (البيتين)، باستطاعتي ان ارى بوضوح، وانا انظر اليـه كـصـورة، انـنـي كنت بعض الشيء مـوزعـة بين الحـرية والطمأنينة او الامـان. ان انا اخترت عـملاً في العالم الاكاديمي (ويمثله في الحلم بيت من زجـاج عـلى هـامـه رابيـة)، فـانني كنت في اعماقي اخـشى الوحـدة والعـزلة والوحـشـة والضـيـاع والتعرض لنوائب الزمان، ومع هذا كنت بنفس القدر، اخـشى، ان انا اخترت الحـيـاة المنزليـة الدافئة في سفح التل، ان اتعرض الى ارتبـاك المشـاعـر والغـرق في لجتها (وقد تم الرمز لها في الحلم بالبحر). ولقد

كـان في هذا، كما حـدث فـعـلا، تبصير لي مفيد، اذ اوحى (الحلم) الي بان خـير نـصـيـحـة قـد قـدمت الي انسـاق مـضطرة الى اي طرف من الطرفين المتطرفين، اللذين جـدا في تلك الفترة من حياتي، والا ادع زوجي يضطرني قسرا الى الـتـخلي تماما عما انتـويه من عـمل. ومـهما يكن من امـر، فـقـد احسست احساسا قويا بان تلك لم تكن القصة كلها كاملة، اذ كنت متحيرة خـاصـة بشأن الانفعالات المزعومة وكيف كان يمكنها ان تغرقني في خضمها لو انني اصطفـيت الحـيـاة البـيـتـيـة وحدها. وكان محللي الذي ينتهج المنهج الفـرويدي في التـحليل، قـد تناول المسألة وكأنها مـسلم بها اذ اصر على ان هذه الانفـعـالات انها تعكس انفعالات الانوثة الرقيقة، ومشاعر الحب، التي كـنـت، كما يظن المحلل، ارفض الاعتراف بها بدافع من رغـبـة عـصـابـيـة، وذلك لكي انافس الرجـال، ولكنني، كما يرى، لم اتمكن من تكيـيف نفسي الى الاعـتـقـاد بانني في الواقع كنت اكـتـب في اعماقي حنينا دفـينا الى الانغمار انـغماراً كـامـلا في الحـيـاة المنزليـة. ولهذا فـقـد عـمـدت الى تطبـيق التكنيك الجـشـتـالتي، اذ شرعت بسرد الحلم بصيغة المضارع او الحاضر، وعلى النحو التالي:

يجب علي ان اخـتـار واحداً من بيتين: احدهما مبني كله من زجاج، يقع على قـمـة تلة، والاخـر يقع على شاطيء البحر مشيد كله من الآجر ونوافذه صـغيرة جـداً. واني أشـعـر بمـيل لاخـتيار الأول لانه مضاء وصحي الهواء، ويحـيـطه منظر خـلاّب يطل منه على الوادي والبـحـر. وانه لرائع كـمـنـتـجـع صـيـفي لعـدم وجـود بيـوت اخرى تخنق الرؤية من حواليه، لكنه يمكن ان يـكون بارداً شـتـاء، ومكشـوفـا، ولعله يكون مـوحـشـا مخـيـفـا خـلال ذلك الفـصل، وقـد لا يكون ثابتـا مكينا في يوم عـاصف تشـتـد فـيه الريح. اما البـيت الآخـر فانه اقرب الي ساحل البحر وامتع للراحة، ولكني لا استطيع مـقـاومـة احـسـاس عندي انه وان يكن قـويـاً كما يبدو، الا ان أمواج البحر العاتي يمكن ان تقتلعه بكل سهولة.

ان مجرد اعادة حكاية الحلم على هذه الشاكلة فانه للتو او للوهلة الاولى يجعل شيئاً ما جليا وهو انني لم اكن قد فهمته من قبل، ذلك هو البحر العاتي او (الغاضب) الذي يقوم بتدمير البيت الواقع على الشاطيء، وبعبارة اخرى، اقصد تلك الانفعالات المكبوتة التي اخشاها في الموقف الذي اكون فيه في حالة اختيار الحياة المنزلية، هي تقريبا مزيج من انفعالات الغضب والمحبة وللغوص في الاعماق ابعد، فانني افسح المجال للبيت على شاطيء البحر، ومن ثم للبحر نفسه ان يتكلما. فالبيت يقول:

انا البيت الواقع هنا على شاطيء البحر. انا سحيق في القدم وفي بنيتي القوة. جدراني سميكة، مصمدة، بيد اني وان وقفت بوجه عوادي البحر وقاومت هجماته الضارية حتى هذه اللحظات، الا ان الرطوبة والتآكل قد دبتا في قواعدي وفي اساسي، وإنّي الان لفي خطر مريع واني لعلى شفا جرف هار وآيل للانهيار في اية لحظة. وسافعل ما في طوقي للذود عن اولئك الذين احميهم تحت سقفي. نعم ثمة اسرة في داخلي- وهي اسرة من نوع الاسر الممتدة، هناك منهم كثير. وحين تصطفق الامواج على جنبات الجدران، فانهم- افراد الاسرة- يسدلون السجوف(٩)، ويروحون يحتسون الشاي، ويغنون الاغاني وهم حول النار متحلقون. وهم بهذه الطريقة يطمسون الضوضاء المنبعثة من امواج البحر فينسون ما هم فيه من مخاوف الخطر.

واما البحر فيقول:

اني انا البحر، حينما اكون وادعاً هادئاً، فاني اتهادى متمهلا على الشاطيء جيئة وذهوبا، وني لا اهدد بالخطر هذا البيت الصغير ابدا. ولكن حين تثور عاصفة هوجاء فتساط امواجي بسياط زعزع نكباء، وتدفع بي الرياح الى الهياج، اتمنى لو لم يكن المنزل مبنيا هناك، اذ ليس بوسعي ان ادرأ عنه اذى الاثباج. ما كان ينبغي للبيت قط ان يشاد على شاطيء هنا، فالسيف(١٠) لي وحدي، وانا احوج الى الخطى الفساح. اني لانية اضمر

لتدمير البيت او اهلاك الذين فيه يسكنون، لكنهم تجاوزوا المدى وعلى حدودي هم معتدون، وانا ما زدت على ان رددت عليهم الصدى، اني توقيرا لهم الى حدود انسحب. غير ان هذا ليس بمجد ولا يجب، فانا اهوى ان ارقص وان اتمطى وان اجلو عنفوان حركاتي. اني لاهوى الضجيج احيانا. فما من شيمة البحر ان يخلد الى السكون دائما. وليس الركود الدائم من نحيزته، وعندما يعتورني الاهتياج فاني اولا انشد الفساحة في الفجاج.

ها هو تبصر جديد مهم قد بزغ، انه لا يتمثل في نفس عصابية تريد ان تدرأ عن ذاتها وتنشد امتهان عمل تهواه وتخشى ان تتغشاها الانفعالات، ان خوفي من ان اكون محاصرة بانفعالاتي التي بعد تعبيرها عن ذاتها شيئا مهما بالنسبة لي ولوجودي، ستتجلى فيمابعد انها انفعالات تبلغ من القوة ازاء اي انسان (وانا بهذا مشمولة) يحاول ان يحصرها وضغطها في حيز منزل محدد مضغوط. فهناك، كما قال باريس Paris ، (رسالة وجود) مباشرة مؤداها اني لا ارى في حياة المنزل دنيا تسمح للانفعالات بالتعبير الحقيقي عن نفسها. فالناس الساكنون في البيت الواقع على شاطيء البحر يرغبون في الاحساس بمشاعر الدفء الرقيقة تتسرب الى نفوسهم من خلال اصغائهم الى الامواج وهي علي مقربة منهم تصطفق، لكنهم في واقع الحال لا يحبون ان يكونوا معها على تماس. فهم قد اقاموا الجدر(١١) لتحول دون اقتراب تلك الامواج وأنهم ليفزعون لو انها اشتدت وزمجرت، وبالنسبة الى نمط تفكيري، فان طريقة الحياة البيتية كلها، في الحقيقة، انها تمثل ذريعة يمكن الابقاء عليها فقط في حالة المحاولة للسيطرة على البحر ليتخلى عن طبيعته العاتية ويخلد الى الهدوء. وهذا قد اراني ان كثيراً مما كنت اتوق اليه ويتعلق (بالانفعالات الخاصة بالحياة المنزلية الدافئة)، التي يقيمها زوجي غالباً (ومن قبله والداي كلاهما) انما هو توقان زائف، ذلك لان ألملاحظات العابرة تكشف لنا بجلاء عن ان ما تتمتع به (الاسر السعيدة) من نشوة

ومـرح تمر في سماء حـيـاتها سرعـان مـا تتلبـد بسحائب الغيوم فتنسحق فيها مـظـاهـر الـنشـوة الكاذبة (وتمثلهـا في الحلم الرقص بالقـرب من النار). ان الملاحظات العـابرة المتناثرة في هذا السـيـاق، لا تنسـفـهـا فـقط انفـجارات الاحـاسـيس الغـاضبة، والتي يفسرها اوتوماتيكياً هنا المحيط العائلي الحميم، وكأنها احـاسـيس مـدمـرة شـيطانيـة شريرة، وانما يشـار اليها كذلك في هذا المضمار بما يعبر عن الفـرح الغـامر او بمشاعر الميل والاحساس الجنسي، بل حتى ليعبر عنها احياناً بمظاهر الأسى.

ولقـد تجلى ذلك بوضـوح اكـثر عندما اقمت حواراً بين البحر وبين الاسرة السـاكنة في البـيت القـائم على الشاطيء. وعندما قمت بتمثيل دور الاسرة، فـان صـوتي قـد تغير، ورحت اتكلم بنبرة اخـلاقـيـة واثقة هي بقايا اصوات والدي كليـهما وصـوت زوجي، فـجعلت اعنف البحر على صخبه وهيجانه. اذ ان مـا أحـبـوا ان يروه هو بحر تنساب امواجه على شاطئه بلطف وهدوء، ويـتم ذلك ارتفـاعـاً وهبـوطاً مع تيـار المد والجـزر ولكن دون ادنى مـسـاس بكيـان منزلهم، ومن الواضح فـان ثمـة جـزءا مني ظاهر دون شك، مأخوذا في اسـاسـه ويسـتـمـد اصوله من والدي كليـهما، وهذا الجزء مني هو الذي يخشى عنفـوان الانفـعـالات القـوية، ولكن، وبنفس المسـتـوى، فان البحر نفسـه هو جـزء مني وهو ذلك الجـزء من الحوار الذي اعترض على القول او الـظـن بان المسألة انما هي مجرد الحـاجـة الى الرقص والايقـاع والدحـرجـة، وانتـشار الرذاذ مع هبوب الريح، وهذا ما عناه البحر حين قال:

اني لست بمـدمـر، ان كل مـا اتطلبه هو مجال فيه اتمطى وفسحة ومدى. انت تفسر حـركـاتي بانها مدمرة ذلك لاني اندفع فادنو من بيتك، لكنك لو انك ابتنيت بيـتك فـوق الشـاطيء، لشـهدت تماما نفس الحركات تبدو لك راقـصـة، ولقد قاسيت المآسي وانا احاول زم نفسي وكبح لجام ذاتي كيلا ادمر بيتك، لكن هذا مما يقضي علي، واني لا اطيق ان ادأب عليه الى الابد.

كـتب بيرلز يقـول، (الانفـعـالات ليـست شـيئاً بغـيـضـا ينبغي اطراحها

والتخلص منها. ان الانفعالات هي المحركات المهمة لسلوكنا: الانفعال باوسع معانيه- مهما كان احساسك- سواء في حالة الانتظار والترقب، او الفرح والسرور، ام في حالة الجوع. . الاستثارة الانفعالية في هذه الحالات كلها تعبيء وتهيء الطاقة العضلية. . . فانك لا يمكن ان تتصور حقيقة الغضب بدون الحركة العضلية. وليس بوسعك ان تتصور السرور، الذي يماثل الرقص قليلا او كثيرا ويضارعه، من غير ان يكون مصحوبا بحركة عضلية. وفي الحزن يوجد هناك نشيج وبكاء. وفي حالة الجنس توجد ثمة حركات معينة كذلك، وكل هذا معروف لديك. وان هذه العضلات تستخدم للحركة، انها تتلقى من هذا العالم، وانها لتلامس هذا العالم، لتكون في تماس معه، انها على اتصال دائم به). واذا ما حرمت الانفعالات هذه من التعبير الطبيعي المناسب عن نفسها، فانها، كما يقول بيرلز، تؤدي الى حالة من القلق يجعل الشخص فاقدا للحساسية، اذ ان وعيه وادراكه الاحساسي الخاص بالبصر والسمع والتذوق، والشم، واللمس، هذه كلها تتبلد، فيصبح جامدا، ولهذا فان غرض العلاج الجشتالتي انما هو العمل على اعادة جسد آلي كهذا الى الحياة من جديد.

فالمعالج الجشتالتي لا يجابه صعوبة تذكر للتعرف في داخلي على اصوات كل من والدي كليهما ولا اصوات زوجي، اصوات كلها تتحدث بنبرات الشجب والادانة ونغمات الوقائع الاخلاقية، انه لا يجابه صعوبة متي عبرت انفعالاتي عن نفسها بقوة، بوصفها المتنفذة top dogالمعبرة عن مكنون شخصيتي، والمتنفذ دائماً يتمتع بالصدق ويكون سلطويا، ومعرفته بالدواخل افضل. . والفاظه الاثيرة التي يرددها عادة هي:

(يلزمك ان تفعل كذا. . .)

(ينبغي عليك ان تنفذ كذا. . .)

(يجب عليك الا. . . .) وهلم جرا.

انه يعمل في مجال تهدده كوارث- وفي حالة ما تعرضت له في صراع

نشب من الاختيار بين البيتين، لعل الموقف كان يتمثل وكأنه يقول لي:
[ان انت عبرت عن احاسيسك وانفعالاتك، فلن يكون ثمة من يحبك او يقترب منك او من بجانبك]
بل لعله كان ينوي ان يقول:
[انك ستدمرين نفسك وتدمرين اولئك الذين تحبينهم]
ان هذه الاصوات التي اصبحت جزءاً من كياني، جعلت دائماً تلح علي وكأنها تحدثني بقولها:
[اهدئي، سيطري على نفسك، لا تثيري المتاعب، دعي الاحداث تهدأ، حافظي على الهدوء]
فكأن الاصوات تلك كانت تنتقدني بقولها:
[انت مدمرة، انت مثيرة للمتاعب، انت غول مخيف، يجب عليك ان تخجلي من نفسك]
ان الملتقى لهذا الانتقاد الداخلي انما هو ذلك الجزء من الشخصية المعروفة في المصطلحات الجشتالتية باسم (المنفذ) Under gog انه يعترض على المناكدة ويحتج على الالحاح وهو لا يبدو مقتنعا بكل ما يسمع به ذلك الجانب المتنفذ من الشخصية. انه في العادة يكون اعتذارياً، دفاعياً، مداهناً، مراوغاً، لكنه لا سلطان له، اذ يقول:
[نعم، نعم، اني اعرف انك محق. لذا ساحاول جاهداً ان انفذ ما تريد على نحو افضل. ولكن لا تثريب علي ولا لوم اذا انا اخفقت)
وبالنسبة الى حالتي، فانه كان يتعين علي ان احبس انفعالاتي التي كانت غالبا ما تنفجر فيما بعد بشيء من العنف اكثر مما لو اتيح لها في وقتها المناسب التنفيس عن نفسها بصورة اعتيادية وطبيعية، وهي بانفجارها الغاضب ذاك، تحمل كل فرد، بما في ذلك انا نفسي، على القناعة بانني حقاً كنت غولا مخوفاً.
يسمي بيرلز كلا من المتنفذ والمنفذ في الشخصية المهرجين الساخرين، اذ

هما يعملان باستمرار على ان يلعبا دور ايذاء الذات تحت مستوي الادراك الشعوري، اذ ان لدى كل منا جانباً متنفذاً واخر منفذاً يظهران في كل صراع محدد، لذلك فحينما تنطلق فينا شرارة صراع معين نتيجة لمشكلة ما او حدث يحصل في الحياة، فان هذين المهرجين كليهما ينجمان فيشرعان بعملية تعذيب الذات، وكل منهما يكافح من اجل السيطرة، انها معركة الى حد الموت، تتبدد فيها الطاقة التي كانت يجدر ان تستمر من اجل العيش للبناء والعطاء.

ففي حالة تمثيل حلمي، فان المنفذ في داخلي ممثلاً بالبحر قد ابتدأ في الكشف عن نفسه والتحدث عن ذاته، ولو اتفق ان كنت اعمل ضمن جماعة، لطلب زعيم المجموعة مني ان اقف امام كل واحد منهم بالتناوب وان اتحدث بقدر المستطاع حديثاً مقنعاً اقول فيه:

[اني لست مدمرة، ان لي الحق في ان اعبر عن ذاتي]

كان علي ان اكرر ذلك حتي تقتنع الجماعة بانني حقا عنيت ما ذكرت، وبخلاف ذلك كان يمكن ان يطلب من افراد الجماعة ان يضربوا نطاقا من حولي، وان يتقدموا ببطء باتجاهي ليحاصروني، وفي هذه الحالة اكون مضطرة الى ان اصرخ قائلة:

[لا تضيقوا علي، لا تحطموني]

وعند ذاك احاول شق طريقي لانقاذ نفسي، والهدف هو للاقلال من سطوة المتنفذ وفسح المجال للمنفذ ليعبر عن حاجاته علانية، وهي في حالتي انا كانت تعني بألا اسمح لنفسي بالاستخذاء لتقبل نمط من الحياة محدود، على اساس ان هذا هو سبيل كل انسان (سوي)، واقتصارا على حدود حلمي، فان هذا يمكن ان يعني ان البيت القائم على الشاطيء هناك قد تحرك فاندفع الى رحاب الريف فاسحا المدى امام البحر ليعبر عن ذاته بشكل طبيعي فيتمطى على الساحل كما يشاء.

يذكر بيرلز انه ليس من الضروري ان تتعامل مع كل عنصر في الحلم او مع كل حدث فيه، طالما انه بمقدور الحالم ان يتلقى في الحلم في الاقل رسالة وجود واحدة. ولهذا ففي حالتي انا فان الامر كان يمكن ان ينتهي عند هذا الحد لو لم انتبه ان ما دار من حوار بين البحر وبين الناس في المنزل قد تكشفت معالمه، اذ انه ابرز مخلوقا هنا لم يكن ساكناً، كما يريده اهل البيت ان يكون، لذلك فقد اعتزمت ان ادع الريح تتحدث والنتيجة كانت مدهشة على نحو واضح، اذ قالت:

[اني انا الريح، لست متأكدة من اين اتيت لكني احس انني من ريح اللّه وانك لتدري، ان روح اللّه هي التي هبت على وجه الامواه فجعلتها تتراقص بنبض الحياة. انا ريح لحياة التي نفخها اللّه في جسد آدم، فحوله من قطعة من صلصال إلى نفس حية. اني انفخ الحياة في بني الانسان وانثر البذار على وجه الارض. اني انا احياناً نسائم الريح التي تحدث بها اللّه الى يعقوب، لكنه من غباء الناس ان يصفوني بانني مدمرة، او عندما يتضايقون فينزعجون حين اقتلع قبعاتهم من على رؤوسهم او لما اخشخش على نوافذ بيوتهم. ان هم اصروا على ابتناء بيوتهم على حافة البحر، فتلك جريرتهم، وان ذلك الشخص الذي اقام بيتاً له من الزجاج فوق قمة التل فلا اقل حماقة، اذ هو قد نسي كم قوية وكم عنيفة انا. أريد الناس ان يصغوا الى ذلك لاني اتيهم بهبات من اللّه فيها اليهم رسائل واشارات، ولكن عليهم ان يفعلوا ذلك (الاصغاء من موقع عقلاني ممتاز نظرا الى اني بالغة القوة والعنفوان وما من احد يتكهن بي آتية من اي مكان، وان بيتا يشاد منتصف المسافة من قمة التل لهو خير مكان يتخذه الانسان مسكنا، اذ هو من مكانه ذاك بمقدوره ان يستمع الى هينماتي باماان دون ان يحاط به او تطبق عليه الضوضاء، بل ان بمستطاعه ان يبني لنفسه طواحين هوائية تكبح شيئاً من طاقتي، ولكني لا يمكن ان أرضى او ان يهيمن علي الانسان ذلك لاني انا اكبر منه في هذه الحياة].

واني هنا اتعـرف على رسـالة وجـود اخرى، واعني بذلك انّ قوة انفعالاتي (ويمـثلهـا تأثير قوة الريح في البحر) انها هي من نفس قوة الخيال الابداعي، وبـالتـالي، فـانها تكون حماقـة مني ان اغـمـر نفسي تماماً في مـسـائل فكرية اكـاديمـيـة (ويمـثلها في الحلم بيت من زجاج على هامة الرابية) ولا اقل من ذلك ان انا كـرست حـيـاتي كلهـا الى حـيـاة منزليـة تخلو من التـفكير كلها ويمـثلهـا في الحلم بيت على سـاحل البحر. وفي كلتا الحالتين، فان الريح، وهي ابعـد عن ان تكون مـصـدر طاقة ابداعية، يمكن ان تصير فقط مبعث ازعـاج، تعـبث باسلوب حياتي الجامدة المزمومة. ان ما اطمح اليها من حياة ابداعية لا بد انها معرضة باستمرار الى الشك. (الريح تهب حيث تشاء... وكـذلك فـان كل واحـد انما يولد من الروح)، ولهذا فانا بحاجة الى علاقات حمـيـمـة، بقدر ما انا محتاجة الى تنبيه فكري، ولكن يجب ان احتازهما بشكل يكون باسـتمرا مفتوحا الى نماء وامكانات جديدة.

كلي امل في ان اكـون قـد اوضـحت من هذا المثـال كـيـف يمكن ان يؤل الحلم في البـيت بدون مـسـاعدة ما من جماعة. ان جدوى وجود جماعة حول الحـالم، ولا سـيما وجـود زعـيم المجـمـوعـة الذي يكون له خبرته ما ينبهه الى دقـائق من الاحـاسـيس لا تكاد تسـتـبـان تقـريبـاً عندمـا يقوم الحالم بتمثيل حـلـمـه، ان وجـود هذه الجماعـة امـر له ضرورته الواضـحـة لكنهـا ليـست ضرورة مـطـلـقـة. يـذكـر (باريس) في كـتـابه: العـلاج الجـشـتـالتي نصـا وروحا: Gestalt Therapy Verbatim، كـثيراً من التلمـيـحـات عن الكيـفـيـة التي يصبح فيها ألحالم حساسا لما يتعرض له من احباطات. واذا ما وجـهـت، مـثـلا، صـعـوبة في القـيام بدور شـخص تراءى لك في حلمك، فـيمكنك ان تتيقن من انك انما تتعامل مع جزء من شخصيتك كان مستبعداً مـغتربـاً وانك تتلكأ في استرجـاعـه وضـمـه الى تكوينك الشخصي. فانت في الواقع في قـرارة نفـسك تقـول: (ذلك لست انا). وكلما كنت اكـثـر تفتيتا، كنت للكوابيس اكـثـر تعرضا، وانها تتنابك اكثر، وكلما صرت اشد تماسكاً،

فان هذه تزايلك فتختفي.

وعلى العموم، فقد فضل (بيرلز) ان يتناول بالبحث الاحلام القصيرة نظراً الى انها اقل تضليلاً وتعمية من الاحلام الطويلة، وكان يصر على انه حتى ما يتم تذكره من جزء من نصف الحلم يمكن ان يكون كافياً لاستحثاث العملية الابداعية الرامية الى فتح معالم الشخصية، ومجزوءة الحلم التالية قد قدمت في احدى احلقات العملية الجشتالتية البريطانية كنت قد حضرتها، وقد قدم المجزوءة هذه رجل اعمال معتد بنفسه، مهم في عين ذاته، وقد ذكر في حينه من المرجح الا نخرج بشيء منه- حلمه- اذ ذكر: (كل ما استطيع ان اتذكره هو انني كنت اتبول على السجادة)، وبما لديه من شيء من معرفة بالنظرية الفرويدية، فانه قد عرض ان يفسر هذا بقوله انها رغبة في العودة الى الحرية الطفلية اللامسؤولة واللامحدودة. تريد الدوافع من خلالها ان تتلقى اشباعا مباشراً. واضاف ان هذا قلما يكون اشد الاستبصارات كشفا لحقائق واكثرها إستنارة.

وان قائد المجموعة طلب منه ان يقيم حواراً بين نفسه هو وبين السجادة، متنقلا من احد الكراسيين الى الكرسي الآخر وانه هو الذي يقوم بتمثيل الدورين تباعا. وهذا ما كشف بسرعة عن عنصري المتنفذ والمنفذ في شخصيته، وكان الحوار متخذا نوعا ما الشكل التالي:

السجادة: لماذا انت تتبول علي هكذا؟

الرجل: يا للسماء! بل حتى انني لم انتبه الى وجودك، واني الآن تأتى لي لاتملاك عن كثب، انك شائخة وانك رثة على اية حال- وانك قذرة ايضاً- انك لا تستحقين اكثر من التبول عليك، يحق لك ان اقول.

السجادة: حسن، ان هذا ليس من العدل، واني لاحتج. وعند هذا الحد، تدخل رئيس الجماعة فطلب من (السجادة) ان تحتج باظهار شيء من القناعة والاقناع، وهو حقاً يعني ما يقول. لهذا راح رجل الاعمال يدور حول الجماعة، وهو يردد، (كف عن التبول علي)، كان يقول هذا مع شيء

من التلكؤ باديء الامر، وبالتدريج اكتسبت ثقة الى ان جعل في النهاية يرقص رقصا ايجابياً ويتقافز غاضبا وهو يلوح بقبضات يديه ويردد الكلمات والألفاظ من اعماق صوته واعلاه. ثم طلب قائد المجموعة منه ان يعود إلى مقعده وان يستمر في تمثيل دور السجادة، فراح يقول:

(قد اكون بعض الشيء رثة، ولكنني لا اسمح للناس بالتبول فوقي. انا مصنوعة من مادة طيبة، واني شديدة القدرة على الاحتمال، اني جد نافعة واني حقاً اشيع الدفء في المكان، والواقع انا سجادة جد مفيدة حقا).

فالرسالة الوجودية هنا بادية الوضوح، فهو كان قد قاسى خلال حياته في مجال الاعمال من احساس بانه موضع استخفاف وانه نوعاً ما مزدرى وبأنه دائماً ضحية خداع، وكان يستحضر هذا الاحساس ذلك لانه كان يشعر في اعماق نفسه بانه لا يستاهل شيئاً افضل من ذلك. ادت هذه الشريحة من الحلم الى ان تكشف عن (نقيصة)(١٢) كائنة في شخصيته، وقد شجعه على ان يسترجع (الكنز الدفين) المفقود من ثقته بنفسه.

واذا ما تعذر على شخص ما ان يستذكر احلامه كلها بتفاصيلها، فان بيرلز يقترح عليه ان يسأل سؤالا كالآتي: (ايتها الاحلام لماذا انت دائماً لا تأتيني الا نتفا واجزاء؟) وان احد اعضاء المجموعة قد تلقى من نفسه الجواب التالي: (ذلك لاننا نريد إتعابك وإغراءك، لنجعلك تتساءل عن طبيعة البقية منا، اننا نبتغي ان نستأثر باهتمامك. ان نحن مكناك من كل انفسنا، فقد تجدنا اغبياء او تحسبنا متعبين)فسأله قائد المجموعة السؤال الآتي: (أهذا هو السبب وراء عدم اسهامك اسهاما فعالا في نشاط الجماعة؟) وعلى نفس المنوال يجب ان نسأل اسئلة في حالة احلام الكوابيس، اذ يجدر ان نسأل، فعلا، (ايتها الاحلام، لماذا انت تحاولين ان تخيفيني؟) وعلى هذا السؤال، اجابت نفسها وردت عليها بالجواب الآتي: (ذلك لانه لا ينبغي لك ان تتمتعي في الازمان والاوقات بحياة رائقة، واذا ما استمتعت بيوم سعيد ناجح نهارا، فمن الحق اذن ان تتعرضي للمقاساة

ليلا. واذا انت واجهت يوما يائسا تعيسا نهاراً فاننا نأتيك لنحييك ليلا).
ولعل شيئاً من هذا القبيل وسببا من هذا الضرب كان وراء ما دعاها يونج ب(الاحلام التعويضية)compensatory dreams- ويراد بذلك المشاعر الداخلية فينا والتي لا نمتلك معها ان نتحسس مقداراً فائقاً من السعادة، ولا نحن مسموح لنا كذلك ان نقاسي بوجودها، من المآسي اكثر مما تقتضيه عدالة الحياة من نصيب لنا وقسمة.

استعمل يرلز هذا التكنيك كذلك مع اناس كانوا قلما يسترجعون او انهم لا يستذكرون اي حلم من احلامهم، ونظريته تعلل النسيان انما هو خدعة او حيلة لتفادي المواجهة مع تعاسة محتملة وانه يستخدمه عادة اناس يعتقدون انهم قد اصبحوا على وفاق مع الحياة. فهو يجبرهم بان يتحدثوا الى احلامهم الضائعة كما يلي: [ايتها الاحلام، اين انت؟] وان الجواب دائما مفيد، اني، وانا اكتب هذا، فلا اتذكر اني استرجعت حلما حقيقيا على مدى عدة اسابيع، الامر الذي لم يكن مألوفاً بالنسبة لي. اذ اني اسأل احلامي ماذا بها، فتجيبني:(اننا لا نريد ان نربكك بمادة اكثر تشوش عليك في هذه المرحلة، لذلك فاننا نتحاماك ونتنحى عنك جانبا بعض الوقت والى حين. وسنعاودك بعدما يكون الكتاب قد انتهى، فلديك من المادة بين يديك ما يكفي لاشغالك في الوقت الراهن ولا نرغب في ارباكك اكثر مما انت فيه. فان نحن عاودناك الآن، فانك ستمضين جل اوقاتك في تأويلنا فقط، بل حتى انك ستبلبلين نفسك بافكار جديدة ممكنة او محتملة. ها انت قد رتبت كل شيء ونسقتيه كما ينبغي، لهذا فسنأخذ بيدك الى المحافظة على الابقاء على الاشياء مرتبة على هذه الصورة). ومن هذا نتبين كم يسهل على المزمن في النسيان في عدم تذكر احلامه ونسيانه اياها يمكنه ان يتلقى جوابا مماثلا في ما يتعلق بحياته ككل.

ان الأساليب الجشتالتية لا تقدم لنا كثيرا عن الاحلام نفسها-- من حيث مصدرها، طبيعتها، او اغراضها- لكنها في الغالب تنبؤنا دون شك

كثيراً عن انفسنا. ومن خبرتي الخاصة، فانها لا تكون مجدية لكل شخص، وبخاصة بالنسبة الى اولئك الذين يواجهون صعوبة في ان يكونوا على اتصال بعالم خيالاتهم الداخلية، وفي مثل هذه الحالات فاني اوصي باتباع طريقة هول في التعامل مع الاحلام على ان يخامرني شك في ان هناك مناسبات نجد فيها المنحى الجشتالتي يبرر الى حد بعيد دعوى بيرلز الذاهبة الى انه باتباعه هذا ألمنهج يستطيع ان يسبر غور الشخصية خلال نصف ساعة، في حين أن محللاً نفسانيا آخر ينتهج اسلوبا غير هذا يتطلب اشهراً حتى ينشط ويبلغ درجة الاحماء، وكما سبق ان اسلفت، فان خير النتائج انما تتاح من العمل ضمن اطار جماعة يتولى قيادة دفتها قائد متمرس خبير، ولكن ليس ثمة سبب مطلق يقف حائلا دون استخدامها في رحاب البيت ليفيد منها وينتفع بها كل من له اهتمام بها.

نحو طريقة شاملة لتفسير الاحلام

في الوقت الذي يتجذ فيه كل من هول وبيرلز منحيين يختلف احدهما عن الآخر تمام الاختلاف في تفسير الاحلام (حتى ان بيرلز ليحجم عن استعمال كلمة تفسير) فان نظريتهما بشأن الاحلام يوجد بينهما قاسم مشترك:

١- كلاهما يعترف بان الاحلام تستخدم لغة الصور الرمزية، لكنهما يهتمان بما تكشف عنه الاحلام لدى الحالم من مشكلات في حياته، بدلاً من معاملة الحلم، كما كان يفعل فرويد، على اساس انه اوالية تمويهية غايتها منع الحالم من ان يفهم ما يرمي اليه حلمه.

٢- كلاهما يصر، شأنهما في هذا شأن يونج، على ان اي حلم معين انما ينطوي على اشارة الى موقف في حياة الحالم الحاضرة الراهنة، بنفس القدر الذي يشير فيه الى التركيب الخلقي الاساسي عنده الذي تكون بفعل خبرات الطفولة المبكرة. كلاهما يبحثان في ثنايا الحلم عن (رسالة وجودية) مبعثها الحال الحاضر عند الحالم ويستخلصان فقط عرضا اشارات تعزى الى خبرات التكوين الاخلاقي المتحدر من الماضي.

٣- كلاهما يتفق مع يونج في ان الحلم ينبغي تأويله على انه وجهة يجدها الحالم اجدى له وانفع. فان وجد ان الحلم يكشف عما يبدو انه رغبة طفلية لا شعورية، فينبغي في هذه الحالة تمحيصها لتبين كيف تؤثر هذه الرغبة في مواقف حيواتنا الحالية. ومن جهة اخرى، فان الاحلام تنطوي على ما هو ابعد مدى من الرغبات وحدها فقط، وانه ليتعين علينا ان نبحث دائماً في ثناياها عن رسالة مناسبة ايا كانت نوعيتها.

٤- ولأن كلتا الطريقتين بسيطة ومباشرة، فانهما كلتيهما يمكن ان يستخدمها الناس الاعتياديون في بيوتهم بغية اكتساب معرفة تبعد بصرهم

عما يجد عندهم من مشكلات وصراعات شخصية. كلتا الطريقتين ليستا منهجين متخصصتين ليتم استخدامهما من جانب خبراء مختصين في غرفة الاستشارة فقط، ولا هما تعنيان بشكل خاص بعلاج الامراض العقلية.

يبدو لي ان هذه النقاط جميعها لها ما يبررها في ضوء معطيات البحوث الحديثة في مجال الاحلام، ولكنني لا ارغب في ان انكر بان الاحلام يمكن كذلك ان تكون ذات فائدة في العلاج المهني المتخصص بالامراض العقلية. والحق اني لانصح اي واحد يصبح مضطربا اضطرابا خطيراً جراء اشياء يجدها في الاحلام، اي اي فرديساوره ادنى شك او سبب يحمله على الظن بانها- الاحلام- ترتبط في عدم الاستقرار العقلي عنده، انصحه بان يلتمس استشارة مهنية من مختص، واني لانصح بشكل خاص اولئك الذين لا يتمكنون من الاضطلاع بالتجربة التي ساقترحها في الفصول اللاحقة، وعدم تمكنهم من النهوض بها يتمثل اما باجتنابهم اياها وتحاشيها وتركها او بسعيهم الى طلب المساعدة من احد، وبخاصة اذا ما كان هناك اي احساس خطر جدي بانهم في غشاوة مغرقون، وفي حالة كهذه، فكأن الاحلام، على حد تعبير بيرلز، تقول له:

(اننا بالنسبة اليك نفوق كثيراً ما تحتمل وفوق ما تقدر عليه، فاذهب واطلب العون).

واني، بشكل خاص، لا ارغب في ان الح بان التحليل النفسي الفرويدي القويم يخلو من شيء يقدمه. واني لعلى استعداد للاعتقاد بان ثمة مواقف ومناسبات يمر بها شخص مضطرب اضطرابا خطيرا او يخضع خلالها لتحليل مهني متخصص، فانه يمكنه ان ينتفع من طريقة العلاج الفرويدي عن طريق تحليل احلامه، اذا ما افلح العلاج هذا في الكشف عن الصراعات الطفلية الدفينة المسؤولة عما به من عصاب. وعلى وجه العموم، على اية حال، فاني لاظن الناس (الاسوياء) يحسون بانهم متقيدون بالمنحى الفرويدي في مجمله، ولا سيما عندما يكون التطبيق الفرويدي هذا متأثراً بما

يعبر الآن بوجه عام انه منحى تجاوزته روح العصر وان نظريته تنطوي على اخطاء. كما اوضحت من قبل، فان النهج الجامد ازاء الاحلام يمكن ان يلحق ضرراً بالغاً بكل من الحالم وحلمه. واعتقد ان ديننا لفرويد يكمن في حقيقة ان اعماله الريادية قد اولت الحلم اهمية واضفت عليه قيمة في وقت كان العلم فيه يسعى جاهداً للتقليل من شأنه (من شأن الحلم)، وانزاله الى درك التفاهة وكأنه لا يستحق البحث.

والاسهام الآخر لفرويد يتمثل في انه امدنا بثروة من الافكار جديرة بالتأمل والاعتبار، وكثير منها قد وجدت طريقها الى لغتنا ومواقف حياتنا اليومية. وبمقدورنا جميعاً في ايامنا هذه ان نتحادث بصورة عفوية ودونما تكلف عن (عقدة ادويب) oedipus complex وعن (الحسد القضيبي) penis envy، وعن (قلق الخصاء) castration anxiety، نتحدث عن كل ذلك حتى اذا اختلفنا ووجهة نظر الفرويدية الصارمة المحددة هذه، لذلك فليس من العجب ان نجد قائمة طويلة بأسماء اشياء ترمز في الاحلام الى القضيب، وهكذا الحال، على انه، لا يكفي، كما يذكر هول، ان ندع الامر ينتهي عند ذلك الوقت المعين. ان التحليل الفرويدي يسمى غالبا (التحليل المتعمق)، لكنه، من وجهة نظري، ليس متعمقا بما يكفي.

ان المنهج الفرويدي ازاء الاحلام يمكن ان تكون له منافعه داخل غرفة الاستشارة، لكنه كتطبيق عام ليس مناسبا لمعالجة مواقف الاحلام في البيت. واني ليهمني او اوضح كيف يمكت للاحلام ان تساعد الناس (الاسوياء) الاعتياديين في حياتهم اليومية معرفة انفسهم وفهمها على نحو افضل. وإنّي ساقتصر، بوجه عام، على منهجي كل من هول وبيرلز (وكلاهما مدينان كثيراً الى يونج) وسأبين كيف يمكن، كما ارى، ان يستعمل هذان المنهجان افضل استعمال وعلى اتم فائدة ضمن حدود المنزل. وان ما ادين به الى يونج بصورة رئيسية هو انه قد قادني الى ان ارى ان

هناك عدداً قليلاً من الاحلام الخاصة نوعا ما تتطلب تفسيرا وفق خطوط مختلفة تمام الاختلاف، وسأتناول هذه بالمناقشة في الفصل العاشر، واول قاعدة في تأويل الحلم وتفسيره هي الا نسأل:

(اية طريقة في التفسير صحيحة؟)

ولكن يجب ان نسأل:

(متى يلزم ان نستخدم طريقة معينة تفضيلا لها على طريقة سواها؟)

وخلال سياقات بحوثي في الاحلام عبر كثير من السنوات، الفيت انه من المسعف ان اتعرف على ثلاثة انواع واضحة من انواع الاستبصار التي يمكن ان نجنيها من الاحلام، وهذه هي:

أ- استبصار يتعلق بحقائق كائنة في العالم الخارجي امكن استبانتها انها مخالفة(١٣) للعرف والتقاليد والقواعد، كما يقال، وانها تجري اثناء مجريات الحياة اليومية، لكنها حقائق لم يتم تمثلها في سياق الوعي الشعوري ولم تندمج فيه. ولذلك فاول ما اثيره من سؤال عن حلم ما هو: (هل هو يحتوي على اية حقيقة موضوعية؟) وبعبارة اخرى، هل هو يعكس اية معلومات واقعية عن الاحداث الراهنة، ام انه فقط يعكس انطباعا ذاتيا عن الكيفية التي يرى الحالم فيه عالمه المحيط به؟ وأنا اسمي هذه الخطوة الأولى في النظر الي الخارج Looking outward.

ب- واني ما لم اجد في الحلم دليلا يومىء الى حقيقة موضوعية، فاني اطبق طريقة هول القائلة (بالتأمل في صورة) وذلك لكي اكتشف ادراكات الحالم للحياة ومفاهيمه لها. وانا في هذه الحالة استخدم الحلم كمرآة مشوهة للصورة تلوي الواقع الخارجي فتطوعه تبعا لاتجاهات وصراعات الحالم الداخلية ، فتعكس بذلك معطية صورة لواقعه الداخلي الفريد unique، وانا اسمي الخطوة الثانية هذه: النظر في المرآة Through the looking Glass.

جـ- وأخيرا، فان الاحلام يمكن ان تتيح استبصارا يمكّن من النفاذ الى

اعـمق مـا في نفس الحالم، ويصدق هذا احيانا على الاحلام التي اتاحت من قـبل تبصرا على صـعـيـد المستويات الاخرى، كما سبق لي ان بينت قبلا في حـالة مـعالجتي لحلمي الذي ذكرته مسبقا بشأن (البيتين). وتوجد في الوقت نفـسـه بعض الاحلام التي تتطلب مباشرة هذا الضرب من التفسير المتعمق، اعني انها تتألف من صـور عـقليـة مـسـتغربة، خارقة او اسطورية خرافية، تنشأ مـبـاشرة من طبـقـة كـائنة نوعـا مـا في اعماق الشـخـصـيـة ومـثل هذه الاحـلام، شأن جميع الاحـلام الاخـرى، انها تنبـهـهـا للوهلة الاولى احداث مـرت بالحـالم في حـيـاته الواعية ابان النهار، لكنها تبدو في نهاية المطاف انها مـعنيـة بالحـالة النفـسـيـة الداخليـة اكبر مما هي معنية بالواقع الخارجي. وانا اسمي التفسير عند هذا المستوى: النظر الى الداخل Looking Inward، واني لاجـد طرائق بيرلز ويونج، بخـاصـة مـوائمـة لها وجـد مناسبة، وحيث نجـد تفـسيرا (النظر في المرآة) تطلعنا علي الكيـفـيـة التي نرى فـيها انفسنا، وننظر بها الى الآخـرين، والى العـالم من حولنا، فاننا نلغي (النظر الى داخل) يمكن في الغـالـب ان ينبئنا عن الاسـبـاب التي دعـتنا الى ان نبني مـثل هذه الاتجاهات اول مرة.

اعـتـقـد ان شـيـئاً ما يقارب المنهج الشامل الخاص بتفسير الاحلام يمكن تحـقـيـقـه وذلك عن طريق تمحيص اي حلم من الاحلام بواسطة تطبيق كل واحـدة من وجـهـات النظر الثـلاث هذه بصـورة مـتـعـاقبة ومن ثم استعمال انسب طريقـة في التـفسير تنطبق على الظرف المطلوب وتلائمه. ان ارشادات سيرد ذكـرها في الفـصـول الثـلاثة القـادمـة، والقـاعـدة الاسـاسـية في جميع الحـالات هي بالا نفـرض قسرا اي مـعنى على اي حلم بل يجب ان ندعه في كل الاوقات (يتحدث عن نفسه).

هوامش الفصل السابع

(١) النقانق وتسمى السجق (بضم السين والجيم) لحم مثروم ومضغوط يصنع بهيئة الاصابع ويقابلها بالانكليزية كلمة Sausages (المترجم).
(٢) درع مرنة ذات زرد (المترجم)
(٣) كلمة درع chain mail وكلمة ذكر مكبل chained male ومن هنا جاء الربط بين الحلم والواقع (المترجم).
(٤) الزحلوفة احدى اداتي التزلج على الثلج والتزحلج عليه (المترجم)
(٥) طاعنة في السن. . . . . (المترجم).
(٦) مهزولة، ضعيفة. . . . . (المترجم).
(٧) استعملت المؤلفة التعبير المجازي وهو:
Feeling like cinderella in The ball
والترجمة في المتن تؤدي المعنى بدقة (المترجم).
(٨) هذا اتجاه جديد في علم النفس يرمي إلى التوفر على ما يعانيه الانسان وعلى حقيقة وجود كينونته في ضوء تفاعله مع بيئته حاضراً ومستقبلاً (المترجم).
(٩) السجوف: الستائر (المترجم).
(١٠) السيف (بكسر السين) ساحل البحر وشاطئه (المترجم).
(١١) الجدر (بضم الجيم) جمع مفردها جدار (المترجم).
(١٢) استعملت المؤلفة كلمة (hole) وهي تعني ثقباً او ثغرة او عيباً، والترجمة في المتن انسب (المترجم).
(١٣) استعملت المؤلفة عبارة below the belt، وهي تعني حرفيا تحت الحزام او اسفل النطاق، وكلاهما لا يؤدي المقصود من حيث مكانها في السياق، والاجدر ترجمتها كما في المتن آنفاً، وهذا ما يراد به هنا (المترجم).

القسم الثالث

الأوجه الثلاثة للحلم

الفصل الثامن

النظر الى الخارج

في مراحل مبكرة خلت، كان الأمر يبدو وكأنه مسلم به بأنه يمكن أن تجلب الأحلام الى الحالم اشارات أو تحذيرات عن أحداث حدثت فعلاً أو على وشك أن تحدث في العالم الخارج. ولكن مع تقدم النظرة العلمية، فان هذه الفكرة قد حسمت على اساس انها لا تعدو كونها أكثر من خرافة بدائية. وان الصحافة والمجلات ما فتئت تحاول من حين لآخر أن تثير الاهتمام بالأحلام عن طريق رواية قصص عنها فتجعل تلك الأحلام تبدو وكأنها ضرب من ضروب الاستشفاف Clairvoyance أو المعرفة المسبقة Precognition بأحداث واقعية كائنة تماماً خارج الادراك الشعوري للحالم، لكن الرأي العام العلمي يجنح الى معاملة مثل هذه القصص جميعاً بشيء من الشك، بوصفها محاولات تلجأ الى استخدام توافق الأحداث للاستحواذ على ما في القوى العقلية من معتقدات.

وعلى مستوى أكثر تواضعاً، فان المختصين بعلم النفس قد أقروا بأننا جميعنا نضمر ميلاً الى أن نسقط مخاوفنا، وآمالنا، ورغباتنا، على العالم الخارجي، لذلك فهم نشطوا في ثني الناس عن البحث بشأن حقائق موضوعية عن أي حلم من أحلامهم يتعلق بأقاربهم أو بأصدقائهم، أو بموقف من مواقف حياتهم. وهنا نجد موقف كالفن هول نموذجياً اذ يقول: [ليس الحلم صورة للواقع الموضوعي، ولا ينبغي ان ينظر اليه هكذا. انه، على أية حال، صورة دقيقة للواقع كما يتراءى للحالم نفسه. وهذا النوع من الواقع - كما يبدو للحالم - يسمى الواقع الذاتي. وغالباً ما يتطابق الواقع الذاتي للمرء مع الواقع الموضوعي، ولكن يتعذر، اعتماداً على الأحلام وحدها، أن نحدد مقدار هذا التطابق ونقرره.].

في حين أني لا أختلف من حيث المبدأ مع ما يذهب إليه هول من رأي، فانه يبدو لي أنه توجد هنا خطورة حقيقية لها محاذير علمية ونفسية وتلك هي أن لا نسمح برمي الطفل مع ما يرمى من ماء حممناه فيه (١) . اذ أن البحث الحديث المتعلق بالأحلام قد كشف عن أن محتوى الحلم انما يستمد مادته أساساً من خبرات واقعية حديثة العهد، وأنّ بحثي الخاص قد وفر كثيراً من الأمثلة المتعلقة بأحلام نلتقي فيها بما إستبعد من معلومات كان العقل الواعي قد نحاها جانباً على أساس ان تلك المعلومات جد مزعجة مما يجعل من المتعذر تقبلها. في مثل هذه الحالات يمكن أن تمدنا الأحلام بمعلومات ذات قيمة عالية عن العالم الخارجي، ولهذا السبب فانني أعتقد بوجوب تمحيص جميع الأحلام بحثاً عن عناصر تنطوي على واقع موضوعي. وهذه في حد ذاتها يمكن أن تكون ذات خصائص تذكيرية، أو تحذيرية، أو حتى تنبؤية، وأني لأشعر أنه من الغباء أن نتجاهل هذا الاحتمال بقدر ما يكون كذلك هناك من الخطأ المعاكس في أن ننظر الى جميع أحداث الأحلام على أنها الهامات دقيقة عن أناس حقيقيين أو مواقف واقعية.

ان الاجراء المعقول، كما أراه، هو أن ننظر أولاً الى أي حلم فيما اذا كان يمكن أن ينم عن معلومات حقيقية حول الأحداث الخارجية التي لم يتمثلها بعد العقل الشعوري في الحياة الواعية، وأن نتمعن بعين ناقدة وبطريقة الحس العام الباده كل احتمال من هذا النوع لنتبين ما اذا كان ينطوي عن أي شيء فيه. على أن هذا لا يحول بأية حال من الأحوال دون امكانية أن نفس الحلم يتضمن كذلك مستويات أخرى من التبصر، وان الاشارات الموضوعية في الغالب يتطلب الأمر ابعادها من قصة الحلم ككل. فهي في العادة يتم تمثيلها بصورة مباشرة، لكنها في بعض الأوقات تظهر بصورة رمزية مما تستدعي ترجمتها قبل أن تصبح المعلومات واضحة. وان لي من

---

(١) هذا تعبير مجازي له بعده ما يفسره (المترجم)

خبرتي ما يؤهلني للقول أنه حيثما تجلت في الأحلام (ادراكات تسامي) اعلائية كهذه فانها يمكن أن تكون في الغالب ذات جدوى مباشر للحالم أكثر من نظيراتها الذاتية المعقدة.

وسأبدأ بشيء من الأمثلة البسيطة جداً ومن ثم أنطلق تدريجياً الى أخرى أكثر تعقيداً.

أحلام تذكيرية

منذ ليال قلائل مضت، رأيت حلماً بدا وكأنه كان بمثابة تذكير لي مبسط مباشر عن شيء كنت قد نسيته، فقد حلمت بأن باب الحديقة كانت مفتوحة وهي تتأرجح في مهب الريح. وقد استيقظت وانا حقاً أسمعها تصطفق، لكني عندما هبطت السلالم لأتبين ماذا كان يجري هناك وجدتها مفتوحة وهي مثبتة على عقيفة(٢) ثابتة كانت يقينا تحول دون اصطفاقها. وفضلاً عن ذلك فان الليلة تلك كانت هادئة وما من أبواب أخرى كانت تصطفق. اذ في مكان ما في هذا المسار، قد عرف دماغي بأنني كنت قد نسيت اقفال الباب، وهذا القلق الأعلائي كان في سبيله الى عملية معاودة العمل عندما استيقظت. يبدو على وجه التقريب ان هناك في الدماغ توجد أوالية(٣) تحذيرية قد اصطنعت ذلك الاصطفاق لكي توقظني لأغلق الباب.

منذ سنوات قلائل خلت حدث لي حلم تذكيري أكثر تعقيداً بعض الشيء، وذلك حينما حلمت أنني وصلت لحضور جلسة تحليل نفسي

---

(٢) العقيفة أو المشك أو ما يسمى بـ(الرزّة) وهي ما يثبت الباب على حاملتها (المترجم)

(٣) وتترجم أحياناً مكنية وتقابل كلمة Mechanism الانجليز وبعضهم ينقلها بنفس اللفظ (ميكانزم) وأصح ترجمة لها ما ورد في المتن (المترجم)

جماعيـة، ولدهشتي أني وجـدت جميع أعـضـاء المجـمـوعة وسط حفل أقيم هناك. أحـسست بالاستياء اذ وجدت أن أفخر الطعام كان قد تم أكله وأتى عليـه وأن المحـتـفلين قـد نعموا بالمتعة والفكاهة. حانت مني وأنا هناك نظرة عبر مـائدة الطعـام فلمـحت رئيس المجـمـوعـة وهو يحدق في بصـورة كلهـا اسـتنكار واسـتـهـجـان. وقـد سألت فـتاة كانت جالسة بجانبي لماذا ابتدأوا بتناول الطعـام بصورة مبكرة على هذا النحو، فأجابتني : [أما تتذكرين. أنه كـان قـد طلب منا أن نحضر جميـعـاً مبكرين في هذا الاسبوع]. فأستيقظت مـتـذكـرة أن جلسـة الجماعـة الاسبـوعي كـان مقرراً له ذلك اليوم بالذات، وتذكـرت ان رئيس الجماعـة كـان بالفـعل قد طلب منا جميعاً أن نحضر أبكر من الوقت المعـتاد بمقدار ساعة، واني كنت قد أنسيت ذلك كله تماماً. كان الحلم مـواتياً وملائماً، ان لم يكن صحيحاً تماما. ذلك لأنني كان يتعين علي أن أحضر جلسـة تحليل انفـرادية، قبل التئام المجموعة في جلستها التحليلية تـلـك، ولـذلـك فلولا تذكير الحلم أياي بالوقت الأبكر، لوصلت فـعـلاً في الموعـد المحـدد لحضور جلسة التحليل الجماعية، ولكن كان يمكن أن يفوتني مـوعـد حـضـور جلسة التحليل الانفرادية. فلو أن شيئاً من هذا قد حصل لكان مـضـيـعة لقسط من الأجور أكبر من المبلغ المطلوب دفعه ضمن جلسة الجماعـة ولكان ايضاً ادعى الى أن يحدث نوعاً من الملل ويبعث على تفسيرات مـثيرة للحـساسية تنطوي على معنى أنني أقاوم التحليل النفسي من حيث لا أشـعـر! لذلك كنت مسرورة غـاية السرور ان يكون الحلم قد ذكرني بكل ما حـصل، وقـد وجـدت هذا أكثر نفعاً من التفسير النفسي السطحي الظاهري الـذاهب الى أنني كنت قـد نظرت كما يبـدو الى الجلسـات الجماعـيـة وكأنها حـفـلات مقامة، وهي نظرة تعبر عن عاطفة كان يمكن أن يستهجنها رئيس المجـموعة [وهو محللي] أشد الاستهجان.

وقـد حـدث لي مـؤخـراً حـلـم آخر ممـاثـل يـتـعـلـق بـمـوعـد (لقـاء) Appointment ، لم تكن الاشـارة فـيـه واضـحـة تماماً. إذ رأيتني فيه بين

مجموعة من الناس نلعب الورق Strip Poker، وعندما حانت لحظة كنت أراني فيها أنّي أخلع بنطالي، لاحظت وقد تملكني الهلع، أن ساقي كلتيهما، كانتا يغطيهما شعر كثيف أسود. ولدى استيقاظي، رحت توا اتفحص ساقي وقد وجدت أن الحلم، وإن كان قد بالغ كثيراً [اذ أن الشعيرات في ساقي صهباء على أية حال]، فأني في الواقع كنت بحاجة الى معالجة شمعية(٤) عاجلة، وهذه كنت معتادة عليها مرة في كل ستة أسابيع. ولتحديد الموعد ولذلك كان علي أن أحدده عادة قبل الوقت باسبوعين مقدماً في الأقل، وقد خاطبت (الصالون) هاتفياً فما كان الا أن أتلقى الرد بأنني في الحقيقة كنت قد ضربت معهم موعداً خلال آخر زيارة لي قمت بها اليهم وكان الموعد الموقوت هو ذلك اليوم الذي تلفنت اليهم فيه.

في حالة كهذه، أجد من الصعوبة بمكان أن أوقن بما يذكره التحليل النفسي عن [الحسد لفقد القضيب]، بل وحتى ما يذهب اليه التفسير وفق مذهب (هول) القائل [بأنني أرغب في أن أرى نفسي في موقف الرجولة]، فلا أراني مستعدة لأن أعزو قيمة كبرى لتأويلات كهذه. يبدو أنه من المعقول أكثر أن دماغي كان على نحو ما قد سجل حقيقة الموعد الموقوت وكان قد أطلق في الحلم ما يذكرني بخبرة كان عقلي الواعي في حينها منصرفاً عنها لأنهاكه بما كان يشغله. ولكن لماذا لم يتكرر هذا النوع من الحلم دائماً وغالباً. والجواب هو أنه يمكن أن يحدث أكثر مما ندرك ذلك، اذ أننا لا ندرك الا أجزاء ضئيلة من أحلامنا، ولهذا فان استعمال دفتر تدوين المواعيد أو استخدام المذكرة الخاصة هما أنجح وسيلة لتسجيل تواريخ مواعيدنا. والحق، أنه لمن الممكن أننا نحلم بمواعيد يكون الدماغ قد سجلها، وبشكل لا شعوري، في مكان ما خلال احداث يومه نوعاً من التناقض بين خططنا لليوم التالي ومعرفتنا المختزنة التي تصبح فيما بعد لغزاً

---

(٤) يدعك بالشمع، ويفرك الجسم تمسيداً ويقابله (المساج). (المترجم)

يجب حله خلال الليل. وليس من الانصاف في شيء أن نزيد الدماغ المنهوك انهاكاً عن طريق تقديم مزيد من الألغاز أكثر مما يمكنه أن يضطلع به عادة.

ففي هذين الحلمين الأخيرين (التذكيريين)، يبدو وكأن دماغي قد أعاد الكرة على هذا التناقض المحير، وذلك باستقصائه (قصة) من النوع الذي يمكن أن يحدث فيها لو بقي الموعد المضروب منسياً ولعل مثالاً من هذا القبيل وأكثر دراماتيكية هو ما حدث لاحدى أفراد مجموعتنا اذ حلمت وكأنها في حالة مخاض لتضع طفلاً في مستشفى للولادة. هذا الحلم كان قد حصل في القسم المبكر من الليل، وبينما راحت الحالمة تتفكر في المعاني الممكنة للحلم ـ ما اذا كان ينطوي على رغبة [فرويدية] في الحصول على طفل آخر، أو ما اذا كان يعبر عن ولادة جديدة [يونجية] لاستقبال وجه ما أو مرحلة من الحياة جديد ـ بينما هي تتأمل ذلك كله، استذكرت فجأة أنها كانت قد نسيت أن تتناول حبوب منع الحمل قبل أن تأوي الى فراشها تلك الليلة. فما كان منها الا أن قفزت من فراشها حالاً فتناولت تلك الحبوب. يبدو لي جلياً أن هذا الحلم كان في الحقيقة نتيجة لما كان يقوم به دماغها من سبر لعواقب هذا الانحراف عن الروتين الطبيعي.

ثمة خبرة أخرى مماثلة ذكرتها احدى عضوات المجموعة، وكانت قد حلمت كأنها تعبر حاجزاً يفصل بين بلدين، وكان ما أشد دهشتها عندما اكتشفت في اللحظة الأخيرة أن ليس لديها جواز سفر، ولدى استيقاظها، وقد تذكرت أول قاعدة من قواعدنا في تفسير الحلم، راحت تبحث عن جواز سفرها إذ كانت على وشك السفر في عطلة لها خلال الاسبوع التالي. ومما أشاع في نفسها الارتياح، انها وجدته حيث كانت تتوقعه أن يكون، ولكن بينما كانت على وشك البدء بتفسير حلمها في حدود عبور الحواجز الكائنة في اللاشعور، لاحظت أن جواز سفرها كان سينتهي مفعوله وهي، بعد، في منتصف أيام عطلتها. وكان يمكن أن يكون هذا مزعجاً لها تماماً،

لا سيما وأنها كانت تزمع ان تقطع أوروبا سياقة ـ واعتقد بأن الحلم كان تذكيراً واضحاً لها يلزمها بتجديد جواز سفرها قبل الشروع في عطلتها.

واني لأجد هذا ملمحاً عاماً مشتركاً على نحو ملائم في الأحلام، ولكن في أغلب الحالات قد لا يحصل هذا في الأحداث الخاصة التي سبق لها أن نسيت تماماً، ولكن مثل هذا متوقع أن يحدث بالنسبة لما كان قد تم نسيانه في حالات القلق الشعورية الجارية. في حالات كهذه يبدو أن الحلم يعزز من مواقف القلق، وذلك من خلال تحديد ما يمكن ان يحدث فيما لو تجاهلنا المواقف هذه، واني من جهتي لأسمي هذه أحلاماً [تحذيرية] Warning بدلا مما توصف به بأنها أحلام [تذكيرية] Reminder . واني لأقصد هنا أن أعزو أي تمييز صارم الى ما في الحلم من مكنية يحتمل أن تكون واحدة في كلتا الحالتين ـ (في الحلمين المذكورين آنفا).

أحلام تحذيرية

يذكر الدكتور وليم ديمنت Dr. William Dement، الرائد في البحوث الحديثة في الأحلام، يذكر في القسم الأول من بحوثه تلك، أنه استيقظ ذات صباح وهو في حالة قلق شديد بعد حلم رأى فيه أنه كان قد تم تشخيصه بأنه مصاب بسرطان الرئة. هذا الحلم وما صاحبه من انفعالات ترك في نفسه أثراً عميقاً مما حمله على الاقلاع عن التدخين لمدة عامين كاملين. وهو يكتب قائلاً انه استأنف مؤخراً تلك العادة مرة أخرى، رغم كل ما ينشر من دعاية مناهضة للتدخين ورغم ما يملأ شعوره من قلق يتعلق به، وأنه لينتظر حلماً مماثلاً ثانياً يصده عن التدخين الى الأبد.

ان محللاً نفسانياً يتبع منهجاً فرويدياً قد يواجه صعوبة في تفسير أحلام كهذه على أنها [رغبات] ، وهذا المنحى كان أحد النقاط التي أصر أدلر

عليـهـا عندمـا نتبنى وجهة نظر أقرب الى الحس العام. وقد أوضح الدكتور (رودولـف درايكرز) Dr. Rudolf Dreikurs المنطلق الأدلري - نسبة الى أدلر - بذكـره قـصـة مريض كان قد حلم في الليلة التي أعقبت ملئه استمارة الضرائب على نحـو مـزيف، حلم بأنه قـد ألقي به في السجن. وأنه لم يربط أول الأمـر بين الحـدثين الا بعـد مضي عـدة أيام عندمـا عـرض حلمـه ذاك للتـحليل. وأنه تذكر فيما بعد أنه قد صمم لدى استيقاظه على ألا يقدم بعد ذلك كـشـفـاً بمـعلومـات زائفـة. يبـدو الحلم في هذه الحالة انه قد قدم على مـسـتـوى انفـعـالي محض تحـذيراً، جـعل الحالم يحس بعدم الارتياح في حالة التـدليس على القـانون، قـام الحلم بهذا دون عـرض حـقـيقي قط للمشكلة نفـسـهـا في مجال الشـعور بصورة مباشرة! إن المبدأ العام الذي اهتم به أدلر، على أية حـال، هو أنّ الحلم كـان يبـدو بأنه تكرار لقلق يسـاور الحالم. وأنه بـالـتـكـرار عـلى هذه الصـورة، كـان يقـدم أحـيـانـاً تحـذيرات على مخاطر، وخطورتها تـتـمثل في احتمال إهمالها.

عندمـا ولدت ابنتي، كنت قـد حلمت أحـلامـاً مـشـحـونة بالقلق وكأنها تتصل بخوفي من أن أفقدها، شأني في هذا شأن كثير من الأمهات الحديثات التـجـربة في هذا المجـال. ومـثل هذه الأحـلام تفسر عـادة من وجـهـة نظر التـحليل النفسي بأنها تعـبير عن رغـبـة في التـخلص من الطفل الوليد، وهو تفـسير قد يحمل في طياته شيئاً من الحقيقة ذلك لأن الأطفال الحديثي الولادة يحدون من حـريتنا ويضطروننا الى السـهر في الليالي، وهم في معظم الأحيان يدفـعـوننا إلى الاهتـياج جراء ما يسببونه لنا من اسخاط. اننا في الغالب على وعي تام بمـثل هذه الرغاب العابرة، لذلك فان مثل هذا التفسير لا يضيف شـيئاً جـديداً هنا من جهة أخرى، إن ما يمكن أن تنبئنا به أحلام كهذه هو على وجـه الدقـة الكيـفـية التي نخشى فيها على أطفالنا وما قد يتعرضون له من أذى، ولذلك فـمن الأجدى في أغلب الأحيان أن ننقب في ثنايا الأحلام عن مـؤشرات تنم عن خطر حـقـيـقي ممكن حدوثه. ولقد حلمت ذات ليلة

مـثـلاً وكأن القطة قد قلبت المصباح المنضدي الكائن في غرفة نوم الطفلة مما تسـبب عنه حريق في البيت، وقد ترتب على ذلك أني في اليوم التالي أعطيت القطة الى صـديقـة لي وقـد توقـفت تمامـاً عن اسـتخدام المصباح المنضدي. فـالحلم يبـدو أنه مـزيج من خطرين حقيقيين محكيين تماماً ـ وهما القطة التي كـان يمكن أن تقفز على الطفلة وهي نائمة في سريرها، والمصباح الذي كان يمكن أن ينقلب بأكثر من طريقة ممكنة.

وفي مناسـبـة أخـرى، عندمـا بدأت ابنتي تمشي، حلمت أنها سقطت في الحـديقـة من خـلال فرجات مشبك حديدي يحيط بسطح الدار، وقد ترتب على ذلك في النهـاية أنني اتخذت الحـيطة لمراقـبتها وأبعادها عن الاقتراب من تلك الفـرجـات. وكـذلك حلمت أنني سـقطت من أعلى السلم إلى أسفله وأنا أحملهـا بين ذراعي، بعـد أن عـثـرت قـدمي في ثنايا سجادة ممزقة تغطي درجـات السـلم. وفي حياتي الواعية، كنت في حقيقة الأمر قد عثرت في هذا المكان أكـثـر من مـرة وكنت قـد أقـسـمت على إصـلاح الموقف ومعالجته في الحـال ودون إبطاء. فـفي كلتـا الحـالتين، كـان القلق مستحوذاً على الشعور عـنـدي بـصـورة أو أخـرى وفي مـعظم الأوقـات، لكنني كنت في كل مـرة أتجـاهل النتـائج العـملية الممكنة التي ستترتب على كل إهمال يبدر مني. إن أحـلامـاً من هذا النوع وهي تصـور لنا نتائج مشؤومة وتجعلنا نبلو(٥) جميع ما يصـاحـبـهـا من انفـعالات كاربة، لتفعل خيراً لنا وتصلح من مواقف حياتنا أكـثـر مما تفعله جميع النوايا الشعورية الخيرة في هذا العالم من حولنا. أياً كان الأمـر، وكما أكـدت من قـبل، فإننا ننام ونمـر بكثير من أحـلامنا، بحـيث تتـوفـر لنا على المدى البـعـيد خبرة أوفى تمكننا من تدوين ملاحظات ملموسة تـتـعلق بما ينتـابنا من حـالات القلق، كما تحـدث فـعـلاً في حـياتنا الواعية، فـتـجـعلنا نتـحـسس حالات القلق هذه بدلاً من دفنها في خلفية العقل وفي أعماقـه حيث تتحول هناك إلى مواد خام فتظهر على شكل كوابيس.

حلم ممتع قـصـته على صديقة لي وكنت قد سألتها ما إذا كان في المستطاع

أن أستعير مشطها وفرشاة شعرها، إذ كنت نسيت مشطي وفرشاة شعري الخاصين بي. فناولتني مشطاً، وهي تقول: [إن هذا يحسم الأمر. سأغسل فرشاة شعري في هذه الدقيقة] قالت هذا وقد غسلتها فعلاً. وعندما استفهمتها عن مغزى هذا العمل الغريب والمفاجىء، أجابت تقول: [منذ أسابيع خلت وحتى الآن، أقسمت بأن أغسل فرشاة شعري كلما استعملتها نظراً إلى أنها تتراكم عليها الأوساخ كثيراً - لكنني كنت هذه المرة جد مشغولة فنسيت أغسلها في حينها. ثم إني منذ ليلتين خلتا، رأيت حلماً وكأن الملكة قد جاءت لتتناول الشاي معنا. وبينما كنا على وشك الجلوس حول المائدة، لاحظت وأنا فزعة أن فرشاة شعري القديمة الوسخة كانت ملقاة وسط مائدة الشاي، ووجهها إلى الأعلى وهي تحتوي شعراً كثيراً عالقاً بها. وقد حاولت إبعادها بسرعة قبل أن تلحظها الملكة، وعند ذلك استيقظت وأنا قلقة أشد القلق.] الآن وأنا لست بالملكة، وأن الحلم قد غالى في إبراز النتائج الممكنة المترتبة على عدم غسل فرشاة الشعر، فإنه لمن الواضح أن ذلك الحلم كان من النوع المحذر من موقف لا يخلو من إحراج كان محتملاً حدوثه. أن تفسيراً فرويدياً لظهور الملكة في الحلم على أنها رمز للأم قد لا يضيف إلا قليلاً أو لعله لا يضيف شيئاً البتة إلى القيمة العملية للحلم ذلك لأننا جيعنا نعرف أن أمهاتنا يستنكرن عاداتنا القذرة. ففي هذه الحالة، نجد العقل الحالم، لكي يحقق هدفه، قد اصطفى رسالة أكثر الأشكال توضيحاً لموقف يتوخى تبيانه.

إن الأحلام (التذكيرية) و(التحذيرية) تشير إلى موقف ما أو حدث محدد كنا في وقت ما على وعي غير شعوري به لكننا دفعنا به إلى مؤخرة عقولنا. غير أن هناك بعض الأحلام التي تشير في الواقع إلى مواقف راهنة لسنا على وعي شعوري بها. لهذا السبب فأنا أسميها أحلاماً [استبصارية Clair-voyant] [والاستبصار ملكة تمكن صاحبها من الرؤية العقلية لما يحدث أو يوجد خارج نطاق البصر]، وإن كانت هذه، كما سأوضح لاحقاً، تنطوي

عـادة على تفسيرات طبيعية بدلاً من كونها خوارق.

الأحلام الاستبصارية [تبصيرية]

كنت قـد مـررت في حـالات كثيرة بأحلام (تنطق بالحقيقة) حول شيء ما يبـدو للوهلة الأولى أنه كـان قـد انتـقل إلى الدماغ عبر وسائل خارقة Para-normal وهـي أحــلام تجـعـل الحـالم في الـغـالـب يحس بالضـيق وعـدم الأرتيـاح، وخبرتي الأولى عن هذا، بقـدر مـا أستطيع أن أتذكـر، كـان قد حـدث لي وأنـا في المـدرسـة عندمـا أعلنت المديرة في أحـد الأيام أن الآنسـة (ر.) قـد غادرت المدرسة لتعنى بتمريض أمها التي مرضت فجأة. وفي تلك الليلة بالذات قـد حلمت أن الآنسـة (ر.) الصـارمة المفتولة العضل نوعاً ما، من ذلك الجنيني الشـاب الوسـيم الذي يعـمل في حديقة مدرستنا. وأياً كان الأمـر، فـعندمـا اخـتـفى الجنيني ولم نعد نراه أسابيع تلت هذا الحلم، رحنا نبـحث عنه ونتـسـاءل عن أسـبـاب غـيبته، اكتسفنا أن حلمي ذاك كان قد (نطق بالحـقـيقـة). وقـد تأثرنا لذلك تأثراً كـبيراً إذ رأينا حلماً يتحقق، وقد تـلـقـيـت بـعـد ذلـك عـدة الـتهاسـات بـأن أحلم أحـلامـاً تـتـصل بأسئلة الامـتـحـانات، وبمستقبل صديقاتي وحظوظهن، وهلم جرا. وكانت النتائج في العـادة مخيـبة للآمال، ولكن لو أنني واظبت على ذلك لربما أصبحت نبية لا نفسانية!

ومـهما يـكـن مـن شيء، فـإنـنـي عندمـا شرعت أتدبر الخبرة فـيما بعـد، تذكـرت أنني كنت قـد لاحظت في الحـقـيقة الآنسة (ر.) أكثر من مرة وهي تتـمـشى في ساحة المدرسة بصحبة الجنيني، وقبل سفرها بعدة أيام فإن عدداً من البنات كن قـد ألمحن بأن الحدائقي قد اختفى. وقد تذكرت كذلك أنني سـمـعت الآنسـة (ر.) وهي تدندن همسـاً مع نفـسـهـا إذ تقـول: [إن أنت أحـبـبت فإن العـالم كله يترنم من حـولك بالألحان]، كانت تردد ذلك لدى مـرورها في المـمـر على مـقـربة مني قبيل مبارحتها إيانا. ورغم أني لم أكن من

الناحية الشعورية أفكر بهذه الأشياء عندما أعلنت مديرة المدرسة علينا إعلانها ذاك، فإن شيئاً ما ربما كان قد طبع في دماغي لغزاً مصغراً يوحي بما كان في فكر الآنسة (ر.) من ابتهاج حملها على البشاشة وهي تعرف أنها مقبلة على تمريض أمها المريضة، ولابد، في الوقت نفسه، أنني قد استوحيت في مكان ما من خلفيات عقلي حلاً ممكناً يرتبط بإطار رومانسيتها مع ذلك الجنيني. فإن عقلي النائم، وهو يعيد تنظيم مجرياته الليلية، قد التقط مادته النهارية وراح يعرضها على صورة قصة مصورة.

ولعل أكثر الأحلام الاستبصارية إيلاماً هو ما روته إحدى أعضاء المجموعة التي أجري عليها دراساتي الخاصة بالأحلام، اسمها (جوان)، إذ جاءتني في إحدي الأمسيات وهي تبكي وروت لي حلماً رأت فيه كأنها وجدت رسالة في جيب الصدر من سترة زوجها الخاصة بالرياضة. ورغم أنها استيقظت قبل معرفة محتويات الرسالة فإنها لبثت تحس قلقاً شديداً، وهي، وإن كانت تعرف مسبقاً رأيي بأن أي حلم يحدث لنا يجب أن نتحرى في ثناياه عن علامات تدل على ما هناك من حقائق موضوعية، إلا أنها مع ذلك قد استسلمت للذعر والفزع ـ وبعد أن خرج زوجها للعمل، راحت، وهي تشعر بشيء من الإثم ـ راحت تبحث في خزانة ملابسه عن دلائل ذات صلة بما رأت في حلمها. ويا لدهشتها ويا لفزعها، إذ عثرت هناك في جيب الصدر من سترة الرياضة الخاصة بزوجها على رسالة من فتاة لم تسمع بها من قبل، والرسالة تشير بوضوح إلى أن ثمة علاقات غرامية كانت جارية منذ بعض الوقت.

وعندما ألح عليها أعضاء المجموعة بأن تسترجع ما هناك من ذكريات ممكنة كانت قد حصلت لها فيما دون عتبة الإدراك من الذاكرة، ولها علاقة بالحلم، أجابت بأن زوجها خلال الأشهر القليلة السابقة للحلم كان كثيراً ما يمضي الليالي خارج البيت، وكان غالباً ما يعود إلى البيت متأخراً بعد انقضاء ساعات عمله، وقد حصل مرة أو مرتين أن لاحظته يضع سماعة

التلفون فوراً حال دخولها الغرفة عليه وهو يتحدث في التلفون. وقصته أن عمله كان يقتضيه أن يعمل ساعات عمل إضافية، وإن عقلها الواعي الشعوري كان متقبلاً هذه الحقيقة. فخلصنا إلى أنها لابد أن تكون قد لاحظت هناك شيئاً من المفارقات والمتناقضات فدفعتها بعيداً إلى أغوار خلفيات عقلها لأنها لم تشأ أن تواجه إمكانية أن يكون زوجها غير مخلص لها. وإنه لمن الممكن في الوقت نفسه أن تكون في الحقيقة قد لمحت يوماً ما طرف رسالة في جيبه وهو يخلع سترته، فتكون من كل ذلك إدراك فنبه ما في ذهنها من قلق سابق راقد هناك، فراح عقلها الحالم يجمع شتات هذه الأطراف كلها فعرضها على شكل قصة مصورة محددة بذلك معالم قلقها من الناحية الأخرى، فإن ظهور الرسالة الحقيقي في الحلم قد يكون في الواقع مصادفة بحتة، حيث كان عقلها ببساطة يستعرض ويفسر ما يساورها من قلق، إذ كان يقوم بذلك في حدود معايير درامية تتعلق بالأساليب التي تكتشف الزوجات فيها خيانات أزو اجهن.

هذه الحادثة قادت بطبيعة الحال إلى مناقشات مستفيضة جرت بين أعضاء المجموعة حول إمكانية أن يرى شخص ما حلماً يعبر عن حالات ليس لها في الحقيقة أي أساس تقوم عليه. ألا يمكن أن يكون مبدأ البحث عن حقيقة موضوعية تنطوي عليها الأحلام في ثناياها، هو الذي أفضى إلى كثير مما لا داعي له من الشك والتعاسة؟ أما يجدر بنا أن نحتاط ضد ميول ذهانية تأخذ بنا إلى الظن بأن هناك أناساً يريدون أن يخدعونا في حين لا تكون مخاوفنا هذه معقولة؟ والجواب البسيط كان يبدو لنا أن (جوان) هذه لو لم تكن فعلاً قد عثرت على أية رسالة أو لو أنها لم تجد أي شيء يماثلها، لكانت الخطوة التالية أن تطلع زوجها على تفاصيل حلمها ذاك بدلاً من أن تبدأ بمراقبة حركاته بعين الشك والريبة. ذلك أنه كان هناك في علاقاته ولا هو بمخلص، فلا يوجد ثمة سبب يدعو الشخص الآخر إلى أن يقابل الإساءة باللطف والعطف. فلو أن مناقشة كهذه قد أماطت اللثام عن أن

زوجـهات كان في الواقع يعاني من إحباط في زواجه، لما تمخض الحديث عن ذلك إلا عن نتـائج طيـبـة لكانت المسألة قـد حـسـمت لا ريب. من جهة أخـرى، لـو أن المناقـشـة كـشـفت عند (جـوان) عن وجـود حـالات تمامـاً ذهانيـة، وأحـاسـيس حقاً ليست بعقلانية فإن هناك حالة واضحة تستوجب التـحري أكثر في أغوار أحلامها بحثاً عن لقطات تتصل بالجذور الممكنة لمثل هذه المخاوف. وهذا ما سنبحثه بإسهاب في الفصل التالي.

وفي الأسـبـوع التـالي، روى لنا حلماً عـضـو آخر من أعـضـاء مجمـوعـة الدراسـة، واسـمـه (ديفـيد)، ذكر أنه رأى خطيبته تتسلم مبلغاً من المال من زوجـهـا السابق، رغم أنها كانت قد وعدت ـ ديفيد ـ بألا تعود إلى مثل هذه الممارسـة منذ أن قـررت العـيش مع (ديفـيد) هذا. وهذه المسألة أصبحت في الأيـام الأولى بـعـد تعـارفـهـا مـثـار نزاع بينهما، فـفي الوقت الذي كـان هو يريدها أن تقطع صلتـها وعلاقتها بزوجها السابق تماماً، كانت هي تصر على الاسـتـمـرار على تلقي المبـالغ منه إلى أن يتم زواجها من (ديفيد). و(ديفيد) كـان ممتـعـضـاً مما رأى في هذا الحلم، الذي لا يجد فـيه حقيقة ملموسة وإنه حلم كـان يشير إلى عـدم ثقـتـه بخطيبته من جانبه هو وأن أحاسيسه ليست مـعـقـولة. وقـد أخبر خطيبته بذلك صباح اليوم التالي، وراح الاثنان كلاهما يتـحريان عن نقاط ضعف ممكنة في ثنايا شخصيته هو. وعندما عاد ليلاً بعد انقـضـاء يوم عـمله وجـد مـائدة الطعام معدة لشخصين اثنين بجانب سراج من الشـمـعـدان وعلى المائدة طعـام وشراب. كان عشاء فاخراً وشهياً، وبعد أن أصـاب منه كـفايته وانتشى امتدت خطيبته إليه عبر المائدة قبل أن تنهض منها، وقالت له لديها شيء تريد أن تفضي به إليه. إن حلمه كان صحيحاً، إذ قـالت له: سبق لها في الحقيقة أن تلقت من زوجها السابق مبلغاً من المال وإنها كـانت واثقـة من أن ديفـيـد سـيصفح عنها ويسمح لها ما فعلت لأنها كـانت قـد أنفقت المبلغ الذي تلقته. وقد اعترفت له بإحساسها بالاضطراب الشـديد من جـراء مـا لديه من قـوة ظاهرة واضحة تمكنه من (قراءة أفكارها

وما في عقلها) بواسطة أحلامه، وإنها فكرت مع نفسها بأن ليس ثمة ما يستحق أن يحملها على أن تحاول خداعه مرة أخرى أو أن تخفي عنه شيئاً ثانية.

كان أعضاء المجموعة على استعداد لاعتبار هذا الحدث نوعاً من التطور البهيج في العلاقة بينهما، لكنهم كانوا مترددين في أن يعزوا إلى ديفيد أية قوى خارقة. إذ نظرنا إلى المسألة على أنها حالة أخرى من حالات الدماغ وهو يقوم (بلعبة المتحري) وذلك بقيامه بعملية صف اثنين بجنب اثنين تجميعاً لمؤشرات ضئيلة كاد قد تلقاها وهي تمر به فيما تحت مستوى الوعي الشعوري، وهو يرى أثناء مراقبته سلوك خطيبته. وتعقلاً من ديفيد بعد مرور الأحداث، فإنه استجاب إلى منطق الحكمة وعلل الأمر بأنها ربما اعترفت له بمنطق هو دون عتبة الأدراك لديها، أو لعل الأمر يعزى في الحلم إلى أنها لم تطلب منه مبلغاً من المال فترة طويلة، أنها كانت قد إبتاعت شيئاً ما حسبه هو فوق ما تسمح به قدرتها الشرائية، وإن عقله الواعي الشعوري قد تحاشى مواجهتها بالأمر أو مكاشفتها على أساس من قرائن مستمدة من استنباطات واستخلاصات ظاهرية فقط.

إن جميع الأمثلة التي ضربتها حتى الآن، كلها توضح أحلاماً استبصارية مباشرة وصريحة، لكنني كذلك وجدت حالات كثيرة من الأحلام تصف جوهر الحقيقة لكنها تكون نوعاً ما خارج نطاق المطلوب لانصرافها إلى تفصيلات متنوعة، ففي إحدى المرات مثلاً، قد (حلمت) وكأنني أفتح صحيفة الصباح وأنا على مائدة الإفطار فرأيت فيها صورة كبيرة لصديق لي وهو محلل نفساني ساخط. رأيته يقف هناك وعلى وجهه ابتسامة عريضة وهو يتوسط صورتين لكل من (فرانك سينانزا) و(توني كيرتس)(٦) والتعليق أسفل مكتوب بحروف كبيرة يقول [المحلل النفساني المغني]. ومضت الصحيفة في تعليقها تقول أنه قد اختير من بين مئات المتقدمين ليلعب دوراً رومانتيكياً أساسياً في فلم موسيقي مع ذينك النجمين الشهيرين. وأنا في

الحلم ذاك شعرت بمزيج من الانفعالت - إذ أحسست بالمتعة من فكرة قيامه بذلك الدور، وداخلني إعجاب به لمبادرته تلك، وخالجني انزعاج من فكرة زج نفسه في عين الرأي العام وبذلك يكون قد تجاوز على ما كنت أعتبره أنه من ضمن حدودي التي أعمل في إطارها - ذلك لأنني كنت أرى فيه المحلل النفساني المتحفظ المتسم بالواقعية ذا المكانة الأكاديمية الرفيعة وأعتبر نفسي من ناشري وذائعي ومروجي قضايا التحليل النفسي على شاشة التلفزيون وبواسطة الراديو وعلى صفحات المجلات. شعرت وأنا في الحلم بأنه كان إجحاف بالغ من جانبه أن يقوم بذلك الدور، وبخاصة في ضوء ما أعرفه عن اتجاهه الفائق إزاء ما أقوم به من نشاطات.

إنني بطبيعة الحال قد محصت حلمي وتبينت أن ما رأيت عن الزميل كان بعيداً عن أن يقوم رجل مثله بدور موسيقي جديد، إذ لم يسبق له أن ظهر في التلفاز ولم يتحدث في المذياع ولم يسبق له أن نشر شيئاً في الصحف المتداولة. فكنت مأخوذة بالدهشة والعجب. من أين دبر عقلي قصة كهذه ومن أين نسج حلمي خيوطها، فرحت أتلاعب بمختلف التأويلات النفسية وأقلبها على وجوهها وكل ذلك في حدود صيغة هي: [ترى كيف أنظر إلى صديقي المحلل]، فما من تلك التفسيرات قد أصاب الهدف أو بلغ المرمى. وبعد أيام قلائل، على أية حال، قد سمعت من صديقة لي أنها كانت قد كتبت بواسطة عنوان صندوق بريد ومعلنة على صفحات مجلة تعلن عن حاجه إلى معالج لمجموعة تدريب على تجارب الحساسية، وإنها تلقت من هذا المحلل جواباً يخبرها فيه أنه ابتدأ مؤخراً هذا النوع من العلاجات وأنه الآن يشرف على مجموعاته الخاصة به ويتولى علاجها. وبهذا يكون جداً قد تجاوز إلى حدودي، ولكن ليس تماماً بالمعنى الذي حدده حلمي، ذلك لأنني كنت قد بدأت بمجموعاتي المتناظرة الخاصة مستخدمة في العلاج والممارسة المبادي النفسية الجشتالية وكذلك تفسير الأحلام منذ أشهر سابقة. اعتبرت نفسي واحدة من الرواد في الحركة الإنسانية

الفعالة human Potential Movement في انكلترا وإني لم أدخر وسعاً في أن أوضح لصديقي المحلل أن طريقته التقليدية في العلاج كانت في طريقها إلى التلاشي وإنها سرعان ما ستخلي مكانها للأساليب الجماعية الجديدة في العلاج. وإنه حسب مزاجه الخاص ووفق سجيته المعتادة، قد صب سخريته على الفكرة كلها ويبدو واضحاً أنه قد لبث تماماً غير مقتنع في كل ما أعقب ذلك من مناقشات أجريناها.

ومن خلال النظر إلى الوراء واستجلاء الماضي، كان بمستطاعي أن أتبين بوضوح أنه كان قد استنطقني حول المجموعات، وفيما يخص الكتب، وعن جميع المعلومات ذات العلاقة بالموضوع إلى درجةكانت تخرج عن نطاق ما يبدو أنه أمر مجرد من الغرض. ومن الواضح أنني قد سجلت هذه المفارقة في الأعماق الخلفية من عقلي وإن حلمي قد حاك قصة تتناول الشك المتكون فيما تحت عتبة الإدراك، وإن الشك كان يتصل بالظن في أنه تجاوز على ما يخصني من حدود. وإن الحلم كذلك قد أطلعني عرضاً على شيء في خلق الرجل كنت من قبل أجهله ولم أكن على وعي شعوري به. فتحت ظاهرة المتحفظ المتزمت، كانت تكمن هناك عنده رغبة توشك أن تنفجر وأن يسايرها كما هي وكما تريد في مظهرها السيكولوجي، هذا بالإضافة إلى ما يكنه من حسد ممكن لي أتمتع به من مكانة في مجال علم النفس المألوف بين الناس. وإنه لمن الممكن كذلك أن يكون حلمي قد التقط منه ذات يوم خيطاً حاسياً يمثل طموحاً لديه يحمله على أن يتحين الفرص على غفلةمني لعله يحسن من مستقبلياته بطريقته الخاصة.

لعل هذا الحلم علمني عن المحلل أكثر مما علمني عن حقيقة نشاطاته. وإني أجد كثيراً من الأحلام تجلو عناصر وتكشف عن جوانب تتصل بحقائق موضوعية تخص شخصاً معيناً، وكانت تلك العناصر قد فاتت على العقل الشعوري لأن يدركها في الحياة الواعية. إن هذه الأحلام بوجه عام أقل غرابة من نظيرتها الاستبصارية التي تتصل بأحداث خاصة محددة،

لكنها ليست بأقل فائدة ونفعاً. وعبر السنين ها أنني قد تعلمت ألا أمحص شخصية تبدو في الحلم من وجهة نظر ذاتية، مهما كانت الصورة تبدو غريبة، فما كنت أفعل ذلك قط ولا أقدم عليه قبل أن أستيقن بصورة مطلقة أولاً إن هناك في أقل تقدير شيئاً من الحقيقة الموضوعية فيه.

الاستعماق في الناس والاستشفاف:

واحد من أبسط الأمثلة التي تطرأ على ذهني في حالة السيدة (ب)، وقد التقيت بها خلال العطلة في العام الماضي. إذ كنا نتحدث أنا وهي عن انتشار ظاهرة استعمال العقاقير، والحبوب، والأدوية بمختلف أنواعها في المجتمع الحديث، وكنا نشجب اعتماد مستعمليها عليها اعتماداً يكاد يكون منتظماً من الوجهة النفسية. كانت السيدة (ب) متفقة معي قلباً وقالباً حول الموضوع، وهي ترى أن أفضل سبيل وأجداه هو الابتعاد عن هذه العقاقير والحبوب تمام الابتعاد إذا كان ذلك ممكناً، وأضافت أنها لم تقرب هذه الأشياء قط. وفي تلك الليلة حلمت بأن السيدة (ب) واقفة في غرفة حمامها أمام رف عليه كثير من القناني، وكانت تلتهم منها حبوباً بالدوزينة. استيقظت صباحاً وأنا مقتنعة تماماً أنها قد انتحرت، ولكني شعرت بالارتياح الكامل عندما خاطبتهم هاتفياً وجدت أن السيد والسيدة (ب) يتناولان طعام الإفطار سوياً كالمعتاد. وبعد ذلك خلال النهار ذكرت حلمي هذا إلى السيد (ب) فضحك وقال، [إنه لمضحك أن تحلمي بذلك وترينه في الأحلام. فأنا لا أكف عن قولي لها إنها إذا هي استمرت على تناول الحبوب وهذه الأشياء أكثر من اللازم، فإنها سترمي بنفسها في مهالك المرض، لكنها لا تلقي إلى ذلك بالاً. حقاً إنها لوسواسية ـ هناك دائماً شيء غلط في نفسيتها.] أما من جهتي فأنا لا أزال لست متأكدةكيف عرفت هذا. لعل شيئاً ما، وهي تتحدث، قد أخفق في أن ينطق بالحقيقة ـ من ذلك مثلاً قد تكون نبرة صوتها، ولعلها اختلاجات وجهها البسيطة،

وربما يعـزى الأمـر إلى ململتـهـا العـصـبـيـة ـ وقـد يرجع الموضوع إلى أنني شـاهدتها في الحقيقة خلال النهار وهي تبتلع شيئاً ما. فمن المرجح، على أية حـال، إن كـلا الجـزئين المتـضـاربين من هذه المعلومـة قد اجتمعا في دماغي لـيكـونا لغـزاً أمكن له في النهـاية أن يتـوحـد بشكل درامي منسق فظهـر في حلمي ذاك.

وحلم آخـر مماثل حـدث في وقت كنت أشـارك فـيـه ضـمن جماعة نفسية ديناميه Psychodynamic. في ذلـك الحـلـم، رأيـت كـأننا أنا وأعـضـاء المجـمـوعـة كنا في رحلة معينة وقررنا أن نمضي ليلة في أحد الفنادق يبدو أنه مـهـلـهـل، وضـيع، ليس بجـذاب. وكـان من بين البنات فـتـاة اسـمـهـا (سـوزان)، مـعـروفـة بأفكارها المتطرفة، قد عارضت بشدة مسألة الإقامة في ذلك الفندق، وقـالت إنها ستمضي ليلتهها مقيمة تلك الليلة في فندق مرتفع الأجـور عبر الشـارع في الجـهة المقابلة لذلك الفندق الذي نوينا المبيت فيه. بحـثنا حلمي هذا وناقـشناه صـباح اليوم التالي في اجتماع كانت فيه (سوزان) غـائبـة، وقـد عبر كل واحـد من أفراد المجموعة عن دهشته في سر اختياري لها من بين أعـضـاء المجـمـوعة كافة، لتقوم بهذا الدور. وفي الأسبوع التالي، انفـردت بها جـانبـاً بعـد الاجتماع وأخبرتها بحلمي عنهـا. وقـد بدت عليها باديء الأمـر الدهشة وقد صدمت صدمة خفيفة، ثم ضحكت وقالت، [ها أنت قـد رأيت مـا في داخلي في خـاتمة المطاف. إن ذلك كـان تمامـاً ما كنت أفـعله ومـا سأقـوم به. والحق، أنني قـد اخـتلفت وتشـاجـرت أنا وصديقي الشـاب حـول مـوضوع مماثل قبل يوم من ذلك.] فعلى مستوى شبه الشعور Subconsious، لابد أنني قـد التـقطت لمحـات تشير إلى أن (سوزان) هذه لم تـكن حـقـاً مخلصـة في ممارسـاتها المتطرفـة تلك. وإن هذه المسألة بالذات ضـمن إطار مجمـوعـتنا لم تكن بالغة الأهمية، ولكن لو كنا جميعنا ننتسب إلى حـزبهـا المتطرف ذاك، لكانت المعلومـات التي وردت في الحلم ذات مـتـعـة عظمى!

وإن مثالاً آخر أكثر رصانة يتصل بالأحلام التي تستشف ما في أذهان الناس، حلم حدث لزوجي، منذ سنوات خلت عندما حلم بأن زميلاً جديداً له في العمل قد دعاه إلى العشاء ذات مساء ومما قدم من طعام على المائدة خضار مطهوة ولكنها تعج بالديدان. أحس زوجي آنذاك أن هذه هي طريقة الحلم التي تنبهه إلى أن زميله لم يكن مستقيماً. لذلك فحص ما ساوره بشأنه من شك فوجد ذلك صحيحاً. لذلك فقد ألغى الصفقة التي كان مقرراً أن يعقدها معه، والتي لو تمت لأخسرته مبلغاً من المال جسيماً. فهذه حالة واضحة وصريحة للتدليل على ضرورة تمحيص ما ينطوي عليه الحلم من إدراكات، قبل البدء باتخاذ ما ينبغي تحسباً لما قد يكون عليه الأمر كله إنه مجرد وهم وخيال من جانب زوجي.

وبالمقابل، فإن الحلم قد يكون مضللاً إذا ما نظرنا إليه بصورته الحرفية، حتى وإن كان مبنياً على إدراك حسي صحيح. ومثال جيد على ذلك هو ما روته إحدى عضوات مجموعتي التي أجريت عليها دراساتي في الأحلام، واسمها (ليزا) كانت مروعة بهذا الموقف، لاعتقادها بأن تلك المربية وإن لم تكن هي أكفأ ما في هذا العالم من مربيات، بيد أنه لم يكن هناك سبب ظاهر يحمل على الظن بأنها سيئة، ورغم ذلك، فإن (ليزا) هذه قد أخذت حلمها هذا بنظر الاعتبار فوضعت المربية تحت المراقبة الدقيقة. ثم حلمت حلماً آخر رأت فيه أن ورقة نقود من فئة عشرة باونات قد سرقت من حقيبتها. وعندما استيقظت اكتشفت أنها كانت قد تركت حقيبة يدها أسفل السلم أثناء الليل، وأن ورقة نقود فئة عشرة باونات في الحقيقة قد فقدت منها. فما كان من (ليزا) إلا أن تعجلت ما كونته من خلاصة في ذهنها فأبلغت دائرة الشرطة القريبة منها بالأمر. حضرت الشرطة وزرعوا في أرجاء البيت نقوداً تحمل صبغات خاصة تعلق بأيدي أي شخص يلمسها. اختفت النقود كما ينبغي فسارعت (ليزا) إلى إبلاغ الشرطة بذلك. ولدى التحري وجدت أيدي المربية نظيفة، لكن يدي المنظفة كانتا ملطختين باللون الأحمر

القاني واللون الأزرق، ولدى تفتيشها وجدت النقود مخفية عندها شخصياً.

وبطبيعة الحال، فإن (ليزا) شعرت برهبة لذلك، وإن أعضاء المجموعة قد ناقشوا الأسباب الممكنة لتلك الأحلام. بقي الحلم الأول سراً غامضاً، وأخيراً كان لابد من أن يبحث على أسس جشتالتية، وأن تقوم (ليزا) بدوري المربية والطفلة، لكن الحلم ذاك قد أخفق في أن يطلعنا على أي شيء بشأن الموقف الموضوعي، بيد أن الحلم الآخر، على أية حال، كان يبدو أكثر وضوحاً نوعاً ما، إذ أن ليزا كانت تعرف في مستوى شبه الشعور عن عشرة الباونات التي تركتها في حقيبتها أسفل السلم خلال الليل. وإن هذا الموقف لابد أن يكون قد بقي عالقاً في ذهنها فأثار لديها شيئاً من القلق أن تأوي إلى فراشها، ومن هنا جاء حلمها ذاك بأن ورقة النقود تلك كانت قد سرقت. ولما كانت لديها مسبقاً شكوك حول رصانة المربية وسلامة موقفها، وهي شكوك تقوم على أساس من الحلم الأول، فما الذي عسى أن يكون في ذهنها عادة أكثر من أن عقلها النائم كان ينسج قصة جمعت بين طرفي المخاوف عندها؟ على أن الموقف يبدو غريباً نوعاً ما أن يكون الحلم صحيحاً إلى هذه الدرجة التي يدلنا فيها على أن النقود قد سرقت حقاً، وأن حلاً ممكناً لذلك قد تكشف في اليوم التالي عندما طلبت المنظفة من المحكمة أن تأخذ بعين الاعتبار عدة سرقات صغيرة أخرى كانت قد اقترفتها في بيت (ليزا). فمن الممكن أن تكون لدى (ليزا) إدراكات حصلت دون مستوى الإدراك عندها تتعلق بسرقة نقودها وهي عملية مستمرة عبر فترة من الوقت ولذلك فقد حدث ما كان متوقعاً وهو أن النقود قد سرقت فحلمت بما وقع. إذ كان من الممكن أن تفقد بكل سهولة باوناً أو باونين، بدون أن تدرك ذلك إدراكاً شعورياً، لكن اختفاء عشرة باونات أمر يختلف تماماً. إن مغزى هذه القصة، بطبيعة الحال، هو أن نأخذ الأحلام مأخذ الجد ولكن يجدر في الوقت نفسه التحقق تماماً من جميع التفسيرات الموضوعية قبل الإقدام على أي إجراء من أي نوع كان. لعل العقل شبه

الشعوري يحتوي على قدر من القوى القادرة على التحري على التحري والاستكشاف، لكنه كغيره ممن يقومون بالكشف والتحري يمكن أن يقع في خطأ.

الأحلام الاستباقية [التعرف المسبق]:

إن الأحلام التي كثيراً ما تؤدي إلى نشر مقالات مثيرة في الصحافة هي تلك الأحلام التي تبدو أنها تنبيء عن المستقبل. وحسب الاصطلاح الفني المتبع في البحوث النفسة Psychical research فإن أي حلم يبدو أنه يشير إلى أن في عقل الأنسان معرفة مسبقة foreknowledge بشيء ما يمكن أن يسمى حلماً استباقياً Precognitive، تمييزاً له عن حالات الاستبصار Clairvoyance الذي يراد به الملكة faculty الواضحة التي تمكن صاحبها من رؤية الأشياء أو الأحداث الموجودة مسبقاً، وذلك بدون أن يمر التعرف عليها خلال قنوات الحواس الاعتيادية.

ليس في نيتي أن أعلق هنا على تلك الأحلام التي يبدو أنها استبقت في الرؤيا وقوع كوارث عامة مثل غرق الباخرة [تايتانك Titanic] أو اغتيال الرئيس جون كندي، باستثناء القول أن بعض القصص الموثقة الصحيحة تبدو حقاً أنها على جانب ممن الغرابة كبير، هذا حاصل حتى وإن فسحنا االمجال للحقيقة القائلة أن هناك في أية ليلة آلاف الناس يحلمون بسفن تتحطم ورؤساء يموتون، وهلم جرا. وأن الأحلام التنبؤية التي امتلك خبرة مباشرة حولها هي من النوع الشخصي الخاص بي، وإن استخلاصي بشأنها أنها يمكن أيضاً تفسيرها عادة على أساس أنها نتيجة (لنشاط استكشافي) تم تحريه على مستوى شبه الشعور، وإنها، وإن كانت تشبه الأحلام الاستبصارية الظاهرية، فإنها في الوقت ذاته لا تبدو إنها غريبة أو متميزة.

وإني قد خبرت مؤخراً حالة نوع من الحلم تجلى فيها أوضح معانيه الدالة

على الأحلام الاستباقية إذ رأيت فيه سني الأمامية قد سقطت محدثة رنيناً في الطبق الذي أمامي وأنا أتناول العشاء مع مجموعة من الناس المرموقين في أحد المطاعم. وخلال الدرس في اليوم التالي، رويت الحلم إلى محللي الفرويدي، فما كان منه إلا أن انبرى على الفور فراح يغور بعيداً في التعقيدات الخاصة بقلق الخصاء Castration وما حسبه قابعاً في ذهني من أخيلة وأوهام تتعلق بفقدان القضيب. وفي الليلة التي أعقبت ذلك اليوم، كنت في حفلة تخللها شراب وقدمت فيها أجبان وبينما كنت قد غرزت أسناني في قطعة من الجبن لأقضمها علق غطاء سني بتلك القطعة فتحرك من مكانه فوقع في الإناء الذي كان أمامي. ولقد اضطربت باديء ذي بدء لهذا الحدث وعجبت من قدرتي ومن قواي الخاصة بالاستشفاف والمعرفة المسبقة لدي، لكن اضطرابي تلاشى عندما أدركت أني كنت أعرف منذ أمد ليس بالقريب أن غطاء سني لم يكن ثابتاً وإنه كان يتعين علي أن أراجع طبيب الأسنان منذ فترة بعيدة من أجل إصلاحه. والحقيقةأن ذلك كان ضرباً من ضروب الأحلام التحذيرية وقد تحقق فعلاً قبل اهتمامي بإصلاح ما كان يجب أن أهتم به من قبل. فلو اتفق أن حدث قبل أسبوع أبكر من وقته الآن، لكان من المرجح أن أحصل على موعد من طبيبي لأزوره، ولما ترتب على ذلك أي استباق أو معرفة مسبقة.

أكثر الأمثلة على الأحلام الاستباقية الواضحة، ازعاجاً هو مثال روته إلى أعضاء مجموعة دراسة الأحلام، الفتاة (سالي)، كانت قد حلمت وكأنها قد قدمت إلى ملك من ملوك الشرق وتم تقديمها إليه على قاعات قصره، وبينما كانا يتكلمان دخلت عليهما القاعة مجموعة فتيات مرحات مغتبطات وكن يتضاحكن، وقد جاءت تتبعهن امرأة نصف(٧)، لكنها تبدو حزينة، وظنتها (سالي) أنها كبيرة زوجات ذلك الملك. هذه المرأة كان يبدو واضحاً عليها أنها حزينة. وشعرت سالي بأن الملك طالما لم تعد به حاجة جنسية إلى تلك المرأة لذلك فهو قد أوكل إليها دور تنظيم شؤون القصر وما يتصل به

من حشم وخدم. وحسبت سالي أنها هي أيضاً قد أوكل أمرها إلى تلك المرأة. في أثناء ذلك تقدمت إحدى الفتيات إلى سالي وقالت لها: [أما تعرفيني. كنا من قبل معاً متوحدتين في تجسيد سابق.]

استيقظت سالي من نومها وهي كئيبة، إذ أحست إحساساً غريزياً أن الملك كان يمثل زوجها وأنها هي نفسها كانت ترمز إلى كبرى الزوجات. وقد ربطت بين صورة الملك وبين ما ذكرته عن زوجها من شك فيما كان يساورها حيث كانت ترى فيه أكثر من أثر من آثار (السيد المطلق أو الأعلى) Overlord، رغم ما كان يبدو عليه من عطف ولطف وإنصاف. أضف إلى هذا، فإن حديقة القصر ذكرتها بالحديقة المعطرة، أو حديقة العطور، وهو كتاب كانت قد قرأته يتناول أساليب الجنس الشرقية ـ وهي حديقة وردت في الحلم وكانت هي مجرد زائرة لها ومراقبة أو مشاهدة لمناظره. وقد أوضحت أنها عبر السنوات القلائل الماضيات أنها هي وزوجها قد خففا من تواصلهما الجنسي إذ انصرفت هي أكثر فأكثر مكرسة وقتها إلى البيت والأسرة. أما إشارة الفتاة إلى ما ذكرته من تجسيد متوحد فقد ذكرها ببواكير زواجهما هي وزوجها عندما كانا شديدي الاتصال ببعضهما والارتباط الزوجي بينهما وانطلاقهما آنذاك انطلاقاً مرحاً بعيداً عن القيود. ونظراً إلى معرفتها بعمل زوجها، وهو يدخل في صلب صناعة الأفلام، وأن طبيعة عمله هذه تحتم عليه أن يقابل كثيراً من الفتيات الجميلات، فإنها قد استبعدت أي إيحاء يداخلها أو يثير في نفسها الشك بأن له علاقات غرامية معهن. إذ قالت: [إنه ليس من هذا الطراز وهذه ليست من سجاياه. إنه ليمتنع عن ذلك امتناعاً تاماً.] انتهت المجموعة إلى قرار مؤداه أن الحلم يعكس إحساسها بالقلق حول حالة زواجها وقد نصحناها بأن تحاول تغيير الموقف كله. غير أن هذا النصح، على أية حال، قد جاء بعد فوات الأوان، ذلك لأن زوجها بعد هذا الحلم بأشهر قليلة قد جاء إلى البيت بفتاة، وهو يقول إنها بحاجة إلى سكن مؤقت يأويها وبينما تجد لها

سكناً في مكان آخر. ومنذئذ تلت ذلك سلسلة طويلة من الغراميات مع عدة فتيات كان يأتي بهن إلى البيت من وقت لآخر، في الوقت الذي كانت فيه (سالي) هذه تطبخ، وتنظف، وتقوم على خدمتهن جميعاً.

كان الحلم غريباً ومتميزاً بما انطوى عليه من دقة في التنبوء. ولكن يبدو لي أن هناك في مكان ما وضمن هذا المجال لا بد أنه كان يتوفر عند (سالي) نوع من التبصر النفاذ إلى أعماق شخصية زوجها وما كان عليه من سجايا وبما يتصل به شخصياً حقاً. إن جزءاً من عقلها كان يعي أنها لم تكن في الواقع ترغب في استئناف علاقة جنسية نشطة مع زوجها، وإنه في الوقت الذي كان فيه عقلها الواعي إلشعوري يؤكد لها أن زوجها كان مزموماً وبعيداً عن أن يكون علاقات غرامية مع نساء أخريات، فإن عقلها شبه الواعي أو شبه الشعوري كان يدرك خلاف ذلك. والنتيجة التي نجمت عن كل ذلك أنها من المرجح أنها تكون قد بدأت تعمل بهذا الاتجاه وأن عقلها أخذ يسير بهذا المنحى ويلتمس حالاً فيما تحت الشعور، فكأنها كانت توطن نفسها على أن تجاري زوجها فيعيشان معاً تحت سقف واحد، وهو حل ضخمه عقلها النائم بشكل دراماتيكي فأخرجه في صورة حلم. وإن سالي بطبيعة الحال قد ابتأست باديء الأمر عندما أصبح ما رأته من حلم أمراً حقيقياً، ولكن ما أن تعودت على الموقف الجديد، حتى بدت مقتنعة قناعة معقولة وتامة بما أقدمت عليه من ترتيب طالما أن الجيران لم يكونوا يعرفون بما يجري. ولقد حذرها أعضاء المجموعة من أن زوجها قد يجد في يوم ما فتاة يرغب في الزواج منها فعلاً، فيهجرها هي، رغم تكريس وقتها وجهدها للعناية بالأولاد وإدارة البيت وانصرافها إلى ذلك انصرافاً كلياً، لكنها رفضت الإيمان بهذا والاعتقاد به على أساس أنه لم يكن وارداً في حلمها ولم يكن جزء منه. ولقد أعربنا جميعنا عن أملنا بأن تحلم حلماً آخر يقعنها، وذلك نظراً إلى أننا أحسسنا بأنها كانت تحيا في موقف ليس بواقعي إطلاقاً.

حلم (سالي) هذا قد ذكّر عضواً آخر من أعضاء المجموعة، واسمه (جورج)، بعدة أحلام استباقية كان قد خبرها منذ سنوات قليلة خلت. فهو كان يحسب نفسه آنذاك أنه سعيد بزواجه ولهذا كان مندهشاً عندما حلم أنه كان يحمل في يده أوراق الطلاق وهو يقول: [سأتزوج في المرة القادمة من واحدة أكثر نضجاً.] وبعد فترة وجيزة تلت ذلك، حلم وكأنه مطلق وكان يهم بالزواج من محبوبة له قديمة، وقد حلم حلماً آخر إذ رأى نفسه يتكلم مع فتاة عبر الهاتف عندما اعترضت زوجته المكالمة بواسطة التلفون الملحق في الغرفة. هذان الحلمان الأخيران هزاه هزاً عنيفاً وصدماه صدمة شديدة نظراً إلى أنه يحب زوجته حباً جماً ولم يكن في يوم ما، خلال تسع سنين من الزواج، غير مخلص لها، بل حتى أنه لم يكن يفكر بذلك. بيد أنهما بعد ثلاثة أعوام من حدوث هذه الأحلام قد انتهت حياتهما الزوجية بالطلاق، وتزوج كل منهما مرة أخرى وكان كل واحد منهما سعيداً بزواجه الجديد. قال (جورج) وهو ينظر إلى أحلامه تلك، أنه قد بدا له بوضوح تام أنه وزوجته الأولى لم يكونا مناسبين بعضهما لبعض وأنه لا يستطيع أن يدرك لماذا كانا قد تزوجا أول الأمر. ففي هذه الحالة، كما كانت الحال بالنسبة إلى سالي، قد أظهرت الأحلام التنبؤية بكل بساطة أن جورج هذا كان في أعماق عقله يدرك مسبقاً أن زواجه برمته كان أبعد ما يكون عن الحالة المرضية، لكن تعلقه الراسخ به قد منعه من أن يقر هذا أو يعترف. (*)

كانت هناك، على أية حال، تفصيلات ظرفية وعرضية تخللت الحلم الأول الخاص بالطلاق، ذلك الحلم الذي رآه جورج، وأنه لم يشرح ببساطة شرحاً كما ينبغي. إذ انتهى بالطلاق وإن المحامي هو الذي كان قد أبقى الأوراق عنده وكان يقول: [كل شيء على ما يرام، وإنك في الحقيقة لا تحتاجها الآن في هذا الوقت.] وبعد مرور عام على حلمه ذاك، عندما حطمته زوجته أول مرة، ودمرته حينما تركته وذهبت لتعيش مع رجل

آخر، كان جورج بطبيعة الحال يتساءل مبهوتاً: أحقاً أن تتحول أحلام الطلاق هذه إلى واقع مرير، ولكن كانت في الحقيقة هناك فترة مصالحة وجيزة قبل تصميمهما النهائي على أن يفترقا فيذهب كل منهما في سبيله.

وحالة ثالثة من حالات الأحلام (التنبؤية) المتعلقة بمجرى العلاقات كانت قد روتها زميلة لي في المهنة، وكانت الزميلة هذه منذ سنوات خلت قد أحبت رجلاً كانت تعمل معه، وكانت قد أحبته قبيل اتخاذ قرار غير متوقع يقضي بإرسالها إلى أميركا لمدة ستة أشهر، لم تكن هناك اتصالات جنسية بينهما، ولهذا لما كانت ترى في أحلامها أنها نائمة وإياه في فراش واحد كانت تطرد تلك الأحلام من ساحة عقلها باعتبارها من قبيل تحقيق الرغبة ليس غير. وفي أحد تلك الأحلام كانت تشعر مبتئسة عندما كان يخاطبها عبر الهاتف قائلاً لها أنه [لا يستطيع مضاجعتها في ذلك اليوم]، وفي حلم آخر شاهدته عارياً تماماً ولكنه أدار إليها ظهره؛ وفي حلم ثالث رأته عارياً أيضاً ولكنه بخصية واحدة فقط وفي حلم آخر من سلسلة الأحلام هذه، قد حلمت قبيل عودتها إلى بلدها كأنها كانت جالسة وإياه في إحدى دور السينما فما كان منه إلا أن قفز فجأة من مكانه منتقلاً إلى الصف الأمامي قائلاً أن المكان فيه مريح أكثر. أياً كانت الحال، فإنها قد أبعدت هذه الأحلام المفعمة بالتناقض عن ذهنها، ولدى عودتها إلى موطنها استقبلها ذلك الرجل في المطار وبإلحاح شديد أقنعها على أن تصحبه لتعيش معه. ولمدة عدة أشهر قد إستمتعا ببهجة الحياة على طريقتهما الخاصة استمتاعاً معقولاً، ولبثا على هذا المنوال حتى حانت منه في مناسبات معينة تصرفات لها مغزاها. إذ على حين غرة أدار إليها ظهره في إحدى الليالي وهو يقول: [لا يستطيع مواقعتها]، وقد تكرر منه هذا إياها. اتضح فيما بعد أنه قد أصيب بالعنة فأصبح عنيناً، وذلك جراء ما كان يكنه من مشاعر المقت الشديد للنساء عامة، وهو أمر كان معروفاً عنه من قبل. ومن هنا يتضح أن أحلامها تلك كانت قد التقطت هذه المشاعر والأحاسيس التي

كـان يحاول إخفاءها، وأن آخر (تنبؤ) من تنبؤاتها تلك، قد وقع فعلاً عندما غـادر شـقـتهما التي كانت تضمهما كليهما، ليسكن في شقة أخرى خاصة به تقع في نفس المنطقـة، وهي حركة بدرت منه فأذنت بنهاية علاقاتهما تلك.

إن أحـداث أحلامي في الاستباقية كان حلماً ذا مسحة خفيفة. إذ حلمت أني ألقـيت محاضرة في اجتماع يضم أعـضـاء جمعية روحانية، ولكن بدلاً من أن أكـون واقـفـة في مقدمة القاعة رأيتني أقرأ المحاضرة [وهو خلاف عادتي، إذ لم أكـن من قـبل أقـرأ المحـاضرات قـراءة]، وأنا على كـرسي في مـؤخـرة القـاعـة. وعند الانتـهـاء صـفق الحـاضرون جميـعاً تصفيقاً ينم عن الأدب، لـكـنهم فـعلوا ذلك دون أن يلتـفـتـوا نحـوي لينظروا إلي، كنت قلقـة لأن المحـاصرة كـانت قـصيرة غير أني عـزيت نفسي بأن سيكون هناك وقت كاف لأسئلـة كـثيرة. وعند هذا الحـد نهضت رئيـسـة الجلسـة وقـد نطقت ببـعض الملاحظات والتـعليـات، انصرف بعـدها كل واحـد من الحـاضرين ذاهباً إلى بيـتـه. وقـد اسـتأثر بانتـباهي روزالند هيوود، وهي واحدة من المعروفات في مجال البـحث النفسي في بريطانيـا، قد تقدمت من رئيسة الجلسة فصافحتها ثم غـادرت المكان. كنت أحس وأنا في الحلم جـد مبتئسة، وأحسست أنها ـ روزالند ـ لابد أن تكون قـد تلقت دعـوة خـاصـة لتـحضر ذلك الأجتماع في تلك المحـاضرة، [كـانت حاضرة وإن لم تكن الأحلام ضمن اهتماماتها، وقد تبينت ذلك فيما بعد]، وشعرت بأنني سأغادر المكان وأنا بئيسة كئيبة.

هـذا الحـلـم حـصل عندمـا كنت أمضي عطلتي في قبرص، وكنت بشأن فـهـمـه في حـيرة من أمـري، ذلك لأن ذهني آنذاك نسيت الحلم تماماً كما نسيت أحـداثه فلم أتذكره إلا بعد سلسلة أسابيع عندما طلب إلي أن ألقي محاضرة حـول الأحـلام على أعـضـاء جمعية من المهتمين بالدراسات الروحانية والنفـسـانيـة. وكنا أنا وزوجي مـدعـوين لتناول العشاء مع سكرتير الجمعية وعـضـوين آخـرين من أعضائها، وفي طريقنا في السيارة إلى المطعم المقرر أن نتناول فـيـه العـشـاء، فـجأة تذكـرت حلمي وأنا بجـانب زوجي في السيارة

جعلت أحدث نفسي: [يا إلهي: أذاهبة أنا لإلقاء محاضرة على جمع من الروحانيين كذاك الجمع الذي رأيته في حلمي يوم كنت في قبرص؟ وإذا كانت روزالند هيوود حاضرة هناك فمن المحقق سيقع شيء خاطيء.] فما إن دخلنا أنا وزوجي المطعم حتى حيتنا روزالند وزوجها بحرارة وقالا كم كانا يتطلعان إلى سماع آرائي حول الأحلام. كنت أنا في لحظة صمت مطبق ثم كررت لهما بعدها ذلك. ولقد أغرقا في الضحك، وأنه لأمر غريب أن التقي بروزالند في دعوة عشاء، وبعد أن فرغا من ضحكهما ذاك قالا أنهما متيقنان من أن ذلك الحلم لم يكن حلماً استباقياً، طالما أنهما لا يريدان ما يدعو إلى عدم سير الأحداث حسب مسراها السوي. بعد انتهاء العشاء جلست مكان منظم الحفل والمشرف على الاجتماع، ومما أراقني أن الكرسي كان في مقدمة القاعة وليس في مؤخرتها كما كنت رأيت في الحلم! رحت أبحث في حقيبتي عن الملاحظات التي كنت قد أعددتها، ومما أرعبني أنني لم أجدها هناك، فأدركت أني بكل تأكيد كنت قد تركتها في البيت، وأنني كنت واثقة من أن بوسعي أن ألقي المحاضرة على نحو جيد من غير حاجة إلى تلك الملاحظات، إلا أن كلامي سيكون مسلوب القوة وسينقصه الخصب والإثراء ما لم يكن معززاً في سياقه بالأمثلة التفصيلية التي سبق لي أن جمعتها. ثمة شيء واحد فقط كان بمقدوري أن أفعله. في الوقت الذي سيعود فيه زوجي مسرعاً إلى المنزل بسيارة أجرة لإحضار تلك الأوراق، أكون أنا قد أكملت القسم الأول من المحاضرة منمقة أياها بأمثلة من أحداث ذلك الحلم، فأكون بذلك قد قدمت تفسيراً عقلانياً وذلك بجمع شتات ما أستطيع جمعه من أحداث ما حصل في ذلك الحلم بالذات.

كنت، في المقام الأول، مضطرة إلا الاعتراف بأنني لم أكن متهيئة تماماً ولا مرتاحة بشأن إلقاء المحاضرة، كما أنني أحسست بأن أفكاري حول الأحلام إنما هي واقعية وعملية أكثر مما تقبلها أذواق وأناس ينتمون إلى جمعية اهتمام أعضائها ينصب بصورة أساسية على الدراسات الروحية

والنفسية أكثر مما ينصب على الجوانب العملية. هذا القلق قد قادني بوضوح إلى أحداث ذلك الحلم الذي كنت قد رأيته وأنا في قبرص. ومع هذا فلم أكن شعورياً جد قلقة بشأنه في الوقت الذي تذكرت فيه أحداثه. لو أني أخذت ذلك الحلم مأخذ الجد لاعتبرته بمثابة تحذير لي بأنّ جزءاً مني كان يحاول عزل نفسه عن سائر المعنى العام للموقف ككل، فأكون في هذه الحالة قد انتبهت انتباهاً أشد وما كان ينبغي لي أن أكون قد [تركت في البيت قسماً مني يهمني أمره] في المحاضرة تلك. وفي الوقت الذي كان الحاضرون على اتفاق تام معي حول هذا التفسير، إلا أنهم سارعوا إلى القول أنه لم يكن ثمة سبب خاص يجعلني أعرف حتى أن السيدة هيوود ستكون موجودة هناك في المحاضرة. هذا فضلاً عن حضورها دعوة العشاء. تقبلت هذا الكلام وتظاهرت بأنني مقتنعة بذلك وزعمت أنني كنت وإياها على اتصال عن طريق التخاطر telepathy. وافترضت أنها قد استخدمت عامدة قواها الخارقة paranormal powers لتهيء كل الأشياء وترتبها لكي تسبب صدمة يكون اتجاهي بعدها أقل تشكيكاً بالأدراكات الخاصة بماوراء الحواس Exrta sensory perceptions ـ اختصاراً ESP ـ.

وفي الوقت الذي لا أرغب فيه حقاً أن أؤكد تأكيداً قاطعاً على أنه ليس للعقل قوى خارقة، فإن ما أنا معنية بمناقشته هو أنه ـ العقل ـ ينطوي على قدر كبير من القوى والطاقات الاستكشافية detection والتنبؤية prediction، وهذه ليست خارقة البتة. وأن الأحلام إذا ما تحققت أو صحت أجزاء منها، فإنه من المحتمل إذن تكون الحقيقة التي انطوت عليها الأحلام مشتملة على إدراكات واحتمالات كانت قد مر بها العقل الشعوري إبان الحياة الواعية في حالات اليقظة. هذا، وإن الأحلام تكشف كذلك عن مشاعر وأحاسيس نجد من الصعوبة بمكان الإفصاح عنها في حالاتنا الواعية، ولهذا فإن الأحلام تمثلها على شكل صور واضحة فتعرضها وقت

النوم. وعندما يتم فهمها على وجهها الصحيح يمكن أن تكون [تنبؤية]، بمعنى أنها تؤشر النتائج المحتملة لمواقف محددة ومعينة في الحياة. وإن أحلامنا من هذا النوع، كما ذكر يونج: [ليست أكثر نبوءة مما يتم التنبؤ به في حالة التشخيص الطبي أو في حالة التكهن بالأنواء الجوية. فهي مجرد ائتلاف استباقي مكون من احتمالات يمكن لها أن تتزامن مع السلوك الحقيقي للأشياء، ولكن ليس بالضرورة أن تكون متوائمة تماماً في جميع التفصيلات] أنه في الحالة الأخيرة فقط يمكننا أن نتحدث عن التنبؤ Prophecy. إن هذه الأحلام [المنبئة بالمستقبل] Prospective، كما وصفها يونج، لنافعة بشكل خاص، وذلك لجدواها في جميع ضروب العلاج النفسي ذلك لأنها تومىء إلى الكيفية التي يشعر فيها المريض في أية لحظة إزاء المعالج النفساني ونحو العلاج، وإنها تنبىء عن مقدار ما يطرأ مستقبلاً من تحسن أو ما يمكن أن يحدث من انتكاس في غرفة الاستشارة.

الأحلام المنبئة بالمستقبل وأهميتها في العلاج النفسي :

إن يونج نفسه يقتبس حالة أخاذة ممتعة متمثلاً بها بصورة خاصة: تلك هي حالة امرأة أحلامها تعبر عن صعوبات واجهتها، وقد أتضح ذلك لدى عرض أحلامها تلك على ثلاثة من المحللين كانت تذهب إليهم للعلاج. فعند بدئها العلاج لدى الأول منهم، حلمت أنه كان يتعين عليها أن تعبر حاجز حدود لتصل إلى بلد آخر، لكنها لم تجد الممر الذي يوصلها إلى ذلك البلد، ولم تجد من يساعدها في ذلك. أدرك المحلل أن هذا الحلم يعبر عن [صوت في داخلها يقصد عدم الثقة] بهذا المحلل لذلك فقد آثر إحالتها إلى زميل له. لكنها تارة أخرى قد حلمت أنه كان يجب عليها أن تعبر الحدود. وبعد أن بحثت طويلاً ولاحظت بصيصاً من الضوء ينبعث من مكان بعيد فحسبته يأتي من دائرة للكمارك قائمة هناك. ولكي تصل إلى مصدر الضوء كان عليها أن تسير عبر غابة غبياء، (٨) فضلت طريقها في تلك الغابة،

فاستيقظت مرتعبة وكأن شخصاً آخر كان مسافراً معها تعلق فجأة بها متشبثاً بها من هول ارتعابه وكأنه إنسان مجنون. كان يونج يعتقد أن حلمها هذا إنما يشير إلى إحساس لديها يعبر عما كانت تشعر به من حالة إغراق تعانيها سببها محللها. وكما هي في المرة الأولى فقد انفصمت أسباب التحليل الثاني وانقطعت ذلك لأن حالة المريضة لم تتحسن. وفي المآل جاءت يونج وهي مريضة. في هذه المرة رأت نفسها في حلم ثالث لها أنها عبرت الحدود مسبقاً ووجدت نفسها في دارة كمرك سويسرية. كانت تعتقد أن لا شيء معها تحمله في حقائبها لتخبر بشأنه موظفي الكمارك لكن موظف الكمرك دس يده في حقيبة ملابسها فاستخرج منها حشيتين(٩) كبيرتين.

فسر يونج هذا الحلم بأنه دلالة على ثقة تلك المرأة به وأنه حلم يشير إلى أن التحليل سائر إلى نجاح. إذ فسر [عبر الحدود] بأنه علامة على نمو إرادتها وقوتها باتجاه الشفاء والمعافاة، وفسر الحشيتين بالزواج الذي ارتبطت به فعلاً بعدئذ، وذلك بعد أن تغلب بفضل العلاج على ما كانت تعانيه من مصاعب ومتاعب جنسية. فالأحلام الثلاثة هذه كلها، حسب رأي يونج، هي أحلام استباقية كانت تنبيء مسبقاً عن المتاعب والنتائج المترتبة على المحاولات الثلاث التي كانت قد سبقت العلاج النفسي.

من المتعارف عليه اليوم بعامة، بين المحللين النفسانيين من مختلف المدارس أن الحلم الأول للمريض وهو في دور العلاج، يرجح أن يكون حلماً ذا دلالة تشير إلى سياق العلاج ومسراه مستقبلاً وما قد يتخذه من نهج. وبالنسبة إلى الحالة الخاصة المشار إليها فإن هذه حقيقة مؤكدة. إذ بعد الجلسات القليلة الأولى من بدء التدريبات على التحليل النفسي وفقاً للمنهج الفرويدي، حلمت بأنني اشتبك وأمي بعراك مرير لإصرارها على استخدام معمار كنت أعرفه أنه شخص فظ ورعبال(١٠). كان من عادته أن يثبت الأشياء بطريقة غليظة لا ذوق فيها وكيفما أتفق بحيث أن ما كان قد ثبته

سرعـان مـا تهاوى حـالما لامسته. كماأنه كان يقوم بعمل أشياء لم يطلبها أحد منه ولا داعي لها، وكـان يرمي بأشـياء وبقطع أثاث كنت أنا مولعة بها وكان يضع مكانها أشيـاء أخـرى أكـرهها. وكنت أثناء الحلم أحذر أمي من كل هذا، لكنهـا لم تكن لتلتـفت إلى تحذيراتي تلك أدنى التفاتة. فاستيقظت من نومي وأنا في أشـد حالات الاضطراب والاكتئاب.

فأنا بطبـيعة الحال، ليست لدي أية مشكلة تذكر بشأن التعرف على ذلك [المـعمار الـسيء]، فـهـو في الحلم بديل عن محللي الذي كنت أتدرب عنده، وهـو بـدوره فـسر الحلم بأنه ينطوي على دلالة تنم عن مـقـاومـتي للتـحليل وعـدم تـقـبـلي إياه في قـرارة نفسي وذلك بانتـزاع الثـقـة به من نفسي وعـدم الاعـتماد عليـه فـيما كـان يفـعل أو يقـول. وقـد تقبلت هذا كاحتمال قائم، وكنت خـلال السنة الأول مـتحرزة تحرزاً خاصاً إذ أني كنت في الغالب أشعر أنه يمكن أن يكون على خطأ. ولأضرب على ذلك مـثـلاً. فـهـو كـان يصر على القـول بأن علمي [الذي كنت مـولعة به] إنما هو، حسب رأيه، بالنسبة لي بديل عن القـضيب، وأن مـا يمكن أن أنجـزه في الحـيـاة إنجـازاً حقيقياً يـكـمـن في انـصرافي كـلـيـاً إلى زوجـي ورعـايـة شـؤون الأسرة. وفي الأيـام الأخيرة من التـحليل، عندمـا واجـهني زوجي مـواجـهة حقيقية في أن أختار إمـا البـيت أو العـمل، كنت تماماً مغسولة الدماغ، لذلك فقد اخترت الأول منهما في محاولة يائسـة مني لأصـبح حسبما أسماه [امرأة حقيقية]. وقد اتضح فـيما بعـد أن هذا الاختيار كان بمثابة موت لي في الحياة، كما كان عندما تنبأ به [حلمي الخـاص بالتـابوت] وقد ورد ذكره سابقاً في الفصل السادس. ولا حـاجـة بي تدعـوني إلى القـول بأن محللي، رأى في اخـتياري البيت أنه نتيجة لتـحليل ناجح قـام به هو، في حين كنت أعـمل على بصيرة تامـة بأعـمق ما عـنـدي من حـاجـات، كـان كل هذا رغم مـا كنت أحس به في أعماقي من كـآبة وإحـبـاط واغتراب نفسي تام. وعندما أنهيت فترة التحليل [الذي أديته وتدربت عليـه اسـتـجـابة لرغـبة زوجي] وجدت آنذاك أن الحياة لا تطاق.

فوجدت أنه يتعين علي أن أستأنف العمل من جديد، تلا ذلك أن انفصم الزواج فيما بيني وبين زوجي، وقد وجدت بعده صيغة في الحياة أكثر سعادة وأوفر هناءة.

إنه لمن الواضح الآن، وأنا أنظر إلى الماضي، أن حلمي كان قد تنبأ قبلاً بسياق التحليل ومسراه على نحو من الدقة أخاذ. فمحللي، مثلاً، كان يصر على أداء عمل لم أطلب منه القيام به، إذ أنه إنبرى لمعاملة عملي الخاص بي على أنه عرض من الأعراض Symptoms، رغم حقيقة ماثلة وهي أني لم أذهب إليه كمريضة، وإنما كنت قد ذهبت إليه لمجرد التدريب فقط. وقد استخدم نظريته الفرويدية كالمطرقة، محاولاً بذلك إعادة بناء أسلوب حياتي وتأثيثها حسب قيمه الخاصة به هو [وكذلك حسب قيم فرويد]، قيم يريدها كما ينبغي أن تكون عليه [المرأة الحقيقية] حسب مفهومه وكما يرى من وجهة نظره الخاصة به، وإن كان منهجه هذا قد ألحق بي وبمجمل طبيعتي أذى كبيراً. أما ما يقترن مع أمي في الحلم وما يرتبط بها، فإني لأتذكر الآن أن أمي قد هددتني في عدة مناسبات أيام طفولتي بعرضي على [معالج نفساني] Psychiatrist، وذلك لكي أعالج من العناد ومن الرفض لكل شيء ومن التمنع، وإن استجيب للقيام بمساعدتها في شؤون البيت، في حين كان أخي يمرح خارج ويلهو كما يشاء وإن حلمي حين وصفها بأنها رديف [المعمار السيء]، كان قد تنبأ بدقة ورشاقة بالكيفية التي اقترن فيها محللي مع صوت أمي الذي كان يريد أن يدمجني بمعايير المجتمع عن طريق تدريبي لكي أكون ربة بيت ناشئة وظريفة.

أياً كان الأمر، فقد كنت مترددة بشأن الاعتقاد الخاص القائل بأن ليس في التحليل الفرويدي ما يمكن أن يقدمه لي أو ينفعني، إذ أني في الحقيقة قد أفدت من نهجه وجنيت كثيراً من جوانب التبصر القيمة، لهذا فقد حاولت فيما بعد أن أعمل مع محلل آخر. وللأسف، أن أول حلم رأيته، بعد جلسات قليلة أجراها معي محللي هذا، رأيتني في حلمي ذاك مستلقية

عل سرير فحص المرضى، وكان قصيراً جداً إلى حد أن رأسي كان متدلياً من ذلك السرير خارج النافذة، رحت أنظر حولي وأنا في وضعي ذاك فرأيت أن الحديقة هناك عبارة عن مقبرة مرتبة منظمة، وأدركت أن كل قبر كان يحتوي في داخله على رأس امرأة وقد اقتطع رأسها لكي يتناسب طولها وسرير الفحص ذاك.

ورغم هذا التحذير، كما ورد في الحلم، فقد واظبت على الاستمرار معه أشهراً كثيرة، ولكني وجدت في نهاية المطاف أنه يتعين علي أن أترك تدريبي عنده، بعد أن بلغت بي الحال مبلغ السأم والملل جراء اجتهادات المحلل التعسفية(١١) الإكراهية المستمرة الرامية إلى محاولة إخضاعي إلى ما يأخذ هو بها ومؤداها أن على المرأة أن تضحي بشخصيتها وبمبادراتها من أجل خدمة الرجال. وإني ما زلت أحس وأشعر بشيء من الإخفاق بسبب مبارحتي موقف التحليل ذاك، ولكني مع هذا لم أعد أطيق تجاهل ذلك النداء الصادر من أعماقي يناديني بوجوب احترام ذاتي. ولم أكن أدرك يومذاك، أن السنوات القليلة اللاحقة كانت ستشهد تحولاً في الرأي العام عن التحليل الفرويدي، ولاسيما فيما يخص النساء، ذلك التحول المشهود الذي أدى بالناس إلى أن يزجوا لي التهاني على تخلصي المحظوظ منه. هذا، وقد كتبت [إيفا فيجس Eva Feges] في كتابها الذي نشر مؤخراً بعنوان [الاتجاهات الأبوية](١٢) Patriarchal Attitudes، تقول فيه: [إن المريض المشافى إنما هو في الواقع مريض مغسول الدماغ، وأنه آلة متحركة، شأنه في هذا شأن الميت. لقد تداعت الزوايا وأنهارت، وإن المرأة الآن لتتقبل خصاءها Castration كحقيقة واقعة، وتعترف بنقصها في نفسها وقصورها، وإنها راحت تكف عن حسدها لوجود القضيب عند غيرها، وشرعت تتقبل الدور الخامل للأنثى. والمحزن في الأمر، أن الرجل يعترف بأن المرأة المثالية هي المرأة المستخذية المستكينة التي أعدها على نحو معين لنفسه. وهذه المرأة التي يريدها على هواه لم تكن بعد ولم تتوفر تماماً لما يجب

ويرضى وأن الآنسة [فيجس] لتضيف [ودون أن تفيد من حلمي الخاص بسرير الفحص المذكور من قبل]، تضيف قولها: [إن فكرة فرويد الأساسية هي أن كل امرأة إنما هي وتد مربع الزوايا يجب أن يلائم ثقباً مستديراً. إذ لم يطرأ على باله أن الموقف يكون أقل تدميراً عندما يغير شكل الثقوب بدلاً من نسف جميع الزوايا وتحطيمها.]

إن الحركة الحديثة في العلاج الجشتالتي إنما هي بهذا الاعتبار ضد النهج الفرويدي بصورة مكشوفة. ورغم أن النهج الفرويدي يستمد كثيراً من حقائق التبصر من منهجية فرويد بالذات، فإن الأصل الأساسي فيه هو أنه ما من أحد منا في هذه الحياة ينتظر منه أن يعيش وفق توقعات الآخرين أو أن يتكيف تماماً إلى المجتمع وأن الحق الأساسي لجميع الكائنات البشرية ـ سواء في ذلك الرجال، والنساء، والآباء، والأبناء، والمعالجون والمرضى ـ إنما هو أن نكون نحن بأنفسنا كما خلقنا، وهذه عاطفة لم يلتفت إليها الفرويديون ولم يسدوا إليها خدمة تذكر سوى الخدمة اللفظية، ولكنهم وضعوها موضع التطبيق الفعلي. وإننا لنجد هنا [بيرلز] متشدداً بشأن نقطتين. فهو، في المقام الأول يجادل قائلاً يصعب أن نعرف تماماً ما يفترض فينا أن نكيف له أنفسنا في مجتمعنا الحاضر المتغير باستمرار، وهو يرى، ثانياً، أن الحاجة need إلى التكيف إنما هي عرض من أعراض العصاب يجب قهره والتغلب عليه. فهو ـ بيرلز ـ يذهب إلى أننا نتكيف فقط عندما نسعى سعياً حثيثاً إزاء ضمانة معينة فيحول سعينا الحثيث هذا دون الوقوف على أقدامنا والاعتماد على ذكائنا، والحيلولة دون اقتحامنا مفاوز الحياة. ولهذا فإنه كتب يقول:

[أعتقد أننا نعيش في عالم مجنون، وأن عليك أن تختار بين أمرين اثنين فقط، فأما أن تسهم في هذا الجنون الجماعي، وأما أن تجازف فتكون سوياً معافى. وإذا ما تقوقعت حول ذاتك، فإنك لن تتكيف بعد ذلك أبداً.]

وإن ما ينطوي على الدلالة، هو أنني عندما شرعت بتدريبي على العلاج

حسب المنهج الجشتالتي، رأيت في نومي بأني أطلق نسراً من قفص ثم استيقظت من نومي وأنا في غاية الانشراح. وقد ذكر رئيس الفريق، وكان من كاليفورنيا، إن هنود النفاجو Navajo indians، يعتقدون بأن ثمة ثلاث أرواح تستوطن جبال سان فرانسسكو تلك هي: الرياح، والبرق، والطيور. والنسر بالنسبة إليهم بوجه خاص هو رمز الروح الجبارة الفعالة وما ينبغي له أن يحتبس في قفص وأنهم لو عرفوا بحلمي لفسروه بأنه دلالة على فأل حسن وأنه طالع حسن وأنه بشير خير وأنه ينبئني بمستقبل زاهر.

وأن حلماً من أحلام الفأل الحسن قد حدث لي كذلك عندما بدأت بالتحليل وفق منهج يونج Jung، بشكل استطلاعي أولي. إذ حلمت بأنني ورثت بيتاً قديماً وكبيرا يقع في الريف، وكنت أتساءل في قرارة نفسي وأفكر: هل أبيعه أو أنفق عليه وقتاً كثيراً ومالاً وفيراً من أجل تجديده. وعرفت في الوقت ذاته أنني سأفضله في النهاية على بيت صغير حديث اقتصادي في الجهد والنفقات. وأثناء ارتيادي جنبات البيت وتقصي تكوينه، دخلت غرفة فيه فشاهدته فيها قطعاً كبيرة من اللحم معلقة على خطاطيف وقد ساورني شك شديد في أنها كانت لحوماً متعفنة وأنها تنخر فيها الديدان. ولقد ارتعبت فانكفأت مولية هاربة، وفي هذه الأثناء سمعت شيئاً يعدو عبر أرض الغرفة تلك، فشعرت بأنني قد أزعجت شيئاً ما، كان قابعاً هناك مختبئاً منذ أمد بعيد. وبينما كنت أجيل النظر لأتبين ماذا كان هناك، رأيت الغرفة أشد ضياء وأكبر حجماً، ثم استيقظت ولديّ إحساس عميق كأن الحلم حقيقة وليس حلماً، وإن علي أن أنظفه وأن أسكن فيه. كان ذلك الحلم يومىء بوضوح إلى أن التحليل الذي كنت أتدرب عليه من شأنه أن يوسع آفاقي بدلاً من أن يضيق مدياتي أو يقيّد مجالاتي وهو تكهن أتضح أنه صحيح.

تلخيص واستنباط :

الخطوة الأساسية الأولى في تفسير الحلم تكمن في البحث والتمحيص عن الحقيقة التي يمكن أن تكون في العالم الخارجي المحيط بالفرد، لا لأنها حقيقة ذات قيمة في حذ ذاتها فقط، وإنما كذلك لأن عملية التمحيص هذه تنير السبيل باتجاه فهمنا أية دلالة أخرى ينطوي عليها الحلم وهي في ألوقت ذاته تشير إلى مشكلاتنا الذاتية الخاصة بنا. فحينما أحلم، مثلاً، بأن الملكة قادمة لتناول الشاي معنا ثم أرى فرشاة شعر قذرة ملقاة فوق المائدة، فمن الممكن أن حلماً كهذا إنما ينبيء عن مشاعري نحو أمي ولكن من المرجح أن يتخذ التحليل عند هذا المستوى مسارات شتى متباينة منها مثلاً ما إذا كنت أمتلك في الحياة الحقيقية الواقعية مثل هذه الفرشاة الوسخة أو لا أمتلك. وإن كانت حقاً لدي فرشاة قذرة، فمن المعقول إذن أن أفترض بأن الحلم إنما يعبر عما لدي من قلق يتعلق بعدم الانتظام وبما عندي من عادات مستكرهة. ومن المحتمل كثيراً أنه يشير إلى أنه ليس هناك ضرورة تدعوني إلى الانسياق وراء البحث عن ارتباطات واقترانات تتصل بشعر الفرشاة وربطه بزغب المراهقة وشعر العانة، أو ما يشبه ذلك. وإذا ما كانت فرشاة شعري، من ناحية أخرى، نظيفة جداً فإن ارتباطات كهذه إنما تعتبر السبيل الوحيد للكشف عن معنى الحلم واستبانة حقيقته ومغزاه.

معظم الأحلام التي وصفتها في هذا الحلم قد كشفت عن (حقيقتها الموضوعية) وعبرت عنها على نحو مباشر تماماً. لكن حلم (سالي والحلم الخاص بالحريم في ذلك الفصر الشرقي والأحلام المنبئة بالعلاج المنتظر كلها توضح الكيفية التي تظهر فيها الإدراكات في عقل الحالم على نحو رمزي. وأياً كان الأمر، فإنني أقترح هنا أنه ما لم تتح الرمزية معنى مباشراً عن طريق الارتباطات، فإن التمحيص والبحث عن دلالات موضوعية قد يكون محفوفاً بمصاعب من ناحية الجدوى العملية. فإن رأيت، مثلاً، في

الحلم أسداً يولي هارباً بمعية غزال، فقد يريد ذلك الحلم أن يوضح بأن عقلي كان قد أدرك في مكان ما في زمان معين بأن زوجي لم يكن مخلصاً، ولكن ثمة كثير من البدائل في التفسيرات المحتملة، بحيث يتعذر معها الاستقرار على هذا التفسير الذي ذكرته وما يقترن به من موضوعية ما لم يقفز إلى ذهني معناه مباشرة. وحيثما كان الحلم، من الناحية الأخرى، يشير إلى ما في العالم الخارجي المحيط بنا من أناس حقيقيين، وأشياء، وعلاقات، ومواقف في دنيانا الحقيقية، فإن الأمر يسهل التحقق منه في دنيا الحقيقة الموضوعية وإن البحث في نطاق العالم الخارجي هذا يعد أمراً أساسياً من وجهة نظري. وحتى إذا كانت الدلالة تافهة نسبياً، فإنه لمن المجدي حقاً أن نتعلم شيئاً حول الطريقة التي تخفق فيها عقولنا الواعية الشعورية في إدراك الأشياء في حياة اليقظة وبالتالي يرمي بها فينثرها على صورة أحلام.

إذا ما اتضح أن الحلم ليس بذي دلالة موضوعية لها أهميتها ومغزاها، فإن النشاط العملي سيتوقف على ما هناك من ظروف. ففي حالة الأحلام (التذكيرية) والأخرى (التحذيرية)، يجد المرء هنا المضامين واضحةلا ريب.

أما بالنسبة للأحلام التي تبدو أنها تنطوي على إدراكات (استبصارية) أو تشير إلى استشفاف ما في الآخرين، فإن التدقيق فيها في هذه الحالة يعد أمراً جوهرياً قبل اتخاذ أي إجراء كان، وذلك كما رأينا في حالة حلم (ليزا) عن النقود المسروقة. فإن كان الحلم يتعلق بشخص معروف وقريب من الحالم أو من ذوي قرباه وتربطهما علاقة، فإن الشيء المعقول هو في العادة أن تبحث الحلم مع ذلك الشخص المعني، ولكن في المواقف التي تبدو فيها أشخاص في الأحلام وهم أقل قرابة، كما في حالة الحلم الذي ظهر فيه زميل زوجي أو في حالة حلم (ليزا) وعلاقتها بالمربية التي عندها، فإنه من المفضل معالجة الحلم على أنه تحذير محتمل وحينئذ يقتضي التدقيق في الحلم بوسائل أخرى.

أما ما يتعلق بالأحلام التي تبدو أنها تنبيء بالمستقبل وأحداثه، فإن

المشكلة أكثر تعقيداً وأشد صعوبة ذلك لأننا قد نشعر أنه ينبغي علينا أن نحاول الحيلولة دون وقوع الأشياء التي أنبأت عنها الأحلام، كما هي الحال في حالة إصراري على الاستمرار مع محللي الفرويدي وكما هي الحال في حالة استمرار زميلتي التي كانت تريد علاج عشيقها من اشمئزازه من النساء. ومن الواضح أن ليس هناك قاعدة ملزمة، ولكن ثمة الشيء الكثير من الشواهد وكلها تشير إلى أن العقل اللاشعوري في معظم الأحيان يكون أكثر حصافة من العقل الشعوري فيما يتعلق بأمور كهذه أو من هذا الضرب، والأمر على هذا النحو حتى إذا كانت حكمة العقل اللاشعوري تتألف من موقف يجعلنا نحذر ما هناك من قوى تقتضينا التصدي لها إذا نحن شئنا أن نثابر على استنجاز خططنا الشعورية.

يلزم المعالجين النفسانيين ولاسيما المحللين النفسانيين بخاصة، يلزمهم أن يعوا عاداتهم المهنية وفيما يتعلق منها بتواصل مرضاهم، بما في ذلك أحلام أولئك المرضى، بوصف ذلك التواصل وتلك الأحلام [إسقاطات] Projections، تكشف عن دواخل شخصياتهم، ولا تنطوي على أية حقيقة موضوعية. فإذا ما حلم المريض، مثلاً، حلماً رأى فيه محلله بأنه قاتل، فقد يكون في الحقيقة بحلمه هذا قد أسقط على محلله صورة أبيه - أب المريض - ولكن يمكن أن يدل الحلم في الوقت ذاته على أن المحلل نفسه قد أضر بشخصية المريض وبجوهر نفسه، ولعل الضرار هذا من جانب المحلل بشخصية المريض يكون متأتياً من تفسيرات المحلل التعسفية بدلاً من [إصغائه بأذنه الثالثة] إلى مريضه وأقواله.

فحينما، وحينما فقط، نكون قد بحثنا الحلم أي حلم من الأحلام بشكل مستفيض ونقبنا فيه عن دلائل تنمّ عن حقائق موضوعية وتمعنا فيها، حينئذ يلزمنا أن ننتفع به كمرآة يعكس اتجاهاتنا الذاتية نحو الحياة ككل. وإن الخط الفاصل بين المعاني (الموضوعية) و(الذاتية) يكون في الغالب، بطبيعة الحال، خطاً غير واضح المعالم وأنه لخط باهت الظلال. فحلمي عن (محللي

المغني) مثلاً، كان يوضح إليّ أنني قد التقطت لمحات عن طبيعة صديقي الحقيقية، وإن كان ذلك قد غالى في إظهار تلك اللمحات وإبرازها. بيد أن معنى الحلم كان يمكن أن يكون مختلفاً تمام الاختلاف لو لم يكن منطوياً على حقيقة قط، أو لو كان بعيداً عن الهدف ومجانفاً للواقع، وفي تلك الحالة أكون آنذاك مضطرة إلى أن أعرف لماذا رأيته في تلك الهيئة وعلى تلك الصورة. وكان يمكن حينئذاك أن يصنف بأنه حلم من أحلام [المرآة العاكسة]، وهو حلم يختلف عن أحلام (انظر إلى خارج) واختلافهما يتأتى من أن هذا الضرب الأخير من الأحلام يستمد طاقته من سخصية الحالم أكثر مما يستمدها من المحيط. إن أحلاماً كهذه، والتي ستكون موضوع الفصل القادم، تخبرنا عما في لغو أنفسنا وعن ذواتنا أكثر مما تصف لنا الناس الآخرين والمواقف في الحياة. وكما سنرى، على أية حال، فإن كثيراً من الأحلام يمكن تفسيرها على أكثر من مستوى وفي أكثر من معنى، وبخاصة منها تلك الأحلام الطويلة التي تنطوي على عدة أحداث مترابطة مع بعضها.

هوامش الفصل الثامن

(١) هذا تعبير مجازي له بعده ما يفسره (المترجم)

(٢) العقيفة أو المشك أو ما يسمى بـ(الرزّة) وهي ما يثبت الباب على حاملتها (المترجم)

(٣) وتترجم أحياناً مكنية وتقابل كلمة Mechanism الانجليز وبعضهم ينقلها بنفس اللفظ (ميكانزم) وأصح ترجمة لها ما ورد في المتن (المترجم)

(٤) يدعك بالشمع، ويفرك الجسم تمسيداً ويقابله (المساج). (المترجم).

(٥) يبلو: يجرب، يختبر، يمر بخبرة، كلها بمعنى (المترجم).

(٦) نجمان سينمائيان في الخمسينات في الولايات المتحدة، الأول منهما ممثل ومغني، والثاني ممثل فقط (المترجم)

(٧) امرأة نصف (بفتح النون والصاد): أي متوسطة العمر (المترجم)

(*) تقول المؤلفة تعليقاً إضافياً على ما ذكرته: إن الأحلام التنبؤية يمكن أن تكون حقيقية في دنيا الواقع. وهذا ما كان يثيره كثير من الناس حيثما ألقيت محاضراتي عن الأحلام. فعندما تكون هناك تصدعات في حياة الأسرة فقد يحصل الطلاق كما في الحلم الآنف. وإني لا أنصح أي فرد أن يقدم على اتخاذ قرار بقطع علاقاته الزوجية بمجرد أنه رأى حلماً ينبئه بفصم عرى الزواج. وإن إنقاذ الزواج من الانهيار يكمن في مواجهة الموقف بصراحة. وعن آرائي بشأن استخدام الأحلام في مجال الأسرة أنظر الفصل الحادي عشر. (المؤلفة).

(٨) ملتفة وكثيفة (المترجم)

(٩) الحشية: المطرح يضطجع عليه (المترجم)

(١٠) من الرعبلة: ويراد بذلك عدم الانتظام في الحركات الجسمية والتهويش في السلوك (المترجم)

(١١) استخدمت المؤلفة التعبير المجازي: بروكرستيزي Procrustean، نسبة إلى بروكرستيز أو إلى مضطجعه، وبروكرستيز هذا كان لصاً إغريقياً خرافياً، كان يمد أرجل ضحاياه ويقطعها ليجعلها تلائم حجم السرير الذي تلقى عليه. لذلك ذهب القول ويراد به العمل الاحتياطي. وهذا ما رمت إليه المؤلفة في حديثها عن العلاقة بينها وبين محللها الذي أراد إخضاعها إلى تبني آرائه الفرويدية. (المترجم)

(١٢) نظام تكون الهيمنة المطلقة فيه للأب على العشيرة أو الأسرة. (المترجم)

الفصل التاسع

حياتنا من خلال المرآة العاكسة(١) [الأحلام]

عندما مرت (أليس) Alice عبر المرآة العاكسة وجدت ثمة بعض الأشياء المألوفة التي تمثل انعكاسات مباشرة لما في هذا العالم المعتاد، ولكن هناك أيضاً من الأشياء الأخرى ما يمكن أن تكون على جانب من الاختلاف كبير.(٢) فعندما تحرف أحلامنا واقعنا الذي نحياه، وهذا هو ديدنها في أغلب الأحيان، فإن هذه التحريفات تصدر عن عقولنا وتقوم بها أذهاننا، وإنها في الوقت نفسه يمكن أن تنبئنا عن كثير مما في دخائل نفوسنا. ومن قبل كان (أمرسون) Emerson قد كتب يقول: [الإنسان الحاذق يقرأ أحلامه ليتعرف على ذاته]، وإني في هذا الفصل سأتوفر على قراءة الأحلام لكي أتعلم شيئاً حول الكيفية التي تؤثر فيها اتجاهاتنا وانحيازاتنا ـ وهي في معظمها تتكون من (برامج) كانت قد أرسيت أسسها من أيام طفولتنا ـ على المواقف المحددة الخاصة المؤثرة في حياتنا وقت حدوث الحلم وسأتناول في الفصل القادم كيف يمكن أن تساعدنا أحلامنا على فهم مشكلاتنا الداخلية العميقة ومعالجتها.

والمبدأ الأساسي الذي سأنتهجه في هذا الفصل هو أن أنظر إلى الحلم وكأنه صورة picture ومن ثم سأحاول أن أربط تلك الصورة بالظروف المباشرة المحيطة بالحالم. وسأركز اهتمامي هنا على أربعة ضروب هي من أكثر أنواع صور الحلم أهمية وهي ـ الناس، الحيوانات، البيوت، والمركبات، Vehicles ـ وسأوضح في كل حالة بعض الجوانب التي يمكن أن نتعلمها من هذه الأنواع المذكورة، سواء في حالة انطوائها على أية إشارة واضحة إلى معالم الحياة ومواقفها: الحياة الجارية في دنيا الحالم، أم في حالة انعدام مثل هذه الإشارة، فتبين عندما ننظر إليها كيف يجب أن نعتبرها

رموزاً نتحرى معانيها ودلالاتها من خلال الاقترانات والارتباطات. أن ما سأضربه من أمثلة توضيحية، وهي مستمدة بصورة رئيسية من فريقي الذي أجري عليه دراساتي، ستتيح بشكل عارض كثيراً من الأمثلة الخاصة بالرمزية التي غالباً ما تتكرر في الأحلام، بحيث يتسنى للقارىء بعد انتهائه من قراءة الفصل هذا أن يكون فكرة شمولية عن كيفية تفسير ما يراه عبر الرؤى والرؤيا من عالم خاص بأحلامه هو.

الناس من خلال المرآة العاكسة [من خلال أحلامها]

تلعب الشخصيات الإنسانية دوراً رئيسياً في القسم الأعظم من الأحلام. فإن كانوا أناساً من أقرب الناس إلينا في حياتنا اليومية ـ كأن يكونوا مثلاً أزواجاً، أو زوجات، أحباباً، أو آباء، أو كانوا أبناء لنا نحن ـ فمن غير المرجح أن يمثلوا غير أنفسهم. وفي حالات كهذه فإن معنى الحلم يتوقف على ما يفعله الشخص وما يقوم به في الحلم نفسه، ويعتمد الأمر كذلك على ما نقوم به نحن نحوهم وما نفعله إزاءهم، وتتوقف المسألة أيضاً على الموقف العام الذي يظهرون فيه. والسؤال الذي يجب أن يثار في جميع هذه الحالات هو: [ماذا يخبرني الحلم عن مشاعري وأحاسيسي وأفكاري حول هذا الشخص أو ذاك؟].

يكون المعنى أحياناً واضحاً جداً ومباشراً، كما هي الحال في حلم (جوانا) Joanna، وهي إحدى أفراد فريق الدراسة التي كنت أجري عليهم تجاربي، إذ حلمت أن زوجها قد ضبط وهو في استئناف علاقة غرامية سابقة له مع فتاة كانت قد وجدتها مرة نائمة معه من قبل، فقد ودت (جوانا) نفسها في الحلم تزحف باتجاه حافة فراشه وهو نائم، وتهم بقتله بفأس كان معها. وأثناء رفعها الفأس لتهوي بها عليه بالضربة القاضية، توقفت عن ذلك، وجعلت تفكر في أن تضربه ضربة واحدة قاتلة

تكون في صالحه، إذ تقضي عليه بدون تعذيب، ولذلك قررت أن تقطع أولاً يده ليستيقظ على أثرها فيدرك عندئذ ماذا كان يفعل ولماذا يجب أن يقتل. هذا الحلم كان يمكن أن يكون حلماً من النوع الذي [ينظر فيه إلى الخارج] مبنياً على ما هناك من طاقة ثم إطلاقها بشكل استكشافي وحصل كل ذلك فيما دون عتبة الإدراك وهو في جملته موقف يتعلق بخيانة زوجها وتدليسه، فهو حلم ينطوي على تحر لما في سلوك الزوج، لكن (جوانا) أكدت لنا أنها قد تحرت الموقف بعناية فائقة وانتهت إلى قناعة بأن زوجها قد لبث مخلصاً لها تماماً بعدما انكشفت علاقاته الغرامية الأولى. ولهذا فإن الحلم ينطوي إذن على إشارة ودلالة جد واضحة، بأن تلك العلاقة الغرامية ما برحت عالقة في ذهنها ولم تنته قط حسبما كانت هي تعتقد اعتقاد شعورياً بأن المسألة قد انقضت. نعم إنها انتهت بالنسبة إليها ظاهرياً، لكن رواسبها بقيت ثاوية في عقلها اللاواعي.

فهي، تحت قرارها الشعوري بتناسي الماضي وجعل القديم ينطمر تحت الرديم، كانت في الواقع تخفي في نفسها مشاعر انتقامية كان يمكن أن تتمخض عن متاعب خطيرة لو لم يجلب ذلك الحلم انتباهها إليها. وبالرجوع إلى ما في الحلم من تفصيلات، كانت (جوانا) قد تم تذكيرها بالمثل القائل: [دعها في غفوتها نائمة تلك الكلاب وابتعد عما يثير المتاعب والاضطراب]، وقد أقرت بأن جزء من تكويها كان لا يزال يرى زوجها وكأنه كلب. فهي على المستوى الشعوري من حياتها كانت تميل إلى عدم نبش الماضي وعدم مقابلة زوجها باتهام مضاد سبق لها أن صفحت عنه وتناسته، ولكنها من ناحية مقصدها اللاشعوري المتعلق [بالمصالحة وتسوية الأمور والمسألة] لم تكن في حقيقتها سليمة الطوية ولا هي تماماً حسنة النية: فهي على المستوى اللاشعوري هذا كانت تحاول تطمينه وجعله في مأمن من أمره ومن ثم الانقضاض عليه بالانتقام وفق طريقتها الخاصة، وربما كان في نيتها، مثلاً، إقامة علاقات غرامية خاصة بها أو القيام بشيء ما يمكن أن

يدمر مستقبله. كان واضحاً من خلال طريقتها الوئيدة في انتواء قتله في الحلم إنما تعني أنها كانت تصغي إلى ما كانت تعبر عنه مشاعرها وأحاسيسها حول الموقف برمته وحول غرامياته كلها بحيث يكون زوجها على وعي تام بمقدار ما سببه له من إيلام وإيذاء.

اقترح أفراد فريق الدراسة أن عليها في المقام الأول أن تقوم بتمثيل ما كانت تنوي القيام به من انتقام في حلمها تمثيلاً على هيأة دراما نفسية (٣) Psychodrama، وذلك بأن تقوم بضرب وسادة كبيرة موضوعة في وسط الغرفة بمضرب تنس، وأن تنفس عن أحاسيسها تنفيساً كاملاً. وإن عليها بعدئذ، أن تخبر زوجها حول الموقف برمته، وأنه يتعين عليهما معاً أن يقيما نوعاً من العلاقة الجديدة المبنية على وعي تام وأكبر لتفهم ما بينهما من توترات، كانا لحد تلك اللحظة يكبحانها ويخفيانها تحت غلالة مهلهلة من أجل انسجام سطحي.

ليست معظم الأحلام هي، على أية حال، من الوضوح أو مباشرة على هذا النحو، وأن اللجوء إلى ما هناك من ارتباطات واقترانات، معقدة إنما هي ضرورة لا مناص منها وذلك للكشف عما تعنيه تلك الأحلام حتى وإن لم تكن هناك صعوبة تذكر في التعرف على الأشخاص الرئيسيين فيها. فثمة مثلاً فرد من أفراد فريق الدراسة، واسمه براين Brain، وقد ذكر لنا حلماً كان يقلقه، وهو حلم كان يبدو للوهلة الأولى أنه شبيه بحلم (جوانا)، إذ أنه يعكس ما داخله من رغبة إجرامية موجهة هذه المرة نحو ابنه الأكبر. فقد حلم أن ابنه وعدداً من أصدقائه في المدرسة قد تم صفهم بالقوة صفاً واحداً من قبل أشرار غير معروفين بقصد قتلهم جميعاً بواسطة تسليط أشعة عليهم، وكان هو - الأب - قد اضطر عنوة أن يقف هناك متفرجاً على ما كان يجري. وأول ضحية تم اختيارها كان ابن أحد شركاء (براين) في العمل فاستيقظ من نومه مذعوراً وقت كان الصبي قد ترك على الأرض يتلوى من الألم، في الوقت الذي كان هناك صوت يقول: [إنه الآن دور

ابنك هذه المرة.]

كان (براين) يعرف الكثير حول النظرية الفرويدية المتعلقة بالعداء اللاشعوري بين الآباء والأبناء لكنه كان يظن بأن هذا الرأي مفرط في المغالاة والمبالغة وأنه إنما كان قد قيل لمجرد المتعة، وأنه رأى قد ترك أسئلة كثيرة بدون الإجابة عنها، منها مثلاً: لماذا كان بعض الأولاد في ذلك الحلم يقتلون، ولماذا تم اتباع هذه الطريقة الغريبة دون غيرها لقتلهم بالأشعة كسلاح للقتل والإجرام. وعندما طلبنا منه أن يربط بين ما في ذهنه وفي نفسه وبين قصة الحلم، تجلى بوضوح تام إن (براين) قد استشف ما في نفسه وعرف حقيقته، إذ أدرك أن الإجرام يثوي في نفسه، ولكن بشكل غير مباشر فقط. ذلك أن ما كان مقترناً في ذهن (براين) عن (أشعة الموت) هو بقايا مسرحية علمية خيالية بقيت عالقة في ذهنه وكان قد شاهدها على شاشة التلفاز في الليلة السابقة للحلم الذي كان قد رآه وفيه تلك الأحداث، وكانت تلك المسرحية تدور حول أشعة تجعل الشخص عبقرياً إذا ما أعطي منها جرعة قليلة، لكنها تحيله جثة(٤) هامدة إذا ما زادت على المقدار المقرر إعطاؤه. ويذكر (براين) أن زميل ابنه في الدراسة كان قد عاد لتوه من مدرسته بعد انتهاء الفصل الدراسي الأول، وهي مدرسة داخلية مرموقة، وإن ما رآه في الحلم هو أن جميع أصدقاء ابنه في ا لمدرسة كانوا معرضين لنفس المصير. إن (براين)، وإن كان لأسباب سياسية، يعارض بشدة فكرة النظام التربوي الخاص، فإنه مع ذلك قد استجاب لرغبة زوجته وآراء زملائه في أن يتيح لابنه فرصة الانتفاع من تعلم يتم في صفوف دراسية عدد طلابها أقل، ويكون معلموها مؤهلين تأهيلاً أفضل، وغير ذلك كثير، فهو قد وافق على هذا التوجه بشأن تعليم ابنه حتى وإن كان يعتقد في أعماق نفسه بأن ذلك النظام التعليمي ينبغي أن يتغير. وكان قد تقبل ما جادلت به زوجته قائلة أن مشاعر سوء الظن التي تخامره إنما تعزى إلى أحاسيس التعالي المعكوس النابع من مكانته بوصفه ينتمي إلى الطبقة

العاملة وذلك عندما كان قد تلقى تعليمه في المدارس الأجرومية(٥) (النحوية) Grammar، وإن مشاعره تلك لا تعزى إلى أي مبدأ سياسي.

غير أن ذلك قد كشف، على أية حال، عن قصة مغايرة بشأن هاجس (براين) وشكوكه حول ذلك النظام التعليمي. إذ أوضح أنه في أعماق عقله كان يرى عملية الأكاديمي الخاص، الذي تأخذ به الطبقة المتوسطة برمتها، مع ما تنطوي عليه من محاسن وفضائل فكرية عندما تعطى بجرعات أصغر وقليلة، فإن تأثيرها على الأطفال حينما تقدم لهم بجرعات أكبر، من شأنها أن تجعلهم فاقدي الإرادة وأن تشل قدراتهم على التفكير، فتجعل منهم نتاج مجتمع متنافس منافسة حادة، وأن تجعل منهم امتثاليين مستخذين مستكينين من غير تدبير ويشعرون طبقياً من غير تفكير. وكان قد لاحظ على سلوك زميل ابنه الذي كان قد أمضى فصلاً دراسياً واحداً تعرض فيه [لغسيل الدماغ] لاحظ تغيراً نحو الأسوأ، وقد شعر عندما شاهد ذلك بأنه مسؤول بشكل غير مباشر عما قد يلحق بابنه من انهيار في مستقبله.

مراتب الحياة العقلية(٦) والتكوين النفسي
أقربون آتون من الماضي

حينما نحلم بأناس تربطنا وإياهم في الماضي وشائج وثيقة، كالأباء، والأخوة والأخوات، فإنهم قد يمثلون في الأحلام أنفسهم إذا كنا لا نزال على إتصال وطيد معهم، وصلتنا بهم وثيقة، ولكن يمكن أن يرمزوا كذلك إلى تلك الأجزاء من ذواتنا نحن، والتي كانت قد اجتزئت منهم في أيام مضت. إن ظهورهم في الحلم إنما يقدمه عادة وجود منبه كان قد مر بنا وخبرناه في الحياة الواعية وهو يماثل شيئاً كنا قد ألفناه في مواقف ماضية. ففي حلمي الذي كنت رأيته عن ذلك المعمار السيء، والذي أشرت إليه في أواخر الفصل الثامن، فإن ما حصل من شجار بيني وبين أمي حول

استخدامها إياه خلاف رغبتي، لم تكن له صلة مباشرة بأمي، إذ لم أرها منذ عدة شهور خلت. وإنما ارتباطه المباشر كان متصلاً بالمحلل الذي كنت أتدرب عنده. فهو الحلم كان يرمز إلى بناء رديء مصمم على تدمير شخصيتي تماماً مثلما كانت أمي ترغب في أن ترى مني الطاعة الكاملة أيام طفولتي. ففي حين يبدو الحلم وكأنه في ظاهره يقول عني بأنني أشعر بأن أمي ستكون مسرورة غاية السرور لو أنها وجدت واحدة تتمم ما كانت هي قد بدأته، لكن الحقيقة كانت في واقعها أكثر قتامة وأشد نحساً. فالشجار إذن كان يقوم في الحقيقة بين جزأين متعارضين متصارعين في داخل شخصيتي أنا بالذات ـ أحد هذين الجزأين يمثل الفتاة الطيبة، وهذا الجانب يقوم على أساس من فكرتي عن نوعة الشخصية التي تريدني أمي أن أكون عليها؛ أما الجانب الآخر فيمثل ذلك الجزء (المتمرد) مني وفي داخلي، وهو الجزء الذي يرفض الخضوع من أجل القيام بتلك الأعمال اليدوية. ولقد لبثت عدة سنين وزيارة أمي تتكرر علي في أحلامي، مما يدل على أن تأثيرها كان لا يزال يستحثني من داخلي وهو لم يكف يعمل في أعماق نفسي، حتى وإن كنت فعلاً قد انفصلت عنها في دنيا الواقع.

يذكر المحللون النفسانيون أننا (نتبطن)(٧) Introject في ذواتنا آباءنا وأخوتنا ونتبطن في الواقع أي أشخاص آخرين قريبين منا ومقربين إلينا ولهم في حياتنا أيام طفولتنا سطوة حتى وإن كانوا بعيدين عنا بعض الشيء، بل حتى الأموات منهم. إننا نتبطن هؤلاء جميعاً فيصبحون فيما بعد جزء من تكويننا النفسي، فتستمر أصداء أحداثهم تتحدث في دواخلنا فتؤثر في مسرى سلوكنا. فهذا (أريك) Eric، وهو الآخر من حيث الخلفية الاجتماعية ينتمي إلى فئة الطبقة العاملة، يذكر أن أباه المتوفى ما فتيء يزوره في أحلامه كلما حاول تحسين وضعه في حياته وهو في عالمه الظاهري هذا. فهو قد ذكر أنه في إحدى المناسبات، وكان يجول في خاطره شراء بيت في منطقة جيدة، حلم بأن أباه كان يخاطبه هاتفياً من البحر الأحمر Red Sea

وطـلـب من ابنه هذا أن يلتـقي به في اليـوم التـالي هناك. وقـد فسر (أريك) كلمـة [الأحمر] بأنه الدفء والحنان والعطف، وفسر [البـحـر] بأنه دلالة على العـواطف التي كـان والده يعـتـقـد اعـتـقاداً قاطعاً بأنها خصائص تتميز بها الطبـقـة العـاملة دون غيرها، أمـا عند الطبـقـة الوسطى فإنها لا شيء سوى مظاهر زائفـة. كـان أريك في قـرارة نفسه موقناً بأن هذا مجانف للواقع وبعيد عن الحـقـيـقـة ولذلك بقي فترة يقاسي من صراع داخلي يعتمل في أعماقه قبل أن يقـدم فـعـلاً على اتخاذ القـرار في تنفـيـذ تلك الخطوة المرغـوبة التي كان ينتـويها، وكـان ذلك الصراع في دخيلة نفسه راجعاً إلى أنه كان في طوية ذاته لا يزال يظن أنه في حـالة إقدامه على هذا العمل وتنفيذه إنما يعني عزل نفسه عن الحياة (الحقيقية) التي كان قد أوحى بها إليه أبوه ومنه تبطنها.

إن الأصـوات في دواخـلنا تمنحنا أحـيـاناً نصـائح لا شك أنها مـعـقـولة، لكنهـا في كـثير من الأحـيـان تكون أصواتاً جامدة ونمطية Stereotyped، وإنهـا في الـغـالـب تـكـون أقـسـى مما كـانت عليـه في الواقع أصـوات آبائنا الحـقـيـقـيـة. وسأتناول في الفـصل القـادم هذه الهياكل المتراتبة، والقابعة في طوايا تكويننا النفسي وخـفـاياها، إذ سأوضح عند ذاك مـعـرفـتها والتعايش معها من غير ما حاجة تدعونا إلى اللجوء إلى معالجات التحليل النفسي.

الأصدقاء والزملاء (في الأحلام)

عندمـا نحلم بأصـدقـاء، وزمـلاء، تربطنا وإياه خـلال سـاعـات الحياة الواعي، روابط حميـمـة وتصلنا بهم صـلات سليـمـة، فـمن المرجح إذن أن الأحـلام في هذه الحـالات تخبرنا عن كـيـفـية شعورنا نحو هؤلاء الأشخاص أنفـسهم. وعلينا ، بطبيعة الحال، أن نتحرى دائماً عن حقيقة موضوعية قبل شيء، ولأضرب مـثـلاً عن هذه الحـالة حلم زوجي حين رأى فيه زميله يقدم له في العـشـاء خـضـاراً مطبـوخـة مـتفسخة متعفنة ـ وقد سبقت الإشارة إلى

ذلك من قبل ـ. إن الحلم في هذه الحالة كان من أحلام [النظر إلى خارج] والاحتراس في الحياة، وقد برهنت التجارب أن زميله ذاك لم يكن رجلاً مستقيماً، ولو لم يكن الحلم متضمناً بعض الحقيقة من التحذير الكامن فيه، لكان حرياً بزوجي أن يتساءل: لماذا إذن هو قد حلم على هذا النحو. فلو لم يكن الأمر كذلك لحلم زوجي مثلاً بأن زميله كان يرتدي ربطة عنق فراشية bowtie، ولذكر بأن والده كان قد حذره إبان طفولته، مثلاً، من كل إنسان يرتدي مثل تلك الربطات، وبالتالي يكون في مثل هذه المواقف قادراً على أن يتبين الجذور غير العقلانية المتضمنة في تضاعيف هذا الحلم فيعزو إليها عندئذ مشاعر التردد من خبرته بالذات.

بيد أن العقل الحالم يستخدم، أحياناً، هيأة الصديق أو الزميل ليذكر شيئاً ما عن شخص آخر مغاير تماماً. فإحدى معارفي، مثلاً، وكانت قد تركت بيت زوجها وعادت إلى منزل أبويها، قد حلمت بأن مكان أبيها المعتاد على مائدة الطعام كان يجلس فيه زميل لها، واسمه [الدكتور جاك دومنيون]، وهو معالج نفساني كاثوليكي المنزع، وكان قد ألف كتاباً عن انهيار الزواج، ولما لم تكن الآن لها صلة بالدكتور [دومنيون]، فمن المرجح بل من الواضح إذن أن الحلم كان يشير إلى أبيها الذي كانت تحس أن نفسها تحت هيمنته وسلطانه(٨) dominion، ولا سيما فيما يتعلق بزواجها الذي كان أبوها يرى أنه يجب عليها أن تحافظ على استمراريته رغم جميع المتاعب والمصاعب.

وإذا ما حلمنا بصديق لنا نعرفه في الماضي، ولكن انقطع اتصالنا به في الوقت الحاضر، فيمكننا أن نوقن إلى حد ما بأن إشارة الحلم هنا لا تعني هذا الصديق بالذات؛ إذ من المرجح جداً أن يكون المعني بذلك هو موقف حاضر يثير استجابة سابقة لها علاقة بذلك الصديق وبه ترتبط. فأحد أعضاء فريق الدراسة، واسمه (مارك) Mark، كان قد حلم، مثلاً، بأنه كان يتناول طعام العشاء وكانت تقدم له فيه شواء من لحم البقر، فتاة

صديقة له يعرفها من زمن بعيد في حياته المبكرة، لكنه كان يشعر بالقلق نظراً إلى أنه كان منتظراً منه أن يتناول عشاءه في داره مع أبويه، ولما كان لم يسبق له أن رأى الفتاة تلك منذ عشر سنوات خلت، فقد سأله أحد أفراد الفريق أن يحاول ليتبين أي شيء يرمز إليه ظهورها في حلمه ذاك. فذكر في وصفها بأنها فتاة صغيرة الحجم، شقراء، شبيهة بزوجته التي كان قد اقترن بها حديثاً، والتي كانت في الواقع قد قدمت له شواءً في اليوم السابق.

اتضح فيما بعد على نحو جلي أن عقله اللاشعوري لم يكن قد تكيف بعد كما ينبغي لحقيقة كونه رجلاً حديث الزواج وإنه ليس ملزماً بأن يتناول الطعام مع أبويه. فتحت غطاء انقطاعه إلى زوجته وإخلاصه لها وحبه إياها، كان في الواقع يفكر فيها بنفس الطريقة التي كان يفكر بها بصديقته السابقة، كواحدة اعتاد أن يروغ أحياناً روغاناً ليراها ويقابلها مخالفاً بذلك رغبات أبويه اللذين كانا يساكنهما(٩) إلى أن حان وقت زواجه. والحقيقة هي أنه كان يرى في زواجه، من حيث لا يشعر، علاقة أخرى محرمة وغير مشروعة، وكان لا يزال يرى ، رغم زواجه، أن الحنان مصدره أمه وهذا ما جعل الحياة غير مريحة بالنسبة إلى زوجته التي كانت دائمة الشكوى من أنه لا يصغي إليها وأن رغباتها كلها كانت دائماً خاضعة لمشيئة رغبات أبويه. وكان من قبل ينظر إلى انفجار زوجته بالغضب ويعتبر اهتياجها تصرفاً غير معقول تماماً حتى حصل له ذلك الحلم؛ لكنه قد أدرك الآن كيف أصبحت تفهم طريقة معاملته الطارئة لها. وقد عزم على الاعتراف لها بمكنون نفسه، وإننا أقنعناه بأن يطلع زوجته على الحلم ليتسنى لهما التعاون معاً على مساعدة [الطفل مارك] القابع في نفسية [مارك](١٠) الحقيقي لينمو ويكبر.

ثمة نوع آخر من الرمزية يختلف عما ذكرنا بعض الاختلاف، وقد تم توضيح ذلك من جانب [سيليا] Celia، إحدى أفراد فريق الدراسة، وكانت (سيليا) هذه قد هيأت مؤخراً مستلزمات بيت بالاشتراك مع

رجل له زوجـة ولكنهما ليسا على وفاق وإنها كانت تماطل في تأخير الطلاق، وهـو مـع ذلك كـان يعـاملهـا بكرم وسـخـاء. وقـد حلمت (سـيليـا) بأنها وصـديقـهـا قـد ابتـاعـا بيتاً جميلاً بسعر مناسب من أحد أصدقائها القدامى الذي لم تره منذ عـدة سنوات خلت. وبينما كـان أهل ذلك البـيت يطلعانها هي وصـديقـهـا على مـعالم البيت ذاك، وكانت منشرحة النفس لمشهد البيت ومظهـره ومـرآه الجـمـيل الفسيح، بغرفه الوسيعة ذات النوافذ الكبيرة، وبينما كـانا يقـومان بتطوافهما ذاك في أرجاء البيت حانت من صديقها التفاتة نحوها فـقـال لها: [إنك، بطبـيعة الحال، ستسمحين لنا بعد شرائك البيت بالإقامة فيه حتى عام ١٩٨٢ حـين ينتـهي إيجارنا] . فأدركت سـيليـا عندئذ أنها قـد ابتـاعت البـيت بدون أن تتـحقق من أن فيه مستأجرين يسكنون، وينتظرون مـنهـا أن تقـوم هي بصـيـانة البـيت طيلة أيام سكنهم فـيـه وهم بدورهم لا يدفـعـون لها لقـاء ذلك إلا أجـراً مـتدنياً. وأسوأ ما يترتب على ذلك هو أنها كـانت تعـتـقـد أنه لم يتبق هناك مزيد من الغرف المحترمة لأفراد مجموعتها. لقـد أظهـرت الاقترانات المرتبطة بحلمها ذاك هو أن أصدقاءها الذين كانت تتـحدث عنهم كانوا يلقبون بـ[لو] Law، ومـعناها [القـانون]، وقد ذكّرها هذا على الفور بالطلاق. أما الإشارة إلى عام [١٩٨٢] ، فإنه العـام الذي سيـتـخـرج فـيـه من الجـامـعة أصغر أبناء صديقها الذي تريد الزواج منه، ومـعنى هذاأن لا أمل لها بالزواج من صـديقـهـا هذا قـبل تصرم ذلك العام المضروب وانقـضـائه. وقد تذكرت، في الواقع، أنه في الأيام المبكرة من أيام انفـصـال صـديقـها هذا عن زوجته، كانت تلك الزوجة قد وجهت إليه لوماً قـاسـيـاً لهـجـره إيـاهـا وأولادها قـبل أن يتـمكن أولادهما من الوقـوف على أقـدامـهم والاعـتماد على أنفـسـهم. وفـضلاً عن ذلك، فإن حلمها ذاك قد كـشف عبر خـوف كان يساورها مؤداه أنها هي نفسها أيضاً ستبقى طيلة فترة طويلة تكد في الكسب إلى جـانب صـديقـهـا من أجل إعـالة أبناء صديقها هذا، ذلك لأن أبناءه قد اعتادوا على الاتكال عليه.

وفي هـذه الحـالة، فإن الأصـدقـاء في الحلم لا يرمـزون إلى الناس، وإنما يرمـزون إلى مـؤسـسة يمثلها [القانون] Law وإني أنا شـخـصـياً قد خبرت أمثلة كـثيرة من هذا الضرب من ضروب الرمـزية تمثل شـخصية الصديق أو مـبدأ عاماً، أو موقفاً معروفاً، أو هي ترمز إلى طريقة حياة يهتم بها الحالم في وضـعـه الجـاري اهتماماً خـاصـاً. وفي حـالات كهذه، فإن معنى الحلم قد يمكن اكـتشافه إذا ما بحث المرء على اسم ذلك الصديق الذي كان قد حلم به، ومـثـال على ذلك هو حلم [سـيليـا]، ولكن يمكن أن يشار إليه كذلك بشيء معين يرتقبه الحالم ويدور في مجرى حياته اليومية، كما سيتضح ذلك في حـالـة الحـلـم التـالي الذي أورده زمـيل لي وكـان يعـتـزم التـخلي عن عـمل مـضـمـون المكسب مربح يدر عليه مكسباً يزاوله في مجال الإعلان، والتحول عن عمله هذا إلى التفرغ للكتابة وحدها.

فـقد حلم بأنه ارتأى، بعد أن رأى الجو أخذ في التماطر، ترك الذهاب في نزهة والقـيام بدلاً عن ذلك برحلة. عرف وهو في حالة الحلم أن ثمة ملتجأ له يمكن العـثـور عليـه في قمة منحدر صخري شاهق، وكان هذا يعني أنه يتعين عليـه أن يتـغلب على صـعوبة السير في مسلك ضيق شديد الانحدار يدور حـول التـواء يكاد يكون حلزونيـاً، لكنه شعر بقلق شديد ساوره حول قـدرته في التمكن من القيام بكل هذا. وقلقه ذاك مبعثه خشيته من أن يهوي فـيـسـقط إلى القـاع، ولاسيما بعد أن أصبح المسلك مبتلاً وصار الطريق كله زلقـاً. لكنه لم يتخاذل، بل عض(١١) على نواجـذه وشـحـذ العزم وصمم على طرد الخـوف من نفـسه، وقد طلب من أحد أصحابه في الرحلة، وكان قبلاً قـد بلغ قـمـة ذلك المنحـدر الصـخـري، أن يتناول منه حـقيبة كان يحملها لتـسـهل عليـه المحافظة على توازنه أثناء عملية التسلق. عندما رفع بصره إلى الأعلى رأى أن ذلك الشـخص الذي في القـمة هو صديقه المسرحي [جيمس بـرابازون] James Brabazon، هـذا الحلم كـان تعـبيراً تصـويرياً بديعـاً يكشف عما في دخـيلة زمـيلي من قلق بشأن قـدرته في مـواجـهـة الانتقال إلى

أسلوب جديد في الحياة، وعندما سئل عن دور [جيمس برابازون] هذا في الحلم وعما كان يفعله، أجاب بأن هذا، كان خلال الحياة الواعية، رجلاً قد جازف بالانتقال من عمل إداري مضمون إلى عمل آخر حر وقد نجح فيه.

وأخيراً فإن ظهور الأصدقاء والزملاء في الأحلام إنما يرمز أحياناً إلى أجزاء من شخصية الحالم نفسه، وفي هذه الحالة يكون الأمر تماماً مثلما هو الموقف عندما يبدو للحالم الآباء والأخوة والأخوات والأقربون، وإن أحلاماً كهذه تستحق دائماً تقريباً مزيداً من التحليل على أسس من [النظر إلى داخل الذات] inward - looking lines، وبذلك تتضح الإشارة في هذه الأحلام بأنها تمت بصلة مباشرة إلى مواقف تتعلق بحياة الحالم بعد أن تكون قد محصت تمحيصاً مستفيضاً. وهذا حلم آخر أسوقه هنا، رآه [مارتن] Martin، وهو زميل لزوجي الثاني، وكان يومذاك يقوم بتسويق أجهزة إلكترونية جديدة، رأى [مارتن] في حلمه ذاك أنه كان على وشك الذهاب إلى روسيا ليقوم بعرض الأجهزة وتجربتها هناك ورأى أنه كان يقوم بتهريب زوجي عبر الحدود في حقيبة ملابس ليتولى عرض تلك الأجهزة وتطبيقها وتشغيلها. وبينما كانا في طريقهما يجتازان حراس الكمارك، كان [مارتن] قد تحسس حركات داخل الحقيبة فانتبه إليها لئلا تثير شكوك حرس الحدود.

غالباً ما تستخدم الأحلام صوراً لشيء معين مخبأ داخل حقيبة أو صندوق لوصف جزء خفي من شخصية الحالم، وهو جزء كثيراً ما يكون خافياً أو مكبوتاً(١٢)، وفي هذا المثال المضروب هنا كان يبدو جلياً أن [مارتن] قد أحس أن هناك بداخله شيئاً خفياً يمور - وهذا الشيء المحسوس في داخله قد كان الرمز له زوجي من خلال ظهوره في حلم مارتن - وإن الشيء الذي كان يعتمل في داخله جعله يخاف في حلمه ذلك من أولئك الذين يمثلون السلطة [وهم في هذه الحالة يتمثلون في الحلم في

حراس الحدود والكمارك]، التي لا تسيغ تلك الأحاسيس. فهو كان يعتقد بأن زوجي شخص يظهر دائماً على شاشة التلفاز ويظهر اسمه منشوراً في الصحافة، ويسمع صوته مجهوراً به في الإذاعة، وفي الوسائل المقروءة الأخرى؛ هذا وإن ظني ينصرف إلى أن [مارتن] كان يشعر بأنه شخص لديه طاقات كامنة ولكن شركته لم تكن تفسح له المجال لاستخدامها وتوظيفها والتعبير عنها. وكانت نصيحتها لمارتن تتلخص في ألا يكتفي بإعادة التمعن في دوره في الشركة التي يعمل فيها فقط، بل عليه أيضاً أن يرجع إلى أحلامه الأخرى والبحث في ثناياها عن أدلة بها يهتدي إلى القوى المستترة الكامنة في شخصيته والتي حملته على أن يتخذ لنفسه عملاً في الصناعة مأموناً رتيباً، بدلاً من أن يتخذ له عملاً يتيح له التعبير عن مواهبه المعطلة.

الأشخاص البارزون في المجتمع
الشخصيات التاريخية، وأناس من الروايات

عندما نحلم بأفراد من البشر فإننا عن طريقهم نعرف ونتعرف على الأشخاص البارزين في المجتمع، كالملوك والرؤساء ونجوم السينما، ومن الواضح فإن هؤلاء الأفراد الذين نحلم بهم لا يمثلون عادة أنفسهم في الأحلام أبداً؛ والأمر كما يعرضه [هول] ويثبته، هو أن الأحلام وثائق شخصية، وهي لا تقتصر على اتجاهنا نحو الشؤون العامة في الحياة فقط. وينطبق الشيء ذاته على أشخاص الروايات أو الشخصيات التاريخية. وإن جميع الأشخاص من هذا النوع يجب تمحيصهم والتحقق منهم عن طريق الاقترانات والارتباطات للتأكد من أنهم قد كشف عنهم الحلم [ليبعدوا شيئاً ما] عن أناس حقيقيين موجودين في حياة الحالم أو لتعكس مواقف تتعلق بأصول وقواعد، أو مؤسسات أو دساتير حياة تهم الحالم [كما ورد في

الحلم الخاص بالقانون]، أو هي قد تكون أحلاماً تكشف جوانب مستخفية من شخصية الحالم نفسه. والمبدأ العام في التفسير هو نفس المبدأ الخاص بشخصيات الآباء، والأخوة، والأصدقاء، أو الزملاء، فهي، إذن، شخصيات ترمز إلى أشياء أخرى تتجاوز حدودها؛ ويجدر دائماً أن يوجه السؤال إلى الحالم: لماذا هو اختار هذا الرمز دون سواه. ولعل السؤال الذي يجب أن يوجه والجواب عليه يكمنان في الاسم، أو لعل الأمر يتعلق بها في حياة الحالم الماضية من اقترانات، أو لعل المسألة ترتبط بخصيصة أو صفة بارزة ماثلة في ذهن الحالم، عن صفة يتحلى بها ويتميز الشخص الذي يظهر في الحلم ويتراءى للحالم.

عندما تمت المصالحة بيني وبين زوجي، بعد أن أوشك زواجنا على الانهيار، حلم زوجي بأنه كان ينظر شاخصاً ببصره عبر أرض قاحلة مهجورة، وعليها مشيدة كنيسة من طراز حديث. كانت مبنية من الطابوق الرمادي اللون المصنوع من الخرسانة والكونكريت الكارب للنفس، ذلك لأنه يحب الألوان الذهبية والألوان الزاهية للكنائس والكتدرائيات، ولا يميل إلى الألوان القاتمة. وقرأ هناك لافتة كانت معلقة على واجهة الكنيسة تلك تقول: [شيدتها السيدة آرمسترونك ـ جونز السابقة: أي زوجة آرمسترونك]، وقد أحس بشيء من الاشمئزاز بعد أن قرأ مضمون اللافتة تلك لأنه فسر الملاحظة ومعناها بأن تلك السيدة شيدت الكنيسة لا لتمجيد الله وإنما شيدتها لتمجيد نفسها.

فهو ليست لديه اقترانات أو أية ترابطات تتعلق بوالدة زوج الأميرة مرغريت، لكنه ألمح إلى أن مرضاه [فهو نفسه خبير بأمراض العظام واعتلالها] غالباً ما كانوا يطرون قوة يديه الجميلتين ويثنون عليهما، لذلك فلو كان هو نفسه [آرمسترونك ـ جونز] فمن الواضح أن أكون أنا زوجته. وفي اختيار زوجة آرمسترونك جونز لترمز لي في الحلم، يكون عقله قد تصرف بطريقة نظيفة في التعبير عن حقيقة رآني فيها زوجة سابقة، وإن كنا

قد سوينا المسألة فيما بيننا. أما الكنيسة المبنية من الخرسانة الكاتمة للنفس فإنه قرنها بعلم النفس الذي اتخذته مهنة لي، إذ كان يرى أنه علم جاف وكئيب، ففي الأيام المبكرة من زواجنا كنا قد انغمرنا في شيء كثير من النشاطات الدينية وخضعنا خلالها إلى طقوس شتى، وكانت نشاطات وفعاليات حافلة بالألوان، والرموز، والتمثيليات، وإن حلمه ذاك قد حدد بوضوح تام إحساسه وأبرز مشاعره حول الكيفية التي أبدلت أنا فيها كل تلك الطقوس القديمة بدين حديث جديد، يقوم على سيكولوجية أكاديمية.

وعندما بحثت هذا الأمر معه، اعترفت له بأنني كنت أرمي إلى الاستخفاف بالأيام الأولى من تفكيرنا وأنني أكثر من مرة كنت قد استخدمت معرفتي السيكولوجية لطمس ما كنت أعتبره أمراً عابراً وشيئاً سطحياً من فلسفة آرائه العفوية وإني لأعتقد بأن هذا العامل قد أسهم بشيء غير قليل في إقترافنا، وإن الحلم كان يعبر عن الطريقة الألمعية لدى زوجي مكنته من أن يطلعني على جلية الواقع(١٣). ولقد طردنا من ساحة تفكيرنا فكرة الزوجة السابقة الواردة في الحلم بوصفها من مخلفات الماضي فبقيت عالقة في الأذهان، لكن الحلم نفسه يمكن أن يعد من النوع الاستباقي ذلك لأنني قد أصبحت فعلاً [السيدة آرمسترونك ـ جونز(١٣) السابقة] بعد سنوات قلائل.

وحلم آخر يصف معلماً [بفتح الميم وسكون العين] من المعالم العامة الشاخصة يمثل هذه المرة إحدى المؤسسات وليس شخصاً معيناً، روى الحلم لنا [جيريمي] jeremy، أحد أفراد فريق الدراسة؛ وقد رأى فيه كأنه كان يراقب عرضاً عسكرياً يتقدمه [دوق نورفولك] Duke of Norflk، والعرض يسير في شارع [مول] Mall؛ كان يبدو وكأن الجو جو حرب، لأن المدافع كانت تطلق، وصوت انفجارات مدوية كان يسمع في كل مكان، جعل صديقة [جريمي]، وكانت واقفة إلى جانبه، تكيف من

الاستخفاف بكل ما كانت تنطوي عليه المناسبة وقالت ما أسخف كل هذا. وعلى حين غرة انطلقت طلقة‌ةخر على أثرها ميتاً جندي شاب كان في ذلك الموكب. فقال جيرمي معلقاً: [إذا كان هو رجلاً(١٤) حقاً فليرجع إليه ليحمله فلا يتركه ملقى هناك] وبالفعل فإن [الدوق] قد عاد إلى الجندي المنجعف واحتمله بين يديه، ثم واصل قيادة ذلك الاستعراض وكأن شيئاً لم يحدث.

كان [جيريمي] هذا لتوه قد تمت خطوبته على فتاة صديقة له، متحررة من الأعراف أكثر مما ينبغي، ومتحللة من القيود التي تجدر معها مراعاة الأذواق، بل هي من [الهيبي]، وقد طلبت منه أن ينهي عمله في الخدمة المدنية وأن يقوم معها برحلة استمتاع. وكانت شديدة الازدراء بكونه عضواً في كنيسة انكلترا، إذ اعتبرت عضويته هذه في منتهى ضروب الرتابة والملل. وإن [جريمي]، وإن كان في يقينه حذراً من تحررها المفرط ذاك، فإن جزءاً منه ومن تكوينه كان في واقع الأمر منحازاً إلى ذلك الانطلاق منها. إذ ذكر بأن [دوق نورفولك] يعني بالنسبة إليه ترسيخاً للتقاليد، فهو يعرف أن الدوق من طائفة الرومان الكاثوليك، وإنه ـ الدوق ـ أحد المنتمين إلى أشهر أندية [الكركت Cricket]، وإنه هو المنظم لاحتفالات التتويج. كانت دلالة هذا الحلم إلى [جريمي] دلالة واضحة لا ريب. إذ أنه كان يشعر في قرارة نفسه بأن ميوله الراسخة الخاصة بالمؤسسات المجتمعية المحترمة، قد أضحت معرضة لانتقادات لاذعة؛ وإنه قد أحس كذلك بأن مشاعره الحالية كانت متأرجحه ولم تعد ثابتة كما كانت من قبل. فهو في الوقت الذي كان يرى فيه المؤسسة على جانب من الكرامة والرصانة والشجاعة، فإنه في الوقت ذاته كان يعترف في قرارة نفسه بأنها جامدة وأنها مستعدة أن تضحي بحياة أولئك الذين خدموها، إنها تضحي بهم، حسب رأيه، باسم النظام الشعائري.

كان فرويد قد جادل بأن الشخصيات الملكية في الأحلام دائماً تقريباً

يرمزون إلى والدي الحالم، أو إخوانه، ولكنني لا أرى في هذا الرأي ما يدعوني إلى أن أتبنى ما كان قد تبناه وذهب إليه في اعتباره رموزاً كهذه مجرد تعبير عن رغبات متصارعة متعارضة، لها جذور ضاربة في الطفولة ومتأصلة فيها هناك إذا كانت علاقتنا، بطبيعة الحال، بآبائنا أو أخوتنا علاقة حميمة ومباشرة وتظهر لنا في الحلم شخصية ملكية مناسبة، فمن المرجح أن يكون الحلم معبراً عن شيء يكمن في تلك العلاقة بالذات - فأمي، مثلاً، كانت تحاول أن تملي علي ما هو خلاف طبيعتي وتلزمني بما يخالف حياتي. وإذا لم تكن ثمة علاقة مباشرة تذكر بين الحالم وأبويه أو إخوته وقت حدوث الحلم، وإذا لم يكن هناك أي شخص أو أي موقف يشير الحلم إليه [كما في حالة دوق نورفولك] في حلم [جيريمي]. فمن المفضل التحري عن معنى الشخصية الملكية في ذلك الحلم، في بعض جوانب شخصية الحالم الذي يرغب [أو ترغب] في أن يكون هو تلك الشخصية الملكية.

بعد أن أنهى زوجي الأول دراساته المهنية وبدأنا تدريجياً نندمج في الحياة الاجتماعية المرموقة، حلمت وكأنني في حفلة مع الأميرة [آن] Anne، ومما أفزعني وأخافني هو أنني وجدت نفسي أدخل معها في حديث يتناول السياسة، والدين، والجنس، وهي موضوعات ثلاثة أعرف أنها محرم الخوض فيها في المناسبات الرسمية كهذه المناسبة. وقد ظهر عليها الارتياح من حديثنا ذاك، لكن المرأة الواقفة إلى جانبها والتي ظننتها وصيفتها، بدا عليها ما يشبه الصدمة وندت عنها أصوات استنكار. فالحلم في هذه الحالة قد عبر عما في داخلي من صراع وتناقض بين كوني كابنة لأمي - أي أن أكون الفتاة المدربة، الطيبة الصالحة، الرصينة، الملوكية الممثلة بالأميرة [آن]، وبين ذاتي المنطلقة التي تستمتع بمقابلة ومجاملة الناس المتعضين المزعجين. إن حلماً من هذا النوع خليق بأن يتيح مزيداً من التعرف على حقائق نافعة إذاما تم تحليله على أساس [النظر إلى داخل] النفس، وفي

الفصل القادم سأتناول بشيء من الإسهاب مسألة [ملوكيتي الداخلية] in-ternal royalty.

ون مبادىء التفسير هي نفسها تنطبق تماماً على الشخصيات التاريخية والخيالية التي ترد في الأحلام فحينما يظهر هؤلاء في أحلامنا علينا أن نسأل أنفسنا عما إذا كانت تلك الشخصيات تشير إلى شخص معروف لدينا في حياتنا العامة، أو أنها تؤشر إلى مؤسسة، أو أنها تعبير عن جزء من تكويننا نحن. ففي أحد الأحلام، مثلاً، رأيتني فيه وكأنني كنت أشاهد مسرحية [هاملت]، وقد تم الإعلان أثناء ذلك أن الفتاة التي كانت تقوم بدور [أوفيليا] قد نقلت مريضة إذ سقطت على حين غرة. وقد طلبوا إن كان بوسع واحدة من بين المشاهدين من يمكن أن تحل محلها لتؤدي دورها. وقد بادرت فعرضت خدماتي نظراً إلى أنني حسبت أن ذلك الدور كان دوراً صغيراً لا يستنزف مني جهداً كبيراً. وبينما كنت واقفة في أجنحة المسرح بانتظار دوري، أدركت أنني لا أعرف سطراً واحداً مما كان يجب أن أقوله، فوليت هاربة مذعورة.

كان ذلك الحلم قد حدث في الوقت الذي تركت فيه عملي لأكرس نفسي تماماً لشؤون البيت والأسرة، فأوضح بجلاء لا لبس فيه أنني كنت أشعر بأنه دور لم أكن قط قادرة على القيام به. إذ لم أعرف كيف ألعب دور [المرأة الصغيرة] الناشئة المعرضة باستمرار إلى الضعف والانهيارات العصبية، ولذا فإن الحلم كان استباقياً إذ أوضح أنني فعلاً قد تخليت في النهاية عن الدور على مضض(١٤)، وحيثما حدثت لنا أحلام من هذا النوع أو تحدث، أو عند حدوث ما يماثلها، كنسيان أسطر ونحن على المسرح يمكننا أن نتيقن بأنه يوجد في حياتنا الحاضرة دور لا نقدر على الاضطلاع به أو أننا لا نرغب في أدائه.

الغرباء في الليل [خلال الأحلام]

من الواضح أن الأشخاص الغرباء أو المجهولين يعبرون في الأحلام عن رمز له مغزاه، إذا كانوا يلعبون دوراً معنوياً في جزء من أجزاء الحلم، وأن معنى دورهم هذا يجب أن يتم اكتشافه بنفس الطريقة التي تكتشف بها معاني أشخاص الأحلام التي تم وصفها في فقرات سابقة من الفصل هذا. إذ أن الأشخاص الذين يتراؤون في الحلم يمكن أن يمثلوا أشخاصاً حقيقيين، أو لعلهم يرمزون إلى مواقف محدودة، أو قد يدلون على مؤسسات لها مدلولها، بل لعلهم يمثلون جزءاً من ذات الحالم نفسه، وأن التفسير في هذه الحالات ليتوقف على ما تعبر عن نوعية الشخص الذي يبدو في الحلم أو اسمه.

عندما التقيت أول مرة بزوجي الثاني كان مقدماً معروفاً على نطاق واسع لبرنامج ديني خاص من وجهة نظر العلم الحديث في كل من المذياع والتلفاز. واعتقاده الأساسي يقوم على أساس الإيمان بقوة الحب الألهي، وكان يفسر مبدأ doctrine الثالوث trinity، على أنه إلهام revelation ينطوي على جوانب المحبة الثلاثة المتضمنة لكل هذه المعاني السامية ـ وإن جوانب المحبة الثلاثة هذه يشع نورها على علاقة الأخذ والعطاء المتبادل بين المحب والمحبوب ومن ثم إشعاع هذه المحبة وتدفق أقباسها على الآخرين. وخلال فترة وجيزة، وبعد أن بدأت علاقات صداقتنا تتوطد، حلمت حلماً رأيتني فيه أنني وشخصاً غريباً علي، اسمه [كرستيان] Christian، يضمنا فراش واحد، ومعنا زميلة لي سابقة اسمها الآنسة [لوك] Locke. جعل كرستيان يداعبني وفجأة توقف عن ذلك وهو يقول: [اسمحي لي، الأفضل أن أداعب الآنسة لوك لأنها ستتزوج بعد أسبوعين]. فتقبلت هذا القول وأنا في الحلم على أساس أنه إذا كانت الآنسة لوك ستتزوج بعد أسبوعين في الواقع، فإنني سأكسب في هذه الحالة سمة الشهامة والإيثار. أسفت وأنا في حلمي ذاك أنه لم يظهر أية دلائل تشير إلى عودته إلي

فاستيقظت في حالة ابتئاس واكتئاب.

احتوى الحلم المذكور نوعين من أناس انعكسوا على صفحات المرآة العاكسة. فالآنسة [لوك] كانت شخصية حقيقية وقد تزوجت فعلاً في غضون أسبوعين، ولكن لم تكن لي أية علاقة خاصة تربطني بها. إنها كانت مجرد زميلة لا غير وليس أكثر. وعندما رحت أقرن باسمها ما يتداعى لي، تذكرت، على أية حال، فتى سويسرياً عرفته منذ سنوات كثيرة خلت، كان في زورقه في بحيرة [لوسرين] السويسرية، وقد ندت عنه آنذاك عبارة قالها وهو متجهم، إن النساء يشبهن بعضهن وهن في الفراش سواء. فمن الواضح، إذن، أن الآنسة لوك كانت بالنسبة لي تمثل النساء، فهي إذن ضمن سياق جنسي خاص. وبالربط بين [كريستيان] وبين ما يتوارد على ذهني فإنني كنت منقادة إلى الجانب الديني (١٥) وتوجهات صديقي الجديد، فالحلم إذن قد كشف عن شكوك خفية كانت تساورني بشأن الدفق الفياض الصادر على الثالوث في لاهوته وربما يعني اندفاعه نحو نساء أخريات.

والحالمون لا يواجهون صعوبة تذكر في التعرف على الهوية التي تتقمصها شخصيات الغرباء الذين يظهرون في الأحلام إذا ما كانت تلك الشخصيات ترمز إلى أناس حقيقيين. فزميلتي التي حلمت بشخص مكبّل في سلسلة [ورد ذلك في الفصل السابع] قد عرفت على التو أنه يمثل زوجها، وأن (سالي) التي ورد اسمها في (الفصل الثاني) لم تواجه صعوبة في تشخيص ذلك الملك الشرقي بأنه زوجها وذلك حالما أدركت أن الزوجة الكبيرة في قصره، إنما تمثل جانباً من نفسها هي [نفس سالي]. وبالطريقة عينها، فإن الأغراب الذين يظهرون في الأحلام يمكن في الغالب الربط بينهم وبين الآباء والأخوة والأخوات، وهؤلاء جميعاً قد أصبحوا جزءاً من ذواتنا عن طريق تبطننا إيّاهم وتشربنا لهم ولسجاياهم. فـ[بيتر] مثلاً، وهو أحد أفراد الفريق، كان قد رأى حلماً رواه لنا إذ يقول:

كنت عائداً في باخرة من أمريكا وكان فيها معي مسافران لم التفت باديء الأمر إلى وجودهما إلا التفاتاً عابراً يكتنفه شيء من الإبهام. كان أحد الشخصين يبدو أنيقاً ذا وقار، والآخر هندي، كما يبدو من مظهره ومن زيه، ويعتمر(١٦) بعمامة، وكان ذلك السيد الأنيق يعمل لحساب شركة تتعاطى تجارة الشاي. وكان يظن أن ذلك الهندي منافساً له وأنه يتابعه بقصد تسقط أخباره، وإن كنت أنا أحس بأن لا حقيقة هناك وراء ظنه هذا. ولما خرجنا من الباخرة وكنا مصطفين ينتظر كل منا دوره لغرض استئجار سيارة أجرة، فما كان من ذلك الرجل إلا أن استخرج سكيناً جرح بها ذراعي الهندي، ثم قفز إلى داخل سيارة أجرة وتوارى عن الأنظار. من ناحيتي كان انطباعي بأن هذه الضربة من جانب ذلك الرجل كانت ضربة قاسية لا رحمة فيها، كأن الغرض منها كان للحيلولة دون ملاحقة ذلك الهندي له. أصابني الفزع والرعب مما رأيت، وأن الهندي، وإن لم يكن تماماً في وضع سيء، غير أنه كان منذهلاً من العمل وكان محتاراً كيف سيحمل حقائبه فيما بعد وماذا سيفعل مستقبلاً. فتابعت ذلك الرجل بعين العقل وسألته لم هو فعل فعلته تلك مع انعدام البرهان لديه بأن ذلك الهندي كان يقوم بملاحقته. فكان جوابه: في هذا العالم التجاري المتكالب لا يوجد وقت للتردد ولا حتى لتبرير وتفسير الشكوك. والسبيل الوحيد للبقاء هو أن نتخذ عملاً سريعاً لا شفقة فيه.

لم يكن بمقدور [بيتر] آنئذ أن يربط بين الهندي أو ذلك الرجل وبين أي واحد آخر يعرفه في سياق حياته الحقيقية. وأدنى ما استطاع تقريبه من ذهنه هو إحساسه بأن الهندي ذاك بدا له أشبه موقفاً بوالده الذي كان قد عانى ما عانى في مجرى حياته المديدة، والذي كان قد توفي منذ سنوات خلت. وذكر أبن والده كان يمقت أصحاب رؤوس الأموال وبخاصة أولئك الذين يستثمرون أموالهم داخل المدن. وأضاف بيتّر أنه كان يشعر بذنب دائم حول اعترافه لوالده بأنه هو نفسه يمتلك قليلاً من الأسهم، وإن هذا قد

ذكـره بأنه في اليـوم السـابق للحلم كـان قـد باع بعض تلك الأسهم ليجمع أموالاً كان بمسيس الحاجة إليه من أجل قضاء عطلة في الخارج.

وواضح من هذا أن الرجل الأنيق ذاك كـان يمثل الجانب المندفع الطموح من ذات [بيتر] نفسـه. وهذا الجـانب منه كان دائماً يحس بأنه مطارد ومهدد من قـبل شـخـصـيـة أبيـه التي سبق لبيتر أن تبطنها. وهذا قد عززته حقيقة كـون كـلا الشـخـصين كان مرافقاً لبيتر في حلمه وهو في رحلته البحرية من أمـريكا، أرض الرخـاء. أوضح الحلم، حينما شبه والد بيتر بالهندي، أنه لم يكن ذلك الرجل العـجـوز الذي كـان دائماً يناكـد والده بيتر ويناكـفه ذلك [لأنه قـبل وفـاته بعـدة سنين لم يكن فـقيراً مـعـوزاً حـقـاً]، ولكنه كان دائم الوعظ والتـذكير حـول سـوء تصرف أي واحـد يسـمح لنفـسه بالانغماس في اللذاذات في حين أن هناك مـلايين من الناس في الهند يموتون جوعاً.

وبقطع اليـدين ربط بيتر مـا كـان قد تذكره من مد اليدين للاستجداء في بعض المدن الشرقـيـة، وتذكـر كـذلك حـقـيـقـة قطع اليـدين قديماً كعقاب للسرقـة. لذلك فإن الحلم قد أماط اللثام عن بيتر السمح الهاديء في ظاهره كـان في حـقـيـقة أمره يختبيء تحت إهابه انفصاماً خطيراً في الشخصية، فهو عندمـا يجمع أي مـبلغ من المال أو حينما ينفق شيئاً منه على نفسه، فإنه كان يحس بشـعـور من الذنب فظيع، وكـان يتـعامل وإياه بالانسحاب(١٧) الذاتي والانكماش على نفـسـه واتخاذ موقف متطرف مع الذات يماثل موقف صاحب رأس المال الفظ الذي يغـضـب فـيـقطع الإعـانات رغم التـوسـلات، فـينهي بذاك المسـاعـدة عـمن يحتاجها، وقد تصور بيتر أن قطع المساعدة هذه أشبه بالسرقة.

هذا النوع من الانفـصـام الداخلي في الشـخـصية أصبح شائعاً ومتفشياً في مجتـمـعنا الحالي الذي أضحى فيه كثير من الناس أفضل حالاً من آبائهم من الناحية المالية. فكان إحساسهم الشخصي بالذنب قد تعزز، ذلك لأنهم إبان طفـولتـهم كـانوا يتشبعون، كما هي حال بيتر، بالتعاليم المسيحية التي تحثهم

دائماً على التضحية، وعلى تشرب الفضيلة لتعينهم على محاربة ما كانوا يواجهون من فاقة، وشجب العكوف على الاهتمام بالذات وحدها باعتبار هذا الاتجاه مما يغرس في النفس الأنانية الخبيثة. إن مثل هذه الانفصامات الداخلية لدى الأفراد يمكن أن تدمر حيواتهم وتحطمهم، وأجسم الخطر في هذا كله يكمن في أنهم قد يستمرون سنوات طوالاً يسلكون خلالها سلوكاً يظهرون فيه أنهم لطفاء، كرماء، ذوو سجايا طيبة، وشهامة إيثارية، فإذا بهم فجأة ينقلبون أشحاء، قساة، مناعين لكل عطاء، فيكون تصرفهم هذا أكثر إيذاء لمن هم حواليهم، إذ يكون تصرفاً خالياً من الشفقة الإنسانية، بعيداً عما يجب أن يكون عليه التعقل والعقلانية، وبمنأى عن الحد الوسط المقبول المعقول.

أما ظهور الأطفال المجهولين في الأحلام، فإنهم يمثلون فيها الأجزاء غير النامية من ذواتنا، أو أنهم قد يرمزون إلى تلك الأقسام من أنفسنا التي بقيت ملتصقة بالتناقضات والصراعات المتجذرة في الطفولة، لكنهم أيضاً يمكن أن يمثلوا جوانب من مواقف محددة في حياتنا برمتها، حيث يتراءى لنا أن حالة معينة جديدة من الحياة تبدو وكأنها شيء قد اكتمل نموه. ففي حلمي [مر وصفه في الفصل السادس] الخاص بولادة طفل وتسليمه إلى السيد المتعبد، وقد فسرت أحداثه بأنه يشير إلى حالة جديدة من الزواج أوكلت الأمر فيه إلى الله المعبود وفوضته إليه. وإن حالة أخرى كاملة الوضوح عن الرمزية في الحلم قد حصلت لزوجي الثاني مباشرة بعد لقيانا وتعارفنا، عندما عقدنا العزم وقررنا أن الأساس الوحيد المعقول لعلاقة حميمة بين الزوجين هو الصدق والأمانة والإخلاص والتفاهم والصراحة، والتفاعل في مشاعرنا نحو بعضنا، والتشارك في آمالنا، وفي هواجسنا، ومخاوفنا، وحاجاتنا، وغير ذلك، بدلاً من اللجوء إلى الانغمار في لعبة التحايل والتمثيل على بعضنا. فقد حلم زوجي بأن زوجة أبيه قدمت له طفلاً مولوداً حديثاً لكن جمجمة رأسه العليا [القحف الأعلى] كانت

مـقطوعـة بحـيث أن مخ الدماغ كان ظاهراً تماماً، مما أفزعه فسأل زوجة أبيه لماذا سـمـحت له أن يولد هكذا، وأي نوع من الحـياة سيحياها المولود ذاك.
فأجـابته بلهجة المرأة الريفية الحصيفة تقول: [ستكون له حياة طيبة كحياتك أنت]، فاستيقظ من نومه مطمئناً طيب الخاطر.

فأدرك أن الحلم إنما هو تعـبير عن حـالة التـحدي والترقب التي أحس بها إزاء مـسـتـقـبل ينتظره يتـعلق بحياة جديدة متغيرة تغيراً جذرياً وليست هناك وراءها دفـاعـات مـضـمـونة مـؤكـدة. وإنه ـ زوج الكاتبـة ـ قـد عـزا ذلك بخـاصـة إلى مـا كـان يحسـه من تحـد وترقب وتوجس حـيـال انفـتاحه على مـوضوع جديد من المعتقدات الدينية موضحاً بذلك إلى الناس ما يعتقده هو في الـواقـع، بـدلاً من ترك المشـاهدين يفكرون مع أنفـسـهـم بأن مناقـشـاته العلمـيـة هي التي تفسر مـا يعـتـقـدونه حـقاً وما ينبغي أن يعتقدوا به. وإن الحلم هذا، كـان على نحـو مـا وبصورة من الصور، حلماً استباقياً، إذ أن [الطفل الوليد](١٨) الذي رآه في منامـه مـا زال حـياً، وينعم بالخير، مستمتعاً بالحياة الرافهة، مثلما أنبأته في الحلم زوجة أبيه تماماً.

الحيوانات والحشرات وسائر المخلوقات كما تبدو في المرآة العاكسة [الأحلام]

لمحت (أليس) Alice، بشيء من العـصـبـية، وهي تمر في البهو الكبير، لمحت عبر المائدة ضـيـوفـاً يربو عـددهم على الخـمـسين، ضـيـوفاً من جميع الأنواع، بعـضـهـم من حشرات، وبعـضـهـم من صنف الطير، بل لقد كانت بينهم أزاهير قليلة تتـحلق حـول المائدة تلك. فـحـدثت نفـسها تقول: [إني سـعـيـدة أنهم قـد قدموا بغير انتظار منهم حتى توجه إليهم الدعوة. وإلاَّ لما عـرفت من أحق الناس منهم بالدعوة لأدعوهم]

إن مـوقـفنا يجب ألا يكون كـمـوقف [إليس]، إذ ينبغي أن نتحمل كامل المسـؤوليـة إزاء المخلوقـات التي تتداعى في أحلامنا. فهي في العادة رمزية في

طبيعتها، ولكن يمكن أن تكون ذات معنى مباشر إذا ما كنا مهتمين عن كثب بحيوان حقيقي بعينه إبان الحياة الواعية. فصديقة لي، مثلاً، قد حلمت بأن كلبها قد قتل في طرف حديقة لهم عند الشارع العام المزدحم بالسابلة والمرور، وكانت قد رأت هذا الحلم بأسبوع واحد قبل أن يلقى كلبها ذاك مصرعه تحت عجلات عربة مرت هناك. فالحلم هنا قد أشار بوضوح إلى قلق صديقتي حول احتمال موت كلبها وإنه لحلم يمكن تصنيفه بأنه [حلم تحذيري].

وقد ذكرت إحدى عضوات فريق دراستي وبحثي عن الأحلام، نموذجاً عن حلم يتسم بالوضوح التام يتلخص في أنها كانت تتصيد جسم كلبها الميت في النهر، وليس ثمة أدنى شك في أن الحلم هنا كان يشير فعلاً إلى كلبها الحقيقي وليس سواه. ذلك لأنها كانت ترى في كلبها ذاك عبئاً عليها تفكر في قرارة نفسها في التخلص منه لكنها لم تشأ القضاء عليه لتعلق ابنها به. فكشف الحلم عن رغبة مخلصة صريحة في أن يلقى مصرعه، وكانت تتمنى لو أنه نفق(١٩) في حادث فتكون بذلك قد أعفت نفسها من مسؤولية موته على يديها. إن أحلاماً واقعية كهذه على الحيوانات قلما مرت بي في خبرتي، على أنها من المرجح أن تحدث عندما يكون الحيوان في وضع من نفس الحالم بحيث يلعب دوراً مباشراً في حياة صاحب الحلم كما يلعب الدور هذا، الزوج أو الطفل.

ان معظم الحيوانات التي تظهر في الاحلام هي رمزية، وانها، شأنها في هذا شأن الحيوانات والحشرات التي تتراءى في مرآة (اليس) العاكسة، تمر في الغالب بتحولات Transformations غريبة. (يمكن ان يكون المخلوق هذا اي شيء سوى النحلة الاعتيادية. ها أنني قد تبينت الحقيقة الآن: انه فيل)، هكذا عبرت اليس عندما كانت تراقب تلك المخلوقة تتنقل بين الأزهار. وحلم آخر روته (روث) Ruth، احدى اعضاء فريق الدراسة، رأت فيه أنه كانت هناك فرس البحر (أو فرس النهر

(Hippopotamus) كانت تطاردها في بيتها، تطاردها في جميع انحاء البيت متسببة في سحق الأشياء محدثة بذلك دماراً كبيراً. فأدركت بغتة ان فرس البحر هذه كانت تبتغي طعاما، فراحت تطعمها خبزاً حتى نفد كل ما كان عندها في البيت من الخبز، فما كان منها (روث) الا ان سارعت خارجة لتبتاع مزيدا من الخبز لاطعام الفرس تلك، وهكذا استمرت في اطعامها وهي في حلمها ذاك. وفي النهاية غادرت تلك الفرس البيت خارجة منه، لكن (روث) ظنت انها ستعاود الكرة في المجيء عندما تجوع ثانية، وفعلا فقد عادت فرس النهر تلك ثانية، ولما نفد ما تبقى من الخبز تحولت الى نمر راح يلاحقها بشراسة يريد افتراسها.

وبالربط بين ما رأته في حلمها وبين فرس النهر، قالت ان اطعامها لفرس النهر يذكرها بزوجها الذي كان دائما يبدو لها نهما جائعا. فحيثما كانا يذهبان معا وقدم لهما اصدقاؤهما طعاما فانه دوما يقبل عليه أكلا حتى وان كان لتوه قد التهم كمية كبيرة منه في البيت. وقد أدركت (روث) ان ذلك لم يكن جوعا طبيعيا فادخل في روعها انه لا بد ان يكون نوعا من التعويض الترويحي يتخفف به من بعض النوازع النفسية الدفينة لديه. لقد وصف الحلم زوجها بأنه فرس نهر شراهته لا حدود لها، مع اضافة اخرى مخيفة هي ان هذا المخلوق فرس النهر - يمكن ان يتحول الى نمر يفترس الانسان اذا ما نفد الطعام. فسرت (روث) هذا الحلم بأنه تحذير لها عما هو كامن هناك في طبيعة زوجها من معالم خفية خبيثة يمكن ان تتجسم فتدمرها وتنهيها ان هي فشلت في اشباع حاجاته العصابية.

وان عضوة اخرى من أعضاء الفريق، وأسمها سونيا، قد حلمت بأنها كانت مضطجعة في فراشها ورأت راقدا الى جانبها في نفس الفراش كلب اسود كبير وأرادت ان تربت على ظهره وان تمسده للتدليل على مودتها له واشارة منها على عاطفتها نحوه، لكنها أدركت انه عليها الا تفعل لئلا توقظه. غير أنها لم تستطع مقاومة رغبتها، ونتيجة لذلك فقد استيقظ،

فعض ركبتها بين أنيابه ، وجعل يأكلها . وبربط ما تداعى على ذهنها بالكلب، قالت ان صديقها كان بين الحين والآخر يشعر بالابتئاس لأنها كانت معتادة على تربيته على رأسه مثلما تصنع مع (كلب وديع) . وكانت تفعل ذلك كلما أتى عملا يدخل على نفسها البهجة والسرور. وكان يقول لها انه وجد تلك الحركات منها تشوه مكانته وتحط من قدره. ان حلم سونيا هذا قد كشف بوضوح عن خوف على مستوى شبه الشعور عندها، خوف من ان صديقها الفتى ذاك لم يكن سلس القياد كما كانت تظن ولعله في يوم سيثأر لذاته على نحو ما مما قد يضر بها ويؤذيها.

عندما يظهر بعض الأفراد في الأحلام بهيأة حيوانات، فان هذا يحصل لأن عقل الحالم يشعر عادة بشيء ما نحو ذلك الشخص الذي تمثله على نحو مناسب صفة ذلك الحيوان الذي يبدو في الحلم. وعلى هذا فان الحلم قد ينبئنا بأن شخصا معينا قد ظهر في الحلم وكأنه كلب أو كلبة، أو كليب (كلب الحضن)، او كلب الزاسي. وقد يظهر بهيأة شاة (وكنت قد ظهرت في التحليل ببعض الأحلام بأنني حمل Lamb يتم اقتيادي الى المجزرة) . وقد يظهر شخص آخر وكأنه أفعى بين الأدغال، وقد يبرز وكأنه جرذ أو فأر، أو قد يكون بهيأة قرد، أو أسد. وفي جميع الأحوال، على أية حال، فمن الأهمية بمكان ان نتبين ما اذا كان الحلم ينطوي على ما يصاحبه من (نظرة خارجية) Outward - Looking ؛ أي ما اذا كان الحلم يمثل استكشافا دقيقا لبعض الشخص الذي كان قد شاهده فعلا عقل الشخص الحالم - أو عما اذا كان ذلك الحلم يعبر تعبيرا كاملا عن المشاعر الذاتية للشخص الحالم.

إن تبطن شخصيات الآباء أو الأقرباء يمكن أيضاً أن تظهر احيانا في الأحلام بصورة حيوانات. وأول حلم رأيته كان عندما بدأت اجراء بعض التجارب على نفسي (فكنت اوقظ نفسي على فترات متعددة بواسطة ساعة منبهة) وكان ذلك الحلم قد نقلني سنوات الى الوراء، الى أيام طفولتي

الأولى يوم كنت أدرج في رحاب المنزل، وفيه رأيت أسدا يتمطى أو نائما في الجزء التحتاني الأسفل من البيت. ورأيتني في حلمي ذاك أنني كنت أحيانا أزعج ذلك الوحش واستثيره، فكان يهتاج ويأخذ يجوس خلال البيت ويطوف فيه. رحت من ناحيتي اخاطب عبر الهاتف حديقة الحيوان - والرقم الذي استخدمته كان (ح ٧٠٠٠) ، هذا هو كان الرقم في ذلك الحلم - لكنني بدلا من أن أطلب منهم المجيء الى البيت والامساك بالأسد، وجدت نفسي أسأل عن اسم ذلك الحيوان.

وبربط ذكرياتي بالحلم، تذكرت أن أخي كان من الناحية الفلكية من برج الأسد، وقد فسرت الحلم بأنني كنت قد تبطنت برج أخي في الحياة وكان ساكنا في داخلي وهاجعا فتمثل لي في منامي ورؤياي في صورة أسد. وكان شعوري هذا قد تعزز وأنه لم يكن حلما من غير أسس ينهض عليها، اذ تبين لي في غضون الأسابيع التالية حيث تراءى لي أخي، ويا لدهشتي، في مشاهد من أحلامي يظهر في سياقات جنسية معينة مع مبلغ اطلاعي والمامي بنظرية فرويد وتمثل الحيوانات في أغلب الأحوال الدوافع الجنسية بصورة مباشرة، وان اختيارنا في الحلم لحيوان معين يشير الى ما هو مكنون فينا وكيف نتملى تلك الدوافع. لذا فان اختياري للأسد انما يمثل ضربا من ضروب التكثيف Condensation الصريح الواضح. فقد أظهر لي الحلم انه منذ ابان طفولتي كنت أحس بأن هناك من الناحية الجنسية فوارق تقوم بيني وبين أخي وأن تلك الفوارق كانت ترتقي أحيانا الى حد المحاذير الفعالة - وأنه لهذا السبب بالذات فقد طويت جوانحي على ذلك الوحش وأن أدعه يرقد هناك في ثنايا نفسي.

الآن قد أدركت أن شيئاً ما قد أهاج ذلك الحيوان الهاجع واثاره (واني لأعزو ذلك الى ما أجريته من تجارب)، وأني كنت شديدة الاهتمام بكيفية السيطرة عليه، وقد تبين لي ذلك من تدوير الرقم سبعة المبهم ومحاولتي أن أسمي ذلك الحيوان، وهي طريقة سحرية للظفر، بالهيمنة على شيء ما.

وأن الموقف كله كـان، بطبـيـعة الحال، مسألة فرويدية كلاسيكية لكنني عبر السنوات القـلائل الماضيـات، قـد توفرت لي معرفة وتلقيت عونا بالغا ليس بـواسـطـة الـتـحـليل وانما عن طريق البـحث في الأحـلام باتبـاعي أسـاليب التقنيات الجشتالتية، كما سأصف ذلك في الفصل التالي :

فـالحيـوانـات في الحـلـم، شـأنهـا في هـذا شأن الناس حين يظهـرون في الأحـلام، يمكن أن ترمـز في بعض الأحـيـان الى المواقف، والمبـاديء ، بل والى بعض المؤسـسـات . حضرت مـؤخـراً احـدى جلسات جماعة تنتهج في التـحليل والعـلاج المنهج الجـشـتـالتي، وقـد روى أحد أعضائها أنه رأى في الحلم فـيـلا يتـجـول في أعلى بيتـه فوق السطح. وفيما كنت اتساءل بدهشة عـمن سـمح لهذا المخلوق بالدخـول، فـقـد رأيتـه يتـهـادى ويتدحرج فوق الجـدار الخلفي ثم ينحدر عبره. كان مذعوراً، ثم لاحظت ان الجدار الخلفي ذاك كـانت تتكون فـوقه طبقات من فضلات الفيل حتى أن نافذة صغيرة فيه هناك كـانت هي الأخرى تماما مغطاة بتلك الفضلات ومسدودة.

أنا نفسي كنت مـبـهـورة بالاحتمالات اليونجية (نسبة الى يونج) والفرويدية الواضـحـة في ذلك الحلم، لكن قائد المجموعة كان له رأي آخر. فقد طلب مـن الشـاب ان يمـثل لنا الحلم تمثـيـلا، واتضح فـيها بعـد من خـلال سير التـمـثيل ان لافـرازات الفـيل وروثه مـعنى فـريدا ضـمن سـياقات العلاج الجـشـتالتي. وقد تذكر الشاب ان (بيرلز) كان قد ميز ثلاثة اصناف مما أسماه (نتـاج حـشـو الأمعاء) ـ ومنه افرازات الدجاج ويرمز الى المجتزأ في الحديث مـثل (صباح الخير، كيف حالك هذا اليوم) و(لقد استمتعنا بجو لطيف هذه الأيـام)؛ وافـرازات الـثـور والـبـقـر، وتنطوي على مـعنى التبرير واخـتـلاق المعـاذير، كـالقـول مثلا : (انني لا أستطيع محبة أحد لأن والدتي لم تظهر لي المـحـبـة ابان طفـولتي)، ومن ثم افـرازات الفـيل، وترمـز الى الـتـفـلسف في الأفكار والتـفكير فيها وبما يتصل بالمعاني والنظريات بدلا من تجربتها عملياً. ان هذا الحلم كـان ينبئه بعـبـارات لا لبس فـيـها ولا التواء بأن ما كان يبذله

من جـهـد من أجل ان يسـتبين سبيله في الحياة، انما هو جهد ضائع، ذلك لأنه كـان يبـدد طاقـاته في الاكثار من التحدث عن مشكلاته على نحو مجرد فـتـذهب جـهـوده هبـاء، بدلا من مـواجـهتها والتصدي لها بالفعل وبشكل بناء.

ومـثل آخـر أسـوقـه، وبه ترمز الحيوانات الى مبدأ أو مؤسسة، والحلم في هذه الحـالة يشـبـه حلم (اليس) في خبرة النظر الى المرآة يوم حـسبت النحل يبـدو لها وكأنه فـيله، والحلم المعني هنا رواه زمـيل لي كـان قـد ترك عـمـلا يمارسـه ليـتخذ له عملا في مجال الأعمال الحرة. وفي وقت قبل ان يتخذ قراره النهائي، كان قد رأي الحلم التالي:

رأيت وكأننا في أرض حـيث يتـعـايش الناس فيها مع حشرات وكأنها تنمو لتبلغ حـجم حـيـوانات اشـبه بالأفيال. ابتدأت تلك الحشرات باديء الأمر وكأنها اخطبـوطات لزجـة صغيرة الحجم ذات مجسات متطوية ملتوية، كانت تتـشـبث بها في جلود الناس وبهم تلتصق. وقد تقبلها الناس دونما اعتراض، على أسـاس ان تلك المخلوقـات تسـتـخـدم للمـواصـلات عندما تكبر. كان يبـدو عليـهـا وكأنها الأفـيـال الخـرقـاء الضـخـمـة الأجـسـاد المطواعة، وان باسـتطاعـتـهـا التـقاط الناس من فوق الأرض بخراطيمها وحملهم الى حيث يشـاؤون. اسـتـيـقظت صـارخا مرعوبا ذلك لأنني فجأة أدركت بأنني كنت مـسـتـحـوذا علي من جانب تلك المخلوقات وأنها كانت تتغشاني تماما، وأنها كـانت تدب فـوق جسمي كله دبيبا فظيعا. انها لم تكن ذات خطورة، وليس فـيـهـا ما يدعو للخطر، وانما كانت فقط مقززة وتدعو للقرف. وكان الناس يتنفـسـون الصـعـداء حـينما يطردونها من فـوق اجسامهم ويبدو عليهم انهم بذلك سـعـداء وكان لسان حالهم يقول: (ياالهي، انه لشيء حسن ان نكون قـد أبعدناها. انه لأمر طبيعي كما نحسب ان يتمرد بعض الناس، ولكنه لمن يمن الطالع ألا نكون جميـعنا مـثلهم متمردين)، ما كان الناس قلقين، طالما بـقـي مـنـهـم هـناك اناس كـثيرون بمـقـدورهم ان يطردوا تلك المخلوقـات

ويبعدوها.

ها هو الحلم ذا قـد عبر تعـبيرا دقـيقا عن كيفية احساسه ازاء عالم التجارة ـ فـهـو حلم كأنه يقـول له دع العـمل في هذا المجـال فـهو يضني بدنك في السنين المبكرة من حـيـاتك ولكنه في خاتمة المطاف سيحملك الى حيث تريد في أيام تقـاعـدك. فـهـو كـان طيلة فترة حـيـاته تسـيطر عليـه (آفـة الأمـان والطمأنينة) وكـيـفـيـة تأمـينهـا لنفسه، وكانت تنساب في ثنايا جسمه، لكنه وجـدهـا وقت حـدوث الحلم، بغـيـضـة لا تطاق مما حـدا به الى آن يطلب العون ويلتمس الشفقة.

البيوت في المرآة العاكسة (في الأحلام)

ان بيـتك هو جـسـدك الأكبر. ينمـو في حـرارة الشمس وينام في سكينة الليل. وكـثيرا مـا ترافق نومـه الأحـلام. فـهـو يحفل بالأحـلام . أفلا يحلم بيـتك؟ وهل يترك الحلم المدينة ويسير الى الغابة أم الى رأس التلة؟

فـالبـيـوت اذن هي امـتـدادات لاجـسـامنا ـ فـهي أجسادنا الكبرى، كما يـصـفـهـا جبران خليل جبران في كـتـابه (النبي)، اذ ان مـعظم البـيـوت كما تتراءى لنا في الأحـلام تنبئنا بشيء مـا عن حـيـاتنا وعن علاقاتنا بدلا من ان تكون مجرد بنايات حـقـيـقية قائمة مشيدة من الحجر والطوب. واننا على أية حـال، فـحينما نكون من حين لآخر مشغولين بمسألة شراء بيت او بناء منزل ونحن في حـيـاتنا الواعـيـة، فـان أحـلامنا بوسـعـهـا أن تبعث الينا برسائل واشـارات ترتبط بقلقنا فـيما يخص هذه البـيـوت. وثمة مثالان طيبان ضربهما لمجـمـوعـتنا (جوزيف)، فتى أخر من اعضاء فريق الدراسة، وهو ينتمي الى طـبـقـة العمال اصـلا، وقـد تزوج من ابنة مـدير احـد المصـارف وبقي هو وزوجـته يعيشان مع والديها حتى وجدا بيتا مناسبا لهما.

فـفي الحلم الأول، رأى فـيـه أنه وزوجـتـه كـانا يـبـحـثان بلهفة عن بيت ينفـردان فـيه، لكن كل بيت وجداه خلال بحثهما كان يبدو في حالة مزرية.

وكـانت زوجـته ترى انه يحسن ان يظفرا ببيت رخيص الثمن ومن ثم يجددانه ويدخـلان عليـه الاصـلاحـات، لكن جـوزيف كان يشعر بأن جميع البيوت كانت في تلك الحالة وأنها كلها بحاجة الى اعـادة اصلاح وترميم، وان هذا تمامـا خـارج نطاق مـقـدورهما حتى وان كـان صـهـره (والد زوجـتـه) قـد وعـدهما بقـرض من المصرف. ثم أنهما وجدا بعدئذ بيتا بدا لهما مناسبا ولكنه اتضح لهما فـيما بعـد ولدى التـدقـيق في ارجـائه ان أرضيته كانت تالفة تماما، بـيـد أنـه على أية حـال واقع على الطريق العـام المؤدي الى لندن، لهذا فأنهما غـيرا رأيهما وركـبـا الـقـطـار قـافلين الى حـيث يسكنان، ولكن القطار الذي استـقـلاه بـدلا من أن يتـوقف في محطة (فنزبري بارك) كما جـرت العـادة، استمر في سيره متجها الى نهاية (كنجـز كروس) الواقعة في وسط لندن.

مـواجـهـة لـلـتـحـدي الـقـائل أن أحـلامـنا انما تعبر عن رؤانا واننا نحن صـانعـوها ومـؤلفـوها، فـان جـوزيف قد أصّر بأنه جعل فحوى حلمه مجرد اضـغـاث وأنه لا قـيـمة له، واضاف قائلا انه كان في حقيقة الأمر مترددا في ابتياع اي بيت خلال حياته الواعية.

وبفترة وجـيـزة بعـد هذا الحلم، قـد وجـدا بالفـعل بيتا قديما ومهدما نوعا مـا، يقع في منطقـة جيدة، وقد قررا شراءه. ونظراً لما عليه البيت من حال، فلم يكن السـعـر المطلوب عـاليـا، ولذلك كـانا كـلاهما مسرورين بالصفقة سرورا مـعـقـولا. بيـد ان حلم جوزيف التالي قد كشف عن حقيقة مشاعره إزاء الصـفـقـة تلك. ففي هذا الحلم، رأى جوزيف نفسه جالساً في مقصف يتـبـادل الحـديث مع مديره في العمل، والذي أخبره بدوره انه كان قد سمع شـخـصين يتناقـشـان ومما قالاه : أي مجنون هذا الذي خوزق نفسه فاشترى بيـتـا في الشارع (س) بضعف ما يستحق من قيمة وهو ما هو عليه من خلل ونقـائص لم يلحظهـا المشتري. ولما كـان البـيت الجديد الذي اشتراه جوزيف واقـعـا في الشـارع (س) ادرك انه هو المقـصـود بكلمـة (المجنون)، فاستيقظ شـاعرا بالراحة لأن الحلم قد حذره في الوقت المناسب تماما.

فما كان من جوزيف الا ان دقق في مأتي الحلم ذاك، فطلب ترتيب اجراء فحص شامل للبيت. فلم يكتشف فيه شيئاً يدعو للفزع او للخشية ولذلك فقد تم في النهاية شراؤه؛ وهما، هو وزوجته، يعيشان فيه منذ أكثر من عام مضى وأنهما به مسروران. هذا وأن جوزيف قد اعترف بقوله انه ربما رأى ذلك الحلم لأنه كان في واقع الحال يخشى في دخيلة نفسه اعتراضا من زوجته من أجل ارجاء الشراء على حساب ما كان اعطاه من التزام ازاء البائع، وانه في الوقت نفسه لا يريد ان يخسر موقفه امام زوجته • فهو كان يفكر في حفظ ماء الوجه. وأضاف معلقا، ان مدير العمل في ذلك الحلم انما يمثل اباه الذي كان أشد ما يفزعه فكرة شراء شيء غالي الثمن كشراء بيت مثلا • وكان دائم التحذير لجوزيف من شر الكواسج Sharks المتربصة ابدا بالناس الأبرياء لتنقض عليهم فتجعلهم لها فرائس (٢٠). فجوزيف في هذا الموقف قد أدرك ان صدى صوت أبيه في داخله كان هو المسؤول عما كان يساوره من قلق. فالحلم بلباقة وذكاء قد وصف له صوت مديره في العمل، وكان جوزيف مستعدا لأن ينصت اليه، بدلا من انصاته الى صوت أبيه وأوامره ونواهيه، وقيمه التي كان جوزيف قد رفضها وأعرض عنها منذ أمد طويل.

أني من جهتي لم يتسن لي ان مرت بي حالات ترمز فيها بيوت الى اشخاص آخرين (غير ما جاء آنفا)، وان كانت امثال هذه الحالات في امكانية حصولها قد جسدتها تجسيدا ذكيا اعمال جيمس ثربر (الكاريكاتيرية) الكارتونية والتي تحمل عنوان (البيت)، وهي تمثل صورة بشعة لرجل صغير الجسم يقترب من دار (فيلا) تقع في ضاحية، والدار من ناحيتها أو جهتها الأخرى تصب ماء يرش امرأة سلابة نهابة كانت واقفة هناك تريد التهامه. على انني وجدت في الغالب أحلاما تستخدم البيوت رمزا يعبر عن اسلوب الحياة التي يتعامل معها الفرد الحالم. فبعد انفصام زواجي • مثلا، كنت قد رأيت عدة أحلام، رأيت فيها بيت زوجي قد اتسع حجما وازداد

بهاء بما أدخل فيه من أنواع التأثيث الجديد الدال على الرفاهية والترف. فأيقنت ان هذه «الأحلام» قد أومأت بوضوح وعبرت بجلاء عن عميق احساسي بأن حريتي قد أتيح الحصول عليها والظفر بها ولكن على حساب حرماني من أي نصيب أو حصة في ثروة متنامية يكسبها رجل ناجح.

والأحلام كذلك تنبيء في الغالب فتذكر شيئاً من هذا القبيل عن اسلوب حياة الحالم نفسه. فحلمي الموصوف في الفصل السابع، بشأن الاختيار بين بيتين، أحدهما يقع على قمة تلة والآخر على شاطىء البحر، انما كان في أحد مستوياته تعبيرا عن صراع في داخلي على نمطين يتصادعان لدي ازاء الحياة، صراع بين المكوث في البيت وبين الخروج الى الحياة والعمل، ورغم انه صراع هو أعمق مما هو عليه، فهو ينطوي على معنى تمحيص للذات ايضاً.

وبما أننا نعيش في بيوت يسكنها معنا أناس آخرون، لذا فان البيت يمكن في الغالب ان يتيح صورة حلم نافعة تعبر عن الزواج او الأسرة والعلاقات العائلية. مثال على ذلك، فان (جوانا)، الموصوف حلمها في هذا الفصل، والذي رأت نفسها كأنها تغتال زوجها بفأس كانت معها، رأت حلما آخر في نفس تلك الفترة من حياتها الزوجية غير المستقرة. رأت في حلمها الثاني آنذاك وكأنها تعيش في قلعة أشبه بالكنيسة وكانت تجتهد في تجديدها ولكن من غير جدوى، وكأن شيئا دائما يحصل ليعرقل جهودها. وفي احدى لحظات الحلم، دخلت شغالتها فسألتها عما اذا كان يتعين عليها تنظيف الذهب والفضة. ردت جوانا عليها بأن لا حاجة هناك تدعوها لأن تتعب نفسها، وهي تقول ذلك حانت منها التفاتة فرأت البناية كلها أخذت تتكوم. فاستيقظت جوانا فزعة قلقة بعد ما رأت في منامها تلك البناية تتهاوى من حولها.

هذا الحلم يصور ما لدى (جوانا) في طوايا نفسها من مشاعر تتسم بالتناقض الوجداني (٢١) Ambivalent عما اذا كان ينبغي عليها ان تنقذ

الـزواج مـن الانهيـار وتبـقي عليـه، او أن تنهيـه وتضع له حـدا، علما بأن عـقلهـا الواعي كـان مـسبـقـا قد صفح عما كان قد اقترفه زوجها من خيانة زوجيـة. بيـد أن عقلها الباطن كان ينطوي على أفكار مغايرة تماما، اذ كان مـصـمـما على انهاء العلاقة الزوجية ، فهو حلم فيه اضافة الى ما كان حلمها الأول قـد أظهـره لها وكيف أراها آنذاك أنها كانت تغتال زوجها بفأس كانت في يدها. كانت جوانا بطبيعة الحال جد مبتئسة عما تعبر عنه خفايا مشاعرها هذه، ولا سـيما عندمـا كـانت تدرك بأن الحلم كان كذلك ينبئها بأن زواجها ينطوي على كـثير من الأشـيـاء الثـمـينة، ثم الرمـز اليـهـا في الحلم بالذهب والفـضـة، فـضـلا عما كـان عليه من مغزى ديني وقد رمزت اليه القلعة التي ظهـرت في الحلم انها اشـبـه ببيت العبادة. فالقصة بكاملها، لحد الآن وبهذا القدر ، قد آلت الى نهاية سعيدة ذلك لأن الحالمة قد تمكنت من معالجة هذه الأحـلام وان تتـعـايش مع مخاوفـهـا، وبخـاصـة عندمـا وضعت في اعتبارها مساعدة زوجها.

وثمـة قـصـة أخرى عن أحـلام أسـهـمت في انقاذ علاقات، رواها أحد المسـاهمين في فريق بحوثي عن الأحلام، وما ذكره عن حلم رأى فيه أنه كان مـضطهـداً فـيما بين زوجـتـه وبين رئيـسه في العمل، وقد مر وصف ذلك في الفـصل السـابع. وبفترة وجـيـزة بعـد رؤية حلم الاضطهـاد هذا، رأى حلما آخـر مؤداه انه كان قد عاد من عمله في احدى الليالي فوجد لدهشته أن بيته كـان قـد مـسح من فوق الأرض اثناء غيبته. أخبره الجيران أن مجلس البلدية جـاؤا بعمال فـهـدوه منذ الصـباح الباكر في ذلك اليوم، ولكن ما من أحدهم من كـان يعـرف أين كـانت زوجته. فأوّل الحلم بأنه ليس تعبيرا عن رغبة في انهاء عـلاقـتـه بزوجـتـه ووضـع حـد لتلك العـلاقـة مـعـها، وانما هي خشية تسـاوره مع انها قد تغادر فجأة تاركة الدار دون سابق انذار اذا ما استمر هو في التـغـيب عن البـيت كثيرا. هذا الحلم قد أبأسه كثيراً بحيث أنه قد اضطر بعـده مبـاشرة الى تغـيير عـمله فـاسـتـبـدل به عملاً آخر أقل تطلبا للجهد

والبراعة.

من الخبرات الشائعة كثيراً في الأحلام هي تلك التي تروي لنا العودة الى مرابع الطفولة. فيرى المرء في الحلم مثلا أنه في بيت أمضى فيه أيام طفولته وصباه. ويرى (هول) أن مثل هذا الحلم يمكن أن يوميء الى رغبة يرمي الفرد من ورائها الى توسيع مجال حياته، بالنظر حتى الى البيت الاعتيادي المتوسط . ابان الطفولة فيراه رحباً جدا نظراً الى أنه لا يزال جد صغير فيرى كل ما يحيط به ويحتويه كبيراً.

قد يكون الأمر على هذه الشاكلة، لكن خبرتي في هذا الشأن ايضاً تقضي بأن الأحلام الخاصة بالبيوت التي ترمز الى أيام الطفولة، شأنها في هذا شأن الأحلام المتعلقة بالأصدقاء والأقارب الذين تبقى الانطباعات عنهم عالقة في الأذهان منذ أيام الطفولة المبكرة، تشير خبرتي هذه الى أن ثمة شيئاً آخذاً مفعوله يسري في الموقف الراهن للحالم. يذكره بموقف أسبق كان قد مر به من قبل من خلال انغماره في مضمار الحياة. هذا وان حلمي عن الأسد مثلا، مر ذكره من قبل، كانت أصوله قد أرسيت في بيت طفولتي، وأنه حلم كان يشير الى أن الدوافع الجنسية قد بدأت تتحرك عندي وقت حدوث الحلم.

وأسوق هنا مثلا آخر. فـ(جورج) الذي وصفنا حلمه عن الطلاق في الفصل الثامن، قد حلم مرة أخرى، اذ رأى نفسه أنه قد عاد الى بيت طفولته، وقد ألقى زوجته وأمه تعدان في الفرن كعكة بمناسبة ذكرى سنوية عزيزة عليهم أثيرة لديهم. وان زوجته قد قدمتها اليه مزهوة فشكرها بامتنان وأدب جم. غير أن ذهنه كان مشغولا في التفكير بجدران الغرف التي كانت بالفعل تسيل منها رطوبة وهي مشققة في كل مكان تقريبا. وقد أومأ الى تلك الرطوبة والشقوق مستلفتا اليها انتباه أمه التي هونت بدورها من حجم المسألة وأشارت الى أنه ستنجلي بمرور الأيام ونصحته بأن عليه في واقع الأمر أن يشتريه بعقد طويل الأجل أمده احدى وعشرون سنة.

كـان هذا الأول في سلسلة أحـلامـه وقد أظهر له بوضوح انه لم يكن في واقع الأمـر سعيداً بزواجه (ويرمز الى ذلك البيت في هذه الحالة)، وأن الحلم هذا قـد أضـاف رسالة أخرى وهي أن (الأم التي لا تزال تعيش في داخله) كانت تحثه على آن يبتاع نفس النوع من (البيت)، أي بيتا شبيها بذلك الذي عاش فـيـه يوم كان طفلا. وقد ذكر (جورج) ان احدى وعشرين سنة انها هي المدة التي يعـيشها الفرد في بيت أبويه قبل ان يصبح مستقلا عن السلطة الأبوية، فـالحلم قـد وصـفه وصفا دقيقاً، وأن الأم في داخله قد أكدت له بها لا يقبل الشك أن أي انفراط مؤقت سينجلي أمره قبل مضي وقت طويل.

وفي أحـايين أخـرى، يعين الحلم حـالة معينة ترتبط بعلاقة محددة وموقف مـعين وذلك بجـعل الحـالم ببيت يكون وجـهـا لوجه أمام منظر له مغزى أو مـشـهـد له معنى. وأني لأذكر أثناء ممارستي للتحليل ووفق المنهج الفرويدي أنني قـد حلمت وكأنني كنت أنظر خـلال نافـذة غـرفـة الاسـتـشارة فرأيت صـفـوفـا أثر صـفـوف من البيوت المتشابهة البنية المربعة، وكانت تختلف تماما عما كنت قـد ألفته حين كنت أنظر عبر النافذة الحقيقية لعيادة محللي في الحياة الواعـيـة الصـحيحة. وهذه كانت اشارة واضحة ودلالة صريحة عن احساسي بأن مـستقبلي في التحليل كان قاتما وكالحا ليس كالحا وحسب، بل كالحا على نحـو مـعين اذ في اتاحـتـه منظراً عن حـيـاة تبدو دلائلها انها صعبة وامتثالية ورتيبة.

كـان فـرويد قد ذكر أن البيوت انها ترمز الى الأجسام، وأن أجزاء البيوت ترمـز الى أطراف وأعـضـاء مختلفـة، ومـتـفـاوتة من الجـسم. فـالاسطوانات والأعـمدة، مثلا، يمكن أن ترمز الى السيقان كما هي الحال في نشيد سليمان The Song of Solomon، والكلمات فـيـه تقول : (ان ساقيه تشبهان اسـطـوانـتين من المرمـر راسـيـتين في أوقـاب(٢٢) من الذهب الأبريز). وان البـوابات قـد ترمـز الى تجـاويف الجـسـد وما فيه من فوهات وفتحات، وان الطنف والشرفـات يمكن أن ترمـز الى الثديين أو النهدين، ولعل أنابيب الماء

ترمز الى جهاز التبول، وهلم جرا وما الى ذلك. وينقل فرويد عن حالة امرأة كانت قد حلمت حلما رأت فيه شرطيا وبصحبته جوالان وقد وضعوا ثلاثتهم بعض الدرجات المؤدية الى كنيسة، وأمامها كان هناك مسار يفضي الى تلة. وعلى جانبي الطريق كانت هناك ادغال وآجام وكانت تزداد التفافاً وكثافة اكثر فأكثر كلما ارتقى الطريق وارتفع صعدا حتى اذا بلغت قمة التلة تحولت تلك الأدغال والآجام الى غابة غبياء. ففسر كل ذلك على أسس جنسية وفي اطارها، بما في ذلك الأعضاء الجنسية لدى كل من الرجل والمرأة والاتصال الجنسي. وفيما يمكن آن يكون لهذا النوع من التفسير فائدة لبعض الناس في ميادين التحليل النفسي، غير ان جدواه في عملنا الحالي ليست بنافعة وأني لمتيقنة من أننا سنفقد كثيراً من جوانب التبصر المجدي لو أننا استخدمناه. بل انه ليضر كثيرا بالمرء الذي قد ننسب اليه شيئا من تفسير كهذا، كما سبق لنا أن أشرنا الى ذلك في الفصل السادس، وأن الاساءة الى الفرد لتتأتى من اغفالنا ما ينطوي عليه الحلم من تطبيقات عريضة. فالدعائم أو الاسطوانات يمكن أن ترمز الى (القوة)، وأن البوابات يمكن أن تومىء الى مسيرة جديدة في الحياة، وان شرفات المنازل قد تشير الى شموخ الانسانية وكبريائها، وأن أنابيب الماء الراشحة يمكن أن تدل على فقدان السيطرة على التصرفات الانفعالية، في حين أن رمزية المعابد، والسجون، والثكنات، وما ضارعها، انما هي رمزية واضحة تماما ولا تتطلب كبير عناء لتفسيرها أو تأويلها.

أياً ما كان الأمر، فان ما لدى الحالم من ارتباطات خاصة به، انما هي، في جميع الأحوال ، ذات أهمية بالغة في التفسير. ولعله تظهر البيوت والبنايات في الحلم خالية خاوية تعني بالنسبة لشخص نضوب الفكر وخواء العقل وهو ما يعبر عنه في الحياة اليومية بأنه (خاوي العقل او فارغ العقلية) ولعلها عند شخص آخر تمثل استكشاف ارجاء روحية سامية رفيعة لم يتم ارتيادها في الحياة من قبل. وان التعفن الجاف في المكان السفلي من

الدار قد يعني جفاف الطاقة الجنسية عند الحالم، ولعله عند آخر يشير الى تحذير له بألا يتجاهل الجانب اللاشعوري من الحياة. هذا وأن الخلل البنائي في البيت يمكن أن يعكس احساسا بما هناك من تداعيات جسمية أو خصائص مرضية تبدو بوادرها في الشخصية. وان عدة أفراد في فرق دراستي قد رأوا أحلاما كانت فيها تجري تغييرات وتحويرات على البيوت او تضاف اليها اضافات توسيعية، وهذا يشير عادة الى أن هناك تغيرات في الشخصية قد طرأت باتجاه آفاق الشعور واتساع مدياته، وغالبا ما يصحب ذلك تحسن في الصحة البدنية.

وأنني لأستطيع القول من خبرتي الخاصة، بأن البيت في الحلم انما هو حقا (الجسم الأكبر)، رامزا بذلك الى علاقاتنا، ومواقفنا في الحياة اليومية، والى مجالنا النفسي Psychic Space، وهذا مفهوم سأتناوله بتفصيل أكثر في الفصل القادم.

المركبات من خلال المرآة العاكسة (في الأحلام)

المركبات يمكن أن يكون لها في الأحلام أحيانا معناها الحقيقي، تماما مثلما هي الحال بالنسبة الى الحيوانات والبيوت، ويحصل هذا عادة اذا كان فكر الحالم في حالة حياته الواعية اليومية مشغولا في التفكير بمركبة ما. فعندما بدأت سيارتي تظهر عليها آثار القدم وابتدأت أجزاء من أدواتها وأجزائها تستهلك رحت أحلم باستمرار بحالات العطل الفجائي فيها وبالحوادث الطارئة وغير ذلك، وقد لازمتني إحلامي تلك حتى استبدلت بها واحدة جديدة.

وان لغة المركبات يمكن أن تستخدم كذلك لوصف الناس وبيان خصائصهم، اننا نتحدث مثلا عن (عقلية مصغرة) Mini Mentality، و(جهاز نفاث) Jet Set، و(حافلة بطيئة) Slow Coach . ولعل المركبات تمثل في الأحلام نمطا معينا من أنماط الحياة واسلوبا خاصا في

الحياة الواعية. فعندما غادرت (جانيت) البيت، وكانت أصغر اعضاء الفريق سنا لتعيش مع صديقات لها في شقة، حلمت بأنها تسير في الشارع وهي عارية تماما الا من جرسين من النوع الذي تستخدمه جماعات الهيبية Hippie ، كانا معلقين في رقبتها بشريط يطوق عنقها. وكانت مندهشة عما اذا كان الناس في الشارع كانوا يرقبونها، ولكن مما أنعش ذاتها أنها أدركت في قرارة نفسها أن ما من أحد في الشارع كان ينظر اليها ويلاحظها وحينما وصلت في سيرها ذاك الى سيارة وجدتها قد تحولت الى عربة ضخمة، مجهزة بمطبخ وحمام، فحدثها خاطرها أن تسكن فيها هي وصديقاتها، أو في الأقل استخدامها في عطل اضافية في الخارج. فهذا الحلم قد وصف لها ما طرأ على حياتها من تغير اذ انتقلت من حياة مقيدة محددة الى نوع من حياة أكثر دينامية وحيوية، حياة حافلة بالحركة والانفتاح، وأن عريها في الحلم كان يرمز الى نيتها في أن تحيا حياة منفتحة، حياة من غير قيود مرصودة بقدر الامكان، بدون أن تصعق أو تصطدم بحياتها الجديدة كثيرا من الناس، وقد ربطت الجرسين الهيبيين باسلوب من الحياة أكثر واقعية من تلك التي كانت تحياها في البيت.

وغالبا ما تشير المركبات في الأحلام الى الاتجاه الذي تسير فيه العلاقات. وقد روى لنا (ايريك) Eric، أحد اعضاء الفريق، الحلم الآتي، وكان قد رآه مباشرة بعد أن اكتشفت زوجته علاقة له غرامية بفتاة ألمانية وأصرت على أن يقطع كل صلة لها بتلك الفتاة وأن ينهي تلك العلاقة، وحلمه هو :

صعدت في حافلة بقصد الذهاب الى حيث يسكن والدي فوجدت الحافلة متجهة الى الاتجاه المغلوط والمعكوس. كنت متشوشا بشأن البنايات الغريبة علي غير المألوفة لدي، وكانت هناك طالبة أجنبية قد تركت مكانها وجاءت فجلست بجانبي وحاولت أن ترشدني أين كنت أنا من ذلك المكان، وكنت في قرارة نفسي استنكر أن يذل انسان غريب انسانا مواطنا

محليا. ثم غادرت تلك الحافلة عند مفترق طرق فوجدت نفسي مع زوجتي. وكانت هناك واقفة عند مفترق الطرق ذاك عربة اسعاف وسيارة شرطة لوقوع حادث كان قد حدث على الطريق. كانت هناك سيدة مسنة ترتدي جلدا أسود وعلى رأسها قبعة من النوع الذي يرتديه عادة أفراد جيش التحرير، كانت ممددة في وسط الطريق، ولدى مرورنا بها ربتتها زوجتي فوق رأسها كعلامة على التعاطف معها والحنو عليها. حاولنا ان نقطع الشارع، ولكن سيلا من السيارات كان مستمرا في كل اتجاه. وقد بدا الموقف برمته بالغ الخطورة بالنسبة لي.

فالحلم المذكور قد أعاد (أريك) الى الأيام التي سبقت زواجه حينما كان يسكن مع أبويه في نفس البيت، وان حلمه هذا كما رواه يشير الى أن ثمة شيئا ما في موقفه الحاضر يشبه موقفا كان قد عاشه من قبل. وان اريك ليرى في الحافلة التي استقلها اشارة الى زواجه الذي كان يسير، كما يعتقد، باتجاه مخطيء، كان يراه أنه زواج متجه في جملته وبرمته الى نجاح مهني بدلا من أن يكون متجها في مجمله الى حياة أسرية حميمة مماثلة الى تلك الحياة العائلية التي كان يستمتع بها يوم كان عازبا. وقد ذكر ان صديقته الفتاة الألمانية كانت قط قطعت على نفسها عهدا له بأن توفر له أسباب الراحة اذا هو تزوجها، ولقد بدر منه أن انتقد زوجته في مناسبات شتى لاخفاقها في البر بوعدها وعدم استطاعتها تلبية متطلباته في هذا الاتجاه.

إن مفترق الطرق في الأحلام انما هو رمز شائع وعام يمثل حالة اتخاذ القرار، وأن حلم (ايريك) المذكور قد حدد بوضوح تام تصميمه على انهاء اتمام المشوار (ممثلا بالركوب معها) مع صديقته تلك وتجديد علاقاته بزوجته. وهو من ناحية أخرى قد كان يدرك ان اجراءه هذا سيؤذي صديقته الفتاة التي كانت تمثلها في الحلم السيدة المسنة التي تعرضت لحادث على الطريق. فهو كان قبلا يرى فيها موضع هيامه وقد اعتادت ان ترتدي ملابس من الجلد وانها كانت تحاول ان تستأثر به وتختاره لنفسها. كل هذا

كـان يتـمـلاه بعين عـقله وبشاقب بصيرته . وكانت زوجته على علم بالعلاقة تلك وقـد حاولت اكثر من مرة أن تثنيه عن علاقته بالفتاة وأن تحمله على أن يتركـهـا ، وكـانت في جميع محاولاتها تلك تؤكـد له بأن الفـتـاة سـتـتغلب على مـصـدر الأذى الذي سيلحق بها جراء هجره اياها. بيد أن الحلم قد كشف عن اهتمام أعـمق كان ثاويا في خبايا عقل ايريك : فهو، كان يفكر في قرارة نـفـسـه، حـتى لو أنهى تلك العـلاقـة بخليلتـه ووضع حـدا لها، فـهل هو وزوجـتـه سيكون بوسعهما ان يتغلبا على التقاطعات الخطيرة القائمة فيما بينهما (ممثلة بالعـبـور الخطير للشـارع في الحلم) وان يجعلهـا تتـوقف وان تفضي في النهـاية الى حياة أكثر ارغادا لهما وأهنا؟

وقـد أقـر ايريك على نحو ما أنه كان في غاية السرور أن تكون زوجته قد تدخلت في الأمـر، وقـد اعترف أنه وان كـان يحب الفتاة، غير أنه كان أبعد مـا يكون عن التـفكير في أن يتـزوجها. وأن الموقف هذا قد ذكّره بحلم آخر كـان قـد رآه في وقت سـابق لحلمـه الأخير، وكـان قـد رأى في حلمه السابق ذلك ان سـيـارته قـد توقف محركـهـا فجأة قبل أن تبلغ تقاطعا للطريق، مما يدل على احجامه وتردده في أن يتوصل الى اتخاذ قرار يخصه.

انه لمن المهم ان نلاحظ، في الأحـلام التي تظهـر فـيـها المركبات، ما اذا كـان الحـالم هو نفـسه الذي يقود المركبة، أو أنه يرى نفسه مسافرا فيها، أم أنه مـالك المركـبة وصاحبها، وهلم جرا. وهنا حلم امرأة واسمها (ماريون) Marrion ، اذ حلمت اثناء غـيـاب زوجـها بعيداً عنها في شؤون يقتضيها عـمله، انها قـد ردت على اعـلان يطلب مـسـاعد سائق في سباق للسيارات يجـري في (ومـنـتـي كـارلـو) . وقـد جـاء بـالـقـبـول ، وحـينما حضر رجل ليـصطحبها في السيارة الى المكان المحدد فجأة أدركت أنها لا تحسن السياقة. فـأنـبأت الرجل بذلك. لكن هذا لم يزعج الرجل ولم يفت في عـضـده، بل طلب منهـا أن تصـعـد مـعه في سيارته. كانت ترتدي بدلة خضراء ضيقة لا تصلح للسـفـر في سـيارة لمسافات طويلة، ثم عرفت فيما بعد أن دورها كان

يقتصر على أن يقضيا وطرا وليس غير، وان يتم ذلك خلال تلك الرحلة. فهذا الحلم، كما روته، انما يكشف بوضوح عن رغبتها في ان تتخذ لنفسها عشيقا اثناء غياب زوجها، لكن الحقيقة هي أنها كانت مجرد مسافرة فقط وليست هي السائقة، لذا فان هذا يعني أنه وإن كان باستطاعتها أن تبدأ هي العلاقة وتشرع بها كما تريد فان الرجل هو الذي يقوم بعملية السياقة (بتودد اليها)، وانها بوسعها فيما بعد ان تنفي المسؤولية عن نفسها. انها لحقيقة تبعث على الدهشة ان يفضل الناس من ذوي الشخصيات السلبية لأن يكونوا في حياتهم الواعية الحقيقية مسافرين راكبين بدلا من ان يكونوا سائقين.

معظمنا قد عرضت لنا في منامنا أحلام رأينا فيها أننا قد فاتنا أو أوشك أن يفوتنا قطار أو حافلة ناقلة كنا ننوي اللحاق به، وإن هذه تمثل في العادة مخاوف مباشرة وصريحة تماما، مخاوف تساورنا في حياتنا الحاضرة من أننا قد نفقد شيئاً ما ومثال طيب على ذلك حلم ذكرته صديقة لي وكانت خاضعة للتحليل النفسي. فقد حلمت أنها قد صعدت لتوها في عربة قطار كان على وشك مغادرة المحطة. وكان داخل العربة تلك طفل في عربته الصغيرة الخاصة به وفي الطرف الآخر من عربة القطار تلك كان هناك حارس وهو داخل ما يشبه الصندوق. وثم جاءت فتاة تجري مسرعة فوق رصيف المحطة فقفزت الى داخل تلك العربة تماما قبيل فوات الأوان، وهي تردد (حمدا لله على ذلك، كان يمكن أن يكون بالنسبة لي شيء لا يطاق لو أن القطار قد بارح دون أن الحق به فتركني في المكان)، أدركت صديقتي في حلمها أنه لا بد أن تكون تلك الفتاة أم الطفل. وكان الحارس واقفا هناك يراقب كل ذلك من غير اكتراث ودون أن يساعد الفتاة قط. ولقد شخصت صديقتي الحارس ذاك بأنه محللها الذي كان يصر على أنه ينبغي عليها بأن تستمر في مواصلة تحليلها ذاك، وكان من قبل تحليلا مستمرا منذ زمن بعيد وكانت تعتقد انه وصل الى طريق مسدود. فهي كانت في الثامنة

والأربعين من عمرها وكانت جد تواقة الى انجاب طفل قبل فوات الأوان.
وان بقاءها مستمرة على التحليل ▪ وخلال فترات التحليل يفترض في الفرد ألا يقدم على اتخاذ قرارات كبرى وألا يجري في اسلوب حياته اليومية تغييرات تذكر، فان هذا كله كان يعني بالنسبة اليها (فوات القطار وذهابه عنها) بقدر ما يتعلق الأمر بانجاب طفل كانت تتطلع اليه. تبين ان هذا الحلم كان في الواقع حلما مستقبليا، اذ أنها في الحقيقة قد وضعت حداً للتحليل ▪ وأنها ذهبت الى افريقيا وكتبت لي فيما بعد من هناك ومما ذكرته لي من أخبارها أنها حامل.

وأن المركبة في الحلم قد تمثل في بعض الأحيان مؤسسة فترمز اليها. فـ(جوان) مثلا كانت قد حلمت مباشرة بعد وضعها لطفلها أنها كانت تستقل قاربا يحملها وأفراد أسرتها وممتلكاتها وأمتعتها الى مكان ما. وكان الأثاث محزوما على جانبي القارب وأنها كانت تخشى عليه من التلف اذا ما تعرض للبلل. وفجأة جعل القارب ذاك يتمايل فراح الناس يتقافزون منه من كل جانب. وان شخصا ما كان يناديها ويدعوها الى أن تقفز خارجة منه، لكنها تماهلت، قائلة أنها ما زالت يتدفق منها الدم. ثم أخذت تبحث عن طفلها ولكنها لم تجد له أثراً، فتولاها الفزع من أنه لا بد وأن يكون قد جرفه الموج من فوق سطح القارب ذاك، فاستيقظت من حلمها ذاك وهي في حالة يأس واكتئاب يمازجهما أسى جراء احداث ذلك الحلم.

فالقارب في الحلم المذكور وفيه الأثاث والطفل، انما كان يرمز الى الزواج، زواجها هي بشكل خاص. والذي أحست بأنه أخذ بالفعل (يتأرجح) Drift. اما الناس الذين راحوا يتقافزون من الزورق ، فانهم يرمزون في الحقيقة الى جميع الناس الآخرون ممن تعرفهم في واقع حياتها اليومية والذين (غادروا السفينة)، اي أنهم قد حصل لهم ذلك فعلا بالافتراق أو الطلاق، وأن أصداء أصواتهم تتردد في أعماقها تحثها على أن تحذو حذوهم. وهذا أمر لا قبل لها بمواجهته والاقدام عليه لأنها كانت

تشعر بالضعف وانها ليس لديها ما يوفر لها الأمان. فضلا عن ذلك فانها كانت ترى بأن طفلها قد تجرفه الأهواء، او تدمره الرداء، جراء ذلك الزواج المتماوج المتأرجح.

أما السيارات والقطارات والطائرات، بوصفها آلات للقوة والطاقة، فيمكن أن ترمز الى طاقة الدوافع والنزوات، ولا سيما الدوافع الجنسية منها. والتمثل بالمجزوءة التالية من كتاب (ديزموند موريس): (حديقة الانسان) The Human Zoo، ليمثل الموقف بشكل دقيق:

ان سيارات السباق دائماً تعكس بريق الشجاعة وتنم عن القوة الذكورية، وهي الى حد بعيد تتخذ مظهر الخصائص الرجولية. فهي أشبه بقضيب السعدان (٢٣) ، مدببة ، توحي بالتأهب للانطلاق الى أمام ، منظرها طويل، شكلها لماع، مظهرها أملس، تندفع الى امام بقوة هائلة، وهي في الغالب تكتسي لونا براقا أحمر. وان مثل رجل منتصب في مقدمة سيارة الرياضة هذه مثل تمثال منحوت أمضى النحات او المثّال وقتا كبيرا في تلميعه وتنميطه. كل جسمه قد غاص واختفى فلم يعد يرى منه سوى رأس ضئيل وغير يدين قليلا تتجاوزان في الحجم قضيبا طويلا لماعا. بل وحتى السيارات الأخرى الاعتيادية لها صفاتها القضيبية في المظهر، ولعل هذا يمكن تفسيره الى حد ما لماذا نجد سائق السيارات من الرجال يظهرون طبيعة عدوانية في قيادتهم لسياراتهم ويكونون في الغالب تواقين الى أن يسبق بعضهم بعضا فيتجاوزون بعضهم على الطرقات، وهم يفعلون هذا رغم علمهم بالمخاطر الجسيمة، ورغم معرفتهم بأنهم جميعا سيقفون عند أول اشارة ضوئية مرورية، أو في أحسن الأحوال، انهم سيقطعون في سرعتهم تلك ثوان قليلة خلال الرحلة. فما دواعي تلك السرعة اللاعقلانية اذن؟

ان الطريقة التي يسيطر بها السائق على السيارة في الحلم يمكن أن تنبيء الحالم عن الكيفية التي يرى فيها دوافعه ونوازعه. فاذا ما رأى أنه قد فقد الهيمنة على السيارة، أو حينما يصطدم بمركبة أخرى، أو عندما يصعد إلى

طوار الطريق المخصص للسابلة، او حينما يجتاز اشارة المرور الحمراء . وعندما تنغرس سيارته في منحدر تلة تهوي منها، فان كل هذه تعني في العادة انه يحس في قرارة نفسه ويشعر في أعماق ذاته بأنه مغرق بدوافع ونوازع مستحوذة عليه خارجة عن نطاق سيطرته عليها. وان هو رأى انه قد تفادى حادثا كاد يقع له وذلك بالمناورة بسيارته ببراعة ومهارة فان هذا يشير الى أنه تمكن من التحكم بالدوافع التي كانت تريد أن تنفلت أو كادت. وأن ما يشهر في الأحلام من دراجات نارية، او سيارة بشكل اعتيادي، او طائرات سباق والمباراة، فان كل هذه تدل على ما لدى الفرد من رغبة في ابراز مدى قوته الجنسية واظهارها؛ في حين أن توقف السيارات المفاجيء، أو ما يصيب فراملها من عطل وعطب، او الاخفاق في بلوغ السيارة أقصى حالات ودرجات قوتها المقررة لها في السير، فان كل ذلك يعني ان ثمة صعوبات جنسية يعاني منها الحالم. وأن ما نقرنه في أحلامنا من تشابه بين السيارات في الحلم وبين سياراتنا الحقيقية في حالات اليقظة ليعزز هذه النقطة التي أشرنا اليها وتمثلها بشكل دقيق أغنية كتبها (توم روش) حول صبي يشبه نفسه بماكنة سيارة قديمة وكثيفة فقدت مقودها وذلك بعد أن تحطمت سيارته في مدينة تكساس، فاستحال عليه بلوغ غايته وتعذر عليه الوصول الى حبيبته التي كان يتوق الى لقياها.

بيد أن المركبات لا ترمز دائما الى طاقة الدوافع وقوتها. فأنا مثلا عندما صرت رائدة لفريق البحث، حلمت بأنني قد وضعت جهاز نقل الحركة (Gear) في سيارة (رولز رويس) في الوضع الخلفي. وعندما بدأت تتحرك الى الخلف، أدركت أنني لا أستطيع أن يبلغ قدمي ملمس المتحكمات لايقافها، فرحت انتظر ارتطامها المحتم بالجدار وأنا في حالة هلع شديد. لكنها السيارة توقفت من تلقاء نفسها بالتدريج قبل ان تلامس الجدار. أن هذا الحلم قد وصف على نحو جميل وبلغة الصور مخاوف لدى تتصل بقدرتي على تولي قيادة فريق وريادته وذلك تحولي وتغييري لأدواري وانتقالي

من مـريضـة أو القـيـام بدور مـريضـة في التـحليل والعلاج الى القيام بدور مـعـالجة. وان حقيقة كون السيارة توقفت قبل حدوث اي تخريب يصيبها أو يصـيب الجدار او الاثنين معا، قد اضاف ثقة الى نفسي وعززها عندي بشأن قابلياتي من أجل القيام بدوري الجديد.

يـرى فـرويـد أن مـن يحـلم بأنه يسـتـقل قطارا أو أية واسطة أخـرى من وسـائط النقل، فـانه يمكن ان يدل ذلك على أنه تحـذير مسبق بالموت. واني أنا نفسي لم يمـر بي شيء من هذا القـبـيل خـلال اشتغالي بموضوع الأحلام، لكنهـا الرمزية المتضمنة زورقا يسير في النهر او ابحار سفينة في عرض البحر غـالبـا مـا تسـتـخـدم في الشـعـر كـاشـارة على الموت. واننا لنجـد الشـاعر (لونجـفـيلو) يصف كيف ان (هياواثا)، بعد ان تم عمله في الحياة واكتمل، ينزل قـاربه المصنوع من خشب البتولا الى مجرى النهر ويجري فيه وقت غسق الأصيل. وهذا مقطع من قصيدته يقرأ:

من حفافي النهر طفق الناس
يرقبون الزورق مصعدا يطفو
يطوح به الموج، وبدفـقات من التيار الجارف يغوص،
حـتى لاح الزورق لهم تارة أخرى يعلو
عاليا في ذلك اللجي من البهاء
ثم تواري وراء ضـبـاب كثيف
وكالهلال عندما يبرغ، رويدا رويداً،
غـاب واخـتفى في جوف الأفق الأرجواني السحيق.

هذا، واننا لنجـد جبران خليل جبران في كـتـابه : «النبي»، ومنه سبق لي أن اقـتـبـست، يصف مـوت المعلم بلغـة رمـزية مشابهة لتلك التي تكلم بها لونجـفـيلو. وهنا نجـده، عن طريق اسـتـخـدام السـفـينة رمزا للموت، هو الآخـر يقـرب رمزية البحر ويستعملها بوصفها صورة عقلية مفضلة في الحلم تعبر عن أعماق اللاشـعـور والعـقل الباطن، وبذلك فاننا نجد في هذا تعبيرا

رمزيا في الفلسفة الشرقية عن العقل الجبار The Great Mind الذي يتفهم حكمة الوجود والخلق ويحيط بدقائقها، هذا الوجود الذي منه جئنا واليه نعود.

الا ما أصبر قبطان سفينتي وهو يمسك بمقودها في مهب نكباء وأشرعتها في مخافق ريح عاصف تضطرب حتى دفتها تستوجب توجيها وان قبطاني بهذا يزجرني لألتزم بالهدوء وعلى بحارتي هذه ليست بخافية، وهم الذين أفعمت مسامعهم أصداء أمواج البحر العاتي بتلاطمها. ها هم قد أصاخوا لي السمع متصابرين، وأنهم لن يتصابروا علي أكثر. ها قد غشى الموج شواطيء البحر وتارة أخرى رأمت الأم العظمى على وليدها والى صدرها ضمته بحنان دافق.

تستطيع الأحلام ان تعلمنا الكثير عن غرائب اللغة الرمزية الخاصة بالأحلام، واني ليتملكني العجب في الغالب ما اذا كان الشعراء ـ ودون ادراك منهم ـ انما يستمدون الهامهم مباشرة من أعماق العقل الحالم.

الذات من خلال المرآة العاكسة (الأحلام)

ولكن لسنا جميعنا، على أية حال، على حظ كبير ولا كلنا نجرؤ بما فيه الكفاية لأن نصبح في أحلامنا أننا نبقى نحن كما نحن عليه، وتبقى ذواتنا هي هي، وأن معنى ما نراه من أحلام انما تكمن في ما نحن عليه من علاقات تربطنا بأشخاص آخرين، وما قمنا ونقوم به من أعمال، وبما يحصل لنا في مجرى حياتنا من أحداث، وان النفس الحالمة لتختلف من حلم الى آخر، وانها لتختلف باختلاف المرآة العاكسة الليلية (الحلم) اذ أنها

تعكس الأفكار والمشاعر الخافية، وقد عبرت عن ذلك ما ذكرنا من أمثال مضروبة في هذا الفصل. وما أكثر ما نكون قتلة في أحد الأحلام وتلوذ بنا ضحايا في أحلام أخرى. واننا نقوم بأدوار نشطة فعالة في بعض أحلامنا، وفي بعضها نبدو أمام أنفسنا سلبيين ومجرد متفرجين. وغالبا ما نرى أنفسنا في أحلامنا سعداء، ولكن ما أكثر ما نشاهد ذواتنا قلقين، مضطربين، وخائفين. وبهذا فان الحلم في كل حالة من تلك الحالات ينبئنا عن الكيفية التي كنا نرى فيها أنفسنا في مواقف الحياة الجارية من غير أن ندرك ذلك.

واذا ما تجاوزنا ما نحن عليه من الحدود السوية، كما هي الحال بالنسبة الى (أليس)، فمن المحتمل ان الحلم انما أراد أن يظهر لنا أننا توحدنا تماما تقريبا بالدور الذي رأينا وبالدور الذي نحن نمارسه، إن لم يكن هذا في المواقف كافة، فهو يصدق على بعض المواقف في الأقل. ان أحلاما كهذه تكون عادة نادرة، لكنني أنا نفسي قد اكتسبت تبصرا ذا قيمة طيبة من بعض الحالات التي هي من هذا النوع - والأمثلة على ذلك هي عندما رأيت نفسي شاة تقاد الى الجزار، وعندما ظهرت في حلم أو حلمين وكأنني رجل، وفي أحلام أخرى قليلة كنت، كما في حالة أليس، أرى نفسي فيها ملكة. وعندما حلمت احدى عضوات الفريق وكأنها كانت شبح لجدتها، استطعنا أن نتبين أن في حياتها شيئين : هما أنها أولا ليست واقعية، وأنها ثانيا كان لديها احساس يلازمها طيلة حياتها وهو انها كانت ظلا لجدتها، ليس غيرة أن أحلاما من هذا النوع تدلل في الغالب على أنها جزءا لا يتجزأ من سلسلة متصلة بأحلام أخرى تظهر فيها الأغنام، والرجال، والملكات، والأشباح، وسواها، وهي تمثل اشخاصا آخرين - فهي أجزاء ليست من الأنا، أي ليست (الأنا) كما يجب وأن احلاماً كهذه تستحق تقريبا دائما بأن توضع على محك التحليل المستفيض، وذلك استطرادا مع ضرورة النظر الى داخل أعماق الذات، وبانتهاج طريقة سأتوفر على وصفها في الفصل القادم.

والحقيقة هي أنه حيثما تكرر ظهور الاشخاص في الأحلام أو توالت فيها الأحداث والموضوعات، فانها في تكرارها هذا انما تعكس مشكلات تنطوي عليها تلك الأحداث الخارجية المحددة او المواقف العامة في الحياة الواقعية. وفي الأحلام الخاصة أو الأكثر تخصصا هذه، فمن المرجح ان تكون جميع الصور التي تظهر فيها جزءا من ذواتنا نحن، وأنه لمن المفيد دائما أن نتبين مع أي قسم منها نحن نتوحد ومع أي قسم آخر منها أو الي أي جانب منها نسقط أجزاء ونستبعدها على أنها (ليست الذات) صاحبة الحلم. هذا، وان ما تنطوي عليه الأحلام من معنى ليصبح أكثر وضوحا فقط حينما نتيح لأشخاص الحلم مواجهة (الأنا) فيتصدون لها بحوار مفتوح، لكي (يعبروا عن ذواتهم ويفصحواعنها) وفق النهج الذي اقترحه (يونج) وفصله باسهاب اكثر (بيرلز).

واني لآمل أن أوضح فيما بعد على نحو جلي، ويمكنني القول هنا الآن، بأن الخبرة تتيح أحيانا فيضا من المعاني الجديدة التي تذكرني بها الآن في هذه اللحظة عبارات القديس بولص المعروفة والتي يقول فيها :

(اننا الآن نرى عبر زجاج، رؤانا معتمة مؤقتا، ولكنها رويدا رويدا ستنجلي، لنكون مع ما نريد أن نستبين وجها لوجه، فالآن أعرف شيئا جزئيا، لكنني فيما بعد سأعرف بوضوح ما هو مألوف تماما مثلما أنا منظور معروف).

هوامش الفصل التاسع

(١) تريد المؤلفة أن توضح بلغة العلم الصراح والمجاز المتاح أن أحلامنا مرآة لحياتنا (المترجم)

(٢) يلاحظ هنا أن المؤلفة ترمي إلى أن وراء حواسنا تقبع هناك كوامن لا يكشف عنها إلا العلم وإن ما لا نعرفه أكثر مما نعرفه (المترجم)

(٣) الدراما النفسية من ضروب العلاج النفي ابتكره مورينو (١٩١٤ ـ ١٩٥٩)، إذ يطلب فيه من المريض نفسياً أن يمثل دوراً في مسرحية قصيرة تكتب خصيصاً لهذا الغرض، ومن خلال تمثيله تستبان دوافعه ونوازعه، كما يمكن بذلك التنفيس عما في طوايا ذاته (المترجم)

(٤) استعملت المؤلفة كلمة Wombie وهي تعني في الميثولوجيا ميتاً يعاد إلى الحياة ولكن من غير قدرة على الكلام وبدون حرية الإرادة (المترجم)

(٥) نوع من المدارس الثانوية بانكلترا (المترجم)

(٦) استعملت المؤلفة كلمة Psyche وهي مبدأ الحياة العقلية وتعني أيضاً العقل بتكوينه المعنوي من حيث التركيب الشعوري واللاشعوري، ويراد بهذه الكلمة كذلك النفس وتكاملها، والمعنى هنا ينطوي على الظواهر الخارقة (المترجم)

(٧) التبطن عملية استدماج نفسي عن طريقها يمتص الفرد ويتشرب في بناء (الأنا) لديه شخصاً أو موضوعاً فيصبحان وكأنهما جزء لا يتجزأ من ذاته ومن تكوينه الداخلي، ومن هذا التبطن استدماج الأبوين في شخصية الطفل. (المترجم)

(٨) يلاحظ أن اسم المعالج هو دومنيان واستخدمت المؤلفة كلمة domin-ion وتعني الهيمنة والسطوة أو السيطرة، وتريدان للتطابق بين الاسم واللفظة المفردة دلالة (المترجم)

(٩) يساكنهما: يشاركهما في السكن ويقيم معهما (المترجم)
(١٠) المقصود هنا هو مساعدة مارك هذا على أن يتجاوز ما يكمن فيه من نزعة طفلية ما برحت كامنة في أعماقه (المترجم)
(١١) استعملت المؤلفة تعبير gritted his teeth ومعناه صَّرت أسنانه صريراً، لكن الترجمة في المتن أدق أداء للمعنى وهو تعبير عربي ينطوي على الكناية عن قوةالبأس والشدة والشجاعة (المترجم)
(١٢) استخدمت المؤلفة كلمة Suppress وكان أوفق لو أنها استعملت المصطلح النفسي لدلالته العميقة (المترجم).
(١٣) تعني افترقت فيما بعد عن زوجها بالطلاق (المترجم)
(١٤) تقصد المؤلفة تخليها عن دورها في الانصراف إلى إدارة البيت ورعاية أسرتها (المترجم)
(١٥) أرادت المؤلفة الربط بين الاسم (كرستيان) وتعني مسيحي من الناحية الحرفية، وبين برنامج صديقها الذي أصبح زوجها فيما بعد (المترجم)
(١٦) يعتمر بعمامة: يضع على رأسه عمامة (المترجم)
(١٧) الانسحاب في علم النفس غير الانطواء الذي هو مركب في الطبع ونمط من أنماط الشخصية. الانسحاب وسيلة نفسية وسلوكية (المترجم)
(١٨) تريد المؤلفة بهذا التعبير المجازي زواجهما كما تم الرمز إليه في الحلم بالطفل (المترجم).
(١٩) نفق الحيوان: أي مات (المترجم).
(٢٠) تعبير مجازي يراد به الحياط في الحياة من تعزيز الناس الأشقيا بالناس الأخيار الأبرياء (المترجم).
(٢١) التناقض الوجداني أو ثنائيةالمشاعر مطلح أدخله في مجالات علم النفس بلولير عام ١٩١١ للدلالة على الميل العقلي الذي تظهر فيه لدى الشخص مشاعر متضاربة في آن واحد مثل الحب والكراهية، الرغبة

والرهبة، الإقدام والإحجام، وتكون هذه الظاهرة لدى المرضى ولدى الأسوياء على حد سواء، والأسوياء أسلم موقفاً في اتخاذ القرار عندما يتعلق بإحقاق حق (المترجم).

(٢٢) أوقاب: جمع وقب وهو التجويف (المترجم).

(٢٣) السعدان أو الرباح baboon من نوع قردة أفريقيا ضخم الحجم، قصير الذنب، قبيح المنظر (المترجم).

الفصل العاشر

تمحيص الذات

كتب الفيلسوف الألماني (فخته) يقول : (لما لم يكن بوسعي تغيير ما في الخارج مما يحيط بي، دعني اذن أغير ما بداخلي مما في ذاتي.) ولعل هذا كان يبدو لأغلب الناس في القرن التاسع عشر، ذلك العصر العظيم، عصر قوة الارادة Will Power وبدء اتساع التكنولوجيا وامتدادها، دليلا على الانهيار العصبي. اما اليوم ونحن نشهد اثر التحليل النفسي وتأثيره يتخلل حضارتنا، فان هذا التأثير قد جعل رقاص (بندول) الساعة ينوس في الاتجاه المعاكس، الى هذا القدر حدا الأمر بكثير من الناس الى أن يضائلوا ويقللوا من مقدار ما يمكن تغييره في طبيعة الأشياء الكامنة في العالم الخارجي المحيط بهم. ولقد حاولت في الفصلين السابقين ان أوضح السبل التي تستطيع الأحلام بواسطتها مساعدتنا على أن نقف على حقيقة هذا الأمر، وذلك أما عن طريق لفت انتباهنا الى خبرات كنا قد تخطيناها في خضم حياتنا الواعية، أو بجعلنا على وعي بالكيفية التي تشكل بها اتجاهاتنا وانحيازاتنا ارجاعنا واستجاباتنا نحو اشخاص معلومين ومواقف محددة.

وعندما نعي امثال هذه الرسائل وتلك الاشارات التي ترد عادة في أحلامنا، فإننا نستطيع ان نتفادى كثيراً من المهاوي والمزالق، وأن نتصدى بفعالية اكثر لما يواجهنا من مشكلات يومية. وانه لمن الضروري في الوقت نفسه ان نقدر المدى الذي تبدهنا فيه هذه المشكلات وذلك لكي نعكف على دواخلنا ونكشف ما يقبع فينا من مواطن ضعف، وعدم اتزان، وصراعات، وسواها من عوامل أخرى تضافرت فجعلتنا أقل كفاية مما ينبغي ان نكون عليه. وفي هذا الفصل سينصب اهتمامي على تبيان الكيفية التي يمكن بها للأحلام لأن تساعدنا لا لفهم المشكلات الداخلية فينا

فحسب، بل لتمكننا كذلك على استبانة المصادر الكامنة في الطاقة النفسية، وهي المصادر التي بدونها فان أي جهد يبذل (لتغيير ما يمكن في دواخلنا وفي اعماقنا) يعد جهداً ضائعاً ولا جدوى منه.

ان اعتبار الحلم صورة تحكي واقعا بشكل مجسم والنظر اليه على هذا النحو يجعلنا نعي حقائق ما لدينا من مشكلات داخلية، كما اوضحت ذلك في الفصل السابق. وفي حالة الربط بين حلم معين وبين صور عقلية تجدّ للمرء في الحياة، فاننا نتمكن بذلك في الغالب من اكتشاف كيف ان حياتنا لما تزل بعد تهيمن عليها (تراكيب) كائنة في التكوين النفسي للفرد ـ وهذه تتمثل في أصوات الأباء، والأخوة والأخوات والأقارب ، أو أي اشخاص أخرين مروا بنا في مستهل طفولتنا المبكرة ممن كانوا يملون علينا ما يشاؤون بطرائق تماما غير موائمة لشخصياتنا ابان الرشد. وان صوراً أخرى من الأحلام ترينا واجهات أو جوانب لشخصية كنا قد أهملنا جوانبها تلك، أو أنها تظهر لنا حقائق دوافع كنا قد كبتناها وطردناها من حيز الشعور نظراً الى أن الأصوات الداخلية فينا نبهتنا الى ان الدوافع تلك كانت مخجلة أو تتسم بالخطورة . ولكي نتبين الجذور الكامنة وراء مشكلات كهذه، علينا اذن ان نميط اللثام عن الطاقة المطلوبة من أجل اجراء التغيير الداخلي فينا والنماء اللازم لنا، وان لي من خبرتي ما يسمح لي بالقول بأن الضرورة تقتضينا بألا نقف عند ظواهر الأمور، بل علينا أن نستشف ما يمكن وراء الصور المباشرة للحلم، ولا يكون ذلك عن طريق إفتراض وجود محتوى كامن Latent ، مموه كما ذكد فرويد، وانما عن طريق فسح المجال للصور العقلية للحلم لتتحدث عن نفسها وتعبر عن مكنوناتها، كما سبق لنا أن بينا في النصف الثاني من الفصل السابع.

والاسلوب الفني المتبع في هذا الشأن انما هو قائم على الفرض القائل ان جميع صور الأحلام انما هي جزء لا يتجزأ من ذواتنا، صور كنا قد انكرناها او استبعدناها لأننا وجدناها تؤلف تهديداً للصورة الشعورية التي نحملها

عن ذواتنا في دنيا الواقع. لذلك فاننا نعمد في الغالب الى دفع تلك الصور العقلية الشعورية الى خارج (حدود الأنا Ego) التي تكوّن الجو العام الخاص بالوعي الشعوري، نطردها ونحن نقول لأنفسنا، أو يقول الواحد منا: (ذلك لست انا). واننا لنجد كثيرا من الناس في واقع ثقافتنا يتنصلون من الجانب الضعيف الواهن من ذواتهم، مما يعتبرونه (جبناً) وشيئا لا ينم عن (رجولة) فيما نرى أخرين ينبذون الجوانب العدوانية والجنسية فيبعدونها عن شخصياتهم معتبرين اياها لا تتسم بسمات الاسماع غير ان (الأنا) وان كانت تناهض هذه الصفات وتستنكرها، فانها ـ أي الخصائص ـ لا تبرح مكانها فينا إذ تمكث في محلها هنا داخل مجالنا التكويني النفسي وانها تبقى جزءاً لا يتجزأ منا. فهي، اذا ما استخدمنا عبارات يونج، تشكل (الظل) لأنفسنا، بل ان يونج قد ضغط المبدأ العلمي هذا اكثر الى حد انه ذهب الى القول بأن تحت المظاهر الاجرامية الخارجية، يختبىء هناك زعماء الرايخ الثالث في المانيا وهم يتظاهرون بأنهم تملأ جوانحهم الرقة الحنانة والعاطفة الفينانة. ثمة اختبار بسيط يمكّننا من اكتشاف بعض الجوانب المنكورة في ذواتنا هي أن نسأل أنفسنا عما نمقته أشد المقت في الناس الأخرين، ذلك لأنه من المؤكد تقريباً أن نجد الشيء نفسه يجيش بعيداً في اعماق نفوسنا تحت مستوى الوعي الشعوري منا، وانه فقط يتربص هناك لاقتناص الفرصة لكي يقفز الى الأعلى تعبيراً عن نفسه على المكشوف. وانه دائما ليفلح في ذلك من حين لأخر وذلك حينما يكون العقل (غافلا)، وعند ذاك نقول ان الشخص قد تصرف تصرفا مغايراً لما هو مألوف منه من سلوك رزين. وان معظم الناس، كما يقول بيرلز، لينفقون وقتا طويلاً ويستنزفون جهداً جليلاً في سبيل تحاشي الأشياء التي يخشونها في انفسهم بحيث لم يتبق لديهم الا النزر اليسير من الوقت للاستمتاع بحياتهم، وانه فقط عندما تتوفر لدينا الرغبة الأكيدة لاستعادة الأجزاء المغتربة من شخصياتنا واسترجاع ما وظفناه من طاقة في قمع تلك

الأجزاء المنحّاة، حينئذ فقط يصبح باستطاعتنا ان نكون حقا نحن انفسنا كما ينبغي ان نكون، وان نظل اناساً متكاملين تنتظم شخصياتنا الصورة الكلية Whole.

وهنا عند هذه النقطة بالذات، فانني انصح القراء الذين يعنيهم الأمر كثيراً ويجدون فعلا في تطبيق تجربة النظر الى دواخل الذات مما يعنيهم من شأن أحلامهم بأن يعودوا الى النصف الثاني من الفصل السابع، اذ انني لا أرغب في تكرار وصف ما كنت قد ذكرت من قبل. وسأكتفي هنا فقط بتلخيص القواعد العامة المطبقة، واني لراغبة هنا ان أؤكد بأنني في هذا المجال سأقتفي آثار (بيرلز) وتبصر انه بصدد ما أداه وفق اصول العلاج الجشتالت وتفسير الأحلام حسب ذلك النهج، على أن ما أفدته من آراء (بيرلز) لا يعني بالضرورة بأني سأطبق كل ما جاء به الجشتالتيون بنصه وفصه. وفي نهاية هذا الكتاب توجد قائمة بأساليب التطبيق الجشتالتي وفنياته باستطاعة الراغبين في اتباعها الرجوع اليها.

ينطوي الحلم احياناً على كثير من الاشخاص والصور تعج فيه وبها يحفل بحيث يصعب على المرء ويشق عليه ان يعرف من اين يبدأ. واني من جهتي ابدأ عادة بأن أفسح المجال لأكثر اشخاص الحلم وضوحا لأن يتحدثوا عن أنفسهم بأنفسهم ومن ثم أجري مقابلة بين كل اثنين منهم حتى أتبين أن اثنين منهم حقا تحتدم بينهما مواجهة حقيقية ويحدث بينهما صراع ظاهر، وعندئذ اعرف أنني قد عثرت على شيء ذي بال وله أهميته. وانه لأمر مألوف عادة ان يكون ثمة شخص، اسماه بيرلز (المتحكم)، وهو يضارع الى حد ما فكرة فرويد عن الذات العليا، فيبدأ هذا الشخص باخضاع، وتعنيف، واصدار الأوامر، الى شخص آخر يتقمص دوراً عبر عنه بيرلز (المنفذ أو المستخذي) - وهذا الأخير يمثل جانبا من الشخصية نخجل منه عادة فنحاول جاهدين استبعاده ونفيه خارج حدود الأنا.

ففي حلمي الموصوف في الفصل السابع، الخاص بالبيتين احدهما على

شـاطيء البـحـر والأخـر فـوق تل، كـانت الصـورتان الواضـحتان في الحلم تعبران من غير شك في ذلك الحلم عن البـيتين ومنهما كانت البداية لي في أن أبدأ بتـفسير ذلك الحلم بالذات، لذا فانني شرعت باديء ذي بدء باستنطاق البـيت المطل على الشـاطيء ليفصح عما بضميره، وحالما ذكر انه يؤوي أسرة تبـغض البـحـر وتخشاه، أيقنت أنني قد كشفت غطاء عن اصطراع خبيء. وبدلا من أن أدعـو البيت الذي تراءى لي قـائماً فـوق التل ليتحدث عما بدا له، فـقـد اسـتـحضرت العـائلة (وهي في واقع الأمر لم تظهر في الحلم نفسه) وكـذلك البـحـر اسـتـحضرته ايضـاً وجعلتهما يواجهان أحدهما الأخر، ولهذا فـانني وجـدت نفسي بصـورة مـبـاشرة تقريباً وسط معركة حامية يشتبك فيها الجـانب المتـحكم في داخلي والأخـر المسـتـجيب المنفذ، وبينهما تلك الأسرة وهي تعنف البـحـر لتماديه في الهيـاج وعـدم اسـتـقـراره واخـلاده الى الدعـة والهدوء. وسرعـان مـا اكـتـشف في خـضم الصراع الانفعالي هذا بين التحكم الزمـيت والتـعـبير الطليق كنت قـد غـربت الجانب الأخير هذا فأبعدته دون وعـي مـنـي، ولـذلـك أدركـت انـه يتـعين على الآن أن استرده واعـيـده الى مكونات شـخـصـيـتي. ان رسالة الوجود في ذلك الحلم قد تجلت فأصبحت واضـحـة عندمـا قـال البـحـر (وهو يرمـز الى انفـعالاتي) « (ان لي الحق ان اعـرب عن ذاتي وان اعبر عنهـا)، وما ان تلقيت هذه الاشارة، حتى جعلت مهمتي حيالها ان أنقلها معي حيثما كان ذلك ممكنا في مجرى حياتي اليومية.

لو اتفق ان مـثلت هذا الحلم تمثـيـلاً ضـمن جماعـة محددة، لأكـتـفي رائد المجـمـوعـة بذلك وترك المسألة تنتـهي هناك، وهذا احـتمال قائم، ولأكتفي باشـارة واحـدة لها وجـودها في الحلم وحسب بيد أنني لم أكن بضمن جماعة، وكنت بصـورة أسـاسية مهتمة بها في الحلم من اشخاص، ولذلك فقد قررت الاستمرار على استكمال المسرحية Drama ، لقد حفزني الى ذلك بصورة خـاصـة الشـخـصية التي كانت تمثل (الريح) او الزوبعة التي اهاجت البحر وجـعلتـه يتراقص، لذلك فـقـد دعوته ليتحدث عن نفسه بنفسه• وكان هذا

على نحـو مـا اكـثـر أجـزاء الحلم أهمـيـة، وبخـاصـة بعـدما عرفت أنني في محـاولاتي لطمس انفـعـالاتي، انما كنت في الحـقـيـقـة أنكر واقع الطاقـة التي منحـتني الحـيـاة. وغالباً ما يحدث ان يرد ذكر شخص معين أو صورة محددة في الحلم بشكل عـارض او على نحـو غير مـبـاشر، أو أن يكون مـتضمناً في الحلم وداخـلا في تضـاعـيـفـه، فـاذا به ينطوي على اشـارة أو رسـالة بالغـة الأهمية بالنسبة للحالم، كما ستجلو ذلك الأمثلة المضروبة في هذا الفصل.

ان احدى المنافع الهامة المجتناة من تطبيق الاسلوب الجشتالتي الفني المتبع في تمثيل الحلم وإتاحـة الفـرصـة أمـام الصـور المتـضـمنة فـيـه لتفصح عن مكوناتها، هي انها تسمح لنا لأن نتوحد مع (الأغراب) Aliens، القابعين في تـركـيـب تكويننا النفسي، وأننا في الواقع نكون حـينئذ أقـدر على تحـسس مـشـاعـر اولئك الأغـراب بـدلا مـن ان نتـحـدث فـقط حـديثـا فكريا عن احـاسـيـسـهـم، مـثلما يحصل غـالبا في التحليل النفسي. فعندما تحدثت مع صـوت البـحـر (وهو يمثل المتنفس الانفعالي لحالتي)، أخفي أنني قد بكيت حـقـا، وذلـك لما انتـابني من احـبـاط، ذلك لأنني أحـسـست ان الصـوت المتـحكم بي في داخلي (وتمثله الأسرة القـاطنة البـيت على الشـاطيء)، سوف لن يفـسح لي المجـال لأن انهاري راقـصة على امتداد الشاطيء ذاك (وهو هنا يمـثل مجال حـياتي). وبعبارات أخرى أقول خبرت فعلا احباطاتي كأشد ما يحسه حـيـوان حـبـيس في قـفـص من مرارة القيد وقسوة التوتر، وهو بطبيعة الحال، شيء يختلف تمام الاختلال حين يحس المرء بمشكلته ويعرف مكابدته اياها عما يتلقـاه من تفـسير لها بارد جامد يتولاه نيابة عنه شخص آخر. لك ان تشك في حـقـيـقـة التـفسير والتأويل، ولكن ليس بمقدورك أن تماري في نفي الخبرة حـينما تنبثق من أعماق كينونتك أنت.

ان الموضـوع الذي كان يلح علي أن أختار بين أحد البيتين، كان موضوعا قـد تكررت رؤياه في أحـلامي عـدة مرات خلال مسرى حياتي، وكان ذلك دائما يحدث عند نقـاط حـينما يكون مجال حـيـاتي مـهـددا. وكـان هذا مؤشرا

واضـح المعـالم وهو نذير بأنه قـد أطل برأسـه من مـشكلة داخليـة جـذورها ضـاربـة بعـيـدا في اغـوار النفس، وانها ليست مـشكلة عـارضـة ناشئة عن ظـروف طـارئة ومـصـدرهـا الـعـالم الخـارجـي. وانـنـا لـنـجـد اسلوب الفن الجـشـتالتي يكاد دائما تقريباً يتيح دراماتيكية عندما يتبع في حالة تكرار نفس الموضـوعـات في الأحلام او حينما يظهر نفس الاشخاص في مناسبات مختلفة في تلك الأحـلام، ولا سـيما عندمـا يكون اولئك الاشخاص من النوع الملغز او الخيـالي مما لا نصـادف امثـالهم في وقـائع حـيـاتنا اليـوميـة. وفي هذه الحـالات، انـه لمـن المؤكـد تقـريبـا أن هذه الصـور وهؤلاء الاشـخـاص انما يمـثلون اجـزاء بارزة من ذواتنا، وانهم ليـسـتـمدون معظم ما يزخرون به من طـاقـات من اعماق التكوين النفسي عندنا، حتى وان كـان المحـرك والمسرع لنشـاطهم يتأتى من مـواقف خارجية كائنة في البيئة. والأمثلة الآتية المستمدة من احـلام اعـضـاء فـريق الدراسـة الذي يعمل بمعيتي ومن ميدان أحلامي الخـاصة بي، كلها توضح كيف أستعمل انا شخصياً أساليب الفن ألجشتالتي مـن اجـراء اسـتـقـراء مـا في (الـدواخل) ومن ثم الكشف عما اسماه (بيرلز) الاعيب (تعذيب النفس) The Self - Torture Games التي تمتص مـعظم مـا في تركـيبنا النفسي من طاقة فتستهلكها واني بايجاز شديد، لأشعر بأن فـيها للطريقـة والمنهجية ليتأتى بصورة أساسية من متابعة التعرف على ما في الأمـثلة نفسـهـا من محتـويات، ولكني أثبت هنا دليـلا مـقـتـضباً بشأن الخطوات الرئيـسـيـة المتبـعـة في اسـتـعمال الأحـلام والافـادة منها من أجل اسـترجـاع الجـوانـب المفـقـودة او المغتربة من جـوانب شـخـصـيـاتنا. وهذه الخطوات هي:

١ـ دع الصـور المتباينة في الأحلام تتحدث عن نفسها، حتى ينجلي هناك جانب متحكم وأخر منفذ.

٢ـ ان مـا يشـتـجـر بينهما من عـراك ينبئك عن طـبـيـعـة الصراع أو لعبة تعذيب الذات المتضمنة في الحلم.

٣ـ ان طبيعة الجانب المتحكم تتيح لك دليلا به تهتدي الى ما في شخصيتك من نقيصة محددة ـ اي ان هناك شيئا ما أنت ترغب عنه ولكن يتعين عليك ان تستعيده وتقر بوجوده.

٤ـ اجعل الجانب المنفذ يواجه الجانب المسيطر ويشرح له حاجاته ومتطلباته، وهذا الاجراء من شأنه ان يسمح لرسالة وجود الذات ان تعبر عن ذاتها. فهي كائنة في الحلم ولكنها تتطلب الاعراب عن نفسها.

٥ـ استرجع (الكنز المطور The Buried Treasure واستكمل الجشتالت (الكل) ودعه يتبوأ مكانه الصحيح في الشخصية.

٦ـ وأخيراً، فانني أكرر فأقول : ففيما نجد المعالج الجشتالتي لا يميل الى استعمال كلمة (لا شعور)، مفضلا عليها استعمال لفظة (اغتراب) Alienation، فانني من جهتي استخدم الكلمتين بشكل متناوب للتدليل على جوانب (المجهول الداخلي) The Inner Unkown الشاوي هناك في اعماق شخصياتنا.

بالتروي والانتظام والمثابرة تكسب الرهان

ان حلم جوزيف المذكور في الفصل التاسع، مثل جيد على ما يمكن ان يضيفه فن الجشتالت الى سبل معالجات النظر عبر المرآة العاكسة المعبرة عن الأحلام. ففي هذا الحلم بالذات كانت جهود جوزيف وزوجته في البحث عن دار لهما تنتهي دائما بالاحباط، وان رحلتهما انتهت بهما بالعودة الى بيتهما القديم بقطار تجاوز بهما المحطة التي كانا يريدان النزول فيها. ولذا فان جل طاقة الحلم قد تولدت من العالم الخارجي ذلك لأنهما كانا في حقيقة الأمر يبحثان عن بيت في ذلك الوقت. ولدى النظر الى الحلم واعتباره صورة فانه في الواقع قد كشف بوضوح عن أن جوزيف كان يتلكأ في شراء بيت لأنه كان يظن أن من مثله (أو هكذا كان يحدثه صباه القابع تحت اهابه) لم يكن معتاداً على امتلاك بيت خاص به واليه تعود ملكيته. بيد انه عندما

فسح المجال لبعض الصور المتضخمة في الحلم في التحدث عن الذات والاعراب عن نفسها، فان مشكلة أبعد غورا قد بزغت وأطلت برأسها.

لقد اعاد جوزيف ، باديء ذي بدء، سرد الحلم فقصه على مسامع المجموعة بصيغة الفعل الحاضر (المضارع) لكي يعيش خبرته بحاضرها الآن وبوقتها الحالي ثم أني طلبت منه بعدئذ أن يتصور بأنه هو نفسه القطار وان يخبرنا لماذا (تجاوز محطته المرسومة المحددة)• وهنا تحدث فقال :

لقد اجتزت محطة فنزبري بارك وتجاوزتها لأنني قطار سريع. فأنا اتوجه توا ورأسا الى غايتي في كنجز كروس، ولست معنيا بالتوقف في محطات صغرى تتوسط بين البداية والنهاية. واذا كانا حقا يرومان النزول عند فنزبري بارك، كان ينبغي عليهما ان ينتظرا القطار البطيء الذي من شأنه التوقف في كل محطة وفي جميع المحطات. فليس بوسعك ان تستقل قطارا سريعاً وتتوقع منه ان يقف في كل محطة من أجلك.

ثم طلبت من جوزيف ان يتخيل نفسه قطارا بطيئا وان يكلم القطار السريع. وعند ذاك أنتقل جوزيف من الكرسي الأول الى الكرسي الآخر المقابل للأول وجعل يقول :

انا ما اصطلحوا على تسميتي قطارا بطيئا، وليس من حقك ان تستخف بي أو تزدريني . قد تكون أنت أخف حركة وأسرع • تهف هفيفا فتمر مارقا عبر جميع تلك المحطات، متباهيا بنفسك، لكنني أنا في النهاية أفضلك كفاية (كفاءة) ذلك لأنني اهتم بكل اولئك الناس الذين يبتغون النزول قبل محطة كنجز كروس. انك لا تتورع فلا تتوقف ولا تقيم للناس أي اعتبار. واذا ما بقيت على سيرتك هذه سريعا كل الوقت، فلا بد أنك تكبو ذات يوم في هذا الزمان ثم تحرك جوزيف الى الكرسي الآخر وجعل يجيب :

القطار السريع : حسن يبدو على الناس أنهم يحبونني، وأني لم أتسبب في أي حادث حتى الآن. وأني لأعترف أنك نافع لبعض الناس، لكنك في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوقت ذاته أنت ممل بطيء تجرجر نفسك متثاقلا، وكأنك فيل عجوز يلهث منقطع الأنفاس. فهذا عصر النفاثات، وأنت به تدري .

القطار البطيء : لعله عصر النفاثات، وانه لهذا السبب إذن علينا أن نحافظ على شيء من العقلانية والتعقل في هذا العالم ـ انه الجنون بعينه ان يطيش كل واحد فيندفع اندفاعا غير ملتزم على النحو الذي نرى. وعليك أن تتذكر حكاية عيسوب (أيوب Aesop) عن السلحفاة والأرنب ـ بالتمهل والتروي والمثابرة يكتسب الرهان في السباق. لقد كسبت السلحفاة الرهان وأحرزت السبق في ذلك السباق لأنها استمرت في الحركة على مهلها، ثابرت ببطء ولكن بثبات وثقة، فيما كانت الأرنب حريصاً على ان يسرع الخطى والجري السريع لذلك فقط وقع في كثير من المزالق والمآزق . حتى انه من فرط الغرور سولت له نفسه فنام، وهذا أمر يذكرني بأنك كثيرا ما تقف متخما لا تريم في داخل النفق خارج حدود أو نطاق النهاية أو المحطة النهائية، ذلك لأن تلك المحطة النهائية متخمة بالناس وبهم مكتظة، ولذلك فان اي راكب في داخلي سيسبقك الى محطة كنجز كروس ويغلبك في الشوط، كما فعلت السلحفاة. ولهذا فأني أقول :

من يتأن وللناس يتمهل

فأنه في المال يربح وبه يضرب المثل

القطار السريع : طيب، انك قد أحرزت نقطة، بيد أني ما فتئت أحسب ان لي ثمة مجالا في مكان ما.

نلاحظ هنا تناوبا في الأدوار جذابا. فالقطار السريع ابتدأ الكلام هنا ممثلا في الواقع صوت زوجة جوزيف، التي كان في حقيقة أمره يشعر حيالها بالنقص والقصور، ولكن ما أن استمر الحوار بينهما وحمي وطيسه حتى أصبحت للقطار البطيء اليد العليا فاتخذ دور المسيطر، فراح يلقي على القطار السريع (المنفذ) درساً في الأخلاق، محذراً اياه من مغبة مخاطر السرعة مما قد لا يدع لوجوده في الحياة مبرراً. ان ذلك الجانب من شخصية

جـوزيف الذي وطده بالصلة بتلك الفـتـاة والذي يمثل لديه رغبة في التسرع والتألف انما هو جـانب مجانف تماما لخلفـيـتـه الاجتماعية ومغاير لها، ولكن يثـوي في أعماقـه هناك صـوت هو عنده أوهن من الجـانب المحـاذر الذي لا يـكف عن أن يذيع دواخل ذاته خطبـا رنانة تنطوي على كل مـا في قـصص (عـيـسـوب) من قـوة بيـان وحـجة برهان ان الجانب المنفذ يستطيع عادة ان يعبر عن ذاته بطريقـة ملتـوية وغير مـباشرة، وفي حالة جوزيف بالذات فان هذا الجانب (المنفذ) قد فعل ذلك عن طريق اسقاط ذاته Projecting على زوجـة جـوزيف نفـسـهـا واختارها هي بالذات. ولذلك فان جوزيف عندما تناوب دوري القطارين السريع والبطيء انما كـان في لسـان الحال وكأنه يقول لـزوجـتـه (أنت كـوني المتسرعـة، وانا اخـتـار أن أكـون البطيء المتأني، وأننا كلينا مـعـا سنكون وحـدة مـتكاملة وبانتـهاجه هذا السبيل، فقد تفادى كل مـسـؤولية تقتضيه تغييرا في واقع شخصيته وتستوجب منه ذلك.

وعندمـا بحث جـوزيف هذا مع افـراد المجـمـوعـة وناقشه معهم تبين ان حكاية عـيـسـوب هذه بالذات انما هي جـزء لا يـتـجـزأ من احداث طفولته، مـعـززة بذلك مـا في خلفـيـة الطبـقـة الاجتماعية التي اليها ينتسب من حذر شـديد ومـا تأخـذ به هذه الطبـقـة نفـسها من حيطة وتحوط وما يسور حياتها من قلق، ولقـد بلغ به الأمـر حدا انه لم يكن ليقدم على اتخاذ قرار قط مخافة ان يتـهـم بالتـعـجل والطيش. وأن جـوزيف نفـسه قد أقر بواقعه انه لم يكن ليـتـوصل الى قـرار نهائي بشأن أي شيء لم يكن في الحـسبان فيغير من مجرى الحـال. ولقـد ذكـر انه كـان متردداً في ان يشتري بيتاً في الوقت الحاضر لأنه كـان يشـعـر انه اذا مـا انتظر فترة أطول فـقد يجد بيتا مناسبا وبسعر مناسب ايضاً، بل لعله يربح في يناصيب أو الرهان على كرة القدم، مما يسعفه ماليا فـلا يخوض تجـربة قلق الاسـتـدانة او اقتراض مـال لابتياع بيت يريده. وانه من الجـهـة الأخـرى، كما ذكـر، كان يخشى ان تموت زوجته أو تهجره وعند ذاك يكون شراؤه للبـيت خـسـارة ومـضـيـعـة للوقت! واضـاف يقـول انه في

دائرته كـان دائماً يقـدم عـمله قبل او في الوقت المحدد وذلك ليتحاشى حالة قـد يلغي فـيـهـا رئيـسـه العـمل المطلوب او يعترض فـيكون قـد وفر الوقت اللازم (وهذا مـا كـان يفـعله رئيسه احيانا، مما يعزز في جوزيف من عصاب ومـا لديه من قلق). ومـا اسـتطاع يوما ولا كان بمقدوره ان يحجز مقدما من اجل عطلة يمـضـيـهـا او ان يقتني مسبقا بطاقة لدخول مسرح خوفا من أن يطرأ مـا ليس في الحسبان فيحول دون تنفيذ مأربه وتحقيق موعده. كان يبدو جليـا ان (الحـافلة البطيئة)، وهي هنا ترمـز الى اسقاطات صوت والديه التي مـا تزال قـابعـة في اعماقه، كانت تشل من ارادته وتعرقل من انطلاق سجيته وحـيـاته فـينعكس ذلك بالتـالي على الذين حـواليـه، فكانت تلك الأصوات الهامسة في أعماقه باستمرار تذكره بأن (الغرور يسبق السقوط) Pride Comes Befall ، وتملي عليه أن : (عجلة اكثر، وسرعة أقل) More Speed Less Haste; ، تلك عبرة أولى.

ان هذه الأصـوات التي تعـتـمل في تضـاعيف تركيبة التكوين النفسي انما هـي اصـوات مخـادعـة ذلـك لأنهـا تـعـمـل بـشكل مخالف للعـرف ومجانف للقـواعـد، وكما هو منتظر، فـانها تحـملنا على أن نسـتـجـيب لما يواجهنا من مـواقف بطرائق نمطيـة جـامـدة دون ان نعي ذلك. وأن طريقة التصدي لها (للأصـوات) انما يتم بمـجـابهتها بوجهات النظر المناهضة لها حالما هي تطفو عـلى سـطح الشـعـور، وفي حـالة جـوزيف لعل هذا يعني مما يعني، ترديد العبارات المنطوية على عظات وعبر مثل :

(من حزم أمره تجنب العثرة).

(لا تؤجل عمل اليوم الى الغد).

Nerer Put Off Till Tomorrow What You Can Do To-day

وهذه هي الطريقـة المتبـعة من المعالجين بالتنويم المغناطيسي، ممن يتكون عـلاجـهم بصـورة اساسية من تغذية العقل المسترخي بايحاءات مضادة. وقد

شجعنا نحن في فريق الدراسة ، جوزيف أن يمثل (الحافلة البطيئة)، وذلك بأن يمنح القطار السريع شيئا اكثر مما لديه من طاقة وها هي النتيجة:

القطار السريع : مهلا، مهلا، رويدك دقيقة واحدة. انك لا تستطيع ان تخرج بمغنم من كلامك هذا. فأنا لا أتسمر في مكاني متعطلا في النفق كما تزعم، واني لأوفر منك نفعا واكثر فائدة لأناس يتتوون الذهاب توا الى نهاية مطافهم وغاية شوطهم عند منتهى توقفي هناك، أضف الى هذا، فأن ما رويت من حكاية ـ عن الأرنب والسلحفاة ـ لهي حكاية سخيفة لأنها تظهر وكأن من المسلم به أن تكون الأرانب دائما مخلوقات مأفونة غبية، وهي في الحقيقة ليست كما تظنها أنت. ولو أن الأرنب قد ذهبت الى نهاية الشوط رأسا وبلغت هدفها، كما ينبغي أن يفعل أي أرنب حصيف، لغلب السلحفاة من غير شك ولأمضى بقية يومه في الراحة والاستجمام لأستمتع بالبهجة وانه لمن الخير ان يكون الواحد قادراً على السرعة وان يكون بمقدوره الاسراع لأنه سيكون بوسعه دائما الابطاء اذا اقتضت الضرورة واذا هو شاء، ولكنك اذا كنت دائما بطيئا، فمن العسير عليك ان تحث الخطى وان تزيد من سرعتك مهما اجهدت نفسك.

القطار البطيء : ن . . . ن . . . نعم. أحسبك على صواب، ولكن ينبغي أن تقيم كل حالة حسب جدارتها وبما تستحق من تقييم بذاتها هي. أني لأغبطك ويجدر بي أن أقر بأني أحيانا أغبطك.

هذه حالة يستلم فيها الجانب المسيطر حالما تمت مواجهته بالادانة الحقيقية، ادانة هي أقرب ما تكون الى الاقناع، وفيها يرى (بيرلز) طريقة من طرائق احداث التوازن في بنية الشخصية. ولذلك فقد اقترحنا على جوزيف بأن يتذكر هذا الحوار دائما حينما واجهه أو عندما يواجهه موقف عليه ان يتخذ فيه قرارات في قادم ايامه المستقبلة وانه يتوجب عليه ان يتصرف تصرفا عقلانيا حسب سياق المشكلة التي تواجهه. وانه بهذه الطريقة وحدها سيتعلم بأن اتخاذ القرارات بشكل سريع تترتب عليه نتائج

ايجابيـة، ولا تنجم عنه نتـائج مأسـاوية. وهذه هي العـمليـة التي يسـمـيها المختصون بعلم النفس التعزيز (أو التدعيم) الايجابي Positive Rein-forcement. وهي العـمليـة التي يعترف بها اليوم بأنها تؤلف اساس التعلم الناجح بأكـمله. فـجـوزيف حتى هذه اللحظة قلما سمح لنفسه باتخاذ قرار سريع، ولذا فـهـو قد حرم نفسه من فرصة التصدي لما كان يخالجه من ربقة وهـم مـؤداه أن القـرارات السريعـة تفضي حـتما، حـسب وهمه، الى عـواقب وخـيمة. وهذا توهم محض مرده الى خيال جامح لا اساس له.

الطاقة والحيوية مصدر سرور دائم

ان حلم جـوزيف وحلمي عن (البـيـتين) كليـهما كـان حـالة واحـدة وقد اسـتمدت قصة الحلم الكاملة فيهما الطاقة من عالمنا الخارجي والداخلي تقريبا بنفس الكمـيـات. فـهما أشبه بعالم أليس) في المرآة العاكسة، كلاهما ينطوي على أشـيـاء عكست احداث الحـيـاة الخـارجـيـة على نحو رمزي مشوه، كما عـكـسا اشـيـاء أخرى أقل وضـوحـا في مـعناها مما اتاح أسـاسـا لدلالات موجودة حقيقية تمت بصلة الى حـيـاة الحـالم، وان تـلـك الـدلالات او الاشـارات يمكنهـا ان تتـحدث عن نفسها اذا ما سنحت لها الفرصة. على أن الأحـلام تتكرر من حين لآخر وأنه لما يجردها من معناها اذا ما نظر اليها على انها مجرد صـور، وانها عندئذ يتـعـذر تفـسيرها حـتى في حـالة الاستعانة بطريقة التداعي الحر Free - Association وفي مـثل هذه الحـالات فان الركون الى اسـتـخـدام طريقة الاسلوب الكلي (الجستالت) يكون أجدى من أجـل الظفـر بالمعنى المنشـود، وأن لي من خبرتي مـا يؤيد أنها طريقـة أو أنه اسلوب قلما يخفق في توفير نتـائج مرجوة.

ولقـد روى (جـاك) الى فـريق الدراسة حلما حسبه لا معنى له حينما تملاه كـصـورة ونظر اليـه على اساس من هذا الاعتبار، لذا فقد طلب منه أن يعيد سرده بصيـغة الفعل المضارع تمهيدا لبدء العلاج على طريقة انتهاج الاسلوب

الكلي (الجشتالت)، فذكره كما يلي :

أراني في جنوب فرنسا محاولا اعداد نفسي للعودة الى مكان ما في أفريقيا كنت مقيما فيه عما قريب ومؤخراً، حيث تكثر العناكب الكبيرة والتي تدخل معك فراشك، وما أن تلج معك الفراش حتى تقف في منطقة من جسمك هي منطقة الضفيرة الشمسية(٢) وهي تبدأ تخمش مكانا لها ثلاث مرات، انه نوع من الطقوس تؤديه، وما أن تقوم بعملها هذا ثلاث مرات حتى تموت كما هو شأن النحل بعد أن يلسعك. هناك عدد كبير من العناكب، فما أن تهلك مجموعة منها حتى تحل مجموعة أخرى محلها، وليس بمقدوري أن أتصور لماذا أحب العودة الى تلك الأشياء البشعة، لكنني أشعر مضطراً بأن أستقل أول طائرة تريد الاقلاع لأتوجه الليلة الى هناك.

كل ما استطاع (جاك) ان يستنبطه بواسطة الاقتران من حلمه ذاك هو أنه يحب أشعة الشمس والمناخ الاستوائي Tropical Climate في الجنوب، هذا وإن لم يسبق له الواقع الذهاب الى افريقيا. اذ كان فكره دائما مشغولا بفكرة أن أفريقيا انما هي القارة المظلمة، وانها مكان بدائي مخيف، فكانت بالنسبة اليه عامل اجتذاب وابعاد، تجتذبه وتطرده. فهو لم يكن تواقا لحياة الحشرات والزواحف الكائنة هناك، لكنه ظن ان هذا لن يحول دون ذهابه اليها اذا ما واتته الفرصة للذهاب الى هناك حقا. لكنه لم يكن بمقدوره قط ان يلتمس لنفسه او أن يجد في ذاته اي ارتباط يقوم في نفسه لما قامت به العناكب في الحلم من حفر في الضفيرة الشمسية، اذ كانت تقوم بذلك ثلاث مرات ومن ثم تموت، وذلك بصرف النظر عن أو بمعزل عن حقيقة أنه لديه فكرة بأن الضفيرة العصبية تمثل مركز الجسم للطاقة العصبية Nervous. ومن الواضح ان العناكب في هذا الحلم قد جاءت أو طفت على سطح هذه النقطة، لكنه لم يعرف لماذا، ولم يكن بوسعه أن يتبين ماهية العناكب تلك أو أن يستبين هويتها بأية درجة من درجات الوضوح او الحقيقة. ولقد زعم أن العناكب انما ترمز للجنس ارتكازاً الى الرأي القائل

أن الذكـور منهـا تموت بعـد اخـصـابها الاناث التي تأكل الذكـور منهـا بعد عـمليـة التلقـيح. ولم يكن بوسعه ان يتذكر شيئا من احداث يومه الماضي مما يحتـمل ان يكون سـببا في قدح شرارة ذلك الحلم الغريب، ولم تكن في ذهنه أية فكرة تحمله على الظن لماذا حدث حلمه ذاك في ليلته تلك.

طلبت من جـاك ان يضع افريقيا في الكرسي المقابل لكرسيه وان يتحدث اليها. وقد قال :

اني أحب شـعاع الشمس فيك، وأحب فيك المدى الفسيح وحياة الفقر، والحـيـاة الموحـشـة، وانه سـيكون تغـييرا مـدهشـاً ورائعاً لأن أتيك بعد حياة الرتابة والكآبة والضنك التي أقـضـيها هنا وأنا أؤدي كل هذا العمل الفكري المضني. واني لأبدو لا اسـتطيع تحـريك جـسمي او الاحساس به هنا ـ وكل مـا أقـوم به هنا هو ان أجلس خلف منضـدة وأمضي النهـار كله هكذا، ثم انصرف عـائدا الى البيت ليـلا وأنا منهك فـلا أقـدر أن اسـتمتع بشيء حقا والشيء الوحـيـد الذي لا أحبـه بقـد ما يتعلق الأمر بك هي تلك العناكب اللعينة الكريهة.

لذلك فـقـد طلبنا من جـاك أن يتحدث الى العناكب وان يستكشـف منها مـاذا كـانت باعتقادها تفعل هناك. وفيما كان جاك ينتقل من كرسي الى آخر ، تارة يمـثل دور العناكب وطورا يتـحدث عن نفسه، فقد ترتبت على ذلك المحاورة الآتية :

جاك : أي جحيم تصنعون وأنتم تفسدون أيام عطل الناس؟

اننا لا نقـدر على أن ننام وأنتم تدبون فـوقنا خلال الليل. لماذا لا تعودون أدراجكم الى الأدغـال والآجـام مـوطنكم الأصلي، وتدعوننا وشأننا؟

ألعناكب : انه لمن صلب طبيـعـتنا أن ندب فـوق أجساد الأناس. انكم لتـجـتذبوننا. واذا ما رقدتم ساكنين دونما حراك فأنكم لن تحسوا بنا.

جـاك : لكنكم لستم طبيعيين بطريقة ما. فأنا لم أصادف عناكب مثلكم من قـبل، كأني بكم انما تقـومـون بطقـوس خـاصـة محددة في منطقـة الضفيرة

الشـمـسـيـة. ان لكم لمهمة ما، ويا ليتني أعرف ما هي . أنتم لستم بحال عناكب حـقيقيين، أنتم بالأحرى بمظهر زائف وخراصين.

الـعـناكب : أوه، حـسنا. والآن سنعترف. انك على صـواب وفـيما قلت محقـا. اننا لسنا عناكب حـقـيـقـية. اننا من صنع الحكومة الأفريقية لنمتص طاقـتكم العـصـبـيـة كلهـا وأنتم نيام وذلك لكيلا تبددها في اليوم التالي على نـشـاطات لا طائل فـيـهـا. الهواء الطلق هنا يجعلك تمرح وترقص، تسبح وتركب الخـيل وسـواها، وتنغـمر في اعمال جنسية فيها اسراف. وعندما تقوم بثلاث جـولات من تجـاربنا وكلهـا حـافلة بالطاقة الكاملة. فأن ميكانيكيتنا تتـوقف فـتظنوننا قـد مـتنا، ولكن لا شيء يعـدو الحقيقة سوى ذلك. وتأتي العـاملة في الصـبـاح لتكنسنا فنرسل الى دار الحكومة حيث تضخ طاقتنا من داخلنا لنستـخدم في تشغيل الحاسبات (كمبيوترات) وهكذا دواليك ومن ثم تعـاودنا في الليلة التـاليـة قـوانا وطاقـتنا لتـبدأ الدورة السابقة من جديد. انه لشيء بديع ورائع ألا تظن هكذا، أيها الفتى؟

جـاك : اني لأحـسـبـه شيئاً شائنا. فأنا هنا لغرض عاجل ألا وهو لأمتع نـفـسي وأنـتـم تـوافـونـنـي وتعترضـون طريقي قـبل نيل مأربي. ولكن لم هم يتصرفـون بشكل مخادع هكذا؟ فأنا لست غـبيا ولا أحمق واستطيع مساعدتهم في حاسوباتهم هذه بدلا من حملهم أياك على أن تزعجني فتضايقني.

ثم أننا طلبنا من جـاك أن يتـحـرى السـبب لماذا كـانت الحكومة تتصرف على نحـو غير مـعقول ولا مقبول هكذا؛ فما كان الا أن رد موظف يقول :

الموظف : هذا بلد بدائي جـدا وأخشى ما أخشاه هو أنكم أيها الناس لا تدركـون كم هو الأمـر خطير ان طريقـتكم في الحـيـاة هي أفضل من حياتنا وطريقـتنا نحن ـ انكم انظف، والطف، وألمع ذكـاء وأكثر انضباطا. وما من تقـدم يمكـن أن يحقق عقليا كان هذا التقدم أو روحيا، اذا ما تبعثرت الطاقة وتبـددت في سـبيل السعي وراء متطلبات جسمية عابرة والسبب الكامن وراء عـدم اسـتطرادنا في التـقـدم انما يتـمـثل ببساطة في أن المواطنين لا يدخرون

الطاقـة للضرورة لما تفعلون أنتم أيها الناس؛ فهم ينشرونها على سطح الجسم وهم يستـهلكونها كـذلك، وهم لذلك ينفـقـون وقـتهم كله في غمار الحواس وحدها. فنحن اذن نحتاج أناسا يمدوننا بالطاقة، طاقة نستخدمها عند ذاك في عملية بناء المدينة.

جـاك : لمـاذا لا تـطـلـبـون منا العـون بدلا من أن تصبروا على كل هذا الأذى من العناكب؟

الموظف : ذلك لأننا - يا عـزيزي، نحـتـاج الى طاقـتكم كلها، وأنتم لا تـعطوننا عن طيب خـاطر الا بعـضـهـا ولا تمنحـوننا الا جـزء منهـا. فما أن تشرعـون بامـتـاع أجـسـادكم هنا حـتى تنصرفوا الى هذا الامتاع انصرافا تاما وتمـضـون هكذا، فـيترتب على هذا ان يكون الضـيـاع من نصـيـبنا جميـعنا. فـيتعين علينا جميعنا ان تكون لنا على أجسادنا وأنفسنا سيطرة مطلقة لكي لا تنفلت الأمور فتضيع الأشياء من أيدينا.

وهنا عند هذا الحـد، تذكـر جـاك كم كـان أبوه مـولعـا بالفلسفة الشرقية Eastern Philosophy وكم من مـرة سمعه يردد على مسامعه أهمية عدم بعثرة الطاقة الحيوية Vital Energy للجـسـم من أجل متطلبات شهوانية. وكان قد عرض على ابنه صورا تمثل اليوغانيين(٣) Yogis الذين يظن أنهم كـانوا يقطنون جـبـال الهملايا منذ قرون عديدة خلت، وكانوا قد تعلموا عن طريقـة ممارسـة (اليـوغـا«٤») سر حـياة الخلود. كما تذكر جاك كذلك عبارة محبـبـة اليـه كـان أبوه قـد اقتبسها من سيرة الناسك الهندي (راماكرشينا)، اذ يؤثر عنه انه قـال (اذا مـا لامـسـتني امرأة، فأنني أمرض. اذ أن ذلك الجزء من جـسـدي ليـؤلمني ألما مـتـواصلا وكأنه قد وخزته سمكة قرناء) وهو تشبيه لا يختلف قط اخـتـلافا كبيرا عن فزعه من خشيته لسعة العناكب.

فـعندما قام جاك بتمثيل الحلم تمثيلا على هذا النحو وبهذه الطريقة ولدى سماعـه صـوت نفسه حقيقة وبشكل عملي وهو يردد كلمات ابيه مع ايمانه بها وقناعـتـه بمـضـمـونها، كل هذا قـد أمـاط اللثام وكشـف له كيف أن حياته

كـانت محكومـة بدخـيلة كـائنة في ذاته، دخـيلة جـامـدة، وهي من الوجـهة الأخـلاقـيـة سادية(٥) استبدادية حالت بينه وبين ان يستمتع في حياته بمتعة جـسـمـيـة تامـة. ظاهرياً كان يتباهى بأنه نشيد وفعال من الناحية الجنسية، ولكنه عندمـا يضـغط عليـه فـريق البـحث للادلاء بمزيد من التفاصيل كان يعترف اعترافـا ضـمنيـا بأن كـامل اللذة تخونه ولم تكن في مـتناول يده. وقـد لام اباه على كل ذلك، وقـال انه في الليلة السـابقـة للحلم ان أباه كـان قـد ذكره بقراءة: مزاوجة الجنة والجحيم، للشاعر (بليك) Blake . وفـجأة خطرت لي فكرة أنه ربما كـان ذلك هو المنبـه لحـدوث مـا كـان قد رأي من حلم، ولذلك فـقد ناولته نسختي من كتاب (بليك) وطلبت منه أن يقرأ فيه علينا. فجعل يقرأ:

الكتب السماوية أو المدونات المقدسة كلها قد تمخضت عما يلي:

(١) في حـيـاة الانـسـان يوجـد عنصران حـقـيـقـيـان، ألا وهما: الجـسم والروح. (٢) ان الطاقـة، ووصـفـهـا بالشر، انما هي الوحـيـدة المشـتـقة من الجـسم، والعـقل وما يوصف به بأنه خير، انما هو صنو الروح.

(٣) ان الله سـيـعـذب الانسـان عـذابا ابديا خـالدا ان هو اتبع شـهواته المنبثقة من طاقاته، غير ان نقيض ما جاء ذكره هي الحقائق الاتية:

١- ليس الانسـان منفصلا عن نفسه. ذلك لان ما يدعى بالجسد انما هو جـزء لا يتـجـزأ من الروح وانه تم اسـتشفافه بواسطة الحواس الخمس، وهي المداخل او المنافـذ الاساسية للروح في هذا العصر.

٢- ان الطاقـة هي الحـياة الوحيدة، وان مصدرها هو الجسم، وان العقل هو الحـدود الخارجية المؤطرة للطاقة.

٣- ان الطاقة انما هي بهجة دائمة.

وافق جـاك على ان هذا كـان تقـريبـا هو المنبـه المسـؤول الذي احدث في نفـسـه تلك الزيارة الليليـة الى (افـريقـيـا)، ارض الحـواس، هذا وان ابيات الشاعر (بليك) قـد اومـضت في نفـسـه احساسا دفينا بالصراع حول الطريق الامـثـل لاسـتـعمال الحـواس والـطاقـات، ذلك لأنه، جـاك، وان كـان هو

يخالف اباه ولا يتفق معه شعوريا بشأن فلسفته، فانه في واقع الامر لم يستطع اقتلاعها من بنية نظامه وتكوينه النفسي لذا فقد طلبنا منه ان يستمر في الحوار ذاك، وان يواجه (الموظف) بجرأة هذه المرة، ولهذا فقد صرخ قائلا:

انكم تنغصون علي حياتي ايها الاوغاد، في كل مرة احاول فيها الاستمتاع بحياتي، تأتون فتتدخلون لتجعلوا مني اشعر بالتأثم واحس بالذنب، لتعكروا علي بهجتي، ان لي الحق في ان امتع جسدي، وانكم لن تحولوا دون ذلك بعد الان.

ولقد طلبت من (جاك) ان يواجه كل فرد من افراد الفريق على حدة موجها اليه هذه الجملة الاخيرة ومرددا اياها في وجهه بالتعاقب حتى نقتنع جميعا بانه يعنيها حقا. ثم أننا تحلقنا حوله، مدعين باننا العناكب ومتظاهرين له باننا نمثلها، وشجعناه على أن يشق له طريقا من بينها، وقد فعل ذلك بطاقة كبرى. ولم يكن الغرض من هذه التمارين والتطبيقات هو اتاحة الفرصة لاحاسيس جالك للانتقال من خلال قدرته او لكي تتمكن طاقته من الاحساس بوجودها- اذ لم يكن يخطر لنا علي بال لان نغير ما بداخله بمثل هذه البساطة- وانما كان غرضنا ان نمده باحساس يعي من خلاله مشكلته لكي يكون متيقظا لمواجهة تلك (العناكب) الوهمية، (والتي تمثل عناصر الكف الروحية الممثلة لاوامر والده ونواهيه) العناكب التي تتراءى له حيثما تصورها مستقبلا تحبو في حنايا نفسه لتمتص طاقاته، فيتمكن اذ ذاك التصدي لها عند اول احساسه بها تدب في ثنايا جسمه. وبهذا فانه، سيتمكن والامل يحدوه، وبكل تفاؤل، من ان يجعل ذاته طليقة من اسار الانكماش والوسواس، وان لذته المتزايدة ستمنحه (تعزيزا ايجابيا) من اجل الاستمتاع بنمط من الحياة المسترخية يكون معها حرا في اتخاذ قراره وفي استطاعته الاختيار وتقدير امره بشأن الإقدام على الحكم الصحيح متى يمكن ان يسمح لحواسه الجسمية بالتمتع ومن يجب ان يكفها عن اندفاعها

بقصد اتاحة المجال والاهتمام بنشاطات اخرى نافعة وذات جدوى.

ان مشكلة جاك انما هي مشكلة عامة في المجتمع الغربي، ذلك لاننا نتعلم منذ بواكير الطفولة فيقال لنا ان اجسادنا بشكل او بآخر انما هي مدعاة للخجل او انها خطيرة وعليه فان متطلباتها ينبغي الحد منها والسيطرة عليها. هذا وان فرويد نفسه قد اعتقد بان (التسامي) sublimation في الطاقة الشهويةerotic energy وتحويلها الى تساوقات ومتابعات نفسية بناءة فأنه- التسامي-يمثل الامل الوحيد، بل انه وحده فقط يمثل هذا الامل للمجتمع المتمدن، وهذا الصراع القائم بين التعبير الحر وبين التعبير المهيج للطاقة الشهوية انما هو صراع يمثل نشاطاً جنسيا وهو ينزع الى ان يتخذ سبيله دونما وازع وهذا مخالف لقيم الانسانية ولذا فان التسامي والارتقاء الى (اشياء سامية راقية) كان قد توضح توضيحا جميلا في احد تطبيقاتي على الاحلام وتجاربي عليها. واول متطوع لاجراء التجارب عليه كان مختصا من بالعلاج النفسي، وكان من النمط الخجول، وقد ذكر انه في الليلة السابقة لمقابلتي اياه كان قد رأى حلما بعد ان واجه جماعة مواجهة او مقابلة.

اذ قال: (اكتشفت ما روعني وهو انني قد اقترفت مضارة bigamy. ثم ان قسا كاثوليكيا متزمتا حياني وصافحني). ومن خلال محاورات اجراها مع (القس) تبدى له صراع مثيل بالصراع الذي يعانيه جاك نفسه. وقد انبأه القس بصوت هادىء بطيء، بارد، ولكنه ينم عن قسوة وتعنيف، بانه اذا ما تمادى في اطلاق العنان لطاقاته الجنسية فإنه يكون بذلك قد عرض نفسه الى عقاب الحرق بنار جهنم يمكث فيها خالدا الي الابد. وقد تبينا فيما بعد ان الصراع قد اثاره في نفسه ما حدث له في الليلة السابقة للحلم وهو انه كان قد التقى بامرأة في جماعة دراسة اخرى، وقد قبلها ولكنه لم يحس ازاءها بما يثير غرائزه. ولذا فقد ارتأينا ان هذا الانتصار الاخلاقي الذي حققه وغلّبه على حاجات الجسد قد استحضر في نفسه ما

يمثل العنصر المتحكم ممثلا بالقس الذي صافحه وان مصافحته تلك انما يمكن ان تكون ضربا من ضروب التهنئة.

ولقد اتضح مما قصه من تواتر حاصل في حلمه انه كان في غاية الاحباط جراء عجزه عن الابانة عما في نفسه علي نحو دقيق ووفق نسق رشيق وعلى نحو فني، وقد شعرنا كلنا بان طاقته الابتدائية كانت تتبعثر هباء منثورا في صراع عقيم محتدم بين الجانب المتحكم لديه وبين الآخر المستخذي: بين النزوع الى التسامي في الطاقات الجنسية وبين التعبير عن الذات كما ينبغي، وانه كان في موقف يحاول فيه التوصل الى التوفيق بين هذين الجانبين المتصارعين المتعارضين، وانه كان في حيرة من امره عما اذا كان بمقدوره ان يتبين ذاته وان يستكشف في ثناياها مواطن جديدة للابداع الفني. فهو يرى مثلا ان الانغمار في الاثارة الجنسية لا تعني بالضرورة المشروعة. وان الخشية كل الخشية انما تكمن في التجاوز على حدود المحرمات مما يمكن ان يفضي الي العربدة والابتذال، فيترتب على هذا التحلل الأجتماعي بحيث تصدق عليه ما دعاه بيرلز (كوارث متوقعة)، ويبدو ان هذا يحدث في حدود ما تقوم به عقولنا عندما لا نقوى شعوريا علي مواجهة الأشياء ومجابهة المواقف. وقد عبر فرويد عن ذلك بقوله ان نزواتنا تعبر عن ذاتها فتكون في الغالب اشد عنفا مما ينبغي ان تكون في حقيقتها، وان عنفها اشد عنفا مما ينبغي ان تكون في حقيقتها، وان عنفها هذا نابع من الحيلولة دون السماح لها بالتعبير عن نفسها، وانها لا تكون على هذه الدرجة من العنف فيما لو ارخي لها العنان بعض الشيء(٦).

فضلا عما تقدم، فان اولئك الذين ينغمسون في حمأة سلوك من الفواحش، سواء ما ظهر منها وما بطن، ليسوا بالضرورة متخلصين من صراع يستعر في دواخلهم فيقاسون منه بشكل او باخر. بل انهم جميعهم دونما استثناء يضجون بالشكوى من متحكم امر داخلي يعتصرهم بالكبت فيتحرك في دواخلهم باستمرار مهددا متوعدا اياهم، وان ما يتحتم على

ذلك من صراع يمتص طاقاتهم المبدعة مثلما يمتص طاقات اولئك الافراد الذين يعانون من الكف الجنسي(٧). وخير مثال على ذلك هو جاك نفسه. فحياته الجنسية، حسب ظواهرها، تبدو طليقة تماما، وان ما في داخلها من صراع محتدم بين جانبيه المتحكم والمتنفذ، في هذا المجال قد اطل برأسه عندما كشف عنه بجلاء حلمه المذكور، فاتضح انه كان في الواقع لا يزال تحت وطأة معوقات داخلية، وهنا تجدر الاشارة الى ان السبيل الى الصحة لا يتأتى عن طريق الانكار المتزمت للغريزة او من خلال رد الفعل بالاتجاه المعاكس، بل انه يتسنى من خلال وعي تام او في حالة تقبل عقلاني لحاجة تتطلب تعبيرا مقبولا في مواقف مشروعة وامتناعا واجبا في مواقف اخرى.

وحتى اولئك من بيننا من يظنون، كما يظن جاك، اننا (اسوياء)، يمكن ان يصابوا بصدمة عنيفة فيدركون انهم يكبتون ما لديهم من طاقة جسدية خشية من خوف او تفاديا لعار قد يلحق بهم. وقد تجلى لي هذا بوضوح تام من خلال عمل فريق كان يقوم باجراء تمارين في مجال مباحث الطاقة الحيوية لاختبار التدريب على طبيعة الحساسية- وهي تمارين كانت مصممة خصيصا لاطلاق الطاقات الحبيسة في اطار اجسادنا جراء ما كانت قد تعرضت له من كبت انفعالي كان مفروضاً علينا ابان الطفولة. ما ان شرعت بتمرين قمت به بنفسي، وكان يتألف من الوقوف بوضع معين مع إثناء الركبتين والتنفس بعمق وبانتظام، حتى شعرت بحقيقة هي ان جسمي كله بدأ وكأنه ينضح بطاقة وجدتها مفعمة بلذة متميزة واضحة. وخلال استمرار جسمي على تلك الوضعية صرت اشعر بعد فترة من الوقت انني اتعرض الي رعب لا تفسير له وغير مبرر يسري في اوصالي انتهى بايقاف ما كنت احس به من قبل من اهتزازات. فما كان مني الا ان ندت مني صيحة (ياللعار!)، وكانت صيحة استلفتت انتباه جماعة الفريق مما حمله ان يعلق (انها هفوة فرويدية) واضاف حقا انه بسبب احساسي بالخجل تعذر علي ان استمتع تمام الاستمتاع بملذات جسدي في الأيام والاعوام الخوالي. وعلى

التـو اتبع التـمـرين هذا بتـمـرين في (السـيكودراما) التمثيل النفسي(٨) على المسرح، وهو تمرين قـمت به بتـمـثيل دور طفل يستجيب فيه الى تأنيب من أم لائمـة وقـامت بدور الأم احـدى عضوات الفريق، فتبينت انني ابلغ ذروة الغـضب والهيـجان كلما نطقت (أمي) بالفاظ مثل: (انت ايتها البنت، انت يا بنت اخـجلي من نفـسك) فـهـذه هي ومـضـات واضحة انعكست في ايام طفـولتي وانها فـعـلا لم تمدني بتبصر انفعالي واضح ومباشر عنها سنين طويلة اخـضـعت خـلالها نفسي للتـحليل النفسي، رغم مـا امـضيناه من اوقات في احـاديث مطولة عنها لكننا ندور حواليها فقط ولم ننفذ الى الصميم منها.

هناك شيء آخـر قـد تعلمـته وانا ضمن جماعة بحث الطاقة الحيوية ذلك هو ان احـتـبـاسي التنفس وحصره برهة وجيـزة او وقتا قصيرا انما هي طريقة شـائعـة لايقـاف اي نوع من انواع الاحـسـاس الجسدي، وان هذا قد ذكرني على نحـو واضح بحلم كان يتكرر كثيرا وقد اعتدت على رؤيته في نومي. اذ كنت اراني في هذا الحلم المتكرر مـستلقية في سرير وعلي الارض بجانبي ممدد رجـل وعلى الجـانب الاخـر يوجـد قـفص فـيـه حـيـوانات صـغيرة، وهي في العـادة تتألف من فئران وجـرذان بيض، وهذه الحـيـوانات كانت تهرب من قـفـصـهـا ذاك وتبدأ تجري فوق جسدي. ولما كان حتى في الحلم يبدو لي ان هذه الحـيـوانات يجب ان تبـقى حـبيسة في قفصها كنت اتجمد وانكمش على نفسي واكـاد احـبس تنفسي تمامـا الى ان يقوم ذلك الرجل بالتقاطها من فوق جـسـمي واعـادتها الى القـفص. واحـيـانا كنت احس وكأن الحـيوانات تلك كـانت تسـتـقـر معا على صدري بحيث لم اتمكن تماما من التنفس، فاستيقظ واحس بالاخـتناق. ومـا كـانت لدي في حـينه ادنى صـعـوبة في الربط بين مـدلول الحـيـوانات في الحلم وبين الدوافع الجنسـية عندي وهي دوافع كانت قـد اسـتـحـوذت عـلي في وقـت من الاوقـات، بيـد انني كنت مـضـطرة الى التـحكم فـيها والسيطرة عليها. غير اني، مع ذلك، قد اخفقت في ان ادرك على التـو بان حلمي ذاك كـان يحاول ان ينبأني بلغة مصورة جلية كيف كنت

في حالة اليقظة اجاهد للتحكم في مشاعري الجسدية والسيطرة عليها- يوم كنت اتحكم في احتباس انفاسي وكيف كنت احس بانني متجمدة. ولهذا فان تمارين الطاقة الحيوية قد شفتني من الحالة هذه ومعها انقطعت تلك الاحلام. كان بمقدوري ان اتعلم هذا الدرس ابكر منذ سنين كثيرة مضت لو كان قد تأتى لي في حينه ان افهم احلامي بشكل تام تماما.

سيدة للحرق

لعل أليس حالة يمكن التمثل بها على الاصوات الداخلية التي تحول دون الاحساس بالبهجة داخل النفس هي تلك الحالة التي قد تم الكشف عنها في ذلك الحلم الاستثنائي الواضح وفيه، كما رأينا، ترابطت سلسلة احداث ثلاثة كان قد ذكرها (بيتر)، وتم وصفها بجلاء تام في ثنايا الفصل التاسع، وما ورد في ذلك الحلم كيف ان شريف المدينة قطع يدي ذلك الهندي. وكان بيتر هذا، الي حد ما، بالنسبة الى فريق البحث لغزا محيرا. فهو متزوج منذ ستة عشر عاما، وقد دأب على التصريح بانه شغوف بزوجته واطفاله مكرس وقته لهم وانه حدب عليهم. ورغم اعتقاده الراسخ بان زواجه كان زواجا تحكمه روابط وقيم سماوية لا انفكاك منها، فانه كان في بواكير ايام زواجهما يصر على ان تكون لكل منهما هو وزوجته حياته الخاصة به يحياها كل منهما كما يشاءان. ويبدو ان هذا كان من طرف واحد، من جانبه هو فقط، فبعد عدد من السنين، وبعد ولادة اطفالهما، اضطرت زوجته الى ان تهجره، معلنة انها لم يعد بمقدورها احتمال خياناته لها. واستطاع بيتر، اخيرا، اقناع زوجته بالعودة الى بيتها واطفالها على وعد منه بان يضع حدا لعلاقاته الغرامية وانه منذ ذلك الوقت قد اغدق عليها المال والعناية والاهتمام والانتباه، مقدماً اليها كل اسباب الرخاء ما خلا الشيء الحقيقي الذي كانت تريده وتتمناه- الا وهو الأمانة والأبتعاد عن الخيانة.

ومنذ ذلك الوقت حجب بيتر حقيقة علاقاته الجنسية عن زوجته، وان

هو لم يخفهـا على اصـدقـائه، امـا زوجـتـه، فـانها بدورها انصرفت تماما الي العناية بشـؤونها العـائلية، وقد امتنعت عن الارتباطات الاجتماعية، وجعلت ترفض ان تولم لاصـدقـائه او اسـتـقبال زملائه في بيتها، ثم انها كرست جل اهتمامـهـا الى اخـضـاع نفسها الى تحليل نفسي طويل الامد باهظ التكاليف. اضف الى هذا، فـانها راحت تقنعـه بان اي وصال جنسي لمن جاوز الاربعين انما يدخل في باب الدعـارة والقـذارة. اما بيتر فانه رفض من ناحيته الاصغاء الى مجادلـة اعـضـاء الفـريق الذين اظهـروا له انهم كـانوا على قناعـة بان مـا يـتـبـجـح بـه من حب لزوجـتـه واخـلاص لها لم يكن الا نوعـا من الكذب والتـمـويه. واصر على مـوقف اتخذه لنفسه وهو ان صديقاته من الفتيات في حـيـاته انما يمـثلن بالنسـبة له فقط رضاء واشباعا لحاجاته الجنسية التي حرم منهـا في بيـته. وموقف اعضاء الفريق ذاك ادهشه، اذ انه ما لبث ان وقع في غـرام فتاة هجر على اثر ذلك بيته، وطلب الطلاق من زوجته.

على ان مـا جد من احداث جديدة في حياة بيتر لم تكن لتحقق له ما كان يحلم به من نجـاح، فـهـو وان ابتـعـد عن زوجـتـه، الا انه لم يزل بعد تحت سـيطرتها. اذ ان زوجـتـه اصرت على ان يعـود في نهاية كل اسبوع الى البيت ليرعى شـؤون الاطفـال، وهذا معناه انه كان يترك صديقته (كلير) وحدها في الشـقـة، وكـانت زوجته لا ترضى منه الا بالمرتب كاملا، الامر الذي جعله يعـيش عـالة على صـديقـتـه الفـتاة، كل هذا جرى وما كان الطلاق وشيكا بعـد، ومـا كـان من غير الطبـيـعي ان تنهش الغيرة قلب صـديقـته (كلير)، وهي عـضـو في فريق البحث، اذ ابتأست من تصرفه حيالها، فعالنته بانها ما كـانت تحـسب يومـا انها بعـد ان هـجـرت حياتها الرخية مع زوجها، جاءت لتـجـد نفـسـهـا عنده (عند بيتر) محظيـة وفي الدرجـة الثـانية من الاهتمام في حـيـاته. وقـد الحت عليـه على ان يقطع لزوجـتـه واطفـاله قـدرا معقولاً من دخله وان يصر على الطلاق ويعـجل فيه. وهنا عند هذا الموقف كان بيتر قد حلم بالآتي: (كنت وزوجـتي وكأننا كنا نسـتعد للذهاب لحضور عقد قد ان

يقـوم باجـراء مـراسـيمه كانون سمث، وكان يداخلني انطباع بان عقد قران ذاك كـان يخـص ولـده. وبشكل من الاشكال لم يكن بمـقـدورنا- لا أنا ولا زوجـتي- ان نهيء نفـسينا، وما كان بوسعنا كذلك ان نتوصل الى قرار بشأن اختيار الملابس المناسبة في الوقت الذي بلغنا فيه المكان، وجدنا حفل القران كـان قـد بدأ، وهناك التقينا بفتاة من الطبقة المرموقة، كانت جالسة بين ابنة زمـيل لي وبين سـيـدة صحفية ناجحة وقد اخبرتنا انها هي الاخرى كانت قد فاتها ان تحضر عقد القران في وقته الملائم).

يتابع بيتر رؤياه فيقول:

(ثم يتـغير، المنظر، اذ اجـدني وزوجـتي في غـرفـة نوم وكنا كـلانا جالسا كل واحـد منا في فـراش مـزدوج والسريران مـتـقابلا الطرفين وكل منا يواجه الاخـر. تدخل الفـتـاة من الطبـقة الاجتماعية المرموقة علينا الغرفة وتشرع في تقـبـيلي، عند ذاك شعرت برغبة جنسية لكنني تمالكت نفسي اذ فكّرت ماذا عـسى ان تقـول زوجـتي، وما ان تنحت الفتاة جانبا حتى رأيت زوجتي وقد تقـبض وجـهـهـا جـراء فظاعة ما رأت وما داخلها من خوف وخشية وقلق، وكـانت تعض اسنانها على رسـخـهـا لتكتم صرخة تكاد تفلت منها من شدة الغـيظ والغيرة. وقـد تولاني الفـزع لادراكي بان تعـبيرا كـهذا من جراء الغيرة الحـادة هو امـر (مخالف للقـانون) وانه بالتالي يوجب عقابا صارما طلب منها ان تـتـوقف عن ذلك، ولكن كـان ذلك، بعد فوات الاوان).

ويـتـواصل حلم بينز، اذ يضـيف: (وجـدتني بعـد ذلك محـمـولا بصـورة خـاطفـة الى مكان اخر وفي زمان مغاير، حيث شاهدت زوجتي يحكم عليها لجـريمـتها تلك من قبل ملك وملكة وثنيين يجلسان على عرشيهما، وهنا عند هذا الحـد فـقط وجـدت انها لم تعـد معترفا بها بانها زوجتي، وهنا تبين ايضاً ان جـريمـتـهـا لم تكن ناجمة عن الغيرة. بل انها هندية من الهنود الحمر وانها من سـقط المتـاع وكل جـرمـهـا انها اصبـحت مـسيحية. وانها حكم عليها بـالحـرق مـع طـفلهـا، وكنت اراني كـبير ياوران ذلك الوثني، وكنت مـعنيـا

بارضـه، وكنت ارتدي مئزرا ابيض أتلفع به، وكنت وبقـيـة كـبـار الحـاشـية الملكيـة نلتـمس ذلك الملك لانقـاذها من الموت، وان كنت اعرف بان عملي ذاك كـان بـالـغ الخـطـورة لظني بانهم قـد يشكون في اني مـسـيـحي ايضـا. فـانـبـطـحـت امـام الملكة ارضـا على نحـو لا يخلو من وضع جنسي مـبـهم غـامض، غير ان الزوج والزوجـة الملكين كـانا يشرحـان الموقف فيذكران بان لا استـثناءات لما كـان يجب ان يطبق لان ذلك كـان يدخل في حكم قانون ثابت لا يمكن تغييره؟)

فـهـذا الحلم، منظورا اليـه كصورة وما يرتبط به من احداث يتضح لنا ان بيتر قـد تذكـر بانه كـان قد تزوج منذ ستة عشر عاما مضت وتم تزويجه على يد كـانون سـمث وانه اسـتـذكـر كـذلك بانه كـان يومـذاك يعـمل للكنيسة بـاخـلاص حتى ان بعض الناس كـانوا احـيـانا يطلقـون عليـه إبن كـانون (المفـضل). لهذا فـقـد اصـبح جليـاً بان مـا رآه من عقد قران في الحلم كان يشير الى عـقـد قـرانه هو، وانه كـان قـرانا يقاومه في حقيقة الامر فاستقرت احـداثه في ذهنه، وكـان عـقـد قـران لم يتم قط بالفـعل ولم ينفذه في حينه. وهذا هو مـا يوضح، ولو جـزئيـا، الاتجـاه الغـريب لبيتر ازاء زواجه وموقفه من حـيـاته الزوجية. فقد استطاع ان يظهر تمجيده لفضائل الزواج في الوقت الذي بقي فـيـه باستـمرار غير امين على علاقاته بزوجته ذلك لانه لم يكن في قـرارة نفـسـه مـقـتنعـا بزواجـه من زوجـتـه تلك. فعلى هذا المستوى الخفي المكتـوم من تفكيره، اعـتـبر نفـسـه قد عقد مع زوجته صفقة وهي ان يوفر لها الراحـة ولاطفـاله الرعـاية، مـقـابل عـدم اعتراضـهـا على اهتماماته الجنسية الخـارجـيـة. ولهذا فـان الحلم قـد اظهـر شـعـوره نحـو زوجته اذ حسبها قد جلبت الى نفـسـهـا (العـقـاب) وهو عـقاب الحرق، اي انها احرقت حياتها فـاخـفـتها من حياته من غير ما انذار من جانبها اليه فحصل ما حصل دونما اختيار منه.

امـا الـقـسم الثـالث من الحلم فـقـد بدا بالغ الغـرابة وباعـثـا على حيرة

شـديدة. ان بيتر كـان يعـرف بوجهة نظر فرويد القائلة بان الملوك والملكات يرمـزون في الاحـلام الى الاباء والامـهـات عـادة، لكن الحاشية الملكية التي رأى اعـضـاءها في الحلم لم يكن ثمة بينها من الشبه ما يشير الى احد ابويه، وهما كـلاهما ميت وقت رؤيته حلمه ذاك، كما انه لم يكن هناك في الحلم اي شبـه بـين زوجـتـه المرفـهـة وبين تلك الهندية الحـمـراء التي بدت في الحلم مـشـعـثـة. وقـد وجد فريق البحث ان ثمة ما هو لافت للنظر ذلك ان هذا الحلم قـد تراءت فـيـه امـرأة هندية حمراء كـانت على وشك ان تحـرق، بينما تضـمن حلم بيتر السـابق شيئاً مخالفا اذ ان هنديا كان قد قطع يديه شخص من احـد اصـحـاب رؤوس الاموال في ذلك الحلم السابق. ولقد بدا واضحا في هذا الحلم كما في الحلم الذي قـبله، ان جميع الاشـخـاص في الحلمين انما يـمـثـلـون جزءا مـن بـيـتـر نـفـسـه. ولهذا فـقـد وجـهنا سـؤالا الى (الملك الوثني)(٩)وطلبنا منه جـوابا لماذا هذا القـانون التـعـسفي ضد المؤمنين بالله، فانبري بيتر للجواب اذ قال:

(لا نـسـتـطيع ان ندع هذا الدين يدنس ارضنا، انه دين ينطوي على هذه الفكرة السـخـيـفـة وهي ان نأخـذ انفسنا بانفاق وقتنا كله لرعاية الشحاذين والمقـعـدين الذين لا يستحقون البقاء في الحياة، بدلا من ان ننصرف، نحن الاصـحاء الاقوياء، الى ان ننعم بما تزخر به الطبيعة البدنية من مباهج وجمال وطاقـات، فنحن بالنسـبـة لنا، حينما نكبر ونصبح عاجزين فاننا نقتل انفسنا دون ان نحس بالالم، وان هولاء المتـدينين يصـيـبـون مجتـمعنا بالعدوى مثلما المرض وانهم يفـسـدون علينا بهجتنا. بل انهم يقولون لنا ان الجنس حرام ما لم يكن مـقترنا بروابط الزواج).

هذا الكلام المذكـور فيما مر يوضح بان الملك الوثني هو على النقيض تماما من مـوقف والد بيتر المتـوفى، الذي كـان له مـوقف مـتـشـدد ومتزمت حول الجنس ومـا يتـصل به. اضف الي هذا فـان والد بيتر هذا كـان لا يكف عن الوعظ والتـحـدث عن الاشتراكـيـة في المسـيـحـيـة وعن واجب الالتـزامـات

العـاطفـيـة نحو الفقراء والمحتاجين معلنا بانه ما من احد يحق له ولو للحظة واحـدة ان ينعم بالمتـعة والبهجة وهناك ولو شخص واحد يعاني في هذا العالم من الفـاقـة والعوز، هكذا ينبغي ان يكون الامر فكيف اذا عرفنا بان في الهند وحـدها مـلايين الاشـخاص يموتون جوعا. ولهذا فان الحلم في مجمله يوضح ان جـزء مـن تكوين بيتر قـد كـشف عن رد فـعل عنيف ضـد مـواقف ابيه المتـشددة وانه لرد فعل يبين ضربا من ضروب التعويض الداخلي عن الاب، فـمـوقف بيتر في الحلم هو مـوقف معارض تماما؛ فالفضائل التي كان يدعو اليـهـا والده- فظهـرت حـقيقة بواطن بيتر في حلمه- البقاء للاصلح والموت للضـعيف، وقد تجلى ذلك اكثر في حياته الحقيقية، اذ اصاب بيتر حظا كبيرا من النجـاح في مجال العمل، وما يملكه من بيت كبير في ضاحية مزدهرة من ضـواحي المدينة، ومـا وفره لابنائه من تعليم خاص عالي التكاليف، وانفاق لا محدود من المال اغدقـه على زوجـته، وفوق هذا كله حياة جنسية طليقة. ولكن بالنسـبـة لهذه النقطة الاخيرة بالذات- الحرية الجنسية- اظهرت زوجته ضـعـفـهـا حياله وانه عليها ان تتلقى العقاب بالموت طبقاً للقانون كما تجسم ذلك في الحلم.

وعندمـا طلبنا الى تلك المرأة (المشـعـثـة) ان تتـحدث دفاعا عن نفسها لم يستـغلق علينا الامـر وبخـاصـة عندمـا اعلن بيتر عنها فوصفها بانها خرقاء وانها مـضطربة فـلا تدري ماذا يجري حولها، وقد خطرت لاحدنا خاطرة بان طلب من بيتر ان يسـتـعـيد حادثة الحلم في خياله الان وان يتمثل لحظة كان هو وزوجـتـه في السرير وان يخبرها بانه كـان ينوي هجـرها (وقـد رمـز الحلم الى ذلك بالحـرق) جـزاء لاخـلالهابما كـان قد تم بينهما من ميثاق. وهنا يأتي دور الزوجـة التي اجابت والدموع ملء عينيها:

الزوجـة: كـيف تجـرؤ ان تفـعل هذا بمـخلوقـة لا حـول لها بائسـة وقـد منحـتك اعز ايام حياتها. فأنت ما اكتفيت باذلالي في تصرفك مع صديقاتك من الفـتـيـات الاخـريات، بل ها انت قد اقدمت على هجر اسرتك. اعمل

اقل ما نتوخاه منك ان تعمله تعمله لنا- انك تسمي نفسك وتطلق عليها انك ملتزم بشرائع السماء: اليس كذلك؟ اذا كنت تؤمن بها تدعي فانهض بواجبك اذن نحو زوجتك المسكينة؛ البائسة الضعيفة. ان البر والاحسان يبدآن رحلتهما من البيت اولا، اليس كذلك!

بيتر: ولكنك افضل مني حالة. فانا من جهتي تركت لك البيت وحدك، وما فيه من محتويات واثاث، وكذلك السيارة فضلا عن مرتبي كله، فماذا تبتغين اكثر من هذا؟

الزوجة: لكن هذا كان لدينا من قبل. (وهنا تغير صوتها وقد خالطته الحدة وشابته نبرة التهديد والوعيد) فتابعت حديثها وكلامها تقول: لا، لا، يجب عليك ان تفعل غير ما انت فاعل ويتوجب عليك ان تعدل من وضعك. اذا كنت تريد الابتعاد عنا فأنه ينبغي ان توفر لنا مزيدا من الضمانات الاضافية والرفاهية التي تعوض لنا ما نحن فيه من وحشة العزلة والفراق، هييء لنا مثلا بيتا في الريف، ووفر لنا سيارة اكبر يقودها سائق خاص، عدة مناسبات من العطل نقضيها في الخارج كل عام، ونريد يختا اذ ان ذلك شيء لطيف. فانت كما تعرف تريد كل هذه الاشياء لنفسك فوفر مثلها لنا. واذا انت قررت البقاء معنا فهي لك. اننا لا نريد ولا نحب ان نحرم مما ذكرت ولا ننوي ان نعاني من الحرمان منها لمجرد ان شقراء قد سلبتك اللب واستحوذت على عقلك. انك لا تستحق ولا يحق لك ان تستمتع بلحظة واحدة من السعادة حتى تتأكد من انك قد حققت لنا ما يعوض علينا الحرمان. ومنذ الان اذهب واعمل، بل اعملا انتما الاثنان، حتى ابلغكما متى قضيت حاجاتي وارتضيت.

بيتر: الا ترين ان هذا ليس بمعقول.

الزوجة: اغير معقول تقول! انني لست غير معقولة. انا اعرف ماذا اعني. التفت هنا. اذا كنت بضربة لازب قد كسبت مليوني جنيه، فاني لن ارضى بأقل من ٩٩٪ منها، لا تجادل. وعليك ان تعرف جيدا انني من

الان فصاعدا فلن اقبل بشيء ادني من القمر، ولكن شهامتي تأبى ان اكلفك ذلك.

من ذلك تبين بوضوح ان زوجته لم تكن في وضعها بالنسبة الي حياته بالامر الهين، ولم تكن بالمسكينة المغلوبة على أمرها بل كانت في الحقيقة مسيطرة، تلتزم بالقواعد الاخلاقية، مهيمنة علي نحو يبعث علي التأنيب، لوامة، وهي خصائص كانت قد ترسخت في اعماق نفسه من جراء تنشئته الابوية ومن بعد تعززت بصورة غير عادية بفعل الطلبات الباهظة واللاواقعية من جانب زوجته بالذات. وهذا هو ما وضح وكشف كثيرا من الجوانب الملغزة من حياة بيتر والتي كانت من قبل غير معروفة. فهو كان قد تزوج من زوجته هذه مخالفا بذلك نصيحة كانون سمث وأصدقاء اخرين اسدوها اليه بالا يفعل، وقد بنوا نصائحهم اليه على اساس انهما- بيتر وزوجته- غير متكافئين، كان دافعه الحقيقي الداخلي وراء زواجه الذي اراده كما كان يهوى فلم يكن، هو ان تكون له (اسرة قيمة) مناسبة يحول اليها جزء من التزاماته ولا تكون انانية فلا تطالبه بمزيد، وبذلك يتسنى له ان يوفر لنفسه قسطا لا بأس به من ثمرات عمله فيكون لذاته حياة من البذخ والفخفخة. فمن ناحية البذخ والاسراف الخاص كانت زوجته ندا مناسبا له تماما، فهي من ناحيتها كانت لا تكف عن الالحاح عليه بطلب المزيد من العناية بها والانتباه اليها، فكانت بالنسبة اليه وسواسا خناسا وهاجسًا لا ينقطع، وكانت دائمة الشكوى بأنها مسكينة الحال رغم ما كانت تتقاضاه من مرتب اجراه بيتر عليها، كل هذا جعل بيتر بل اتاح له ان يشعر بان كان ينهض بقسط اوفر من التضحية الذاتية دونما حاجة حقيقية تدعوه الى حد اطعام الهنود الجائعين. فهي كانت بديلا خاصا عن الهنود، بل انها لبديل مناسب، ذلك لانها عن طريق الحافها في الطلب لرفع مستوى حياتها المعيشية، فان بيتر هو الاخر كان قادرا على رفع مستواه ايضا من غير ما شعور بالذنب.

كـذلك فـان هذا الحلم قـد كـشف عن الجـذور الحـقـيـقـية الكامنة وراء الاهمال الـغـريـب الـذي بدا من بيتر نحـو كلير، واعـراضـه عن حـاجـاتها الانسـانيـة، رغم حـقـيقة انه في احد مستويات اعماقه كان شديد الحب لها. فـعلى مـسـتـوى اللاشـعـور والعـقل اللاواعي كـانت في موقع الارض الوثنية الحـرام من حـيث المتـعـة الجنسـيـة اللا ملتزمة، وانها بوصفها ملكه وثنية لها سطوتها اذن كـان يجب ان تأمـر وتسـوس ولا تسـاس، وظيفتها ان تشير ولا تنفـذ. وجـد بيتر نفـسـه في حيص بيص: فهو حينما جاء ليعيش معها وتجرأ على ان يعب من مـتع ارادها في وقت كـانت فـيه هناك (مسكينة مغلوبة على أمـرها) تعاني من (حرمان لا يطاق)، كان على بيتر ان يتخذ موقفا ما، فهو امـا ان يتـخلى عن ملذاته (فلا يعود هنالك وثنيون يعملون ليل نهار بلا كلل يضـايقـون اناسـا يلتـزمـون بقـيم السماء- كما كان الرمز في الحلم)، واما ان يحرق من حـيـاته (اسرته الملتزمة بالقيم) حلا والى الابد. هذا هو كان التوجه في الحـلـم. وقـد بـدا بـيـتر في الحلم ذلك الذي يمـثل دور كـبير الوزراء او الوزير الاول، مـتلفـعا بجلباب ابيض (وهو رمز الى انه في قرارة نفسه بريء وصـافي النيـة في مـا يتخذه وما اتخذه من قرارات)، وما كان منه حينما انبطح ارضـا امـام المـلـكة الوثنيـة (وهي تمثل في الحلم كلير)، وكـان يتضرع اليـهـا لتبـقي على حـيـاة المتـدينين، وكـان الجـواب ان (لا)، وهو يمثل قرار كلير ويعبر عن اصرارها، وان هذا يعكس في تضـاعـيـفه اعفاء بيتر من اية جريرة في القتل.

كـانت الجلسـة مـثيرة للغـاية، وقـد اظهرت اوجه الخلاف الكبيرة بين كل من بيتر وكلير، وكـان كل منهما يرى الامـر من وجهة نظر مخالفة لوجهة نظر الاخـر. ففي احد المواقف وخلال المناظرة، التفتت كلير الى بيتر وقالت له: (ولكنني، يا حـبـيـبي، انا لا اطلب منك ان تحـرق عـائلتك، وان مـا اطلبه منك هو ان تكون عـقـلانيا وان تكون منصـفـا بشأن المصروفـات والنفقات وان تسـعى الي الحـصول على الافتراق بالطلاق). وان العقل الواعي لبيتر قد

ادرك هذا بطبيعة الحال، وكان متحمسا له، بيد ان العقل اللاشعوري لديه لبث معطلا في وجه (القرار المفجع) المدمر القاضي بالتخلي عن كل ما ملكت يمينه، بل واعطائه الي (الهنود). ولقد شجعنا بيتر على ان يواصل الحوار ويتابعه مع زوجته الثانية في قرارة نفسه وان يصارحها جهارا بأنه ليس في نيته التزحزح عن موقفه وانه لن يوافقها على مطالبها اللا واقعية. فهي في باديء ذي بدء اصرت على نيل حقوقها كاملة، ولكنها تراجعت عندما انتصب بيتر واقفا وصرخ في وجهها قائلا (ما لم تكفي عن تخريفاتك هذه فسوف تنالين حقوقك- واقصد بها ادنى حد منها فقط، الاقل الاقل منها وليس اكثر، اني لست على استعداد بعد هذا للاصغاء الى خزعبلاتك، ولا احب ان اسمع تخرصاتك وحماقاتك)، وعند هذا الحد، بدأ الجانب المسيطر يخفف من غلوائه ويحد من سطوته مما اتاح لبيتر ان يستشعر بالرضا وان ينعم بالراحة وان يتحسس بقدر معقول من اصول معاملة الاخرين ويكيفية انصافهم في الوقت الملائم. فاذا استطاع بيتر ان يستمر علي الاحتفاظ بمثل هذا التوازن في ثنايا نفسه، فبمقدور كل واحد، وبخاصة هو نفسه، ان يفيد من هذه الخبرة، ولكن بيتر كان منشطر الذات بين بواعث التدين القيمي السامي التي تتطلب التضحية الكاملة بالذات، وبين نوازع (الوثنية) التي تتوق الى النهم والاباحية الجنسية، وهذا الانقسام الكامن في طوايا نفسه كان يقض مضجعه فافسد عليه حياته وحياة كل من حوله.

ان ما يسميه بيرلز بعملية (التمركز) ليست بالامر الهين. فحينما يبدأ الفرد يعمل فترة طويلة من طرفين متعاكسين من طرفي القطب الواحد، فان الأمر يستغرق منه وقتاً طويلا قبل ان يدرك ان ثمة احتمالات وامكانات اخر تقع بين النقيضين. ان مثل هذا الادراك انما تواتينا اشراقاته ببطء وذلك بعد ان نعمد بقوة ارادتنا الى تغيير سلوكنا ازاء العالم خارج ذواتنا متحدين اي استبصار ملتو او اي توقع سيء فلا نأبه لما قد يصيبنا، فبالنسبة

الى حالة بيتر (Peter) فهذا كان يعني انه ما كان ينظر الى زوجته نظرة فيها ازدراء بوصفها مشعثة مهملة خشنة الطباع، بل انه رآها بعين اخرى، اذ وجدها امرأة كانت مطلقة وانها جديرة بالعون فاحتواهاوتقبلها من هذا الجانب بالذات. كما انه نظر اليها نظرة شخص خليق بان ينتشل من وهدة ما تعرض له في ظروف طرزت عليه ولا يد له في صنعها، فهي نظرة انسان حري بان يحيا باطمئنان، فهو قد خلصها من وحشة عزلتها ومن مصاعب شقائها ، انه قد حقق عملا مزدوجا. اما زوجته كلير (Clare) ، فكانت بطبيعة الحال قد راودتها اول الامر شكوك فظنت به الظنون، غير انها غيرت رأيها بعد ما تيقنت من صدق نواياه فاطرته وحمدت له صنعه وقد بانت لها جديته في الامر.

ترتبت على قصة بيتر هذه نتائج مشجعة وحافلة بالامل، اذ ذكر بعد مرور ثلاثة شهور، حلما اخر يحمل في طياته ان ثمة تحولا داخليا وتغيرا من نوع ما قد بدأ يحصل اذ رأى في حلمه هذا والده وقد بعث من موته فراح يلومه ويوبخه على حياة العربدة التي يحياها مع امرأة غجرية مضحيا بمسؤولياته تجاه اسرته ومتخليا عن التزاماته العائلية المستقرة. فهذا بحد ذاته جانب نافع دون شك، ذلك ان معنى (الاب) قد استيقظ في اعماق بيتر، وكان هذا لب المشكلة اساسا، فقد بزغ هذا الاب بشكل شخص ماثل امام عيني بيتر في الحلم، وهذا هو رمز الضمير القوي في داخله، وهو ضمير (١٠) كان يشعر بوخزاته كلما اسرف في لذائذ الحياة وانصرف اليها. ولعلها هذه هي اول مرة يواجه فيها بيتر اباه وجها لوجه في الحلم يقول له بصريح العبارة: (انت تعلم يا والدي ان الامر ليس كما يتراءى لك. ان الاسرة امورها على ما يرام، وان حياتي مع (كلير) ليست حياة عربدة او تشرد كما قد يبدو. ثم ان كلير ليست بغجرية مشردة، بل هي الانسانة التي احبها واريد لها ان تشاطرني الحياة، ولا اتوقع منك ان تفسد علي زهو الحياة بعد الآن). استيقظ بيتر بعد هذا الحلم وكأنه قد كسب

مـعـركـة وانتصر فـيـهـا، وان هذا هو مـا كان بالفعل في حقيقة الامر، وفي تعـابير علم نفس الجشـتالت، فان تفسير ذلك هو ان شيئا من طاقة الذات المسـيطرة(١١) كـانت قـد انـتـقلت الى الذات الخانعة الخاضعة، الامر الذي اعـاد بعض التوازن الى النظام النفسي الكلي، فلو ان شيئاً من هذا القبيل قد حـدث في كل مـرة وكلما جـد مـوقف كـهذا الموقف من المشكلات، لتمكن بيتر من أن يجد مجالا للعاطفة والراحة والهناءة في مجرى حياته.

اصطحاب فرويد في رحلة

ان تمثـيل الحلم على وفق خطى علم نفس الجـشـتـالت واسـسه يفضي في الغـالـب الى الكشف عن الطاقـات التي كانت في واقع الامر مكبوتة منذ ايام الطفـولة بينما لا تتيح اتباع اسلوب التفسير وفق معالجات التحليل الاعتيادي الا تبصرا عـقليـا نظرياً في مـضـامين المشكلة المتوخـاة، حـتى وان كان هذا يمكننا من تقصي الاثار الكامنة للحلم، تقـصـيـا مـثمرا نجد بواعثه متخفية هـنـاك في صـدمـة الـولادة الـتـي تـتـسـبـب في تكوين اسس الاضطرابات الحـاصلة. ولعل خير مـثـال اسوقـه هنا بشأن التـفـسير الفرويدي للحلم، واحـسـبـه بلا مـواربة تفـسيرا صـحـيـحـا، وان لم يكن من الوجهة العلاجية مجددا، هو التـفـسير الذي كنت قد وصفته من قبل (انظر الفصل السادس، تحـت عنوان وجـهـة نظر فـرويد بشأن الرمـز في الحلم)، اذ رأيتني الى ذلك الحـلـم انـتـظر وانا في حـالة قلق بالغ وصـول الملكة ودخـولها بسـيـارتها من البـوابة الخلفـيـة لقصر (بكنجـهـام)، وكان التفسير المقبول والذي يحمل علي القناعـة قـد تم تعـقـبه والتماس اسبابه الى خبرات كامنة كانت دفينة من ايام طفـولتي يوم كانت والدتي تحقنني بحقن شرجية اقتضتها حالتي الصحية. لا يخـالجـني ادنى شك في ان التـفـسير ذاك كـان سليما وانه ينسـجم وكـثيرا من المفـاهيم المألوفـة، بيـد اني لم اسـتطع ان اتبين في حياتي الواعية ثمة اية رابطة تصل بينه وبين هذا التأويل اذ انني مـا سـاورني اي احـسـاس باللذة لمجرد

تذكري واستحضاري لفكرة الحقنة الشرجية، واني لم يخطر لي على بال حتى تجربتها ذاتيا او تعاطي السحاق. هذا فضلا عن اني لم أكن لاعاني مما يعرف بالاعراض العصابية الاستية المعروفة، كالترتيب الوسواسي القائم على الحصار القهري(١٢)، والتقتير(١٣) غير المبرر، وان كانت الامانة تقتضي ان اقر بانني كنت في بعض الاحيان شموسا عنودا. ولعل اقرب تفسير تتفق مراميه ووجهة النظر الفرويدية في التأويل، هو انها كانت كل حالاتي تلك تعبيرا عن انفعالات حبيسة كانت تمور في داخلي وكنت اعانيها. وان هذا انما هو تبرير عقلي يرفدني بتبصر عن الكيفية التي انا عليها، واني في واقع الامر لم تكن لدي مطلقا ادنى فكرة عما كان يتعين علي ان افعله بشأن مشكلتي. على اني حينما طبقت التقنية الجشتالتية على هذا الحلم تمخض الموقف عن نتائج باهرة ومدهشة.

اذ شرعت باجراء حوار مع (الملكة)، سألتها خلاله عن اسباب دخولها في موكبها من البوابة الخلفية وعدم دخول موكبها من الباب الرئيسية الامامية كما هو شأن الملكة عادة، اي ملكة، أجابتني بصوت مختلج متهدج:

الملكة: آه يا عزيزتي، نعم اعرف اني الملكة لكني اتمنى احيانا لو لم اكن ملكة، وعليَّ ان اعترف باني استمتع بالسلطة وبالملابس الفاخرة، كما استمتع بان لا اقوم بما تقوم به النساء من عمل في بيوتهن مثل غسيل الملابس وسواه، بيد اني كم اتمنى بان لا اكون موضع الابهة والتكريم في جميع الاوقات ذلك لان هذه الطقوس تبعث علي الارهاق. وانها لمملة ذلك لاني لا ادري ماذا يجري في العالم من حولي. فالمحيطون بي لا يدعون لي مجالاً للاختلاط بالناس- اذ هم يرددون على مسامعي انه امر غير مناسب. ذلك هو السبب الذي يدعوني الى ان انسل بسيارتي من الداخل الخلفي للقصر- فهو مدخل ضيق والسيارة تنساب فيه علي مهل وبهدوء. فالناس هناك يتجمهرون عند ذلك المدخل وقبالته، فيكون بمقدوري ان احادثهم بل وحتى مصافحتهم في بعض الاحيان. وهذا ما يجعل المحيطين بي يجن

جنونهم تماما حين يعرفون ذلك.

وهنا قاطعت نفسي بنفسي لاستفسر منها ماذا تعني بالضبط بكلمة (انهم وهم) فردت الملكة انها تعني بذلك موظفي القصر، الذين كانوا متشددين تشددا مزعجا فيما يتعلق بالمراسيم فطلبت اليها ان تعترف بمواطن الهفوة من جانبها كما يراها موظفو القصر من وجهة نظرهم، فكان الحوار التالي:

موظف القصر: حقا يا جلالة الملكة ان هذا الامر بالغ الرداءة فكم من مرة كنا قد حذرناك وقلنا لك بان الالفة تزيل الكلفة وتوجب الازدراء؟

ان الناس سيسيئون اليك اذا انت اقتربت منهم اكثر وسمحت لنفسك بالظهور دائماً وكأنك بشر مثلهم. وايا كان الأمر، بوسعك ان تعتمدي على ما نقوله لك، اذ ليس ثمة شيء تتعلمين منهم- فهم اغبياء متبلدون، وأنهم تستوطنهم الامراض، وإننا نعرف ذلك لاننا نحن انفسنا كنا قد عشنا بينهم في يوم ما. لكنك انت- تختلفين كل الاختلاف، اذ انت قد ولدت في هذه الدنيا مختلفة، وعليك ان لا تنسي هذا ابدا. اننا نؤدي واجبنا ونقوم بما في وسعنا من اجل حمايتك من هؤلاء الحيوانات وهذا هو اسلوب مكافئتك لنا ولهذا يتعين عليك ان تخجلي من نفسك.

الملكة: يا إلهي، يا إلهي، ويا للعجب، ماذا عليَّ ان افعل؟ ولكن مهلا. اجل، احسب انك على صواب، غير أني احتاج متنفسات احيانا، احس باني بحاجة الى متنفس اشعر باني في عزلتي مقطوعة عن الحياة أظن احيانا باني على وشك الوقوع فريسة الى الجنون في حالة استمراري على إتباع اسلوب الكلام المهذب المنمق وفي حالة الاستمرار على النظافة المفرطة وانتهاج السلوك المبرمج واتباع إسلوب الأفراط في اللياقة، فهلا تريدون لي يوم فراغ واحد احيا فيه واتصرف كما اشاء؟

الموظف: بكل تأكيد كلا يا جلالة الملكة، فانت هنا في خدمة بلدك، ولست في حل لكي تنغمري في حاجاتك الشخصية الصغيرة، فلا يمكنك الجمع بين النقيضين. وعلى هذا فاما ان تلبثي هنا وتسلكي كما ينبغي

وتتصرفي كما يجب واما ان تذهبي الى صفوف الغوغاء الى الابد، واننا من جانبنا لا نحسبك تحبذين ذلك.

الملكة: لا لن افعل، انك على حق تماما فلن افعل، ولكن بهذه المناسبة- لا تتمادوا ولا تثقلوا عليّ كثيرا، سأكون طيبة واعمل بما تقولون وافعل بما تشيرون، (أطرقت الملكة تفكر قليلا) واستطردت تقول في قرارة نفسها سأحاول الانسلال احيانا وانا متخفية. وبهذا يكون افضل لي ذلك لان الناس لن يعرفوا من اكون ومن انا وبهذا يتسنى لي ان اتعرف عليهم على نحو افضل.

نجد هنا عندما نطبق اسلوب التقنية الجشتالتية ، كما وجدنا من قبل في حالة احلام كل من جوزف وبيتر، نجد تبادلا في الادوار يبعث على الدهشة ذلك ان الشخصية التي تبدو لاول وهلة خاضعة متواضعة- وتشير الى خضوعها وتواضعها الرموز الدالة على القطار البطيء وذلك الهندي المتشعث والخدم. . . الخ- نجد هذه الشخصية قد تحولت إلى عنصر مسيطر متسلط. فبالنسبة الى حالتي مثلا يكمن التفسير كما بالنسبة الى حلم بيتر في ان الموقف كان بالغ التعقيد اذ يعبر عن شخصية متناقضة في عملياتها الفكرية. فامي مثلا يمكن ان تكون الملكة في حياتي ايام طفولتي، لكن هذه الملكة لم تكن مجرد رمز بسيط للسلطة فهي نفسها كانت شخصية شديدة الانقسام، اذ كانت شخصية قد جاءت وتحددت من بيت شديد الفاقة وكانت قد قطعت كل علاقاتها الانفعالية وصلاتها الوجدانية بتلك الخلفية التي منها تحدرت وقد صنعت ذلك تحدوها رغبة جامحة من اجل تكوين حياة عائلية لا تخضع لمقاذير واوضار الفاقة والفقر والمتنفع. ولهذا فان ما تبطنته في داخلي من والدتي المتسلطة وعن سلطتها التي كانت تلزمني دائما بان اسير على الاستقامة والزم نفسي بالنظافة، وان اكون هادئة وشديدة الانتظام، كل ذلك لم يكن قط ليتمثل الذات الطبيعية لأمي، وانما هو يعكس القوة المسيطرة المخيفة الطاغية في حياتها فترسبت اشباحها وخيمت

على حيـاتي، مما يعني ان صـورة الأم ارتسـمت في فكري واستمرت فتمثلت على هيئة ملكة كـانت هذه الملكة نفسـهـا تحت هيـمنة متشددة من جانب (موظفي القصر).

وقـد تعـزز ذلك اكثر بحقائق كانت هناك منها على سبيل المثال انها كانت تـصـدره امـي لي مـن اوامـر ونـواهـي ايـام طـفـولـتـي قـد توالت على ذهني فـتـواردت بصـيـغـة مـا كان مطلوبا مني ومتوقعا ان اقوم به حيث كان يتعين عـلّي ان اتـصرف تـصرف مـلـكـة وان يكون سلوكي دائماً، ولقـد تأتى لي ان تلقـيت مـا سلط الضـوء على نحـو مـدهش على مـا ذكـرت بعـد مرور فترة طويلة على دراسـتي للاحـلام وفق منهج الجـشـتـالت، وذلك حينما اخبرتني والدتي عـرضـا بقـصـة فحواها انها ايام طفولتها كانت ترقب العالم من حولها فترى دنيـا الارسـتقراطيين يمرون من امامها بملابسهم الفاخرة وهم يمتطون العـربات دونما احسـاس بالحسـد من احد. فهم كانوا من عالم خاص بهم قـائم بذاته، كما ذكـرت والدتي، وقـالت انها كانت تعرف بانها تختلف عنها تمام الاخـتـلاف عنهم . وقـد آلت على نفسـهـا ان تجـعل اطفـالها مستقبلا يـعـيـشـون ويـنـتـمـون الى عـالم خـاص بهـم وهـو عـالم يـعـود الى دنـيـا الارسـتـقـراطيين، ومـا ان تزوجت حـتى ابتـاعت مـعطفا مبطنا بالفرو لكي يلبسـه اول طفل يأتيـهـا. واني ما ولدت في حقيقة الامر الا بعد مرور ثلاث سنوات من زواجـهـا، لكن المعطف كان بانتظاري هناك- فانا قد ولدت الى مـعطف مصنوع من جلد فرو الفاقم(١٤) وكنت قد شجعتني ان ارتفع بناءا على ذلك الى مـقـام ملكة ارتفاعا يعطيني امتيازا على كل من في البيت. ومع هذا كـان علي في نفس الوقت ان اطيع الاوامـر وان اكـون محكومة من والديّ على نحـو اكـثر وبشكل ادق مما كان يخضع له معظم الاطفال الاخرون عادة وذلك لكي أمـتثل الى ما كانت تطمح اليه امي من مستويات دقيقة متشددة في السلوك القـويم ومتطلباته المتزمتة.

لهـذا فـاني قـد ورثـت الانـقـسـام الداخلي من امي، لكن الفـارق هو ان

حاجاتها الانفعالية كانت قد ارغمت على الاحتباس تحت وطأة السيطرة المتزمتة نظرا الى ان تلك الانفعالات كانت مرتبطة بالذكريات الاليمة في حياة المضض الوضيعة ايام طفولتها والسكن الفقير الذي نشأت في كنفه، في حين اني قد تمردت على الأنا المستحذي تماما مثلما فعلت الملكة المسيطر عليها وتمردت كما مر ذلك وفق الحوار الجشتالتي. فحين كنت في سن الطفولة، كثير ما كان يجدني اهلي اتحدث الى منظفي الشوارع وعمال القمامة والمتشردين، وهلم جرا، امر كانت تهتم به امي كثيرا اذ ما كانت تريدني ان افعل ذلك، وما ان تمكنت من الاعتماد على نفسي حتى غادرت البيت وشققت طريقي في الحياة فطفت حول اوروبا، وكنت احدث نفسي وفي ذهني مقاييس والدتي، وانا امسح سلالم مقصف فرنسي في الساعة السادسة من صباح كل يوم او عندما كنت اجتهد في ان اكسب خمسة فرنكات زيادة وذلك بان امسح من على وجه الارض ما كان يتجشأ به المزارعون السكارى- ذلك اني كنت الملكة بين عامة الناس متخفية بزي لا يعرفني احد، وبعد سنوات قلائل عدت الى بيتي ثم استقر بي المطاف بان تزوجت وعاودت منهجي الملكي المناسب في الحياة، فزوجي الان يتكلم بلسان موظفي القصر حينما وجدني اقوم بشيء يعتبره هو خارج نطاق الذوق وخارج حدود العادة.

ان الصوت المسيطر في داخلي، وهو صوت مقتبس في اساسه من والدتي، كان بطبيعة الحال اشد قسوة من الصوت الحقيقي لأمي او صمت زوجي. ففي وقت الحلم يبدو ان الصوت الملكي الخاضع في داخلي كان يتوق الى التعبير وهو تعبير كان يلتمسه في الحلم، وان حدثا ما خلال حياتي الواعية لا بد له قد اطلق في داخلي سلسلة من الافكار التي عادت بمشكلتي الى الوراء الى ايام المنشأ الاصلي لتلك المشكلة. فمن المحتمل ان تكون امي، وانا في حالة طاعتي الظاهرية لها وللحياة الرتيبة الجامدة لاوامرها المرموز لها ب(قواعد القصر الملكي)ومن ذلك مثلا حقني بالحقنة

الشرجية، كل هذا يمكن ان يكون قد تمثل بصورة خفية واتخذ صورة صياغة الى درجة ان يكون لصيق حياتي كلها فتقمصت امي في داخلي من الناحيتين الجسمية والانفعالية حتى بلغ حدا الى اني كنت استجيب تلك الاستجابة التي تظهر في الحلم التي تعيد اليه تلك الذكريات من التشتت العميق والاضطراب الفكري من ايام حياتي العقلية الفظة لو اني كنت أحلل حلمي ضمن فريق من الجماعة، إذ طلب اليّ قائد الفريق ان اقف امام الجماعة لامثل دور موظفي القصر واقول شيئا كالآتي مثلا:

ان لدي من الحاجات المحددة ما يتعين علي ان احققها وان احدى هذه الحاجات هي ان اطلق العنان لنفسي كما اريد احيانا فانت انت، وانا انا، وانا هنا لست موجودة لكي اجاريك على وفق هواك ولكي احيا حسب توقعاتك وتطلعاتك فانا الان فتاة ناهد، واني عازمة على ان اتولى مسؤوليتي بذاتي واتدبر شؤوني بنفسي، فانا لن أتخفى او اتسلل لواذًا من الباب الخلفي لكي استمتع بحياتي، وانما اتحدى واتصدى للمتاعب فافعل علانية وعلى المكشوف ما اعتقد انه موائم ومناسب من غيرها ما اكتراث بالمصاعب.

بعد ان أخضعت تفاصيل تبادل الادوار في الحلم المذكور آنفا الى التقنية الجشتالتية وقد ربطت تفاصيل حلم اخر كنت قد حلمته بعد مرور عامين من الحلم الاول، اتضح في الحلم الاخر هذا اذ رأيتني فيه وكأني انا ملكة حقا وكان الحلم هذا قد حصل في مكان ما في هولندا حيث كنت هناك في عطلة ترويحية، ورأيتني في حلمي هذا ادخل كتدرائية فخمة استعدادا لتتويجي، وما أن بدأ التبويق، حتى شاهدت الناس من حولي يغدقون علي ابتساماتهم على نحو ينم عن لطف عميق. ولما أن نظرت الي نفسي وجدتني ارتدي بدلة صيفية وفي قدمي حذاء من فرو كبيرالحجم. داخلتني دهشة لموقفي ذلك اذ لم اكن اعرف ماذا اصنع: هل اعجل في الخروج لاستبدال الحذاء ام امكث في مكاني وأدع الاحتفال جاريا علي مسراه والناس يفضلون

في حـقـيـقـة الامر ملكة تخلو من مثالب لكنها إنسانة بل ملكة مكتملة دائماً ومـتـزمـتـة ومن غير اخطاء، ولحظتها حدثت نفسي ما لم اكن انا نفسي دقيقة متكاملة فلا يكون بمقدوري ان اطالبهم بالدقة والاكتمال.

هـذا الحـلـم يكشف على مـا اظن، اني كنت في حـالة تحـسن ابان السنين المـنـصرمـة في فترة مـا بين الحلمين. طفـقـت احـتل مكاني كـملكة ليس عن طريق تفـضيلي على المجموع العام والاخذ باللياقة المقننة على حساب العلاقة الانسـانيـة بل على سـبيل اللاعـصـمة من الاخطاء المتمثلة في اقسام الدفء الحـيـواني (الاحـذية) المبطنة بالفرو، في ثنايا مولكيتي. وانه لمن الملفت للنظر والدهش ان يتم حلمي هذا في هولندا (ومن مـعـانيـهـا الارض المنخـفضة)، واكـثر تحديدا وتخصيصا انها ارض استعيدت من البحر بعد ان انحسر عنها، وهو رمـز جميل اذ يعني اسـتـعادة الوعي الشعوري بعدما كان غائصا مغمورا في اللجة تحت الاعماق السحيقة.

وملخص الحلم في الوقت ذاته يكشف عن جوهر لعـبـة تعذيب الذات. فـان انا، مثلا، فرضت علي نفسي متطلبات (مثلما فرض موظفو القصر علي الملكة) فأني في الوقت نفـسـه افـرض مثل هذه المتطلبات على الاخرين. فاذا اصررت على ان تعـيـش الذات الخـاضـعـة في داخلي لترتقي الى ارفع توقـعات الذات العليـا بين جنبي، فأني اطلب مـثل هذه المطالب من الناس الاخرين المحـيطين بي في هذا العـالم الخارجي الذي اعيش فيه. وعندما يحصل الصراع في داخلي بين الذاتين، فـلا تستطيع الذات الدنيا الارتقاء الى مستوى طموح الذات العليـا يحصل ان اسـحب من العالم او يعتمل الصراع النفسي في طوايا ذاتي وان حـصـفـاء الناس قـد ادركـوا حـقـيـقـة هذا الامر فوازنوا بين مرامي الـذاتـين، ، ذلـك لانهم لا يريدون، وهم على صـواب، التـفـريط بتـبـديد طاقـاتهم النفسية حينما يحتدم الصراع في دواخلهم بين الذاتين.

فـانا مـدينة لاحـلامي التي اعـادت لي نوازع انسـانيتي ومكنتني من تقبل هيأتي واخطائي اني لا احس باني شـخص اكبر ولدي طاقة متدفقة فحسب،

بل انها كـذلك جعلتني احتمل من هم حولي وجعلت الحياة في نظري حافلة بالسماحة فتقبلت غيري كما تقبلني الاخرون. وعلى مستوى حقيقة احاسيسنا الداخلية، لا ينبغي لنا ان ننشد الاستقلال الذاتي المسموح به وفق القيم من والدينا فقط، وانما ينبغي علينا ان نخفف عنهم الاعباء ونريحهم ايضاً. والأمر لا يختلف كثيراً عما عبر عنه(١٧) بليك في اسطورته الذاتية، حين قال:

كل انسان يزهو بقوة الصولجان،
وانه محتّم عليه في تباريح الزمان،
حين تبزغ في ضميره انسانيته وتستبان،
يقذف في قاع البحيرة بذلك الصولجان.

شيء ما كريه في السرداب

الاحلام التي يبدو فيها الناس او الاشياء حبيسة في صناديق، او في سراديب، او في زنزانات، تكون احلاما مناسبة بوجه خاص للعلاج وفق اسس الجشتالت وعلى هدي منها ذلك لان المسجونين فيها يمثلون، بلا خلاف تقريبا، كنزا دفينا ومطمورا يجب العمل على استخراجه واستخدامه لملء ما تركوا في شخصياتنا في فراغات كنا قد نسيناها فتراكمت في مطاوي النسيان. وكان احد هذه الاحلام الجذابة والمثيرة قد حصل لي في حياتي الخاصة فيما مضى من الوقت، وقد اعقبته، شأنه شأن الحلم الذي رأيته ورأيتني فيه ملكة كما مر ذكرذلك من قبل، احلام اخرى مماثله ومتماثلة احلام مكنتني من قبل رؤية ما كان يجري، مع مرور الوقت من تغير في مسرح(١٥) حياتي العقلية والنفسية. اما حلمي ذاك، وانا اقصه وارويه بصيغة الحاضر، فهو كما يلي:

اراني في سرداب بلا أبواب بصحبة امرأة عجوز كان مظهرها يوحي وكأنها ساحرة وهي تناشدني بان امكث معها واني احب ان اذهب لكني لا

ادري اي منفـذ ممكن استطيع النفاذ منه. اما هي فتتابع مناولتي اقداحا من الشـاي، وهـي تـعـرف تمـام المـعـرفـة اني ارغب اشـد الرغبـة في الذهاب والمغـادرة، غير انها تحـاول اقصى جهدها من اجل استبقائي معها. وفي المآل تسـتـجيب لاصراري على الذهاب والخروج من ذلك المكان وفي نهاية المطاف وكـآخر وسيلة قدمت لي تفاحة وطلبت مني ان اقبلها لقاء هذه التفاحة اراني اسـتـشف خطرا، بيد أني لا أظن ثمة اذى كبيراً هناك. ولما ان هممت بقضم التـفـاحـة، رأيتني انقل بسرعـة الى باب ظهـرت فـجأة تفضي الى شعاع من النور الوهاج.

اني وأن كنت قـد رأيت هذا الحلم منذ وقت طويل قـبل ان اتخذ من علم النفس مـهنة، فلم اجـد يومئذ صعـوبة تذكر بشأن تأويله وذلك من خلال التـداعـيـات ومـا لدي عن حياتي من تجارب وخبرات اذ سرعان ما شخصت تلك بانها تمثل أمي التي كنت وقـتـذاك انظر اليـهـا وكأنها سـاحـرة مستأثرة مـعـوقـة حـريصـة بشكل غـريب تحب دائما ان تسـتأثر بي وتستبقيني لصقها مـتـشـبـثـة بي، كنت اراها في قـرارة نفسي وكأنها سـاحرة حيزبون يمكن ان تذهب الى ابعـد مـدى والى حـد ان تسـقـيني السم لكي ابقى قـريبـة وتحت هيمنتها (ففي قصة سنو وايت Snow White، مثلا ترتدي الملكة الخبيثة رداء اسـود لتـتظاهر وكأنها راهبـة فـتـقدم الى ربيبتها(١٩) تفاحة مسمومة).

وقـد فسرت شـعاع النور الوهاج الساطع بانه الفريق او الجماعة المتدينة كنت قـد انتـيـمت اليـهـا لتـوي، واحـسـست ان الحلم كان ينبئني بانني سارتقي مـتـجـاوزة ذلك الالتـصـاق العـصـابي الذي كـان يقيدني ومن تلك التبعات العـصـابيـة المريرة. فهذا بحد ذاته كان تبصرا انار لي السبيل، اذ لم اكن من قـبل وفي ما مضى من الوقت واعية لهذا الدافع القوي الباعث الحافز.

بيـد ان جملة اسئلة لبثت هناك من غير اجـابات تنير جـوانبها، من ذلك مـثـلا، طالما انا تخلصت من ذلك السرداب واحكمت اقـفال بابه خلفي وفي داخلي امي السـاحـرة، فلماذا كنت اذهب الى زيارتها واعـاود الذهاب اليها؟

لماذا هممت بقضم تلك التفاحة مع علمي واحساسي بانها مسمومة؟ ولماذا كانت تبتغي تسميمي؟ ولكي اظفر بما يريحني من اجابات، وبعد تخصصي بعلم النفس، رحت اطبق تقنيات علم نفس الجشتالت، فتوصلت الى النتائج الاتية:

أنا(١٧): لماذا تريدين ان تسمميني؟ فأنا جئت لزيارتك لانني احس بالعطف عليك والشفقة من اجلك وإنّي لأعتبرها فظاظة منك بأني تقومي بمثل تلك اللعبة القذرة تجاهي.

المرأة: لكنك لا تعرفين شيئاً بعد، فانا امرأة عجوز مسكينة وها انذا ما برحت سجينة هذا السرداب القذر الموحش منذ عشرين عاما، وما من احد جاءني لزيارتي او ليراني فيه، فلا شعاع من ضوء ينفذ الي هنا ولا تدفئة تريح اوصالي، والرثية(١٨)قد اشتدت وطأتها علي ومفاصلي تكاد تتيبس. فلا احب ان تغادريني خشية الا تعودي الي مرة اخرى بعد عشرين سنة تترى. وايا كان الام، فلا تسيئي الظن بي، فالتفاحة ليست بمسمومة. انك قد ضخمت الموقف كله وبالغت فيه وخلطت في سوء الظن بيني وبين زوجة الاب الشريرة في قصة (سنو وايت) ان تفاحتي لا تحتوي الا على عقار خال من الاذى وكل ما فيه انه يشيع فيك النعاس لتنامي، حرصا مني على ان ابقيك معي هنا فترة اطول. ولا انوي قتلك ابدا.

وعند هذه النقطة بالذات، تدخل شعاع الضوء والنور الوهاج، مقاطعا ذلك الحوار ليقول:

الشعاع: اياك ان تصدقي كلمة واحدة مما تقول. انها كانت بطبيعة الحال بصدد تسميمك فأنا اعرفها كثيرا ما هي ومنذ أمد بعيد مضى وثقي بما اقوله لك وبه احدثك ان هذه الساحرة الماكرة جد خطيرة. والا فما سبب حسب ظنك، احتجازي اياها في السرداب؟ أني اعرفك جيدا فانت سرعان ما تستجيبين وتنقادين وانك لساذجة، وأنت تحسنين الظن بالناس دائماً وترين في قرارة نفسك خير ما فيهم دونما حساب لدخائل نفوسهم. فما

عساك ان تفعلي من غيري وانا حارسك والرقيب عليك، وما عساك ان تصنعي، لست ادري، ولا يمكنني ان اتصور او اتخيل فلولاي لكنت الآن ممدة مسجاة فوق بلاط هذه الارض، اليس كذلك؟

آن: بلى... بلى.. احسب الامر كما تقول، لا ريب، شكرا لك، انا مدينة لك على اهتمامك بي. وكل ما في الامر انني شعرت بالاسف على احتجازها هنا وحيدة منفردة، وما كان في وكدي اي اذى او اساءة.

الشعاع: نعم، انك لا تفعلين هذا. فانت لا تقومين باي ايذاء، وهذه هي اسس مشكلتك عليك ان تفكري اكثر. فانت لا تدركين خباثة العالم من حولك كما افهمها انا. فما ان تمنحي الواحد من الناس انجا حتى يأخذه الطمع فيطلب بعده ميلا. فهلمي تعالي معي واصحبيني، وسترين انه لن يحصل لك مكروه بعد الآن.

المرأة: أتوسل اليك بان لا تذهب وتتركني مرة ثانية هنا ارجوك خذني معك. واعد وعدا لا احنثه بالا يصدر مني اي ازعاج بعد اليوم. كفاني... فأنا لا يمكنني ان احتمل مزيدا من.....

آن: (وهي توجه الكلام الى الشعاع). نعم دعنا نأخذها معنا، فلنا أن نأخذها معنا، ولنخرجها الي خارج السرداب لترتاح شيئا قليلا.

الشعاع: لا، بكل تأكيد لا... مستحيل. انه لامر غير وارد البتة. انها لا يوثق بها ولا يركن اليها فلا تشعري بالأسى ولا تأسفي على هذه الحيزبون(١٩) الشمطاء. وعلى نفسها جنت براقش(٢٠) انها لا تريد ان تتعظ، ولا تبتغي ان تتعلم الاعتماد على نفسها- فهي دائماً تتوق الي، وتتباكى على استجداء العطف. يتعين عليها ان تتعلم كيفية الاعتماد على النفس قبل اطلاق سراحها.

آن: لكنها لن تتعلم كيفية الاعتماد على النفس اذا انت ابقيتها رهن الاحتجاز هذا. عند هذا الحد من المسرحية، تكونت لدي صورة عن نفسي وكأنني طفلة صغيرة مرتبكة مشوشةاالذهن تتلوى على الارض بين هذين

المخلوقين وهما يتصارعات من اجل الاستحواذ على معطيات روحي والهيمنة على نفسي، وانا بينهما لا ادري ماذا افعل، ولما كان كليهما يؤلفان جزءاً واحداً من كيان ذاتي، فقد بان لي الان انني موزعة بين صوتين: صوت يزتيني من داخلي ويناديني بضرورة الاعتماد علي نفسي، صوت يلح على باستمرار وكأنه يقول: (يجب عليك ان تتعلمي الوقوف على قدميك معتمدة على نفسك وعليك ان تستقلي بذاتك عن الناس الاخرين). وصوت اخر يقرع اذني يأتيني من تلك المرأة المتمسكة بي وكأنها تصرخ باعلى صوتها: (اني احتاج منك الحنان والعناية والدفء). وبعبارة اخرى، فاني قد وجدت نفسي في ما يسميه ر.د. لينج R.D. Laing ب(الانشوطة) او (المشكلة) او (العقدة) Knot. ولعلها مشكلة تجذرت في داخلي من ايام طفولتي حينما كنت من ناحية بحاجة الى رعاية امي، وما كنت من ناحية اخرى اتوق اليه من تحرر وتخلص من سيطرتها علي. ويذكر لينج في كتابه (Knots) المتضمن قصائد من الشعر المنثور، شخصا فيصفه وصفا ينطبق على الموقف الذي انا فيه انطباقا دقيقا، حيث يقول:

كان ذاك في زمان تقضى حين كان جاك طفلا غرا عن امه ما استطاع (جاك) انفكاكا، وان هو احس عنها بعدا كان امض خوفا وارتباكاً وبعد، فحين شب عن الطوق واقتدر راح الي الاستقلال عن امه يتوق ويجيل النظر فما افزعه اذ تشده الى أمه ذكريات لم يعد يطيق احتمالا لصيقا بها اذ لا يطيب له المستقر.

ان هذا ليبين بكل وضوح كيف ان الصور العقلية التي تسهم في مجال عقولنا للوالدين تكون صورا منقسمة، وان ما يحصل من انقسام في عقل الطفل كما في حالتي في اقل تقدير، انما هو انقسام دواعيه قائمة في واقع الحال في عقل احد الابوين، وان تداعياتي المباشرة المرتبطة بالحلم المذكور، تظهر بطبيعة الحال ان المرأة العجوز إنما ترمز الى أمي، وانا من جانبي اقاوم طلباتها المتسلطة، وان محتوى الحلم ونشاطه انما يعكس مقدار محاولتي

للتهرب من طلباتها الملحفة تلك، وقد ادركت بصورة مبكرة ان هناك جانبين متصارعين في شخصيتها، يرمز لاحد الجانبين النور الوهاج وهو ليس بعيدا في رمزيته عن موظفي القصر الذين يصدرون توجيهاتهم العنيفة الي الملكة كما في الحلم السابق لحلمي الاخير هذا ويرمز للجانب الاخر هذه المرأة الحزينة التي تلتمس مني وتبحث عندي عن الحب والحنان وحين كنت ما فتئت طفلة، اتذكر انني قد اصابي ارتباك مأتاه ان امي كانت قد اقترحت علي بصيغة الجزم مبدأ الاعتماد على النفس والانفصال بالذات، وكانت في الوقت نفسه تؤنبني وتوبخني لعدم حبي اياها بما فيه الكفاية حسب تقديرها هي.

وكان قراري بشأن حل هذا الصراع يتمثل في ان اقاوم كلا من متطلبات امي وسعيها الى الحنان وكذلك استبعاد مشاعري الخاصة بالاعتماد عليها من ناحية، ومن ناحية اخرى يتعين علي ان اصطف بجانب النور والوهاج المنبعث من الشعاع. وقد انتهجت اسلوبا في السلوك اخذت فيه على عاتقي صفة الثقة بالنفس والاعتماد على الذات وان أنهي مسألة الاعتماد على الغير. على ان هذا لا يعني التنكر لاواصر مقتضيات صلة الرحم كما الزمت بها القيم الانسانية.

واني بهذا لا انحي باللائمة على والدتي، اذ ان لعبة تبادل الملامة لا تجعل المرء بمنأى عن المشكلة التي هو بصددها. فأنا حين الوم والدتي مثلا، فهي بدورها تلوم امها، وهكذا تمتد الحال فتصبح هناك سلسلة من حلقات اللوم الى مالا نهاية. فالاباء، ومهما يصنعون، فانهم من الهفوات بحق ابنائهم غير منزهين انهم بشر فهم اما أن يكونوا جد صارمين او جد متسامحين، وانهم اما جد متجهمين متزمتين، او لعلهم يكونون جد منشرحين. والحق، ان الامر هو كما قال اوسكار وايلد (Oscar Wild): (يبدأ الاطفال في باديء الامر يحبون اباءهم ثم إنهم بعد فترة يشرعون بتقييمهم، وفي النهاية، فقلما، ان هم ارادوا، يسامحونهم) ولكننا حتى نبلغ

مرحلة التسامح معهم واعفائهم من مسؤولياتهم تجاهنا، فاننا نتصرف ازاءهم تصرف الاطفال: فبالنسبة لحالتي، مثلا، كان يجدر بي ان اقف امام شعاع النور الوهاج (وهو رمز استقلالي عن امي) واقول: (انني الان فتاة ناضجة. كفّي عني توجيهاتك التي هي بالاطفال اليق. اذا انا رغبت في النزول في ذلك السرداب لارى تلك المرأة هناك، فيجب ان افعل، وما لاحد علي من سلطان ليمنعني، وانك لا تستطيع الحؤول دون نفاذ ارادتي). وبعبارة اخرى، ساختار بملء ارادتي متى اكون ضعيفة ومتى اكون قوية، ومتى ازجي الحب، ومتى أعتزل الاخرين فاكون قد تجاوزت الفطام. ويذكر بيرلز (Perls) ان مسامحة الوالدين واعفاءهم من مغبة مسؤولياتهم تجاهنا هي من اصعب مراحل العلاج النفسي. وعقب هذا الحلم بفترة رأيت حلما آخر يرتبط بالاول ارتباطا وثيقا، ففي هذا الحلم الاخير رأيت وكأن سكرتيرة زوجي في العمل، (ديانا)، وهي على جانب من الاناقة والكفاءة غادرت العمل لمواصلة دراستها، فعينّ بمكانها امرأة متصابية غير كفوء، عصبية واسمها (تلي)، (هذه كانت في حقيقة الامر احدى سكرتيراته سابقا). فما كان مني وانا في حلمي ذاك الا ان غضبت اشد الغضب وثرت في وجهه، لانني تذكرت وانا في حالة حلم، كيف كانت هذه المرأة تأتيني الى البيت وتضايقني بكثرة شكواها مما بها من ضيق نفسي يلازمها وكانت تطلب من باستمرار وتحاول جاهدة ان اقدم ما تريد من عون نفسي لما هي غارقة فيه من مشكلات متصلة. كان هذا الحلم قد حصل عندما واجهني زوجي بالخيار بين البقاء في البيت وبين العمل، وهو اختيار كان يتعين على ان اتخذ فيه قرارا بنفسي، ويبدو من مجريات الحلم ان القلق الذي عشته قبل اتخاذ القرار قد ايقظ في داخلي واقع الأتكال المتمثل في الساحرة العجوز القابعة في السرداب (وتركد لها في الحلم تلي، السكرتيرة المرعبلة)، كما اثار ذلك الحلم في داخلي حقيقة الاعتماد على النفس، المتمثل في اشعة النور المتوهج، (وترمز له في هذه الحالة ديانا)

وهي تحزم امرها استعداداً للرحيل. ولعل اختياري ل (ديانا) لتقوم بهذا الدور انما هو تكثيف condesation ، وتجسيم للفتاة نفسها ول (ديانا) احدى الهة الرومان، وهي الهة الصيد عند الرومان وحامية النساء والمدافعة عنهن عندهم- انها الهة تحرر النساء. احسست وقتذاك مقدار الفزع الذي اخذ بلبى وتملك نفسي من جميع اقطارها فقد شعرت بمدى وطأة خسران زوجي ان انا خالفت رغبته في البقاء في البيت، وشعرت كم انا كنت معتمدة عليه من الناحية الانفعالية، وكم انا اخشى وحشة الوحدة، وهي كلها انفعالات جعلتني اتقبل طلب زوجي مني للبقاء في المنزل وكانت مساعدة المحلل الذي استشرته عكس ما هو مطلوب. فهو قد المع الى نفسي (الحقيقية) قد ارتفعت فظهرت على السطح وما علي الآن الا ان افتش عن السعادة وتحقيق ذاتي في زوايا حياتي العائلية والبيتية.

ان ما اخفق ذلك المحلل في تفسيره وان ما علمني اياه العلاج حسب المنهج الجشتالتي فيما بعد، هو ان المرأة العجوز والتي تعد عالة، لم تكن لتمثلني او تعكس ذاتي الحقيقية، وانما كانت تمثل جزءاً مني فقط هو ذلك الجزء الذي ما كان يمكن ان يكون رافضا وعنيدا لو انه اتيح له التعبير عن نفسه يكبت او يكبح فترة طويلة. فلو اني تمكنت من تقبل ذاتي ومشاعري الطفلية الاتكالية، لو اني تعلمت كيف ادمجها في ثنايا تكويني النفسي الكلي، لاستطاعت تلك المشاعر ان تكشف عن نفسها في صورة سلوك يعبر عن الدفء والحنان واحاسيس المحبة للاخرين، ولما كانت على النحو الذي تجلت فيه وهي تمثل مشاعر مسممة تتسم بندب الذات، ومفعمة ومشحونة بانفعالات تسلطية وساسية طردت من داخلي كل احساس بالامان وبهذا يكون محللي في محاولته حملي على ان اعترف بوجود الجانب الممثل ب (الساحرة العجوز) من ذاتي وان اتقبله، قد اخفق تماما، وكانت نتيجة محاولته ذات تأثير عكسي، حيث اخفق في ما كان يتوخى فلو كانت تلك الساحرة هي انا الحقيقية، هكذا ظننت لكان من الاجدى اعادتها حالا

الى قبوها واحكام قفل باب السرداب برتاج اضافي. وبناء هيكل تلك الافكار قائم في بنية تكويني النفسي وهو قابع هناك وقد احكم عليه الرتاج حتى تسنى لي التخصص بعلم النفس وركزت اهتمامي على تقنيات علم نفس الجشتالت فادركت ان ما كان يقض مضجعي ان هو الا وحشي من صنع خيالي وان الساحرة انما صنعتها اوهامي، ولو اني دمجتها في كيان ذاتي لما صدر منها ايذاء لي. وهنا عند هذا الحد، رأيت حلما اخر، وضح لي هذه النقطة على نحو رائع.

رأيتني في هذا الحلم املك بيتا كبيرا واجرت غرفتين اثنتين منه. ففي الغرفة الكبيرة الامامية ذات التهوية الكافية والتي تتخللها الاشعة الوافية، المطلة على منظر خلاب والمزودة بتدفئة مركزية، في هذه الغرفة كانت تسكن (تلي) بينما كانت تسكن، في غرفة خلفية صغيرة، لا يزيد حجمها على مهجع، فلا نافذة لها، ولا تدفئة فيها، شريكة لي في العمل المانية ذات كفاية عالية، اسمها (رجينا) رأيت وكأن (تلي) تدفع اجرا قدره ثلاثة باونات، في حين ان (رجينا) تدفع لي لقاء سكن غرفتها الصغيرة ستة باونات، لا يمكنني ان اتصور لماذا لم تتذمر رجينا، مثلما اعتادت ان تفعل في حياتها الحقيقية، بل هي بدلا من التذمر كأنها كانت تذكر بانها يندر ان تكون في مكانها هذه الايام بدعوى التزاماتها في عمل جديد مرموق يدر عليها مبالغ طائلة من المال.

ما ان محصت مغزى هذا الحلم، حتى ادركت تارة اخرى اني قادرة على التعرف بان تلي انها تمثل الساحرة العجوز التي كانت قد ظهرت في الحلم الاول في سلسلة الاحلام المتعاقبة هذه، الساحرة التي تركت قبوها المغلق لتحتل افضل غرفة من البيت في الطابق العلوي منه. واني استبدلت باشعة(٢١) النور الوهاج هذه المرة، رجينا بدلا من ديانا، ورجينا هي فتاة اخرى ذات كفاية عالية، وقد بدت في هذا الحلم، رجينا وهي تظهر احسن جانب فيها بدلا من النكد ولا لاحقتني في تقديم العون لها ومحاولة اقحامي

في مـشـاكلهـا، وعندمـا دعـوت رجينا لاستوضحها كيف تحس إزاء الموقف، اجابت.

رجـينا: حـسن، ليس من الانصـاف بطبـيعة الحال ان تستوفي اجارا مني يسـاوي ضـعف مـا تسـتوفينه من تلي، وان غرفتي تفتقر الى النور والتدفئة. غير أني ليس لدي من الوقت مـا يكفي لاتحـدث عن تفـاهات كـهذه ثم ان لـيس لدي مـتـسع من الوقت لابحث عن غـرفـة اخـري غيرها. سـاصرف النظر عن هذا الامـر حـاليـا واعـايش هذه الترتيـبات في الوقت الحاضر نظرا الى اني اسكن في الغـرفـة هذه سـوى ليلتين من الاسـبوع فقط. اما تلي فانها تسكن في غـرفـتـهـا كل الوقت لانحـراف صحتها مما لا يتيح لها الخروج في الوقت الراهن، لذا يفـضل ان تسكن غرفة مستوفية شروط السكن على نحو افـضل، وسـاعـمل مـا في وسـعي لمساعدتها على تجاوز وعكتها. وانه لما يقع ضـمن اهتمامـاتي ان اعينها باي طريقة ممكنة ذلك لانها في حال من السأم في مـا هي الان، اليس كـذلك، فـهي دائمـة الشكوى جـراء مـا فيها من رثية (رومـاتيـزم)، ومما يكتنفـهـا من اشياء. وارجو ان تستخدمي شيئاً من اجاري لشراء مـا تحـتـاجـه من حـاجـيات وتقديمها اليها. وما هذا الا اجراء مؤقت حـسـب، اذ اني لا اسـتطيع احـتمال ان تعـيش طفـيلية علي الى ما لا نهاية. فـعندمـا تتماثل للشفاء وتتحسن صحتها يصبح بمقدورها الاعتماد على نفسها والعناية بشـؤونها كاي فرد اخر سواها.

يبـدو واضـحـا الآن اني قـد انتـقلت الى مـرحلة اصـبح فيها جانب ذاتي المسـيطرة اقل تحكما وتشـددا مما كـان عليـه، وان كـان لا يزال مـرعبا الا انه اقل ارعـابا وان هذا الجـانب من ذاتي اخـذ ينظر الى الجـانب المسـتخذي من ذاتي انه مـريض ضـعـيف بحاجة الى المساعدة، بدلا من كونه يمثل ساحرة عـجـوز مـتـسلطة خطيرة ينبـغي انقـاذي من قـبضتها. وقد فسرت ما كانت تعطيني اياه من نقود بانه طاقة نفسية Psychic Energy ، بدأت تعـود بالانتـقـال التـدريجي من جـانب شـخـصـيـتي البـاردة المتـعنتـة والممـعنة في

استـقـلاليـتها المعتدة بذاتها، فراحت تتحول الى واقع طبيعتي الدافئة بالقوة والفـعل وهي طبـيعتي المحبة للآخرين، بعدما كانت قد توارت منذ امد بعيد فـقطنت ظلمات ذلك القبـو المغلق. فكأن رجينا كـانت تقـول لي ينبغي ان نستـخـدم هذه الطاقة لاستعادة التوازن النفسي، وليس لابقاء تلي عاجزة وفي حـالة اتكال في مـا تبـقى من حيـاتها، والتي الان استنبطت تلي بشأن هذا الترتيب، فاجابت:

تلي: لا يمكنني ان اعبر لك كم امـا مـغـتـبطة باطلاقي من ذلك القبـو المتـهـريء الرطب، وقـد حاولت ان اخبرك ان البرد فيه قد امرضني، لكنك لم تـصـغـي الي، وكـنـت عـلى وشـك فـقـدان بـصري لمكثي في الظلام فترة طـويـلـة، ويلزمني بعض الوقت لتـتـحـسن حـالتي الصـحـيـة، وارجـو ان تحـتـمليني، وكل مـا اتطلبـه، ولفترة وجـيـزة، ان اجلس قرب المدفأة لانعم بـدفء حـرارتهـا تـسري في اوصـالي، واحـب في هذه الايام ان اطل خـلال النافـذة فـاحـدق واحـدق لامتع نظري، اذ طال علي الامـد ولم أر من قبل فـضـاء ولا لونا يبـهـجني فـاني احب ان اعـوض عما لحق بي من حـرمـان، واريدك ان تأتي وتجلسي بقـربي وان تحـدثيني بما يسليني، وان تفعلي ذلك بين حين واخـر واني لعلى يقين من انني سـاتحـسن بسرعـة، وبهذا لا اكون بعدها عـبئا ثقـيـلا فترة اطول. وسأتمكن ابان مـدة وجـيـزة من الاعتماد على نفسي والعناية بشـؤوني، فـهي لا تبـدو الان خطيرة، واني لاثق بما تقـول، واشـعة النور هي الاخـري تثق بها ايضـاً، او في الاقل يمنحـهـا فـرصة الاعفاء من الشك فـيـهـا وان هي اخـفـقت في ان تلتزم بوعدها . وتحافظ على نواياها او في ان تصـبح عـبئا، فان رجينا لها بالمرصاد لحملها على الحركة واعادة توازنها اليـهـا. وفي المآل فـان الثـقة بالنفس وان مقدارا كافيا من الاستقلال انما هي خـصـائص ممتـازة، واني لا ارغب في خسرانها ولا احب التـفـريط بها، ولكن في الوقت نفـسـه سيكون ثمـة مما يبعث في نفسي راحـة كبرى اذ احس بان حاجتي الى اناس اخرين لم يعد ما كنت اعتقد بأنه امر يدعو الى الخجل.

هذه السلسلة من الاحـلام تكشف مرة اخرى بوضوح كيف يعمل العقل اللاشـعـوري بشكل مـتـعـاكس مع التوقعات الفاجعة والامال المتعارضة وانه ليـتـعين تدريبـه على العـمل وفق مقولة خير الامور اوسطها، فقد كنت طيلة فترة ممتـدة انكر مـسألة اعـتمادي على غيري واتكاليتي واستهجن ايكال قضاء حـاجـاتي الى سـواي، واخـذت ذاتي بـالـثـقـة بـالـنـفـس، وبـالـرواقـيـة، وبالاسـتـقـلالية، واستسخفت أولئك الذين من حولي وخدعتهم واستغفلتهم وجـعلتـهم يعتقدون بما قلت وبما اصررت عليه بأني استطيع ان اعنى باموري وبأني بوجـه عـام قـادرة على ان اهتم لشـؤوني الذاتية. وان الساحرة العجوز قـد احـست بوضـاعـة نفـسـهـا وبحـقـارة سلوكها المدمر المتمثل بالانهيارات العـصـبـيـة الخـفـيفة وبالاتهامات الموجهة الى الاخرين باهمالي والاعضاء من شأني. وهذا مـا حير اصـدقائي وافراد اسرتي ذلك لانهم كانوا يعرفون مقدار ازدرائي اولئك الـذين يعـجـزون عن الاعـتـماد على انفـسـهـم او الذين كـانت تبـدو في سلوكـهـم اي عـلامـات مما يدل على ضـعـفـهـم في مواجهة المواقف الصـعـبـة، فـاللعـبة التي لازمت مسلكي وتصرفي كانت واضحة المعالم وهي لعـبـة عـامة. اذ كنت انتظر من الناس ان يقرأوا اعماق افكاري ويتبينوا غائر احـاسـيسي بما يشـبـه طريقـة التـخاطر وقراءة الافكار. ولقد ادركت ان هذه الـلعـبـة عصي على الناس ان يتـبـينوها وان يدركـوها ولهذا صـمـمـت على ان اتوصل الى الجـواب المعـقـول لمواجهة مثل هذه المواقف هو ان يجعل حاجاتنا مكشـوفـة للاخـرين ومعلومة لديهم، وان نمنحهم الفرصة لان يفعلوا الشيء ذاته، وانه يتـعين علينا جميـعا ان نتحمل المسؤولية كاملة كما يترتب على ذلك من قرارات تتخذ بهذا الشأن.

البروفيسور بيتر بيكنسفيلد Peter Beaconsfield، الجراح والعـالم الامـريكي، كـتـب مـوخرا في مجلة (العلم الجديد) يقول: (ان تكون جاهلا بوجـود مـشكلة قـائمـة، فـامـر مـفـهـوم، اما انك تتجاهلها بعد تشخيصها وتهملهـا، فـامـر مـرفوض). هذا يوضح حقيقة مشاعري بشأن ما لدينا من

صراعـات داخـليـة تكشف عنهـا احـلامنا وان حـالتي في مجملهـا تقـوم على اسـاس التـعـامل مع هذه المشكلات ومـواجهتها وذلك يتم عن طريق ايقاظ الحياة الداخلية فينا وتنبيها لكي تؤدي وظيفتها على نحو اتم وبشكل سليم.
لكن مـا فـينا من عـادات مستحكمة لا يتم كسر طوقها بسهولة، وان جانب الذات العليـا المسيطرة لا تـتـخلى عن هيـمنتـهـا من غير مـعـاناة ومـتـاعب يواجـهـها الفرد. وهذا ما وجدته بالفعل يعتمد في ذاتي، اذ كان هناك صراع قـائم بين الذات العليـا والذات الدنيـا، وكـان التـصـارع بينهما قائماً والعراك محتـدما وساحة معركتهما هي نفسي، وكل هذا كان غائبا عن مجال شعوري، اني اكـتـب هـذا الكلام وانا الان راقـدة في المسـتـشـفى محاطة بعناية ورعـاية ولطف الاطبـاء الجـراحين والممـرضـات بعـد اسـبـوعين من اجـراء عـمليـة جـراحـيـة صـغيرة لورم في الغـدة اللمـفـاوية، وكـان يمكن ان تتم بسـهولة ولفترة في المسـتـشفى اقضيها اقصر مما رقدت، كان كل هذا يمكن ان يتم لو اني لم اسـتـمع مـا حـدثتني به الذات المسيطرة فـزينت لي اهمال الامر حتى تفاقم.
ثـم ان الحـل الاخـير في سـلـسلة هذه، وإن لم يشر الى تمام الاكـتـمال في داخلي، فـانه يقـدم أمـلاً يوحي بان ثمـة تغيرات ايجابيـة سائرة الى الاحسن واني بمـرور الوقت اتعلم كـيـف اتصرف بعـقلانية، وانه لمما يدعو الى الاهتمام هو ان الحلم الاخير قـد اخـتار رجينا- واسمها يعني الملكة- اختارها لتلعب دور الـذات المـسيطرة، وهذا يختلف عما كنت اراه في سلسلة احـلامي التي قـبل الحلم الاخير هذا وذلك لان الملكة في سلسلة احـلامي السابقة، كانت ذاتي الخـاضـعـة، فـهل هذا يعني ان عنصري القـوة والضـعـف في داخلي قد تـوحـدا ليكونا نوعـا من انواع الوحـدة المتكاملة القـائمـة على الاسـتـبـصـار الـذكـي؟ وهل يمكن ان تكون هذه هي الخطوة الاولى في مـا يسـمـيـه يونج الطريق الى (التـفـرد)(٢٣) وهو كما يصـفـه بقوله: (العملية التي يصبح فيها الفـرد بمـقتضاها وحدة نفسية منفردة بخصائص بها يتميز، وحدة ذات معالم

محددة، متفاعلة، غير مجزأة، فهي كل لا يتجزأ) واظن أنه يمكن ان يقول بيرلز بأنني قد استكملت في ذاتي تكوينا جشتالتيا كليا. اني لارجو ان اكون كذلك.

زائرون من الفضاء الخارجي

في اعتقادي ان الاحلام تأتينا من عالم قصي لتزور النفس اثناء النوم- هذا ما قاله شيلي.

عندما بدأت بالنظر الى احلامي وفق مسارات علم نفس الجشتالت، ادركت انني طيلة ايام حياتي كنت قد كبت او ابعدت ما كنت اعده، خطأ، من الجوانب الضعيفة في شخصيتي، سلسلة احلامي التي كنت اراني فيها (ملكة) توصلت الى ان استبين اخطائي البشرية اذ ما من انسان معصوم عن الخطأ، وقد أفضى هذا إلى بلوغ نمط من انماط الحياة المسترخية، وقد تعلمت كذلك من سلسلة احلامي التي رأيت نفسي فيها وكأني (ساحرة) بان ارسي قواعد المحبة والعلاقات الحميمة دونها خوف من ان اكون منبوذة او غارقة الى الاذقان في متاهات او اوهام فكلتا السلسلتين من الاحلام كان رالتركيز فيهما على مشكلة الضعف في داخل شخصيتي وان الحلمين اللذين سانهي بهما هذا الفصل يضيفان بعدا اخر الى القصة التي لم تنته بعد. فهذه الاحلام التي حلمت بها وكأنها قد شطحات من مستوى عميق من مستويات التكوين النفسي وقد جعلتني مستيقنة بان شيئا بالغ الاهمية كان قد حدث. وكلا الحلمين اللذين اقصدهما هنا هما حلمان ذوا طبيعة (يونجية)(٢٤) واعني بذلك انهما يحتويان طبيعة ميثولوجية تحمل خصائص الاساطير لم اكن قد الفتها من قبل في احلامي السابقة لكنها وجدت صداها في ثنايا نفسي بوصفها تمثل ذاتي الانثوية او انها تمثل الدليل الروحي في داخلي، حصل الحلم الاول مباشرة بعد ان شرعت بالدراسة وفق الخطوط الجشتالتية وها انا ذي اقص هنا بصيغة الحاضر:

انني قد طردت اوريل- وهو رجل بدائي يعلق على صدره قلادة لماعة شفافة مصنوعة من الكرستال والبلورات- لكني اكون قد طردته بسرعة فاعود واسترجعه من جديد. انه يجوب العالم السفلي الخفي واني اعرف انه سيكون له سلطان على ذلك العالم طالما هو يعلق هو على صدره تلك القلادة، فهي للتأثير والتجميل، وانا ارى نفسي اقوم بطقوس وامارسها من اجل استعادته الي عالمنا هذا. فما كان مني الا اني بدأت اتلفظ بالفاظ وابتهل بابتهالات واردد تعازيم مثل (ايها الاصدقاء ايها الاحباء الطيبون...) فما كان مني الا ان اخذت اتبين امرأة ذكرني منظرها بـ(ليدي ماكبيث) اراها على مسرح وهي تتقدم نحوي وتعلو وجهها ابتسامة. فتخبرني وهي تقهقه ضاحكة باني من المحتمل الا اكون جادة في استفادة اوريل وعندما اؤكد لها باني جادة ولست هادئة، فانها تلتصق بالجدار التصاقا على نحو ينطوي على شيء كثير من الفزع المطلق.

حينما ننظر الى هذا الحلم بوصفه صورة، فلا ارى عندي اية فكر عمن يكون اوريل هذا او لماذا انا طردته ونفيته، لكنني تعلمت من احلامي ان اي فرد يتم احتجازه او ابعاده انما يمثل دائماً على وجه التقريب ذلك الجزء المستبعد من الشخصية وهو الجزء الذي يجب ان يستفاد ويستحضر، وهذا ما يبدو اني اعمله تماما في الحلم او ما يبدو انه يتمثل لي في الحلم وهي عملية تزعج ليدي مكابيث ازعاجا كبيرا وليدي ماكبيث هذه في حلمي ترمز الى صفات القوة والطموح والعنف والقسوة. فمن الواضح ان فزعها من ان يكون لدى اوريل نوع من انواع الهيمنة عليها جعلها ترتعب واحسست في داخلي بانها كانت تخشى ماضي القلادة من سطوة وان لم تكن لديه علاقة بين خوفها والقلادة. ومع اني اصف اوريل بانه (انسان بدائي) في الحلم، فهو يبدو لي ملاكا اكثر من كونه كما وصفت، ويبدو اني كنت في الحلم انادي على الارواح ذات الطبيعة الخيرة حين كنت انادي (لاصدقاء الاحباء) لكي يساعدوني في العثور عليه، فالحلم كما وصفت انما يمثل قصة

اسطورية تامة فهو لذلك نموذج في التطبيق من اجل العلاج على وفق السياقات الجشتالتية، فانا باديء ذي بدء اسأل اوريل من يكون هو، فيجيب:

اوريل: انا ملاك، واني اجوب العالم السفلي الخفي، كنت اقوم بمهمة حراستك حينما كنت صغيرة وانك كنت تحبيني حينذاك كثيرا. انا قادم من الشمس- اتذكرين انك تحبين الشمس؟ أنك تذكرين يوم كنت لا تزالين جد صغيرة وضعت يديك على وجهك وحجبت عينيك بكل يديك وقلت لي انني ما كنت من الحقيقة في شيء. وقلت كذلك انك لم تعودي تثقين بي وطلبت مني ان ابتعد عنك والتواري عن انظارك. فانا لم اتوار في واقع الامر لكني انقطعت عن ان اكون موجودا من اجلك.

آن: لا تكن سخيفا، فما من احد يثق بالملائكة الحراس في هذه الايام انك تغيظني وتزعجني، ومع هذا فانه لشيء حقيق اني قد احسست وشعرت بوجود شيء ما يكتنفني حينما ذهبت اجوب اوروبا، وقد احسست في اكثر من مرة واكثر من موقف بان هناك يدا خفية كانت تمتد لتنقذني من مواقف عصيبة. فهل كنت تقوم بذلك؟ لا ليس الامر كذلك بطبيعة الحال، اذ ان الامور كلها كانت تبعث على السخرية. فانا متخصصة بالعلوم وبعلم النفس خاصة، وانك من هذه المثابة لا تستطيع القيام باي شيء ولا يسمح لك بذلك.

اوريل: نعم انا الذي كنت هناك، اذ كنت معك الوقت كله، انظري هنا وانتبهي لما اقول، الا يكون في صالحك ومما يساعدك ان تسميني ذاتك النفسية الانثوية او ان تدعيني باي اسم اخر ينم عن احترام، فليس ثمة في الامر فرق كما تعرفين.

آن: حسنا، نعم احسب ان الامر كذلك، وايا كان الامر، انك يا اوريل لفكرة محببة جميلة، لكني ما زلت محتارة بشأن قلادتك، اهي سحر تحمله؟

اوريل: انها تعـود اليك يوم كنت طفلة، ومنذ اليـوم الذي طردتيني فـيـه اخـذتها مـعي. وقـد ادركت يوم ذاك انك ستعيديني اليك، وان القلادة هذه هي الرباط الذي يوصل بيننا.

آن: انـا لست مـتأكـدة تمامـا مما تعنيـه بهذا القـول، ولهذا يتـعين عليّ ان اطلب من القـلادة توضيح نفسها والافصاح عن هويتها وذاتها.

القـلادة: اني قـلادة من الكرسـتال، واني براقة شفافة، وباستطاعتك ان تنظري من خـلالي، فـانا اتلقى الضـيـاء ثم اعكسـه بالوان كـثيرة. اني لماعة وجميلة، فأنا لست قـوية كـالماس ولست رقـيـقـة كـاليـاقوت، ولكنني صافية ونقـيـة، وامـا صـفـائي يتـلاشى فـيـه التنفج والادعاء والبهرجة مثلما يتوارى دراكـيولا اما الصليب، اني ملك لك.

حـينما نترجم مـعنى الحلم بتـعابير منمقة، نجد انه يطلب مني ان استعيد من المؤهلات مما نسـمـيـه احـيـانا البراءة والنقـاوة والاسـتـقـامـة والاستجابة المفـتـوحـة الى الاخرين وللحياة بوجه عام وكل هذا يكاد يكون من المسلم به بان هناك عنصر خير في كل انسان حتى في الاشخاص الذين يتسم سلوكهم بالعنف والعنجـهـيـة، وهذه كـانت بعض خصائص سلوكي فيجعلني اراعي حيـاتي، فكانت تتمثل فيه بعض جوانب اللامبالاة والخشونة وبعض جوانب التردد وبعض جـوانب القـسـوة وهذا مـا تراءى لي في احلامي من ذلك مثلا ليـدي مـاكبيث هي تمثل جانب شخصيتي في تطلعها للقوة. وليدي ماكبيث كـانـت لا تتـورع في القـيـام باي شيء من اجل تنفـيـذ مأربها وان هذا شيء لازمني منذ ايام طفـولتي.

وعندمـا اطلقت العنان الى ليـدي مـاكـبـيـث لتـتحدث عن نفسها اصبح واضـحا انها ما كانت تقر نظرتي الى الحياة اذ كانت تتطلب مني الاندفاع بلا ضـوابط، وعندمـا حصل الصراع في داخلي وهو صراع حصل بين ما أنا عليه مـن إنـدفـاع بـاتجـاه تـنـفـيـذ المأرب باي ثمن وبين ترددي في احترام بعض الاعـراف الاجـتـماعـيـة فـانها تركـتني وشأني وان توجـهـاتي والتـزامي بالقـيـم

جعلني ارعوى واندمج بالعلاقات الانسانية.

وابان حلمي الذي رأيت فيه اوريل، فان ليدي ماكبيث وهي تمثل مكانة ذاتي العليا في حياتي كلها، قد امكن ازاحتها عن الطريق لتخلي المكان الى رغبتي للاعتراف في الجانب الضعيف من شخصيتي وبخاصة بعد ان بدأت اتناول بالتحليل مواضيع الاحلام ايقنت ان ما من شيء يمكن ان يكون بغير مواطن ضعف في التكوين النفسي ولا سيما في شخصيتي، وان ليدي ماكبيث كانت بطبيعة الحال تقاوم الى حد الجنون من اجل الحيلولة بيني وبين الاستجابة المطلوبة لمتطلبات الحياة العامة، فهي كانت تنكر عليّ ذلك وتلح عليّ بان انصرف الى المسؤولية العلمية وان ارفض اية اعتبارات تتعلق بالمشاعر وبالمشاكل الانسانية ذات العلاقة بالعمل والزواج والطلاق وما الى ذلك، فهي في داخلي تمثل هذا النوع من الصراع بين ان استجيب لندائها وبين ان استجيب لما هو مطلوب في الواقع. فهي قد تكون على حق من جانب ولكن للحياة متطلباتها ايضا. وكل هذا الذي رأيته في احلامي والذي يراه الناس في احلامي انما يعبر عن اتجاهات كائنة في التكوين النفسي عند الانسان وهو يفسر حقائق ويكشف عن أن ثمة اشياء في الارض والسماء هي اسمى واعمق معنى مما يدخل في فلسفات معظم المحللين والاكاديميين النفسانيين.

وقد تبينت فيما بعد ان اوريل كان حقا ملاكا اذ انني وجدت في (الفردوس المفقود) للشاعر جون ملتن انه يشير الى ما يصف به اوريل بانه (الموكل بالشمس) او (الوصي على الشمس) فيصفه قائلاً بانه الروح ذو النظرة الثاقبة النفاذة في السماء. ولعل اسم اوريل قفز الى ذهني من قراءاتي للفردوس المفقود ايام كنت طالبة في المدرسة. ولكن كيف بقي مختبيء في ثنايا فكري طيلة تلك الفترة، وما قفز الا في الفترة الاخيرة ليظهر في احلامي، وقد قررت ان اخذ بنصيحة اوريل وان اعتبره يمثل الجانب النفسي او الروحي من حياتي وهو الجانب الايجابي والذي يمثل كما يذكر

يونج اذ يصبح (وسيطا يمثل الخبرة الروحية في حياة الانسان حيث انها تتطلب وتكتسب معنى جديدا).

لا يمكنني ان اجزم الى اي مدى كنت قد افلحت في ايقاظ اوريل واستعادة صورة القلادة، لكن الحلم التالي الذي وصل بعد اشهر قلائل من حصول الحلم الاول، يشير الى انّ هناك نوعا من التحول الحقيقي كان قد حدث في حياتي. ففي هذا الحلم:

رأيتني بصحبة جماعة من الناس في سفينة فضاء، وان السفينة هذه قد هبطت على ارض غريبة في فضاء خارجي، ثم تنفتح فتحة صغيرة فيها يدخل منها رجل يشبه الامير ارثر كما جاء وصفه في مسرحية (الصباح الباكر) التي كتبها ادوارد بوند Bond فيأخذ ذلك الرجل بالتحديق فينا ويبدأ يتفحصنا، ثم يتكلم الينا بلغة غريبة اعرف عنها بانها مزيج من الانكليزية واليورية Uri ولتكن هذه اللغة ما تكون وان بمقدوري ان افهم شيئاً قليلا منها لو انني احاول التركيز عليها، يشير ذلك الرجل اليّ ويطلب مني ان اتبعه، وينتابني الدهش فاتساءل كم يكون الوقت انذاك اذ لم ادري هل الوقت متقدم او متأخر، واني اذ اتبعه خارج المركبة الفضائية فيخبرني بانه سيكون دليلا لي انه سيطوف بي حول العالم الجديد ليطلعني على ما فيه من عجائب.

لدى تأمل هذا الحلم بوصفه صورة، فانني استذكر بان شخصية آرثر في مسرحية (الصباح الباكر) تمثل النفس او كما اعتقد وحسب مصطلح يونج انها اسم اخر من اسماء الذات الذكرية عند المرأة. وان مرافقي الذي اصطحبني كان يتكلم بلغة اليوري وهي لغة تذكرني باوريل الذي كان يمثل الملاك الذي كان يحميني وهو يمثل ذاتي الذكرية Animus . لهذا استطيع تأويل حلمي هذا بانه رحلة عبر الفضاء- وهذا يعني استكشاف المجال النفسي الداخلي الواسع الممتد في ثنايا ذاتي وطوايا روحي وشخصيتي انه رحلة استشكافية فيما وراء الحدود والتخوم المحدودة للذات Ego ، انها

رحلة الى عالم جديد، الى حديث يتعين عليّ ان اواجه ذاتي التي كانت حتى الان مستبعدة ويتعين علي ان اتقبلها وان اتوحد معها.

اني لست متيقنة مما يعنيه هذا من مجمل مواقف حياتي كلها او كيف سيؤثر في وجودي الخارجي. وان جل ما اعرفه هو أنني قد تنبهت واستيقظت من سبات وانّي فرحت باحساس يغمرني مع شيء من النشاط والمرح والبهجة، وكأن شيئاً ما قد اطل بنوره فاضاء جوانب حياتي الداخلية فحصل في داخلي من التبدل الايجابي مما حملني على ان اتحدى ليدي ماكبيث يوم كانت تطلب مني ان اتخلى عن مثل هذه الخبرة المستنيرة، يوم كانت تلح علي في داخلي بان اطرح هذا جانبا معتبرة اياه نوعا من انواع التعبير عن الرغبة في ان تكون الانثى مثل الاب او الاخ ولعل كلا من يونج وبيرلز يعبر عن هذا بالقول بانه كان هناك نوع من انواع الامتداد في الشعور يستبان في تكامل المتناقضات وفي تداخلها وتفاعلها، فلهذين المحللين ان يقولا ما يبدو لهما من رأي، بيد اني أشعر انه لا يمكن ان نتجاوز ذلك وان نبتعد فيما وراءه. ان احلاما كهذه احلام تنشأ وكأنها جاءت من اغوار بعيدة في طبقات التكوين النفسي والحياة الداخلية، ينبغي ان تقبل كما هي وان تقبل فيما تشير اليه وما ترمز اليه وما تعبر عنه. اي ينبغي تقبلها على انها احداث روحية لا تخلو من بعض الغموض وانها خارقة للطبيعة، انها احداث تمر بنا بوصفها خبرات ونبلوها في النوم فهي قابلة لان تكون تجارب اكثر من كونها خاضعة للتأويل، وان الامر في حقيقته كما يعبر عنه يونج:

(ان ما يحدث داخل نفس الفرد، حينما يتم الربط بين محتويات الشعور الماضية وبين حالات الشعور الحاضرة، انما هو شيء قلما يمكن وصفه بالكلمات. فهو شيء يحسه الفرد كخبرة، انه تحسس. انه حالة ذاتية تتعذر على النقاش والوصف، فنحن لدينا احساس خاص عن انفسنا ونحن

نعرف شيئا ما عما عليه، وتلك حقيقة تتجاوز حدود الامكان والمعنى الذي نريد وانها لعصية على الشك، وسواء قد حصل التغير في داخل الانسان نتيجة للتكامل الداخلي عنده ام لاي سبب اخر، وايا كانت طبيعة هذا التغير فيه، فالامر يبقى من غير شك ايمانا ذاتيا واعتقادا نفسيا... وان الواقعيين من المعالجين النفسانيين والمحللين النفسانيين المعنيين بالعلاج النفسي لا يسعهم بحال من الاحوال ان يغفلوا حقائق من هذا الضرب مما ذكرناه...).

هوامش الفصل العاشر

(٢) الضفيرة الشمسية مجموعة اعصاب متشابكة في اعلى تجويف المعدة (المترجم)

(٣) الذين يمارسون رياضة اليوغا من الهندوس (المترجم)

(٤) رياضة جسمية يمارسها رجال الدين الهندوس والاعتقاد من وراءها ترويض النفس وتطويعها للابتعاد عن الرغبات المحرمة (المترجم)

(٥) السادية تعني القسوة والتلذذ بايقاع اذاها على الناس الاخرين (المترجم)

(٦) اي اطلقها على سجيتها دونما وازع (المترجم)

(٧) الكف الجنسي يحصل لاسباب نفسية وقد يستخدم احيانا مرادفا للبرود الجنسي ويكون هذا الاخير من بين اسبابه (المترجم)

(٨) استخدمت المؤلفة تعبير Pyschic drama وتريد بذلك المسرحية النفسية اي التي تكتب عادة من اجل غاية بعينها، والتعبير هذا قريب من تعبير Psycho drama الذي جاء به مورينو كما المحنا اليه في هامش من الفصول السابقة (المترجم)

(٩)الملك والملكة الوثنيان وبقية الحاشية من عبدة الاوثان، كل اولئك رموز تعبر عما في نفس بيتر من التواءات وانحرافات ازاء القيم الزوجية التي كان ينبغي عليه الالتزام بها نحو زوجته (المترجم)

(١٠) الضمير هو الرقيب وهو اذا ما عمل بحق ووجه اعمال الانسان الى الخير فانه يستحق الوصف بانه محكمة عليا عادلة متنقلة (المترجم)

(١١) مرّ شرح ذلك في هامش سابق من هذا الفصل بالذات (المترجم)

(١٢) الترتيب القسري او القهري او الوسواس الاستحواذي حالة نفسية يضطر الفرد الملازمة له ان يرى كل شيء حسبما يريده هو، ووفق نظام توحي به اليه ذاته، فاذا ما رأى مثلاً ورقة خارجة قليلا عن بقية الاوراق

الاخـرى فلا يرتاح حتى يراها مصفوفة تماما كما البقية، وهكذا (المترجم)

(١٣) المقـصود به نفسيا التقصير بحق النفس (المترجم)

(١٤) حـيوان الفقمة المعروف ومن جلده يتخذ فرو ثمين (المترجم)

(١٥) توكـد المؤلفـة في هذا على ان احـلامـهـا كانت في الغالب تنبئها بما سـيأتي في مـسـتـقـبل حـياتها وانها وجدت ذلك حقيقة لا غبار عليها مما اثر حتى في مسرى واقعها النفسي (المترجم)

(١٦) الربيـبـة: ابنة الزوج او ابنة الزوجة وكذلك الربيب (المترجم)

(١٧) أن هي المؤلفـة نفسها (المترجم)

(١٨) الرثيـة: بفـتح الراء مشددة وسكون الثاء وياء مفتوحة داء المفاصل والرومـاتيـزم (المترجم)

(١٩) التعبير المستعمل The Old bag ويراد به امرأة بشعة قذرة الملبس (المترجم)

(٢٠) مـثل عـربي يؤدي المعنى المطلوب، وقـصـة المثل معروفة وقد وردت ملخصة في مجمع الامثال للميداني (المترجم)

(٢١) في اللغـة العـربيـة البـاء تدخل على المتروك، والقـرآن حافل بامثلة تـكشف لنا عن ذلك وتبصرنا (المترجم)

(٢٢) حديث الذات الى الذات (المترجم)

(٢٣) يستخدم يونج كلمة individuation ويريد بها التفردية او تفرد شـخـصـيـة المرء فيدرك معها بانه يتميز بسمات وخصائص فيعي ذلك بفعل صـفـاء وعـيـه الشـعـوري ويرى يونج ان هذا يحقق للمـرء شيئا من تكامل الذات ويكون احد الاهداف التي يسعى اليها كل فرد (المترجم)

(٢٤) نسـبة الى يونج (المترجم)

القسم الرابع

التطلع الى المستقبل

الفصل الحادي عشر

قوة الحلم في مجال المجتمع

ثمة بين شباب اليوم اعتقاد واسع الانتشار مؤداه ان النوع البشري ابان العقد المنصرم من الاعوام قد ولج ابواب عهد جديد. وهم يصنفونه على اساس من الفكرة القائمة على التنجيم المستمدة مما يسمونه برج الدلو aquarious الذي من ابرز ملامحه هو الافتراض التقليدي القائل ان تحري (الكلي الروحي) لا يكون فقط مختصاً بالقلة من الناس وخاصة بهم، وانما يكون وسيكون موضع اهتمام الجميع ومن لدن الجنس البشري كافة. وانه لعصر يخمن ان يتوقف فيه، كذلك اعتماد الناس على المؤسسات المجتمعية كالمعابد، والمنازل،(١) او المجتمع ككل، وانما سيلتمس الناس واقع وجودهم الحقيقي، في كونهم افراداً يتواصلون بعضهم مع بعض على اساس من الروح القائمة على الانفتاح والحقيقة. فانا ليست لدي فكرة عن التنجيم، ولكني ارجو انها تنطوي على ما هو صحيح فيما يتعلق بالعصر الجديد New Age، كما يراه الشباب، ذلك لان الناس ما لم يبدأوا يتعلمون مزيدا من المعرفة عن بواعثهم الداخلية المحركة لسلوكهم وما لم يسعوا الى تحقيق مزيد من الذاتية Self-hood الواضحة، فانه ليبدو من غير المرجح ابدا ان يكون امام الجنس البشري كبير امل في مستقبل يتوقون إليه ويمكن ان يطاق بحكم مفاجآته الخافيات. وإنّي لاعتقد انه من المحتمل ان تكون اخريات القرن العشرين هذا حافلة بمختلف ضروب التجارب وباساليب جديدة من شأنها ان تنهي عوامل فهم الذات والنمو الانفعالي، واني لعلى يقين من ان الاحلام سيكون لها دور جسيم تضطلع به في هذا المجال.

وفي هذين الفصلين (الختاميين)، ساوضح شيئاً من السياقات العملية

التي يمكن ان يتم فيها ذلك- اعني قوة الاحلام في الحياة- سواء على مستوى البيت او في تعلم ما يمكن تعلمه خارج نطاق الاسرة، وسانتهي الى القاء نظرة تأمل على المستقبل، ذلك لاني في الوقت الذي اعرف فيه جيدا ان استخدم الاحلام لغرض توضيح مشكلات الحياة اليومية المتعلقة بطبيعة العمل والعلاقات بين الناس إنّما هو امر فعال، واني كذلك لاعتقد واثقة ان هذه إنما هي البداية لما يمكن ان تنبه إليه في المآل قوة الاحلام بالنسبة لحياة الانسان.

وانّي لعلى يقين تام من أن الاعوام القليلة القادمة ستشهد نمواً سريعا في تلاحم جماعات كبيرة لتكون فرق عمل علاجية وتربوية من مختلف الانواع، ومنها تضافر جهود الناس الاعتيادي من الاسهام في رفع مستوى المعرفة بالذات وتفهمها، وكذلك لغرض تنمية الشخصية والنمو الشخصي، وفي الفصول الاولى من كتابي هذا، كنت قد وضحت كيف يمكن ان يتسنى لمثل هذه الجماعات الافادة من الاحلام وسبل استخدامها. واني لارى، على اية حال، ان ليس ثمة على الاطلاق اي نوع من انواع التحديد الذي يجب ان يحدد طريقة تطبيق الاحلام او نوعيتها على جماعات خاصة بعينها تحت اشراف موجه مدرّب تدريبا سيكولوجيا، ذلك لان ما اوجزته في ثنايا حديثي في هذا الكتاب، من تقنيات، يمكن ان يتم استخدامه من جانب اي فرد من الناس، واعتقد باننا سنراهم في يوم ما وهم يلعبون دوراً متزايداً في كل من الاسرة وفي حياة المجتمع، وفي المنظمات الدينية، بل وحتى في عالم الاعمال والادارة(٢) والسياسة.

والسؤال الان: كيف سنجد وقتا لكل هذا في عالم هو في عجلة متزايدة من امره؟ الجواب، بطبيعة الحال، يكمن في حقيقة اننا اذا اردنا حقا ان نعمل شيئاً ذا بال، فما علينا الا ان نخصص جزء من وقتنا لما نريد، مبتعدين بعض الشيء عما لا يجب ان نغرق فيه الى الاذقان من حيث الاستمرار بلا انقطاع في الاعمال المنزلية ومن حيث الانغماس من غير تأمل

في الحياة الاجتماعية، ومن حيث الاسراف في الحفلات والاحتفالات دونما ضرورات، وفي اللهاث وراء جمع المال، وذلك لاننا ان نحن جعلنا لهذه الامور الاسبقية في حياتنا الشخصية وفي شؤوننا العميقة من حياتنا العصرية، فان اندفاعنا في هذا الاتجاه لن يؤدي بنا الا الى الانتكاس على رؤوسنا في مهاوي الكارثة. والحق، اني لاعتقد بان كثيرا مما نقوم به من نشاط محموم في حياتنا اليوم انما هو مجرد هروب مما لا نقوى على مجابهته من مشكلات شخصية تبدهنا في سياق حياتنا اليومية. ولي ان اذكر ان المعالج النفساني الامريكي ايريك بيرن Eric Berne قد اسدى الينا جميعاً خدمة جلىّ عندما تحرى في كتابه... ما يتعاطاه الناس من العاب، مقدار ما ننغمس فيه جميعاً مما يسميهايريك بيرن بلعبة (الانهاك)، اذ كثيراً ما نقوم بمهام لا مبرر لها البتة، وانما نقبل عليها ونقوم بها لكي نؤثر في اولئك الذين من حولنا (وفي انفسنا) وما ننهض به من انقطاع(٣) كلي للواجب على حساب الاسرة من غير موازنة عقلانية معتدلة بين الجانبين، وما ذلك الا لكسب عطف الاخرين ولتوليد احساس بالراحة النفسية ولنيل استحسان الغير، هذا فضلا عما ننزع اليه من تخفيف من وقوع الذنوب وتوالي الاخفاقات في الحياة.

هذا وان جون رين- لويس John Wren Lewis كاتب بريطاني معروف، وكان قد التقط المفهوم الذي اورده بيرن، فطبقه رين- لويس على الحياة الصناعية، في بحث اسماه (الالعاب التي يلعبها رجال الاعمال) نشرة عام (١٩٧٠) في مجلة (المجتمع الجديد) New society ذهب في بحثه ذاك الى حد يقترح اقتراحاً مبنيا على خبرة امتدت عبر عدة اعوام امضاها في البحث بوصفه متخصصا في الصناعة ان ما يهدر من وقت ضائع(٤) على مثل هذه الفعاليات لهو اكثر بكثير بالفعل مما على الاعمال الشيقة حقا. وان بتي فريدمنBetty Friedman من الامريكية، رائدة حركة تحرير المرأة، قد اولت ما ذهب اليه بيرن، عناية خاصة، فأوضحت في كتابها: (اسرار

المرأة) ما كـان قـد ذهب اليه مستعينة بدراساته عن حركة الزمن فاكدت ان اكـثـر مـا ينفق من طاقـة في العمل البيتي انما هي طاقة زائدة لا ضرورة لها، ولذلك يمتـد العـمل البـيتي فيستغرق الوقت المضاع كله. وهي تخلص الى القـول (ان الوقت المطلوب من اي امـرأة لانجـاز العـمل البـيتي انما يتفاوت بصـورة عكسية مع ما يواجهها من تحر ناجم عن عمل اخر يلزمها انجازه). وبعـبـارة اخـرى، ان المرأة عندمـا تكون لديها اهتمامـات أخـرى ومـشـاغل اضـافـيـة، فـان عـمل البـيت الذي كـان يسـتـغـرق انجازه من وقتها ست سـاعات، يلزمها الان لانجازه ساعة واحدة فقط.

ومـن خـلال خبرتي يمكن ان اقـول بان هذا صـحـيح بكل تأكـيـد، ولا يصـدق هذا على عـملي في البـيت فحسب بل انه ينطبق ايضاً على ما اقوم به من بحث، وعندمـا كنت اقـوم بعـمليـة التأمل ومراجعة النفس منذ سنوات عـدة خلت، كان معلمي يصر على ان امضي ما يقرب من ثلاث ساعات في اليـوم في هذه الرياضـة النفـسـيـة في مـراحلها الاولى. وعندما اعترضت على ذلك على اسـاس عـدم امكانيـة توفير ما يمكن من الوقت، فقد اكد لي بان عـملي لن يتأثر بحال من الاحوال وانه أكد ذلك لا من ناحية العمل فحسب بل هو قـد أكـد لي ايضـاً ان عملي سيتحسن كما ونوعا. وقد وجدت انه كان محقاً تماما، اذ انني قد اكتشفت من يومها ان هذا التحسن كان يحصل عندما كنت اقـتطع جزءاً من الوقت لابحث في ثنايا احلامي الليلية في مطلع نهاري في اليـوم التـالي. وعندمـا كنت اتوصل الى تفسير مرض او استلهم تبصَراً ذا مـعنى ودلالة، فـاني اشـعـر بحـالة من الوجـود يمكن ان اصـفها بانها شيء اقترب الى اليـقظة الروحـيـة- وهي مـا يسـمـيـه بيرلز (الاشراقـة) وهي حالة تكون فـيـهـا الطاقـة النفـسـية قد تحررت فانبعثت في نشاطها في جميع خلايا الجسم، حاملة معها حيوية متدفقة تمكن الفرد من استنجاز مهماته اليومية. انها خبرة تجـعل الفـرد على صلة وتماس مباشر مع ذاته ومع كل حواسه، مما يمكنه من مـواجـهـة العـالم من حـوله مـبـاشرة وليس من خلال حجاب من

التخييل(٥) والاسقاط(٦).

لعل جزءاً من احجامنا عن مواجهة حياتنا الداخلية يعزى الى خرافة واسعة الانتشار مفادها انه من الخطورة بمكان ان نذهب بعيدا في سبر اغوار العقل وان نغوص فيه بحثاً عما في تلك الاغوار والاتاويه، لاننا بعملنا هذا قد نحرك كل انواع القوى الضارة الفاسدة فتنطلق من عقالها فتجعلنا مهتاجين مسعورين. وارى انه يتعين على المختصين بالعلاج النفسي والتحليل النفسي التصدي لهذا الخوف غير المبرر، وعليهم تقع مسؤولية كبح جماحه، واني قد وجدت من خلال خبرتي انه خوف مبالغ فيه الى مقدار قد تجاوز كل الحدود. فحين ما من احد ينكر ان هناك اناسا مرضى يتعذر عليهم مواجهة مشاكل الحياة وينبغي ان ينصحوا بان لا يرتادوا او يحاولوا استكشاف العمليات اللاشعورية بمفردهم بدون خبير في الامر يرودهم الى ذلك، فانه يوجد هناك اناس من الاذكياء وهم من الكثرة الكاثرة، اناس اسوياء على جانب كبير من الثقافة السيكولوجية وأنهم لعلى جانب كبير من القدرة التامة التي تمكنهم من تحري ما في احلامهم على وفق الخطوط المقترحة في هذا الكتاب. لقد آن الآوان لان تكشف اسرار الأحلام (Secrets of Dreams)، فتنشر على الملأ وان تستعمل كوسيلة فعالة في مساعدة الذات خارج نطاق العيادات الاستشارية، على انه يلزمني ان اكرر هنا تحذيراً سبق لي ان ذكرته من قبل الا وهو ان اي امريء يجد احلامه مقلقلة، ولا سيما عندما يشعر انه غارق فيها وانها تكاد تغمره، فانه يتوجب عليه في هذه الحالة ان يسعى الى طلب المساعدة من مختص محترف.

قوة الحلم في مجال الاسرة

كنت انا واعضاء الفريق الذي يعمل معي قد بدأنا حملة من اجل التوعية بالاستخدام الواسع لقوة الحلم في الحياة اليومية وذلك عن طريق تشجيع اطفالنا لان يذكروا لنا اي حلم من احلامهم التي يمكن ان يروها، على

نـحـو يجـعـلهم يفكرون بان مـغـامـراتهم الليليـة هي شيء له اهميتـه ويتم تشـجـيـعـهم هذا منذ بداية وجودهم. فاذا ما استيقظت ابنتي من نومها على اثر حلم مـزعج، فـاني بدلا من أن اسـتـبعده من ذاكرتها واعيدها الى نومها وانا اردد على مـسـامـعها الفاظا مثل (لا تقلقي انه مجرد حلم) فاني بدلا من ذلك، كما قلت اسألها سؤالا اشعـرها فيه بانها كانت تحدث نفسها فاسألها مـثـلا لماذا كنت تتـحـدثين الى نفسك بمثل هذه القصة المخيفة اثناء نومك. واذا هي ذكـرت لي حلماً مستغرباً، فاني اسألها لماذا هي كانت تفكر في نومها بمـثل هذه الافكار المضـحكة او البـاعـثـة على السخرية. واني دائماً اشجعها على ان تتـفـاعـل بتلك الاحلام واطلب منها ان تتعامل مع اشخاص الاحلام وخـصـائصـهـا وفق قـواعـد علم نفس الجشتالت وقد وجدت من خبرتي ان الاطفال يجدون في هذا متعة كبرى.

اعـتـقـد اننا اذا شـجـعنا الاطفـال وحملناهم على ادراك اهمية الاحلام منذ بواكير اعمارهم، فـانهم سينشأون وهم مـشـبـعـون بفكرة ان الاحلام ليست مجرد اشـيـاء تحـدث لهم على نحو غير متوقع، وانما هي خيالات هم انفسهم يقـومـون بها ويصـدر عنهم في نومهم لكي يحدث انفسهم بانفسهم عن شيء له اهميته. واذا نحن شجعنا اطفالنا على ان يفكروا باحلامهم بهذه الطريقة، فـاني اعـتـقد باننا سنمكنهم منذ بواكير اعمارهم من ان يتعاملوا مع احلامهم بيسر وسـهـولة واننا سنزودهم بما يوصلهم على نحو طبيعي اكثر الى مضامين حـيـاتهم الداخلية، مما يتيح لهم لان يتعلموا تقبل ذلك الجانب من طبيعتهم وهو مـا اعـتـدنا في نشأتنا ان نخـفـيـه في حـيـاتنا لما يترتب عليه من عواقب وخيمة.

واني لاعـرف عـدة اسر ممن تخصص مساءاً من كل اسبوع من اجل تبادل الـآراء الجماعـي الـعـائلي، وخـلال هـذا الـوقت فـان كـلا من الابناء والآباء يفـصـحـون عن شكاواهم، ومأسـيـهم، ومـا لحق بكل منهم من الآخر من ضـيـم، ويعبرون عن اسـتـحساناتهم وشكرهم بعضهم نحو بعض ويحاولون

ابان ذلك ان يتوصلوا الى نوع من انواع التسوية الطبيعية المرضية لجميع الاطراف. واذا ما اخفقت الخطة خلال الاسبوع التالي، فان شيئاً اخر يتم اقتراحه من اجل التوصل الى حل في المناقشات المقبلة، وان الاحلام تستعمل في هذه المقابلات والمواجهات العائلية وجلسات المصارحة بصورة منتظمة من اجل اظهار الاحاسيس وعرضها بشكل مكشوف ولولاها لما تم التعبير عن تلك المشاعر على نحو واضح وبشكل مكشوف.

وفي احدى جلسات المصارحة العائلية هذه مثلا ذكر صبي يبلغ الخامسة عشرة من العمر حلما رآه مباشرة بعد جلسات المصارحة الأسرية تلك، اذ رأى في ذلك الحلم رجلين يبرمان صفقة من الاعمال. وكان احد الرجلين يدلي بمعلومات والآخر كان يسجلها في دفتر، واثناء قيامهما وتصافحهما بالايدي، استعدادا لتوثيق الصفقة كما يفترض، رأى ذلك الصبي الارض تنشق فجأة وتبتلع الرجل الذي كان يدلي بالمعلومات، ادرك الحالم ان متعاطي تلك الصفقة كان مزيفاً وانه كان يخدع الزبائن ليحملهم على الثقة به، وكان يأخذ المعلومات منهم ومن ثم بكل هدوء يفرغهم مما لديهم، ان الافتراضات الحاصلة في ذهن ذلك الصبي الى ان يقرن بين ابيه وبين ذلك المتعاطي للصفقات. فراح يتشكك في ابيه وساورته مخاوف من ان اباه قد يستخدم المصارحة والامان خلال جلسات المواجهة العائلية لا لكي يقيم علاقات اسرية اكثر تفاهما واوثق صلات، بل ربما هو يستخدمها كطريقة من طرق حملهم على الكشف عن مواطن الضعف في شخصياتهم مما يحمله على الا يتورع في استخدام ذلك الضعف سلاحا يشهره ضدهم فيما بعد. وسرعان ما نبه ذلك الحلم بقية افراد العائلة ودق ناقوس الخطر بين صفوفهم. الامر الذي جعلهم يقولون انهم ايضاً استشعروا شيئاً من الخوف نفسه وتوجس ريبة من ابيهم ولكنهم لم يشاءوا ان يفصح عما ساورهم من تخوف! وعندما تمت مناقشة الحلم في اطار الاسرة بصورة جماعية، وعد ابوهم ان يرقب سلوكه الخاص به لما قد يبدر عنه من علائم تدينه وعما قد

يصـدر من احكام اخـلاقـيـة وادبيـة غير مـلائمة، وقد خول الاطفال كامل الصـلاحـيـة بان ينبـهـوه على ذلك اذا هم شـعـروا بان صراحـتـهـم قد تمت الأساءة اليها من جانبه مرة ثانية.

يعـمل الحلم في الغـالب كـواسطة لنقل المشـاعر الخفية من فرد الى اخر، وقـد مـر بي في حيـاتي اعـداد من الافـراد ممن يلعـبون (لعبة الاحلام) تماما بنفس الطريقـة التي يلعب فـيها لعبة التنس. كأن يكون احد الاشخاص قد رأى حـلماً، فيرمي في حلبـة المقـابل له ورشريكه في اللعـبـة، وينتظر ارجـاع الرمـيـة وعودتها اليه. واني اسمي هذه الالعاب (ثنائي الحلم)، وهو نوع من انواع الاتصـال غير اللفظي يتم بين شـخـصين ويحدث عـادة تحت مـستوى الشـعـور الواعي وفـيما دونه وهو يعكس عادة الافكار والمشاعر والمخاوف بين الشـخـصين اللذين يتبادلان ذلك الثنائي ومما لا يمكن بدون ذلك ان تكون تلك الجـوانب الوجـدانيـة الخفية قابلة للظهور، وقد تلقيت مؤخراً رسالة من رجل كـان هو وزوجـتـه يحضران جانبا من اعطاء دروس عن ثنائي الاحلام. وفي تلك الرسـالة يخبرني ان ذلك الثنائي في الحلم كـان مسؤولاً عن اتخاذهما قـرارا وزوجـتـه بالانفـصـال عن بعـضـهما، وكانا متزوجين منذ سبع سنوات واثناءها بدأ الزوج (سـام) باتخاذه فـتـاة خليلة، امـا (لوسي) زوجـتـه، فـقد كانت جد مكتئبة بطبيعة الحال وقد اصابها ما اصابها جراء ذلك لكنها بعدما تبينت بوضـوح انه لم يعـد في القـوس منزع وان لا صلة لها في الامر بعد كل الذي حـصل حاولت ان ترضي زوجها وان تجعله يفعل ما يشاء لتحول دون فـسـخ عـقـد الزواج، وابقت على عـلاقـة مخلصـة بينهـا وبين سـام على ان يصـدقـهـا القول في كل شؤونه. كما انها انتزعت منه في الوقت ذاته وعدا بان لا يـأتي بـصـديقـاته الى البـيت عندمـا تكون هي خـارج المنزل في شأن من شـؤون العـمل الخـاص بها (وكـانت شـؤون عـملها انذاك غالبا ما تأخذها خـارج البـيت مـعظم الوقت). وان سـام هذا قـد استجاب لها ووافقها على طلبـها، ذلك لانه لم تكن لديه الرغبة في الافتراق.

يبدو ان الاتفاق، باديء الامر، كان قد جرى على ما يرام اذ انه برم برضى لوسي وكانت تحب ان تعرف عن مغامرات سام، وان كانت لا تفضي بالمرارة والمضاضة كلما قص عليها شأنا من حياته الخاصة تلك على ان (سام) بعد مدة اخذ يفقد الاهتمام بالنساء وكان يبدو عليه الهدوء والكآبة مع شيء من نكد المزاج. وبعد ذلك توالت عليه سلسلة من الاحلام كانت تفسر في مجملها ما طرأ عليه من تغير في المزاج. ففي بعض هذه الاحلام مثلا يرى نفسه مع امرأة تبحث عبثا عن الحب، او هو يفتش عنه، او انه يرى نفسه اثناء التودد الى المرأة يجد هناك ما يقطع عليه خلوته او انه كان يرى في بعض تلك الاحلام وكأن سلوكه يستهجنه الناس جميعا. وفي احد احلامه تلك رأى فتاة تقوده الى خيمة وخلال وجودهما في داخلها رأى ان الخيمة شفافة وانهما يظهران من خلالها ويريان ما وراءها. ان جميع هذه الاحلام قد كشفت بوضوح عما يكتنف سلوك سام من محرمات عامة ما كان ينبغي لسام ان يتعاطاها وان هذه الاحلام كانت تحمل في طياتها عوامل الكف الجنسي لسام والبرود الجنسي لديه فراح يلوم لوسي لانها فرضت عليه قواعد الشرف والامانة، وان كان اقتراحها في حينه يبدو معقولا عندما ابدته اول مرة وقد ادرك كذلك انه قد فقد وعده لها بان لا يصطحب خليلاته الى البيت بغيابها، واعترف لها ان وجد ما طلبته منه انها يمثل تضييقًا لا ضرورة له يحد من حريته حين تكون بعيدة عن البيت. وعندما استبان معنى احلامه راح يتهم لوسي بانها كانت تريد الحيلولة بينه وبين ما كان يتوق اليه من علاقات غرامية وانها باقتراحاتها وقواعدها، التي كان يبدو انها غير ضارة كانت تريده ان يسلك السبيل القويم لكنه لم يكن متقبلا ذلك منها.

اما لوسي فقد انكرت من جهتها اية نية من جانبها تتوخى من ورائها افساد الامور عليه، وكانت تصر انها في الحقيقة كانت تعتقد بالابقاء على العلاقة الشريفة فيما بينهما وانها كانت ترمي الى المحافظة على فعالية الزواج

حيا تحت وطأة تلك الظروف الصعبة، وانها كانت تهدف الى المحافظة عليه بقدر ما كانت تكره سماعها منه قصص علاقاته الحيوانية. وفي حلم تال لها رأته على اية حال، رأت فيه ان ما كانت ترمي اليه في يقظتها من مقصد نبيل لم يكن في أقصى اعماقها هو ما تتوخاه في واقع الامر. اذ رأت في حلمها انها وعددا اخر من النساء كن عاريات وهن مكبلات بقيود مثبتة الى جدار كهربائي، وكان هذا القضيب تصدر عنه صدمات كهربائية شديدة الايلام لها، ومع هذا او بخلاف ارادتها ورغما عنها، كانت تشعر بالتهيج الجنسي، ان هذا الحلم قد جعل من الواضح انها لا هي ولا سام كانا صادقين في دوافعهما الداخلية بشأن ما ذهبا اليه من ابقاء على علاقة صادقة شريفة فيما بينهما؛ وان الحقيقة تكمن، في جزء من جوانبها في الاقل، هي انها لدى سماعها بقصة زوجها عليها من شؤونه المعروفة تلك كانت تهيجها جنسياً وانها كانت تثيرها بدلا من ان تجعل ظلالا من ظلال العلاقات الكئيبة تخيم عليها في علاقاتها به.

هذا وقد قررا مواصلة العلاقة الحميمة، احساسا منهما بانه لا يمكن ارجاع عقارب الساعة الى الوراء، وقد رأى سام حلماً اخر وفيه كان يرى كأنه هو ولوسي معاً يركضان ليلحقا بقطار ليأخذهما الى (فيل(٧) ايف شام) في غرب انكلترا. استطاع سام ان يقفز الى داخل عربة القطار عندما كان على وشك التحرك ومد يده الى لوسي ليساعدها على الصعود الى داخل العربة، وبدلا من ان تمسك بيده، ابتدأت بمناولته حقائب الملابس والرزم التي معها، وبدأ يرصها علي المقعد، وهو في نفس الوقت كان يناديها ان تترك مناولته تلك الحقائب والرزم وان تصعد في القطار. وكان لغزا بالنسبة اليه وهو في الحلم اذ كان يريد ان يتبين وان يعرف من اين هما جاءا ومن اين جاءت تلك الحقائب والرزم، اذ لم تكن لديهما تلك الحقائب ولا تلك الرزم عندما كانا يسرعان باتجاه القطار. الا ان لوسي لم تنتبه الى تحذيره لترك تلك الحقائب والرزم وتصعد الى القطار، ولهذا فان القطار قد غادر

المحطة بدونها. وبعدما تحرك القطار مغادرا المحطة ادرك سام انه- لم يكن متوجها الى (فيل ايف شام) ابدا، وانما كان ذاهبا الى (فري بورغ) وهو مكان مختلف.

ولدى تأمل الحلم كصورة تعبيرية وبتحمل كامل المسؤولية عما تعنيه محتوياته، ادرك سام انه قد بلغ المرحلة التي كان يريد فيها ان يترك لوسي وراءه وان يسافر بمفرده. وقد قرن الحقائب والرزم وذلك بربطها بالممتلكات والحاجيات والمسؤوليات كالايجارات ومستلزمات التأمين ونفقاته وما الى ذلك مما كانت لوسي قد حملته اياها واثقلت كاهله بأعبائها منذ بداية زواجهما عندما كانت الامور سارة ورخية. وقد تذكر سام انه كان من قبل يشير الى لوسي فيصفها بانها حواء (Eve) التي اغرته فاجتذبته اليها، مما يفسر لماذا هما كانا في الحلم ذاهبين الى فيل ايف شام)، اي ان الزواج من اجل مآربها الخاصة. وان القطار الذي كان حقا ينوي ان ينقله الى (فري بورغ)(٨) انما يمثل انه كان في اعماق ذاته ينزع الى الحرية (Freedom)، لكن نفسه الحالمة ادركت انه حتى لو افلح في ذلك ونجح، فانه هو وحقائبه، التي ترمز الى المسؤولية والالتزامات المالية، وكلها قد تراكمت عبر السنين، كل ذلك لن ينتهي به في نهاية المطاف الا بالعودة الى رحاب بيته والعيش مع زوجته لوسي.

ان هذا الحلم قد اساء بطبيعة الحال الى لوسي، وهي بدورها كانت لها استجابتها عبرت عنها بحلم يعكس وجهة نظرها عن الموقف هذا. اذ رأت كأنها وسام قد سافرا في عربة نوم في قطار متوجه الى اقصى الجنوب من امريكا، وفجأة تذكرت أنهما لم يدفعا اجرة الرحلة هذه ولم يكونا قد ابتاعا تذاكر السفر، وفي غمرة الخوف من ان المسؤولين في القطار قد يعاقبونهما على فعلتهما تلك، قالت الى سام: (دعنا نعد الى النوم ولنر ما بعد المسافة التي نبلغها قبل ان يكتشفوا امرنا، وعند ذلك سنقول لهم باننا قد غلبنا النوم فتجاوزنا النهاية التي قصدنا اليها في رحلتنا). ثم ادركت انهما لم تكن

لديهما اصلا تذاكر سفر لاية غاية ينويانها في رحلتهما، فراحت تقلق كلما امعنا في مضيهما في السفر جنوبا مروراً ب (جورجيا) احدى مدن الجنوب في امريكا- وبلغ القلق منها غايته الى حد الاهتياج حول ما سيطلب منهما دفعه عن اجور السفر مما قد لا يحتملان دفعه بعد ان يبلغا نهاية الرحلة.

فسرت لوسي الرحلة الى اعماق الجنوب بانها تمثل استكشافا وارتيادا لاعماق التكوين النفسي الذي كانت هي وسام يتبادلانه عن طريق الاحلام- وانها في الحقيقة قد ربطت بين (جورجيا) وبين العقل اللاشعوري الذي، لسبب خاص بها، كانت تشير اليه في الغالب فتسميه (جورج). فالحلم كان يخبرها بانها قد شرعت في الغالب في رحلة ما كانت مهيأة لها ولا لتبعات متطلباتها. وعندما شرعت هي وسام بتحري محتويات أحلامهما وما ترمي اليه احلامها، حصلت لديها القناعة بان هذا النوع من المشروع يمكن ان يوثق علاقاتهما ببعضهما وان يفضي الى الجمع بينهما على نحو أوفق، ولكن بعد ان يبينّ لها ان ذلك كان يقذف بهما بعيدا عن بعضهما باتجاه الافتراق فانتابها الهلع والفزع اذ شعرت ان قواها الانفعالية لم تكن من الرقة بحيث تمكنها من مواجهة هذه المهمة الصعبة. ان ثمن الحقيقة كان باهظاً فايقنت انها ما كانت لتقدم على رحلة كهذه لو انها ادركت قبلا ان خاتمتها هي خاتمة محزنة. وادراكا منها بانها لا تستطيع ان تقفز من القطار ولهذا فانها التفتت الى شيء أخر وهو انكار الحقيقة عن طريق (اغماض الاعين)، والتغاضي عن ادراك واقع حاصل بالفعل الا وهو انهما هي وسام كان ينبغي ان يفترقا منذ امد بعيد- وهذا يفسر في الواقع ما ورد في الحلم (استيلاء النوم عليهما في القطار فتجاوزا او ليتجاوزا المدى الذي كانا يقصدانه في سفرتهما).

وتوالت عليها- سلسلة اخرى منن الاحلام كانت ترى نفسها فيها تحاول الاتصال بسام عبر الهاتف لكنها لم تتلق جوابا من الطرف الاخر مما عزز حدسها بان اية اتصال حقيقي بينهما كان قد انقطع فكانت سلسلة الاحلام

التي رأتها تعبر عن احـاسيسـهـا ومـشـاعـرها انها لم يعد بمقدورها بعد ان تخترق الطريق لتبلغ الهدف في الوصول اليه.

وفي آخـر حلم من الاحـلام الثنائيـة كـان قـد حـصل قبل افتراقهما، وفيه رأى سـام ان سـفـينة فضائية قد هبطت تحمل اليه رسالة مفادها ان لوسي قد مـاتت. استـيـقظ من نومـه يشعر بالحزن، لكنه كان يعرف عن الاحلام ما يكفي فما اراد ان يعترف بما في هذا من نبأ ومـاذا كـان يخبره وان كـان يعـرف مـسبقا ما هي متضمنات هذه الاحلام لكنه مع ذلك ما كان يريد ان يعترف في قـرارة نفـسـه، اي انه انه لم يشأ ان يقـر في دخـيلة نفـسـه بان احـساسه الأسـاسي نحـو لوسي كـان قـد انقطع وانتـهى وجـوده. كلاهما كانا يقاومان فكرة الاقـرار بانهما يستطيعان العيش على نحو افضل بوجود الآخر، غير ان هذا الحلم قـد اقنعـهما ان عليـهما ان يفترقـا. وفي رسـالة بعث بها سـام التي كـتب فـيـهـا يقـول انهما وان وجدا خط الافتراق امراً صعبا باديء ذي بدء، لكنهما قـد تمكنا من تجـاوز الازمـة بعـد ذلك بصـورة سليـمة وانهما، في واقع الحـال، اكـثـر سعادة وانهما يعيشان كصديقين ويحيى كل منهما حياته الخاصة كل على حـده وان حـيـاتهما الآن اسـعـد مما كـانا يعيشان معا بصفتهما زوجا وزوجـة، اذ انهما ايـام ارتبـاطهما مـعـا قـبل الافتراق كـانا يحاولان عـبـثـا ان يـروض كـل مـنـهـا نـفـسـه ليرتقي الى مـسـتـوى توقـعـات الطرف الاخـر ومـتطلبـاته، فـيبدو ان تمازج مؤهلاتهما وتفاعلهما بدلا من ان تؤدي الى تنمية النماء المشترك والمتبـادل بينهما، كـانت سـبـبا في خنق ذلك النماء الامر الذي انتـهى بهما الى الافتراق والجفاء.

اني لا اقترح هنا ولا اكـرس اية فكرة يفـهـم منها ان الناس ينبغي ان يقوم الأمـر بينهم على اتخاذ قـرارات تترتب عليـهـا اجـراءات قـاسـيـة كـالافتراق والطلاق، ان تغير العـمل او اي عـادة من الجـهة الاخرى او المعاكسة لروح المجتـمع مـعـتمدين في ذلك على اشارات يتلقونها من احلامهم التي يرون، ان مـا ادعـو الـيـه هنا هو ان الاحـلام يمكن ان تجـعلنا على وعي بمـشكلة

معينة، وهي بالتالي تؤدي بنا الى ان نتصدى لتلك المشكلة اسرع مما لو اننا اغفلناها وفات عليها الاوان. ،كما اشرت من قبل، كان يمكن لزواجي ان ينتهي الى ما انتهى اليه من نهاية حتمية اسرع مما كان مع تفادي كثير من الشقاء ومن اضاعة الوقت في تبادل الاتهامات، لو انني اوليته اهتماما كافيا لاحلامي.

والحق، ان الاحلام لا يمكنها فقط ان تساعد في انهاء العلاقات العصيّة على الاصلاح، ولكنها تستطيع كذلك ان توطد اركان تلك التذمرات والشكاوى التي من شأنها ان تعمل في الخفاء تحت مستوى الوعي الشعوري اذ يتم ذلك عن طريق الكشف عن الدفين وتصحيح التفاهم واصلاح الاخطاء، كما وصفت ذلك من قبل في فصول ماضية، وغالبا ما يتم ان هذه القوى الخفية المدمرة عندما يكشف عنها وتكون واضحة للعيان، فانها يمكن في هذه الحالة التوصل الى حل مشترك يقوم على الاخذ والرد وعلى التفاهم المقبول، اضف الى هذا، فان مثل هذه العلاقات المتجددة تهيج عادة نوعا من انواع الحيوية ذلك لانه يصبح بمقدور الزوجين ان يجدا طريقة سليمة جديدة من اجل العيش معا تظللهما محبة احدهما للاخر.

وفي ختام حديثي عما يتصل بالناحية العائلية والمنزلية فاني اقترح على ربات البيوت ان يؤلفن فيما بينهن مجموعات صغيرة يتبادلن فيها خبرات احلامهن ويناقشن خلالها ما تكشف عنه تلك الاحلام من مشكلات. فكم من نساء في مجتمعنا اعرفهن وقد غسلت ادمغتهن بان تقبلن انه يتوجب عليهن في حياتهن فقط تكريس طاقاتهن الى شؤون البيت والاطفال وحسب، في حين كان بوسعهن في واقع الحال القيام باعمال يتمثل فيها الابداع تمتد الى العالم الخارجي وراء حدود منازلهن، واننا لنسمع، مرة تلو الاخرى، ان ربات البيوت حينما يمثلن احلامهن في جماعات ويتعاملن معها وفق مباديء علم نفس الجشتالت، لسماع صدى صوت الزجر والنعيق يصدر من الذات العليا المتحكمة المسيطرة (آتيا من همهمات الام

ايام الطفولة، ومما ينشر في المجلات تحت وطأتها الذات الدنيا الضعيفة حينما تعترض بمسكنة لتقول انه لا يكفي فقط انفاق جل الجهد وقوة الطاقة كلها على اعمال المنزل بمفرده والاهتمام بالاطفال وحسب. اني لا اعني بما اقوله هنا ان قوة الاحلام وتأثيرها يجب ان يدفع بحشود النساء على التو لان يندفعن بحثا عن العمل خارج حدود منازلهن، وان هذا قد يدفع باولئك النساء اللاتي هن غير راضيات عن حياة المنزل او المتقاعسات عن واجباتهن البيتية، فيتوجهن توجها يستمددن وحيه من قوة الاحلام، فهذا وان يكن فيه شيء من الحل النافع المؤقت، الا انه لا ينبغي ان يتخذ ذريعة في هذا المجال. والنقطة الاساسية هنا هي انها الاحلام في الغالب وسائل وفيها دلائل، وهي تمدنا بامارات تشير الي السبل التي يمكننا بها استثمار طاقاتنا المكبوتة على نحو افضل، وهو ما يمكن ان يتم من جانب معظم النساء سواء داخل حدود المنزل او حواليه، ومثلا على ذلك نذكر: المطالعة، الكتابة، الرسم. التعليم، بل وحتى تكوين جماعات صغيرة لمناقشة الاحلام! وبعد، فان عصر الفراغ بات وشيكاً بحيث حتى الرجال سيجدون في يوم ما انفسهم متفرغين من العمل وعليهم ان (يقوموا بعمل شيء وينفعهم) وما عساه ان يكون اكثر جدوى واعم نفعا من استثمار قوة الاحلام في ارشادنا الى ماهية ذلك الشيء البناء؟(٩)

قوة الحلم في مجال دور العبادة

ان اوضح بيئة لتطبيق قوة الحلم واستخدامه، خارج نطاق البيت، هي المؤسسات الدينية، ذلك لانها من العوامل التقليدية في المجتمع لحماية الحياة الداخلية لكل من الفرد والمجتمع والجماعات فيه على حد سواء. واني لارى ان انحسار تأثير المؤسسات الدينية في العالم الغربي خلال القرن المنصرم لا يعزى كثيرا الى الشكوك اللاهوتية الناجمة عن تقدم العلم، فهي لا تعزى الى شيء من ذلك، بقدر ما يرجع ذلك الانحسار في حقيقة الامر الى فشل تلك المؤسسات الدينية في ان تقدم للناس ما هو عملي بالفعل لتمكينهم من فهم انفسهم على نحو افضل ومن ثم تمكينهم من فهم ما يكشف عما في حياتهم من مشاكل الحياة. والحق، انه لمما يدعو الى التأمل ان نجد معظم المؤسسات الدينية في الغرب ابان هذه الحقبة من الزمن تستخف بالعلاقة الوثيقة القائمة بين الدين والاحلام على مر العصور.

على ان رجال الدين اليوم ابتدأوا في كل مكان يتنبهون لما استجد من مواقف فراحوا يتحرون كل وسيلة ويطرقون قنوات جديدة من الفعاليات والنشاطات التي من شأنها الاسهام في خدمة الحياة المجتمعية، منتفعين من العلوم الحديثة، ولا سيما الاساليب النفسية الفعالة، وكثير منهم قد شرعوا بتلقي تدريب مهني محترف في فن الارشاد النفسي وفق المعايير الفرويدية واليونجية وكلها تتعلق بكيفية فهم الاحلام؛ ولكنني اعتقد ان قوة الحلم اكثر استثمارا في رحاب دور العبادة وعلى نحو اوفى مما هو عليه الآن ومما تم تأمله حتى الآن.

وفي مقالة نشرت مؤخراً في (التايمس) اللندنية، دعا احد قادة الكنائس الانجليكانية البارزين، وهو الكاهن جوزيف مكلوك، دعا الى ان الصلوات الاعتيادية في الكنائس يجب تجديدها وتعزيزها بشيء من ذلك

مثلا الحوار والنقاش بدلا من الاقتصار على الطقوس التقليدية. واكد انه هو نفسه قد طبق ذلك فوجد الناس مما يثير اهتمامهم حقا ويشغل بالهم هو بحث ما يتعلق بامور تمس حياتهم مباشرة مثل: (حياة الانسان الداخلية وما يتصل بكرامته، وبمكانته، وما يرتبط بطبيعته، وبمصيره واهدافه، وما يقرن بالحكمة الذاتية التي تمكن الفرد من فهم نفسه (نفسها) بصورة اعمق، والمضي بكفاية اوفر بشأن ما يمت الى حياة المرء بصلة لها علاقة بمشكلاته الحياتية. ان ما هو مطلوب بشكل اجلى مما يتوجب على رجل الدين ان يقوم به هو معرفة ما في اعماق الانسان وما يرتبط بحياته النفسية، وان يكون على اطلاع على ما يشغل بال الفرد، وان يكون رجل الدين كذلك على شيء من المهارة والمعرفة بتقنيات تشخيص مشكلات شخصية الفرد وكيفية التعامل مع تلك المشكلات).

وان السبيل المرتجى في اسداء الخدمة في هذا المجال يمكن ان تتاح من خلال المناقشات الجماعية وان التئام جماعات لتدارس محتويات الاحلام وما تعنيه للانسان، امر لا يخلو من فوائد مؤثرة، وان يتم عمل هذه الجماعات على وفق ما وصفت في هذه السياقات، ولعل العمل في ذلك يستنجز في دار قائد فريق الدراسة والمناقشة او في دور العبادة. وان مثل اللون من العمل العلمي يتطلب قدرا كبيرا من المعرفة النفسية المحترفة لتكون النتائج انجح وابرع. وان ممارسات نافعة كهذه من شأنها جعل الجميع مكشوفين امام انفسهم وبعضهم امام بعض، وان مصارحة الذات لهو افضل ضمانة ضد الكبت الذي لا يكون في محله.

ولكن هل الناس مستعدون لان يفعلوا مثل ذلك؟ واني من ناحيتي كونت ارائي الخاصة بصدد اتجاهات رجال الدين حول الافكار الجديدة تتجلى بوضوح من خلال حلم شاركني في جانب منه الاسقف السابق ب (ولوليش Woolwich) ، والدكتور جون روبنسون G. Robinson . وسوف نستعرض جانبا من تعليقاته في هذا الحلم كنت اراني والدكتور

روبنسون واقفين وجها لوجه ونكاد نقترب احدنا من الاخر الى حد الألتصاق، لكنه يحجم ويبتعد وهكذا كانت تتكرر منا هذه الحركات، حتى بدا عليه الاحراج، ثم زايلنا اهتمامنا بما كنا نقوم به، فانهى مقاربته مني بان مد يده وصافحني بشكل رسمي شكلي ثم انصرف واختفى.

ان هذا الحلم يكشف على نحو واضح وجميل وبلغة مصورة عن طبيعة الاخفاق في الاتصال من اي نوع بيني وبين رجل الدين وانه كان يبدو في الحلم محرجا على اساس ان اتصالا من هذا النوع يفشي ما لا يليق، وان مسألة المصافحة الشكلية انما تعزى الى ما في شخصيته من برود وهنا يجدر ان اشير الي ان الدكتور روبنسون في حل مما ذكرت في الحلم ومما ادى الى حصوله، ذلك لانني لم اكن قد رأيت او قابلت الدكتور روبنسون منذ ما يزيد على ثلاثة اشهر قبل وقوع الحلم، ولعل رؤيتي له، انه يرمز الى جماعات اللاهوت ممن يهدفون الى تجديد توجهات وفعاليات المعابد، ولكنهم حسب تقديري لم يستكملوا بعد مؤهلاتهم الأنفعالية التي هي بحاجة الى ازدياد في استكمال جذوتها.

ارجو ان يكون حلمي غير صحيح حول ما ذكرت، واني لارجو ان يتصدى بعض رجال الدين لمستجدات التجريب ويأخذوا بمبدأ تدارس الاحلام في جماعات وهو سبق ان أسميته ب (جماعات المواجهة) التي تقوم مناقشاتها على اساس المكاشفة والمصارحة. واعتقد انهم اذا هم فعلوا ذلك فان مواعظهم التي تدعو الى المحبة والصفاء تكون أكثر تأثيراً واشد فعالية مما هي عليه في الوقت الحاضر. وفي فصول سابقة من هذا الكتاب كنت قد أشرت الى احلام رواها لي بعض جماعات الدراسات التي اتولاها، فذكروا انهم جراء تسامحهم تعرضوا الى مشاكل؛ من ذلك مثلا ان (جوانا)، وقد مرت قصتها وقصة حلمها (في الفصل التاسع)، انها عندما سامحت زوجها على مغامراته، رأت نفسها في الحلم انها قتلته بفأس كانت معها، وهذا يبعث على القلق على اساس انه ما من احد قد يدرك كيف يمكن توجيه

الدعـوة الى الوفـاق والوئام والمحبة بحيث لا يساء استعمالها من جانب من لا يعـرف كـيف يوجـه تصرفه. وان احلاما قد ذكرت في ثنايا هذا الكتاب (في الفـصل العـاشر). وهناك من الاحـلام قـد وردت في الكتـاب وهي تنطوي على السـبل التي يمكن ان تفضي الى بعث الحـيـاة في عظام وهيـاكل المعـابد ودور العـبادة عامة ونفخ روح الحياة الجديدة فيها.

وكـانـت هناك سلسلة اخيرة من الاحـلام رأيتـهـا وكنت اراني فـيـهـا دائماً جـائعـة ولم استطع خلالها العثور على اي شيء اكله. ولقد فسرت هذا عملا بالاقترانات والتـداعـيات، بان ذلك كان يدنو الى فكري والى مخاوفي من اين قـد اجـد مـا يشبع رغـبـاتي، اذ كنت بأمس الحـاجة الى زاد فكري وبعدها رأيت حلما وجـدتني فـيه احضر قداساً يقدمه رجل كهنوتي معروف، وبعدها ذلك وجـدت نفسي في حلم اخـر وانا احس فـيه بنهم شديد الى الطعام وقد جـاء من قـدّم ذلك الطعام ولكن ما ان مدت الأيدي اليه حتى رأيت الطعام تتلقـفـه من أطبـاقه قبل أن تصل يدها اليه او تتناول منه شيئا. شعرت اني كنت وحـيـدة، واقف بمـفردي في مواجهة الموقف، وانا احس بالحرمان ولا اعرف ماذا افعل، وعلى حين غرة ظهر لي (تم Tim)، وهـو رجل الدين الذي ذكـرته قـبل تحليل الحلم، ظهـر وهو يقـدم لي طعـاما فاخرا بكمـيـة وافـرة منـه، قـدمـه لي وناولني اياه وهـو يبتـسم. فـاستـيـقظت من حلمي وانا مـبـتـسـمـة لان الحلم كان يخبرني ان (الأله سيمنحني من آلائه) .The Lord Will Provide

وان البـاريء قـد فعل هذا، إذ اعقبت ذلك سلسلة احلام رائعة جديدة، سـاصفها في الفصل القادم بايجاز، ولقد امدتني تلك الاحلام بافكار اضافية تـتعلق بقـوة الحلم- بوصـفـهـا قناة يمكننا في الحـقيقة ان نتلقى خلالها هذه المـؤثـرات المـتـعلقـة بالالهام الابداعي، وهي المؤثرات التي يرجـعـهـا الناس بشكل تقليدي الى القدرة الالهية.

قوة الحلم في مجال النظام التربوي

لعل الجانب الروحي يمكن ان يكون انسب سياق من خلاله نسلك الطرق الرحيبة لقوة الاحلام ذات الفعالية الراجحة في دنيا التربية، حيث تطل علينا من منافذنا ذريعة كثيرا ما تتردد الا وهي ذريعة: قلة الوقت الاضافي، وهي كثيراً ما يردد ذكرها كلما اقترح المرء اضافة اي شيء جديد يراه الى مناهجنا في ايامنا هذه. فما ان يرد ذكر شيء جديد حتى يتم التصدي له بكل الوسائل وبشتى الذرائع. ففي بريطانيا مثلا حيث تتم اجتماعات الصباح الالزامية في المدارس، ما فتئت يؤكد عليها بوصفها جزءاً من طقوس روحية تجري عليها تجارب لامكان معرفة اي السبل يجدر اتباعها لتكون تلك الاجتماعات والتجمعات الصباحية اكثر جدوى، وهي في جميع الاحوال افضل مما اتذكره من تلك التجمعات الصباحية التي كانت سائدة في الأيام الكالحة من ايام تلمذتي في المدرسة تلك. ان حقيقة كون العالم اصبح جزءاً لا يتجزأ من خلفية الطفل المؤثرة فيه تأثيرا مباشرا، سواء عبر التلفاز ام عن طريق ازدياد اعداد الاطفال المهاجرين ولا سيما من اقطار غير مسيحية، هذا كله جعل الموقف من ناحية التربية الروحية اكثر تقبلا، وهذا مما يوجب تعميمها لتشمل مجالات اوسع مما كانت تسير عليه الطرائق التقليدية المعهودة. ثمة اتفاق كذلك يرمي الى ان تكون المناقشات جزءاً لا يتجزأ من الدراسات والتدريسات داخل الصفوف، مع التأكيد على ما تمت به التربية الروحية هذه من صلة، وما تنطوي عليه من نفع عميم، الى جميع المسائل العملية في الحياة. وفي ما يلي اشوق مناقشات لبعض الاحلام اوردها يمكن الافادة منها على غرار غيرها من الاحلام التي اقترحتها في

مجال قـوة الحلم في اروقة دور العبادة.

فهذا موضوع خصه جون رين لويس G. Wren Lwis بمساحة واسعة وفسيحة من كتابه: ماذا نقول للاطفال-What Shall We Say to chil-dren، بسط فـيـه مـا يمكن ان يفـيـده كل من المعلمين والتـلاميذ على حد سـواء من مجمل اسـتـعراض الآراء الروحية التي يمكن ان تستمد من حوارها الـطـاقـة الروحـيـة المؤثرة التي توجـه بالتـعـاون مع التربيـة، نوازع الضـمير ومـعـرفـة قيم الحقوق والواجبات، مستفيدة من مناقشة الاحلام لتجد لها في هـذا الـسـيـاق مـكـانا مـلائما لا ريب، متـهـجـة بذلك اصـول علم نفس الجشتالت.

وان التـجـمـعات المدرسية الصباحية، سواء كانت ذات طابع ديني كما في بريطانيـا مثلا ام ذات نزعة مدنية، فانها لا تكون في الغالب مناسبات تبعث على الضـجـر بشكل مقيت، ومع هذا كله فهي لا تخلو من فوائد تأكيد حياة الانتماء الاجـتماعي المنطوي على الحس الجماعي. وكـثير من مدارس اليوم قد ابتكرت تجـارب من شأنها افسـاح المجـال للتلاميذ انفسهم للقيام بفعاليات من ابتكاراتهم يسـهـمـون فـيها بشكل فعال، بدلا من الابقاء على الاساليب القـديمة التقليدية. اذ يختار التلاميذ من بينهم جماعات لها نشاطات متميزة، فـيـتـناولون الانشـاد مـثـلا، وترديد الترانيم، او اخـتـيـار مـتطوعين من بين صـفـوفـهـم يقـومـون بابراز فـعالياتهم الشخصية، او قراءة قصائد مختارة من نظمـهم هم، او قـراءة مـا اعـجبهم مما نشر في الصحافة او في كتب قرأوها فأثرت افكارها فـيـهـم بوصف محتـوياتها نماذج مـتـمـيـزة، ومـا الى ذلك من تنويع يدرأ الملل، ويجدد الحـيـوية، ويبـعث الثـقة بالنفس. وهنا، كما يبدو مـرة اخـرى، مناسـبـة جديدة يمكن من خلالها تخصيص تلك اللقاءات او التـجـمـعـات المدرسية الصباحية لتقديم نماذج من الاحلام ومناقشتها والقيام

بتمثيلها وفق المنحى الذي سبق لي ان وصفت. ان فعاليات كهذه ستؤول، بطبيعة الحال، الى ما يشيع البهجة والنشاط والابداع في جو المدرسة اليومي، واعتقد انه، فضلا عن ذلك، يكون على جانب كبير من المكسب العلاجي النفسي.

اعتقد ان الحياة المدرسية اليوم بحاجة ماسة الى تأكيد اكثر واغزر على التربية الانفعالية، وانه لمن دلالات الانحراف ان نشوة قيمنا الاجتماعية اذ يتصدى احدنا بالقول ان مناهجنا مثقلة بالمواد الاكاديمية التي تستنزف من الوقت، مما لا يسمح بالقيام باي اصلاح في التربية الانفعالية. وعندما يثار مثل هذا الاعتراض فلنا ان نسأل انفسنا: ما عسى ان ينتفع منه المجتمع او ان يجنيه من فائدة حينما يرسل ابناءه الى جامعاته لكنهم لا يلبثون ان يتعرضوا الى الانهيارات العصبية Breakdowns، بمجرد دخولهم اليها، واعداد الطلبة الذين يصابون بذلك في ازدياد؟ وما جدوى تدريس التلاميذ والطلبة كافة وتعليمهم كيف يفكرون، في حين ان مجمل حياتهم كلها ستبقى مهملة فلا يتم تنويرهم او تبصيرهم بكيفية وعيهم الأنفعالي والعاطفي ، فلا يعرفون كيف يفهمونها ولا كيف يتعاملون معها حتى الآن؟

وكاجراءات عملية اكثر فاني احب ان ارى ممارسات وتجارب تُجرى كل يوم وذلك ببدء حوار في الصفوف على غرار (حوار المصارحة العائلية) التي سبق وان ذكرت من قبل، يشارك في هذه المصارحات كل من التلاميذ والمعلمين وفيها يعبر كل عما بداخله من مضايقات او ما يستشعره من استملاحات واستحسانات. وان عمل الحلم في هذه الحالة يمكن بكل يسر وسهولة دمجه في هذه الجدوى وفي هذه المنهجية الروحية، وهذا من شأنه ان يمنح اليوم المدرسي زخما من النشاط المجدد وحبا في العمل، ويمكن

تكريس كل ذلك تقريبا الى ما في العالم الخارجي الذي يكتشفه الجميع. ويلزم كلا من المعلمين والتلاميذ، في هذه الحالة، المشاركة في سرد احداث احلامهم اذا كانت تنطوي علي عناصر وعلاقات مشتركة مناسبة، وبالتالي فان المعلم سيتمكن من مد يد العون للتلميذ الذي يعاني من مشكلة عائلية تطفو على السطح وقد كشفت عنها الاحلام.

اما في التعليم العالي، فاني ارى ان مناقشات الاحلام ينبغي ان تؤلف جزءاً منتظما في ألصفوف وتتخذ طابع دراسات عامة، وهنا يمكن للاحلام ان تقوم بدور فعال من خلال تمكين الطلبة من استكشاف مشاعرهم الحقيقية حول ما يرغبون فيه في مستقبلهم من مهن واعمال، وذلك بالافصالح عن احاسيسهم بصدد انواع معينة من العمل.

اعتقد ان التلاميذ في المدارس والطلبة في الجامعات، اذا ما اتيح لهم مجال التعبير بحرية عما يدور في خلدهم من مشاعر من خلال لقاءات تتم في مجموعات للمصارحة او الحوار او المناقشة، يحضرها معلموهم واساتذتهم، فان كثيرا من ململات الطلبة المدمرة المتسببة بشكل رئيسي عن جمود اصاب البني العقلية في اعلى مستوياتها فتحجرت، هذه كلها يمكن تفاديها عن طريق اطلاق عناصر المرونة العقلية في ارقى مراتبها وابهي مستوياتها(١٠).

قوة الحلم في مجال الاعمال والادارة

اذا كـان ثمـة وهم خطير في القول بان التربية بوسعها اغفال شأن الجانب الانفـعـالي في الشـخـصية، فان هناك وهما اكبر خطورة في الادعاء بانه يمكن اهمال الجـانب الانفعالي هذا في دنيا العمل في وقتنا هذا، والعلة تكمن في ان مـا يتـخـذه الناس من قـرارات لا تقتصر اهميتها عليهم وحدهم وانما تتعدى حـدودها فـتـؤثر في حـيـاة اعـداد ماثلة من الناس الآخرين. فاذا كان ثمة، مـثـلا، رئيس عمال في مـعمل انتاجي، يقعده قلقه المستحوذ عليه عن مراقبة مـا يجري في وحـدته بدقـة، او اذا كان هناك جندي يخشى ان يصارح رئيسه عما يخالجـه من ارائه ونظرياته الخـاصـة به وبشـؤون جنديته، اذا حصل شيء من هذا كله، فليكن مـعلوما ان امة بكاملها ستعاني من نتائج ما يترتب على ذلك التـقصير الناجم عن تفريط رئيس العمال والجندي بواجباتهما.

اذ الشـعـب كله سيـتضرر. اننا دائماً نحـاول، بطبيعة تصميم نظم الكون أن نجـد ضمانة ضـد هذا النوع من الاشياء التي مرّ ذكرها تواً، ولكن فليكن مـعلومـا ايضـاً ان ما من منظومة او نظام في المال يمكن ان تكون افضل من البشر الذين يبـدعـونها ويؤلفـون روحها، ويترتب على ذلك فانه ما من نظام يسعـه اغـفـال حـقـيـقـة جوهرية هي ان يستخدمهم في حيات لأنهم ليسوا بـآلات مـسـيرة في ثيـاب ألبشر، وانما هم كـائنات بشرية لهم احـاسـيـسـهم ومـشـاعـرهم ومـشـاكلهم الخـاصـة. فالاهتمام بالمسائل النفسية في المنظمات الصناعية والادارية هي ليست فقط مسألة (مصلحة هيئة ادارية) بعينها، بل انها، فـضـلا عن ذلك، هي ايضاً جزء لا يتجزأ من ألكل المتكامل الدينامي لـذلـك الـتنظيم. واننا قـد بلغنا الآن مـرحلة من التطور، يكون من الجنون المـحـض بـمـكـان من جـانب المجـتـمع ان هو تغـاضى عن الاعتراف بهذه الحـقـيـقـة. نظراً الى ان نتـائج ما قد يرتكب من اخطاء يمكن ان تؤدي الى

كوارث .

بـدأ عـلم النفس الصناعي الحـديث يعترف بهذا الامـر الى حـد مـا وتبين ذلك واضـحاً في دراسات دوجلاس مكريغوف Doglas Macregov ، اذ توضح ان دوافع الناس في الحـيـاة الصناعـيـة الحـديـثـة ونوازعهم قلما تحدوها الرغـبـة للحـصـول على مـزيد من المال فـقط، لكن الامـر يعزى كذلك الى الكـل المركب الكامن وراء عـلاقـاتهم الشـخـصـيـة التي تربطهم بغيرهم في مجال العـمل وتنظيم الحـيـاة بوجه عام. ويبدو لحد الآن ان ما يقوم به اناس من مـهـام تخص حـيـاتنا الصناعـيـة او الادارية انما هي اجـراءات بطيئة لا تتناسب والمتطلبـات النفـسية الجديدة التي تمليها روح العصر. وأنّ الجماعات الكبرى واسـاليب الحـسـاسـيـة المتـعـبـة قـد اخـذت تثبت وجودها في مجال التـدريـب الاداري في كـثير من المنظمات الكبيرة والى حـد بعـيـد، لكن مـا تكشف عنه من تبصر مـا فتيء يعد بالنسبة الى الرقيق القلب شيئاً لا يختلف عـن الـترف في كـثير او قليل،كل هذا يجري بصرف النظر عن حـقـيـقـة ان الدافع الاسـاس انما يراد به في العـادة محاولة حمل المسـتـخدم للتكيف الى ما هـو قـائم بدلا من تغيير المنظومـة او تكييـفـهـا لتناسب الكائنات البشرية انفسهم .

اعـتـقـد ان الامـر لعلى جـانـب من الاهمـيـة العـلاجـيـة والتربوية بالنسبة للمـجـتـمع ككل فـيما لو أنّ جماعـات المصـارحـة تم تأليـفـهـا واخذت في الحـسبـان اهمـيـة الحلم ومكانتـه في المجتمع وامكن استخدام ذلك في ميدان الـصناعـة والاعمال بوجـه عـام وعلى اسـاس منتظم دائم. وكما اوضح جـون رين لويس، مـقـدارا خياليا من الوقت يهدد في ممارسة العاب من اجل ابعاد الاحـسـاس بالغيرة، والخـوف، والقلق، والشعور بالذنب، ومن اجل اشباع الـطمـوح، ودرء الاحـبـاط، وبدافع الحـاجـة الى الاحترام والتـقـدير، وهلم جـرا، وان هذا الوقت المهـدور، هو الذي يمكن توظيـفـه في اغـراض اكـثر بناء واجدى نفعا كالعمل الجماعي او العمل ضمن جماعات مثلا .

وقد روت، احدى عضوات فريق الجماعة التي اشرف عليها، واسمها هيلين حلما مسليا وفيه كشف النقاب عن كيفية اضاعة جزء من وقت العمل في المكتب بما لا طائل تحته. رأت في هذا الحلم انها كانت جالسة خلف مكتبها مشغولة بالكتابة على الآلة الكاتبة عندما سمعت صوت جرس التحذير في الدائرة يرن. وحالا كان كل واحد في الدائرة قد قفز من مكانه بما فيهم هي نفسها، فكان كل واحد يركض على غير هدى في ارجاء الغرفة وكل يحرك يديه عشوائيا، ويرمي بذراعيه يمينا وشمالا، وهم جميعا يرتطم الواحد بالاخر، وجميعهم يرتطمون بالاثاث، وكل منهم يفتح ادراج الملفات ثم يغلقها بغير هدف، مندفعين الى الممر خارج الغرفة ثم العودة اليها مسرعين. وكان المنظر بوجه عام يعطي انطباعا عن حالة من الفوضى والفزع. فتوقف ذلك الهياج فجأة كما قد بدأ فجأة، فوجدت نفسها جالسة خلف مكتبها بهدوء وكأنّ شيئا لم يكن. ثم ان جرس تحذير اخر قد رن، وان نفس ما حدث في المرة السابقة قد حدث في هذه المرة، سوى شيء واحد وهو انها هي نفسها كانت لها حرية الاختيار والتصرف في هذه المرة، فجازفت بالخروج من المكتب، مدفوعة بدافع حب الاستطلاع فراحت تستطيع تحديد المصدر الذي يؤدي الى دق نواقيس التحذير تلك، وبعد كثير من التحريات، اكتشفت ان الرنين كان يصدر من مكتب مدير المبيعات، وانه كان يدقه في كل مرة يدخل فيه ألمدير التنفيذي أو يقترب من ذلك القسم.

ذكرت هيلين ان الحلم قد ابان لها بوضوح فكشف عن احساس بالفزع يبدو انه كان يسيطر على المكتب كلما دخله مدير المبيعات وطلب بيانا بواجب كان قد طلب انجازه وبحثه عما كان يتم من عملهم ويبدو ان كل عمل في المكتب كان يتوقف بالفعل على تحضير وتهيئة ما يطلبه المدير. وان حقيقة الامر هي ان شخصاً واحداً فقط في تلك الدائرة كان قادرا على اتمام العمل بمفرده ينجزه بهدوء وكفاية عالية، اما الباقون فكانوا قد تعلموا انهم

مـا يتـمـونه من عـمـل انما يكون وفق طقـوس رتيبـة عـقـيمة ويظهرون انهم يعـملون والواقع هم ليـسـوا كـذلك، ولكن لمجـرد اقناع المدير بانهم يعملون وان مـا طلبـه من عـمـل كـان موضع اهتمامهم، كما كشف الحلم كذلك عن احساس هيلين بان هذا المدير كان في واقع الحال:

يخاف من رئيـسـه الاعلى وكـان خـوفـه هذا مـسـتـحـوذا عليه، وكان هذا الخـوف، بـاعـتـقـادهـا، في غـير مكانه وانه غير واقـعي، بدليل ان الرئيس الاعلى هذا كـان يسـتـوقفه العمال ويتحدثون اليه عن شوونهم الخاصة، وهو مـا لم يكن من قـبـيل التلهي بالالعاب ولا كان الرجل ممن يتلهون باللعب. سألنا هيلين اذا كـانت لها رغـبـة في ان تشـارك بافكارها واحـلامـهـا مع مدير المبيعات وبعد تفكير عميق استجابت للطلب. وقد وجدت النتيجة مذهلة، فـهي تبـينت انه بدلا من الاسـتـغناء عنهـا وطردها من العمل، وهو احتمال كـان قـائماً، فان المدير نفسه كشف عن انه ادرك بانه لم يرغب في التأثير على مـسـؤوله الاعلى وانما كـان يحمله المسـؤوليـة لاتجـاهاته اللامـسـؤولة في تسيير شـؤون العـمل وتنظيم امـوره. وهي نظرة مـاكـرة كـانت تسـاور المدير نحو رئيـسـه الاعلى. ومنذ ذلك الوقت اخـذ كل من هيلين والمدير نـفـسـه يديران حـوارهما الخـاص بهما بـشـكـل شـخصي في مـا بينهما، بما في هذا احـلامـهـما المشتركـة، لكنهما لم يتـوصـلا بعـد الى امكانيـة توسـيع نطاق حوار المصارحة اكـثـر، وقد شعرنا جميعنا- فريق العمل بالارتياح واعتبرنا ذلك بداية طيبة.

ان خبرتي الخاصة تعزز ما توصل اليه هول (Hall) من استنتاج وهو ان احـلامـا كـهـذه، والتي تحـدد حقيقة مواقف العمل نفسه، هي احلام نادرة نسـبـيـا، ولكن عندمـا يعمل الناس في اداء عمل بشكل جماعات متماسكة، مـثـل لجنة مـديري الاعمال، او هيئة ضـبـاط في مـؤسـسـة عـسكرية، فـان عـلاقـاتهم ببـعـضـهـم تصبح جزءاً من حـيـاتهم الشـخصية تماما مثلما هي العـلاقات في شؤون العمل، فينعكس ذلك في احلامهم. ومثال على ذلك، فان هاري (Harry)، وهـو رجـل اعمال في فـريـق الـدراسـة الـذي تحت اشرافي، رأى حـلما، رأى فـيـه وكأنّ زمـيـلا له جـونز (Jones)، وهو مـدير

ايضا كان يدور في الدائرة وفي يده ابرة زرق تحت الجلد وهو يحقن كل واحد في المكتب حقنة تحت الجلد ولكنه كان يقوم بذلك بدون غرض صحي محدد. وعندما جاء دور هاري وتم حقنه جعله ذلك يفقد وعيه. وكان يشعر بانه يضعف رويدا رويدا وعندما احس انه اوشك على الموت، مد يده طالبا النجدة والعون فشعر بان جونز قد امسك بها وهو يقول له بصيغة التأكيد، (لا تقلق، يا فتى، سافعل ما في وسعي).

هذا الحلم كشف لهاري نوعا من عدم الارتياح كان يحسه منذ زمن في داخله ازاء جونز. وهو لا يدري لماذا كان لا يرتاح لزميله جونز هذا. وجونز من جهته، كان على حد تعبير جون رين- لويس الملائم، ينظر اليه ويعتبر نفسه (الاب الكبير) Big Daddy للشركة، فكان دائم الحث لجميع العاملين في الشركة بما فيهم، زملاءه المديرين، ان يرجعوا اليه في طلب مساعدته، لتسوية مشكلاتهم الشخصية وما يساورهم من قلق يمس حياتهم في العمل، وانه كان اكثر من مرة قد عنف هاري لانه لم يكن يراجعه بشأن اي شيء. اظهر الحلم بوضوح حقيقة شعور هاري ازاء جونز، اذ كان يحس بان نزعة جونز نحو الخير ما كانت صميمية تماما وان ما كان يقوم به جانز هو بقصد الايقاع بالناس من اصدار تعليمات جديدة يعرف مقدما انها ستسيء الى بعض الناس في محيط العمل فتضايقهم، ومن ثم ينشر افاويه انه بصدد احداث تغييرات، وذلك من قبيل الثرثرة الشخصية منه، وهكذا دواليك، ومن ثم يعمل على تسوية ما احدثه وتسبب فيه من قلق ومخاوف لضحاياه. اتضح لهاري ان جونز كان في الواقع يلعب لعبة خطيرة وغايته الهيمنة على من هم معه في محيط العمل، فكان يقدم متعمدا في الأعتداء على التابعين له. لا ادري في هذه الحالة الى اي مدى يكشف الحلم عن حقيقة خلف جونز ولا اعرف الى اي مقدار كان احساس هاري ازاء جونز، احساسا غير عقلاني في جزء منه، لكني لا انفي ان ثمة جرثومة من الحقيقة تكمن في الحلم ككل. فلو ان هاري كان بمقدوره ان يشاطر جونز جزءا من حلمه، وهو ما لم يفعل، لترتب على ذلك (ثنائي في الحلم) من امتع ما يمكن توقعه وذلك حسب الصيغ التي سبق وان ذكرتها قبلا، ولأفضى هذا كله الى توضيح في تقدم لحقيقة العلاقة بينهم، العلاقة التي كان يمكن ان

يكون لها ابلغ الاثر على ادارة وتسيير دفّة عمل رئيس كعملها ذاك.

يبدو لي انه من الاساسي بالنسبة لنا ان نتلمس في المستقبل طرائف اكثر تمكننا من الانتفاع من قوة الحلم وتأثيرها المباشر على حياتنا العملية، بدلا من محاولة التظاهر بان هذا النوع من وجودنا انما يعود الى منظر منفصل تماما عن مناظر حياتنا الشخصية، منظر كأن انفعالاتنا لا تدخل في حيرة، وان نحن عددناه وكأنه عبث او شيء تافه، او نظرنا اليه وكأنه ضرب من الترف، فان النظرة هذه من جانب مجتمعنا ستكون من قبيل الاسبقيات او الأولويات الزائفة التي لا تنم عن تعمق في التبصر. والمسألة كما عبر عنها جون رين لويس، ان رجال الاعمال وموظفي الادارة، حينما يخنقون مثل هذه الآراء بقولهم المكرور، (ان هذه المؤسسات ليست بمؤسسات صدقة واحسان)، انما يقومون في الحقيقة بدور (المارد الخشن)، وذلك لكي يقنعوا بعضهم بعضا ولكي يقنعوا انفسهم بذلك، ويضيف رين- لويس قائلا (ان الصناعة والتجارة يمكن ان تسير بصورة اكثر كفاءة لو ان ادارتها تمت بوعي تام على اساس انها مؤسسات خيرية... ذلك لان اعلى مردودات الانتاجية انما تتأتى من اناس يعملون معا بمحض ارادتهم في جو تسوده الثقة المتبادلة).

قوة الحلم في مجال العلاج النفسي

ان قوة الحلم مألوفة، بطبيعة الحال، لدى كل مختص بالعلاج النفسي محترف، لكني اعتقد ان ما استجد من افكار جديدة ابان عقد مضى او ما يقرب من ذلك امكنها ان تبعث حياة جديدة في اجواء غرف العيادات الاستشارية التي تعج عادة بحالات الرهاب الاحتجازي(١١). ومن الجديد في هذا الشأن هي طريقة بيرلز بصورة خاصة، وتقنيته تتلخص في تمثيل الحلم وهي تقنية ذات قيمة كبرى اذ تضع المريض امام احاسيسه وجهاً لوجه وبصورة مباشرة. وان اليونجيين(١٢) كانوا من قبل يستخدمون اسلوبا مماثلا يقوم على (الحوار الذاتي الداخلي) dialogue interior، لكني احسب ان تقنية بيرلز قد طورت الموقف هذا، وذلك بان ادخلت حركات الجسم ونشاطه في الصورة، فجعلتنا على وعي بالوقفة والجلسة مثلا، وبالاشارة والايماءة، وبالتعبير وما الى ذلك، كل هذا يتم ونحن نقوم بتمثيل موقف من المواقف. وارى انه قد زودنا بنموذج عملي ابسط نوعاً ما يقضي بعرض المتضادات ودمجها في آن واجد في كيان الشخصية. بتعبير اخر يمكن الكشف عما في الشخصية من متناقضات ثم اعادة تحديدها وتكاملها لينجم الانسجام.

ومن خبرتي تبين ان الفرويديين راغبون(١٣) عن استخدام تقنية من هذا النوع، لانها تنطوي على تدخل فعال من جانب المعالج، وهذا التدخل حسب اعتقادهم يفسد مسألة (التحويل) Transference، او الانتقال، وهي علاقة حدسية وليست واقعية يبقى فيها المحلل النفساني محايدا فيحاول الابتعاد عن إقحام نفسه في مشاعر المريض واحاسيسه بقدر المستطاع، بحيث ان المريض يستخدم محلله كشاشة بيضاء يسقط عليه جميع خيالاته وأوهامه. ومن رأيي، ان قلة ان انعدام التواصل الانفعالي الحقيقي بين

المريض والمعالج يعمل علي الحاق الاذى اكثر مما يفضي الى احداث خبر يرتجى. ومن خبرتي في حالتي الخاصة، فان الامر قد ادى الى حلقة مفرغة كنا ندور فيها انا ومحللي لمدة سنوات متلاحقة، انا من ناحيتي اتهمه بانه اشبه بجدار اصم، وهو من ناحيته يتهمني بانني لا اختلف عن ذلك ايضاً وكأنني جدار من قرميد! وفي الوقت الذي لا اذكر فيه ان تقنية الانتقال والتحويل يمكن ان تكون ذات جدوى مع نوع خاص من الناس وفي بعض الحالات والظروف، فاني اشعر في ذات الوقت انه في الغالب اشبه بلعبة يرمي بها المحلل على المريض، وان المحلل يضمر في قرارة نفسه توقعا مأساوياً بان ثقله سيزول عن المريض حالما يثوب هذا الاخير الى صوابه، وحالما يبدأ المريض يسهم بالتعاون مع المعالج ويعود له احساسه بانه انسان من جديد. والحق، اني لأعتقد بان العكس هو الصحيح، واني لأتذكر هنا القصة الممتعة التي ذكرها يونج يوم كان هو وفرويد يحلل كل واحد منهما احلام الاخر. وفيها ان فرويد كان قد روى احد احلامه الى يونج وطلب منه تفسيرًا له، وقد رد يونج بالقول انه لا يستطيع تأويله من غير مزيد من المعلومات عن حياة فرويد. فرفض فرويد على أساس انه ما اراد ان يخاطر بهيبته. فكتب يونج يقول معلقا (انه في تلك اللحظة قد خسرناها كلها). ان مغزى القصة يجب ان يتذكره جميع المعالجين يحملون في اذهانهم توقعات تقوم على اسس مأساوية.

إنها لمشكلة قائمة ومستمرة في العلاج النفسي ان يجعل المريض يكون حقاً وبالفعل على تماس مع مشاعره واحاسيسه فهو في الغالب يتحدث عن حياته ومشاكله فقط ولكن من غير ان يتحسس ابدا خبرات اي من إنفعالاته، وان مجرد الحديث حول الحياة والمشكلات، كما يعرف ذلك كل معالج، انما هو امر لا جدوى منه، من وجهة نظرنا يرتجى للمريض من تغير ونمو في مسرى حياته الشخصية. انه لمن الفألة المطلقة ان يقف المعالج عند طرف سرير الفحص من جهة رأس المريض ويأخذ يردد عليه عبارات

مثل (انت غاضب علي...) او: (انت تشعر بان امك لا تحبك...)، وما شاكل ذلك، فهذا لا ينفع فيه، ما لم يشعر المريض فعلا انه يتحسس كل ذلك باحاسيسه وانه يعيشها انفعاليا، وانه يتعامل مع خبراته وجدانيا. والموقف حقا كما يؤكده ولتر بونيم Walter Bonime. (يجب ان يحس المريض أحاسيسه بنفسه؛ يجب ان يحسها بذاته، وان يستشعرها، وان يتحسس احاسيسه باحاسيسه). انه حينئذ فقط يكشف اعماق انفعالاته الغائرة تحت كيانه الخارجي العقلاني والرائق.

ان بونيم هذا يشجع مرضاه على ان يعبروا عن احاسيسهم باحاسيسهم وانه يستخدم في غرفة العيادة الاستشارية عادة مفردات من الالفاظ يستخدمها مرضاه عادة في حياتهم اليومية. وان الالفاظ التي يستخدمها في العادة مرضاه في حياتهم العامة وفي احاديثهم الخاصة، يشجعهم على استخدامها مهما كانت متدنية(١٤) في مستواها، لان المرضى في هذه الحالة يعيشون مجرى خبراتهم واحاسيسهم وانها توضح حقيقة علاقاتهم اليومية. هذا وان الاسلوب التقني الجشتالتي يؤدي هذا الغرض ويحققه بصورة الية (اوتوماتيكيا)، فاننا، بدلا من ان نتحدث حوله ونصفه وصفا لفظيا، نكون قد عشنا احداثه بالفعل فنعبر على سجيتنا من وضعنا الطبيعي، فلا تلبث احاسيسنا ومشاعرنا ان تطفو على السطح وتقفز الي العيان، فتكون في الغالب مصحوبة بهزة وجدانية تهزنا باتقادها وقوتها.

ويتحدث بونيم كذلك عن فوائد تجميع المفردات الشخصية لكل مرض، والتي تعتبر نوعاً من انواع اللغة الاختزالية لوصف سمات الشخصية في صيغة رمزية، وقد وجدت من خلال عملي مع الفريق ان اعزل الذات العليا عن الذات الدنيا: الذات المسيطرة عن الذات المسيطر عليها، انه عمل ذو فائدة خاصة وفق التقنيات الجشتالتية. والفائدة هذه تتجلى من خلال استخدام اللغة الاختزالية هذه ممثلة بالألفاظ الخاصة بكل مريض. فزوجة جوزيف، مثلا، كلما وجدت زوجها متلكئا في إتخاذ قرار بصدد ما

يريد الاقدام عليه، تسارع فتسأله: (هل هو حقا قرار صعب الى هذا الحد بحيث يتطلب كل هذا التفكير؟ ام انها الاعيب اللاشعور القديمة اخذت تلعب لعبتها ثانية؟). وان جاك الذي كان يحلم بان العناكب تفسد عليه حياته الجنسية. كان احيانا يذكر الى فريق العمل اذ يقول: (ان العناكب اخذت تهاجمني مرة اخرى)، وان كلير كلما احست من بيتر اعراضا عنها واهمالا لها، كانت تذكره بقولها بانها ليست ملكة وثنية وانما هي كائن انساني بحاجة الى الحب والاهتمام والعناية بها. واني من ناحيتي، حينما ارفض مساعدة تقدم لي او عندما انتقد اناسا اخرين لعجزهم عن الوقوف على اقدامهم، فاني اتأمل فاسأل نفسي: (هل تلك هي آن التي تتكلم او انه شعاع الضوء الوهاج يتحدث؟)، وهو سؤال قد اعاد لي في الغالب إحساسي فيجعلني اتوحد مع مشاعري واحاسيسي (كل هذه التفاصيل مذكورة في الفصل العاشر). وان التقنيات الجشتالتية يبدو لي انها اساليب قيمة وتنطوي على ما هو عملي للوصول الى هذا النوع من اللغة الاختزالية، وهي طريقة رائعة واقتصادية من طرائق الاتصال والتفاهم.

وفي سياق قيامي بالكتابة والقاء المحاضرات حول الاحلام، فاني غالبا ما اسوق امثلة استقيها من تأويلات وتفسيرات نقوم بها ونجربها ضمن اعمال فرق وجماعات العمل الخاص بالاحلام والتي تعمل معي. وأنّي قلما يتاح لي الافلات من مواجهة سد متراكم من التأويلات والتفسيرات المغايرة والبديلة والتي تكون على مستوى جيد في الغالب لا سيما ما يصدر عن محللين ومعالجين كانوا قد حبكوها في ضوء نظريات كونها مسبقا ونظريات لا تخلو من خصوصية مزاجية. فكان الواحد لا يتوانى ان يقول مثلا: (لا يسعني الا ان افكر بان حلم زوجك السابق وهو ينشيء كنيسة في ارض بور ويقيم حواليها مسلات واعمدة ناتئة الا انه يعبر عن مشاعره الجنسية وفي كل دلالات رمزية على نواياه وما يضمر وما يفكر). او قد يقول آخر منهم: (ان حلم زوجك ذاك وهو غير ما ظهر فلا يعبر عن

سفر انما يعبر في حلمه هذا عن رغبته في المضاجعة . . .) اما اليونجيون، فانهم اميل الى تعقيد اكثر في التعبير والرمزية، فقد يواجهك الواحد منهم بالقول مثلا: (اشعر ان جوزيف في حلمه قد قرن نفسه بالعربة البطيئة لانه لا يريد في حقيقة امره الوصول الى كنك كروس) وان هذا، افتراضا، ينطوي على قهر للسهوات وقتل لنزعتها.

انا دائماً اصغي باهتمام الى التفسيرات البديلة واني ارحب بما يطرح من اقتراحات وانتقادات بناءة، فاضعها في ما بعد امام الحالم اذا كان لا يزال عضوا مستمرا ضمن جماعة فريق العمل. لكن جوابي الاعتيادي دائماً هو ان الحلم انما هو ذلك صاحبه، وانه- الحلم- نتاج فريد ينشأ من شبكة واسعة من ذكريات الحالم ومن اعماق شعوره ومن تداعياته، وان حلمه في نهاية المطاف، انما هو ذو معنى على اي وجه يجد هذا المعنى وما يؤول الحلم اليه. واذا كان ثمة ناقد يصر على الاعتراض ويتمادى في النقد، فاني اقول له: (تلك هي رحلتك، ولا تلق بها على كاهلي) ومن ثم فاني امتع الحاضرين بقولي لكم ان تفسروا حلم الناقد في صيغ وعبارات تلائم شخصية الناقد ومشاكله!

واني كذلك اذكر المعالجين النفسانيين بكتاب: تفسير الاحلام Dream Interpretation(وقد سبق لي ان اقتبست منه) تأليف المختص بالتحليل النفسي، توماس فرينش Thomas French، والمختص بعلم النفس اريك فروم Erik Frommوكلاهما ينتقد رفاقه المحترفين نظرا الى ان زملاءهما في طريقة تفسيرهم للاحلام يأخذون بالطريقة (البروكرستيزية)(١٥)؛ وتتألف من انهم يأخذون من احلام المرضى فقط ما يلائم بشكل مناسب نظرياتهم ثم هم يتجاهلون البقية منها. فبالنسبة الى فرينش واريك، وان التفسير لا يكون مكتملا ما لم يتم تدبر الحلم ككل Whole والنظر اليه كوحدة متكاملة (على وفق خطوات هول وطريقته من حيث النظر الى الحلم كصورة تامة زائدا ما يرافقها من تداعياتAssociation وما لم يجر ترتيب الاجزاء

المختلفة منه بشكل منتظم سوية على نحو ما يتم في تنظيم وتنسيق احجية الصورة(١٦)المقطوعة Jigsaw puzzle. ومما قاله فرنش واريك، (نحاول ان نجعل تفسيراتنا تأخذ شكلها من الالفاظ النابضة بالحيوية والتشبيهات الزاهية التي يدلي بها المريض نفسه فبدلاً من إقحام نظرياتنا وجعلنا نؤثر على التفسيرات، نأمل، بدلا من ذلك ان نستخدم الاجراءات التفسيرية معيارا بل محكا متجددا ابداً لتمحيص نظرياتنا والتحقق منها)- ان هذا لتحذير حي ما من معالج نفساني يستطيع تجاهله.

واني ما اعتدت قط ان افرض تفسيراً على طلابي، وان قولي هذا ليس بانكار دفاعا عن النفس، وغالبا ما اجدني عندما لا تكون لدي ادنى الماعة عما يمكن ان يكون عليه الحلم او ما يعنيه حقا وقبل ان نبدأ بتحليله، فاني اغير فكرتي توا وقبل ان نسير فيه الى النهاية. واني لاذكّر نفسي باستمرار ان اية نظرية اروم صياغتها، فاني استمد اسسها مما يعنيه الحلم بالنسبة لي ومما كنت قد حلمته، لكن ذلك ليس مما يعني بالضرورة نفس الشيء بالنسبة الى الحالم. فللحالم خبراته واحاسيسه ورأيه. وكتب بيرلز بهذا الشأن وبشأن الحياة العامة وبصدد جهد المرء بشكل خاص، اذ يقول: (لا تدفع بماء النهر دفعا، فانه يجري بنفسه). ولقد جعلت من هذا القول قاعدة ذهبية في تفسير الاحلام، واني لاعتقد بان لكل حالم الحق ان يصر على ذلك. وفوق هذا كله يلزم المعالجين النفسانيين ان يأخذوا بمأثور القول الذي يردده الهنود الامريكيون: (إحترم احلام اخوانك)(١٧)(١٨).

هوامش الفصل الحادي عشر

(١) إشارة الى الأسرة .... (المترجم).
(٢) استخدمت المؤلفة لفظة governmemt ومعناها حكومة ولكن ترجمتها كما في المتن أوقق .... (المترجم) .
(٣) وفي الحديث الشريف ما يذكّر الفرد بضرورة الأعتدال لمواصلة العمل في الحياة، لأن الأنهاك قد يخل بالأتقان والحديث الشريف : (المنبت لاظهراً أبقى ولا أرضاً قطع). (المترجم).
(٤) تقصد المؤلفة الأنغماس في اللهو ..... (المترجم).
(٥) التخييل حيلة دفاعية للهرب من مواجهة الواقع فلا يعود المرء بذلك قادراً على التمييز بين الحقيقة والوهم. (المترجم).
(٦) ألأسقاط حيلة دفاعية يحمي بها المرء نفسه من مشاعره غير المقبولة فينسبها الى الآخرين وذلك بأسقاط تللك المشاعر على غيره، ولأنها تؤدي إلى خداع الذاكرة فأنها تضّر بتوافق الشخص مع محيطه الاجتماعي وبعلاقاته الاجتماعية.........(المترجم).
(٧) Vale Evesham (أيف شام)اسم علم وهي مؤلفة من (Eve) وتعني حواء ، كما تعني مساء ، عشاء ، اليوم السابق لحدث معين . و (Sham)ومن معانيها: خدعة رياء، شيء زائف، كاذب، يحتال على، يزيف . ومن مدلول الكلمتين تأتي معاني التورية في سياق الحللم (المترجم).
(٨) الكلمة الأنجليزية هي (Freebourg)وهي أسم علم، ولكن التلاعب بالألفاظ في محتوى الحلم يظهر حقيقة واقع الحلم كما في المتن، والواقع يحمل على تجزئة الكلمة إلى (Free)أي : حرر،

غير مشغول بشيء، ومنها (Freedom) بمعنى حرية، و (Bourg)وتعني مدينة صغيرة أو قرية، فيكون معناها مدينة الحرية ....(المترحم).

(٩) تجدر الأشارة إلى أن المؤلفة في سياق حديثها في تضاعيف كتابها هذا تؤكد على أهمية الحياة الواعية للأنسان في مجرى نشاطاته اليومية الأجتماعية بوصف الشعور بالعنصر الفعّال في صنع الحضارة، غير أنها تؤكد في الوقت ذاته أهمية الشطر الأخير من الحياة العقلية الا وهو اللاشعور، وجزء منه يظهر في الأحلام فلا ينبغي تجاهله أو أغفاله ....(المترجم).

(١٠) يجدر بالمربين من معلمين وأساتذة جامعات ممن يهتمون بمثل هذه الأفكار أن يقرأوا : تعليم الأنسان من أجل تعلم الأنسان، تأليف جورج أ. براون (١٩٧١)، (المترجم).

(١١) Claustrophbia رهاب الاحتجاز أو الخوف من الأماكن المغلقة، ويبدو بشكل جلي عندما يتراءى لمن يعاني منه أن لا مهرب مما يقاسيه، وأنه لا منفذ للهرب، وهو خوف لا شعوري وهو يظهر عادة عندما يكون هناك منبه يثير خبرة كانت مكبوتة لها علاقة بالموقف (المترحم).

(١٢) أتباع العالم النفساني السويسري كارل غوستاف يونج، والذين ساروا على خطاه في التحليل النفسي (المترجم).

(١٣) رعب عن الشيء عكس رغب فيه. اذ إن رغب عنه تعني تركه وعزف عنه (المترجم).

(١٤) الالفاظ المستخدمة يستحسن ايرادها لأنها لا تقدم ولا تؤخر شيئاً ....(المترجم).

(١٥) نسبة إلى بروكرستيز، وكان لصاً اغريقياً خرافياً، تذكر عنه الأساطير أنه كان يقطع من أطوال سيقان ضحاياه لتتناسب وطول

السرير الذي ينامـون فيـه؛ فذهب عمله هذا مثلاً ينطبق على كل عمل قسري....... (المترجم).

(١٦) أحـجيـة مؤلفة من قطع من الخشب صغيرة يتعين ترتيبها بحيث تشكل صـورة محددة المعـالم، وهي كـثيراً مـا تكسب الطفل مـهـارة السرعـة والدقة........(المترجم).

(١٧) ورد ذلـلـك في مـسـتـهـل هـذه الـترجمـة تحت عنوان : قـالوا في الكتاب..........(المترجم).

(١٨) بعـد أن أنتـهت المؤلفة من كتابة الفصل الحادي عشر هذا ، كان كـتـاب بيل شـولتز الموسوم : كل فرد إلى هنا، أو الّي هنا كل فرد Every body comes Here وقـد ضـمّنه مـؤلفـه مقترحات عـملية نافعة تتعلق بتوجيهات تهتدي بهاجماعات المصارحة المفتوحة في مـعـالجـة مختلف شـؤون الحياة . انه كتاب ممتع ومبصرّ بمعرفة حقيقية الذات (المترجم).

الفصل الثاني عشر

ما وراء الحالة الثالثة

نظراً الى أن من حق كل حالم ان يصر على واقعية ما في حلمه الخاص به من خبرة عرفها بنفسه وتجارب مرت به في رحلة حياته، ومن حقه الا يستمع لاي شخص اخر بتفسير حلمه على هواه، فاني لمستيقنة في الوقت نفسه من أنه يتعين علينا أن نحمل على محمل الجد تلك الاحلام النادرة، اللافتة للنظر، التي تبدو انها اكثر من مجرد انعكاسات لما يجري عادة في حياتنا اليومية من صراعات وتناقضات، ولقد حاولت جاهدة في هذا الكتاب ان اكون جد واقعية بشأن ما يمت بصلة الى الاحلام وما يتعلق بها. ذلك لان ما قمت به من دراسات قد اكدت الاستنتاجات العامة التي تمت في ميدان بحوث الاحلام وما خلصت اليه تلك البحوث منذ عام (١٩٥٣)، اذ اكدت هذه الدراسات ان معظم الاحلام ذات طبيعة مماثلة لما تمخضت عنه تلك البحوث او الدراسات، وقد اوضحت ان احلاما كهذه يمكنها ان تسدي الينا خدمة بالغة الاهمية، اذ هي تضعنا وجها لوجه امام انفسنا للتعرّف على دخائلنا، فتجعلنا على وعي تام بما يجري دائماً في اعماقنا من عمليات ما اكثرها وهي تأخذ مجراها وتفعل فعلها تحت مستوى ادراكنا الشعوري. ان ايماني الراسخ على اية حال، هو على وجه الدقة كما تعلمنا حتى الآن كيف نستخدم احلامنا بهذه الطريقة او تلك، فأن ما يترتب على الوعي الذاتي من تنام وتطور يرجح ان يفتح امامنا آفاقا عن احلام اكثر غموضاً تحصل لنا في حياتنا، احلام كانت قد استأثرت في الماضي بانتباه اشد لندرة نوعيتها وغرابتها. لذلك فأني اعتقد بما أن المجتمع سيفيد في الأعوام القادمة من الأحلام وما تنطوي عليه من قوى خفية، فائدة اكبر وانه سيوظفها لصالحه بشكل افضل على النحو الذي سبق لي وان وصفت

حتى الأن، فأننا سنجد ان حالة الوجود الثالثة هذه لها انواع اخرى من القوى الكامنة فيها كذلك، وأنها تفضي الى ما وراء ذاتها فتؤول الى مد وعي الانسان وتوسع آفاقه بأساليب على نحو لم يكن الانسان قد حلم بها بعد ولم تطرأ له على بال في اغلب وجوه فلسفة الحياة الحاضرة.

احلام الالهام الابداعي

ان قصص الأحلام التي استأثرت، خلال القرون القليلة المنصرمة، بمعظم الانتباه واستحوذت على الاهتمام هي تلك التي حصلت فيها حالات الهام ابداعي خلال النوم او في احلام اليقظة (١) (reverie)، ومثال على ذلك قصيدة الشاعر كوليرج؛ الموسومة ب(قبلا خان) Kubla Khan؛ ونظرية اوتو لوي otto Loewe ؛ الخاصة بالانتقال الكيميائي للنبض العصبي، وكذلك رؤيا كيكول kekule ؛ اذ حلم حلما رأى فيه حية تبتلع ذنبها، مما اوحى اليه بعلامة تشير الى حلقة تركيب البنزين، فعن طريق هذا الحلم اكتشف معادلة او حلقة تركيب البنزين والعلاقة بين اجزائه، وعن طريق الاحلام تعلم احد المختصين بالطب النسائي فاكتشف يربط بيده اليسرى عقدة جراحية في اعماق التجويف الحوضي، هذا وغير ذلك كثير من الحالات الاخرى. واني لاعتقد بان هذه الظاهرة، على قلتها وإمتاعها في الوقت الراهن، ستغدو فيما بعد اكثر انتشارا كلما تعلمنا كيفية تنقية عقولنا من العقد العصبية التي تمتص طاقاتها وتستنزف حيويتها. ولنعلم ان القلق عدو للابداع لدود، وان عقولنا لن تكون حرة لتتعامل بابداع مع جميع ما يدخلها وتتلقاه اثناء الحياة الواعية، الا عندما تنزاح عن طريقها كل هذه العوائق. وان الموقف هو كما ذكر المحلل النفساني لورنس كوبي Laorence Kubie ؛ في كتابه: التشويه العصابي لعملية الابداع، اذ اوضح انه لمن الوهم، بل لمن تمام الخطأ الظن

بان الابداع الفني يتأدى نتيجة لما هناك من عصاب، يقينا ان بعض الفنانين عصابيون لا ريب، لكن انجازاتهم الابداعية هذه رغم ما لديهم من رواسب انفعالية عالقة، هي في الحقيقة ليست ناشئة عن حالاتهم العصابية، فلا علاقة لما ابدعوه من فن رفيع بتلك الحالات في واقع الامر.

لعل اغلبنا لا يتسنى لهم ان يؤلفوا قطعا موسيقية كبرى او ان ينظموا شعراً متميزاً، او ان يقدموا اختراعات رئيسية، او يبتدعوا نظريات علمية مرموقة، لكني واثقة من ان لدى معظمنا طاقات عقلية ابداعية هي في الوقت الحاضر ثاوية فينا لكنها عير مستثمرة، ذلك لاننا ننفق معظم طاقاتنا العقلية في حلبة صراعات نفسية لا ضرورة لها فنبدد كثيرا من قوانا في متاهات علاقات تمويهية مدمرة. وان خبرتي لتدل على أننا كلما تعلمنا كيف نستخدم قوى احلامنا لتخليص انفسنا في الاقل من بعض هذه الحلقات المفرغة المغلقة، وجدنا المزيد من الامثلة الخاصة بالالهامات الابداعية التي تكشف عنها احلامنا، حتى وان كانت تلك الهامات ضئيلة العدد نسبيا.

احلام ملهمة كهذه ليس بالضرورة انها تنطوي على شيء خارق يرتبط بعقل النائم اكثر مما يمكن ان تنطوي او تكون عليه بعض المكنيات التي سبق لي وأن بحثتها في فصول مبكرة من هذا الكتاب. ان الالهام الابداعي لا يتأتى من العدم ولا يأتي من لا شيء، فانه اشبه بالبركة، يسمح فقط للعقل المهيأ الذي سبق له أن اعد نفسه فتأثر بحقائق متناسقة والهامات جمة، وافكار كثيرة، ضمها الى بعضها ونسقها وهضمها. ان لحظة الالهام غالبا ما تطرأ كومضة في حالة الحياة الواعية. عندما يحدث فجأة ان ينتظم بكل شيء فتبدو ثمة اشياء جديدة مترابطة مع بعضها على صورة نسق عامر بالمعنى وله دلالة ومغزى، ويحصل هذا عادة عندما يكون العقل مسترخيا رائقاً غير متوتر. ولعل بعض الالهامات التي تتراءى للعقل وتطفو على الذهن وقت حدوث الاحلام لا تكون من نتاجات العقل النائم الحالم لتوه قط، وانما تكون قد تمت صياغتها مسبقاً في خلفية العقل خلال النهار،

فتبقى هناك كامنة غير منظورة ولا ملحوظة مغطاة تحت خلفيات اللفظ اليومي حتى يرين النوم ويغشى النائم فتجد فرصتها مواتية فتظهر وتتجلى.

وثمة، في واقع الحال، من الناحية الاخرى، يمكن ان تكون هناك عملية من عمليات التكامل ونمط من التحري والبحث تكون جارية النشاط وقائمة المفعول خلال فترة الحلم نفسه. لكني، في كل الاحوال، لا ارى ثمة حاجة تستدعي اثارة تأويلات خاصة اكثر من تلك المتضمنة في ذلك النوع الغريب الخارق من اعمال التحري الناشط اللاشعوري في كل ما يتعلق بمواقف الحياة اليومية وهو ما سبق وصفه في الفصل الثامن.

تعلم كيفية التعامل مع الاحلام (تأويلها)

اكثر انواع قوى الاحلام غموضا وابهاما، والتي تثير مشكلات فلسفية ونفسية مهمة بشأن الطبيعة الدقيقة المحددة بصدد الشعور الحالم، هي تلك التي تمكنا بواسطتها اتباع خطوات لمعالجة محتويات الاحلام عن طريق انتهاج عمليات على ايجاد واضح المقصد واهداف اثناء اليقظة. وقد صادفت هذا الاحتمال اول مرة منذ عدة سنين خلت قبل ان أختص بعلم النفس، عندما كنت أنتمي الى جماعة تطلق على نفسها جماعة (الطريق اللامتناهي)، ومؤسسها رجل أعمال امريكي، أسمه (جويل غولد سمث) وكان يعالج مرضاه وفق اسس علمية فيها مسحة روحية، وكان يقول لنا ويعلمنا ان نتعامل مع المشكلات الجسمية والنفسية عن طريق (معرفة الحقيقة) المتعلقة بتلك المشكلات، واعني انها مشكلات لا سلطان لها علينا في واقع الامر، لو لم نكن نحن انفسنا سمحنا لها بذلك لتدخل مسرح حياتنا.

لم تكن لدي في ذلك الوقت اية مشاكل، ولكني كنت في الغالب اعاني من أحلام مفزعة كنت ارى خلالها قتلة غرباء يطاردوني فلا اتخلص منهم

ومن مطاردتهم لي حتي استيقظ مذعورة عندما احس وكأنهم يحيطون بي من كل جانب فيحاصروني ويضيقون علي. وقد طرأ على بالي أن أية أسئلة تعن لي واحب ان اثيرها حول تطبيق فلسفة (غولد سمث) على مجرى الحياة الواعية، لينبغي لهذه الاسئلة ولهذه الفلسفة كذلك ان تنطبق على ما أرى من احلام، لذلك عقدت العزم على ان انوي قبل النوم في كل ليلة، وحينما يتراءى لي اولئك المطاردون ، ان اتصدى لهم بالتحدي التالي . (لا، انتم، ليس، لكم، علي من سلطان)، وسرعان ما كانت تستجيب لذلك نفسي الحالمة، وان لم أكن أدرك وقت سريان الحلم انني كنت في حالة حلم، (وهذه ظاهرة سأبحثها عما قليل)، وبهذه الطريقة وجدت في ثنايا نفسي كثيرا من الشجاعة في ان انكفيء على اولئك المطاردين لي بشكل متعثر باديء الاول، ولكن الثقة لدي قد تنامت، حتى الفيتهم اما انهم يحجمون عن التقدم نحوي فيتوقفون في مساراتهم حيث هم، او انهم كانوا يتلاشون كما هي حال (دراكيلا) أمام الصلبان، او انهم يتحولون الى اصدقاء يتوددون الي. وبعد فترة وجيزة، فان هذه الاحلام المخيفة قد انقطعت تماما.

وان عددا من افراد فريق دراساتي عن الاحلام قد جربوا هذا التمرين بانفسهم عندما كانوا يتعرضون للكوابيس، وكانت نتائج ما توصلوا اليها شبيهة بتلك التي كنت قد توصلت اليها أنا. ولعل المكنية المحتواة في تضاعيف الاحلام مشابهة لتلك التي تحصل في كثير من التجارب وكلها توضح كيف يمكن ان يتأثر محتوى الحلم بايحاءات يتم غرسها بوسائل شتى، وهذا كله يتراكم قبل ان يأوي المرء الى فراشه، وقد اخذت انا من جهتي اغرس في ذهني، عن طريق التكرار الخيالي، برنامجا ينص على اني حينما يسرع يطاردني اولئك المطاردون الغرباء المخيفون، بان التفت نحوهم واقول لهم مرددة: (قفوا مكانكم، دونكم عني، اليكم عني، فانتم لا قوة لكم علي)، وقد ضمنت هذا البرنامج برنامجي الذي اثبته في جميع برامج

الاحـلام التي يتراءى فـيها غرباء مفزعون، وقد أجدى ذلك وافاد.

لا يلبث ثمـة سـؤالان فلسـفـيـان محيران تمخـضت عنهما هذه التـجربة، الاول مـنهما هو: كـيف يتـسنى للعـقل الذي يتـولى هذه المهـمـة، ان يدرك اولئك الذين واجـهـتهم خلال الحلم، هم في الحلم غرباء وليسوا الاشخاص الحـقـيـقـيين الذين الفت لقـياهم في دنيا الواقع؟ هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى، ما هي العلاقة بين الذات الحالمة التي تحمل في ثناياها الحل الخاص بحـقـائق الحـيـاة الواعـيـة، وبين العناصر المتضمنة في الشخصية الحالمة التي تتمخض في الحقيقة عن اشخاص غرباء يظهرون على مسرحها؟

فـعلى المسـتـوى النفسي، اذا كنا نتقبل ذلك، واني لمتأكدة من انه يجب ان نتـقـبله، ان الغـرباء في الحلم بالنسـبة لي انما هم رموز يمثلون قوى انفعالية يفـرزها عـقلي، واذا ما تحدثنا في حدود مصطلحات التوازن النفسي الداخلي، ينشأ السـؤال: فما هو مـعنى ومـغـزى اهمـيـة تعلمي مواجهة اولئك الغرباء، بوصـفـهم غـرباء أثناء النوم، بدلا من ان نعـمـد خـلال الحـياة الواعية، الى مـواءمـة ومـعـايشـة الانفـعـالات التي عنهـا ينشأون فـيظهرون نتيجة لها في الاحلام.

ان هناك، كما يبـدو، احـتـمالين مـتـعـارضين، . فمن ناحية ان يكون هذا يمكن هذا النوع من انواع مـعـالجـة الحلم، مـهما كـانت هذه المعـالجة نافعة كـوسـيلة في خـضم التـجارب القائمة في معالجة الكوابيس، يتوفر على تناول الاغـراض والمقـاصـد، بدلا من مـواجـهـة المشكلة الحـقـيـقية، وهذا معناه الارجـاء الى وقـت آخـر، ارجـاء الى يـوم يتـاح لنا فـيـه التـوافق مع الصراع الانفـعـالي الذي كـان في وقت مـا فـعـلا، ثم راغ فـتنحى جـانبـاابان الحياة الواعـيـة. وذلك هو أحـد الاحـتمالين، والاحـتمال الآخر، من جهة اخرى، يمكن ان تكون عـمليـة الاتحاد قد نبهت فاحدثت النشاط والعمل في العقل النائم، فـاوجـدت ضربا من ضروب العـمليات التي تؤدي بدورها في الواقع الى تـغـيير مجمـوعـة الدورات المتناوبة في الدمـاغ، وهي الدورات او الدارات

circuits التي يتولد عنها برنامج تنظيمي عجيب في دماغ الانسان، وان الشخص الذي يتعلم ان يعالج صراعا يحصل له على المستوى الرمزي خلال النوم، فانه في الحقيقة، وعلى غير وعي منه، يتجه الي مواجهة ذلك الصراع على المستوى الانفعالي، بوصف الرمز تعبيراً عن انفعال متخف لامر ما. واني لمتيقنة من ان هذا يصلح ان يكون مستقبلا موضوعا لبحث بالغ الاهمية، ولكني لا اعتقد اننا نستطيع الان التصدي له قبل ان نصبح متضلعين تماما في هو مألوف وشائع من جوانب قوى الاحلام.

ان حقائق مهمة في البحث وفق هذه الخطوات ستتوفر من الدراسات التي أجراها كلتون ستيوارت Kilton Stewart عام (١٩٣٥)على قبيلة (السينوي) المعروفة. فهذه القبيلة التي تصفها الادبيات الاناسية anthropological literature، (٢) بانها على جانب من الديمقراطية كبير، وهي تدعي انها لم تعرف في اوساطها انواع الصراع الداخلي في صفوفها منذ مئات السنين، وتذكر أنها تركن في صحتها النفسية ركونا قويا الى تفسير الاحلام(٣) وتدبر مضامينها والافادة منها. ان أفراد قبيلة ▪ السينوي) هذه يعتقدون بان الصور العقلية images، التي تظهر في الاحلام انما تمثل جزءاً من شخصية الحالم، وان الصور هذه تتألف من قوى نفسية متخفية بازياء واشكال ظاهرية خارجية (مثال على ذلك وضع الغرباء الذين ظهروا في احلامي)، وان افراد تلك القبيلة يخامرهم شك في ان كل فرد منهم يجب ان يتعلم منذ بواكير طفولته كيفية السيطرة على هذه القوى الخارجية والتحكم فيها. فهم، مثلا يعلمون اطفالهم منذ الصغر أن عليهم، اذا ما تعرضوا في الاحلام، الى (ارواح) spirits معادية، فأن مهمتهم يجب ان لا تقتصر على مواجهتها فقط، بل عليهم في الحقيقة ايضاً ان يهاجموها، معتمدين في هجومهم ذلك على (أرواح في الحلم)صديقة لهم، (ولعلهم يعنون بذلك الجوانب السليمة السوية في الشخصية)، لتساعدهم تلك الارواح الصديقة على طرد الارواح الشريرة، ولكن

عليهم، على اية حال، ان يتسلحوا بسلاح الشجاعة وان يصمدوا وأن يحاربوا معتمدين على أنفسهم، حتى يصلهم المدد من الارواح الصديقة. ان اعتقادهم هذا يتلخص في أن الحالم اذا ما قتل الصورة المعادية التي تظهر له في الحلم، فأن روح تلك الصورة ستظل دائماً فتبدو طائعة مذعنة او تكون في خاتمة المطاف حليفة لنفس الانسان. فهم يقولون ان الاشخاص في الحلم يكونون اخساء وخبثاء بمقدار ما أنت تخشاهم وتخاف منهم او تتراجع امامهم.

قبيلة (السينوي) هذه تعلم اطفالها كذلك انه يجب عليهم الا يخافوا من الاحلام التي يرون فيها انفسهم كأنهم يهوون من حالق او يسقطون فيها من شاهق، بل عليهم ان يتركوا انفسهم تنطلق في الحلم على سجيتها، حيث سيجدون في النهاية ان حلم السقوط ذاك قد تحول الى الحلم تحليق لذيذ وممتع. واني أنا نفسي قد جربت هذه التجربة فوجدتها عملية تماما. وان كلتون ستيوارت يذكر أنه عبر فترة من الزمن قد وجد انه باستعمال هذا الضرب من الاسلوب التربوي المستمد من الاحلام، قد أمكن تحويل احلام القلق لدى أفراد قبيلة (السينوي) الي احلام متعة وبهجة، ذلك لأنهم مهيأون لذلك تهيئة نفسية ذاتية، وان تأثير ذلك على السلوك الواعي في حياتهم اليومية كان نافعاً وناجحاً، ذلك لانهم اناس مسالمون على نحو عجيب، وحياتهم مليئة بالحيوية، غنية بالفعاليات، مفعمة بالامر الشعبي (الفولكلوري)، وبالموسيقى والرقص الايقاعي. الحق، انهم في واقع الحال يستعملون اساليب التعامل مع احلامهم من اجل تنبيه حياتهم الابداعية وايقاظ ما هو كامن فيها. فهم، مثلا، يعلمون اطفالهم انه يجب عليهم دائماً ان يعودوا الى الحياة الواعية مما يرون في احلامهم بفكرة ابداعية من نوع معين يأتون بها من مجال الاحلام التي تتراءى لهم في المنام. ومما يقولونه لاطفالهم ان عليهم اذا ما وجدوا انفسهم في الحلم وكأنهم يحلقون، يتعين عليهم ان يحاولوا التحليق الي مكان ما، وأن يقابلوا ارواحا هناك،

وان يجلبوا معهم رقصة ايقاعية جميلة، او يأتوا بقصيدة معبرة، او يأتوا بعمل او فكرة ابداعية من نوع معين. وهذه الافكار المجلوبة الجديدة يشارك فيها في صباح اليوم التالي بقية افراد القبيلة، التي بدورها اما ان تقبلها مع ثناء فتدمجها في ثنايا نشاطاتها لتكون جزءاً من مقومات حضارتها، او تستبعدها مع تحذير رقيق للحالم بان عليه ان يجتهد في المرة القادمة لان يؤدي دورا افضل! وبهذا فاني متيقنة بأن هناك الشيء الكثير مما يمكننا ان نتعلمه من هؤلاء الناس، وان مسألة الحلم في مجمله وككل، وكيفية تناوله، لهي مسألة موضوع جذاب يغري بضرورة البحث فيه في المستقبل الآتي.

الحلم الشفاف

الحلم (الشفاف)، وسمي هكذا، لا لانه واضح بصورة غير اعتيادية، وانما هو وصف كذلك لان الحالم يعي وقت عملية الحلم ويدرك انه يحلم وفي حالة حلم، وهو يحس بنفسه انه يمتلك تمام ما نسميه الشعور الاعتيادي في الوقت الذي يرى فيه نفسه مع تام اليقين بأنه نائم في فراشه. وهذا النوع من الحلم يسمى احيانا (حلم التعرف) او المعرفة، dream of knowledge وهو من وجهة نظري، عنوان مثير (دراماتيكي) مناسب لظاهرة هي من غير شك اكثر اثارة.

واني قد رأيت، خلال السنين القليلة الماضية، عدة احلام شفافة، ولذلك فاني استطيع ان اتحدث من منطلق خبرة وان اثبت حقيقة الواقع التجريبي لهذه الظاهرة. ففي احد هذه الاحلام رأيتني اتحدث الى جدتي، ولكن سرعان ما ادركت، وأنا في حالة الحلم تلك، انها كانت قد توفيت منذ سنوات كثيرة خلت. فهذا الادراك، وأنا حالمة، جعلني اعي بأنني كنت احلم، فاستيقظت. وفي حلم شفاف آخر، وجدتني قتلت في غارة

جـوية، ووجـدت نفسي ومن كانوا معي (في الجانب الآخر) من المكان الذي حـصلـت فـيـه الـغـارة، ادركت اني لم اقـتل، لكني رحت اشكو من الم في ذراعـي الـيسرى، وعند ذاك اخـذت احـداهن تتـحـسس في حـقـيـبـة يدها فـاسـتـخرجت قنينة تحتوي اقراصاً، ناولتني واحدا من تلك الاقراص وهي تقـول لي انه سـيـشـفي الالم، فما كـان مني الا ان انفجرت ضاحكة، لأنني ادركت ان الأقراص المخففة للألم لا تنفع (الجسم الوهمي) astral ، وقد تلت ذلك في الحـال فكرة خـامـرتني مـؤداها، (ربما انا لست ميتة، وأنما أنا حالمة)، وما أن تأملت هذا اللغز المبهم حتى استيقظت من نومي.

ان احـلامـا كـهـذه، ومنهـا حـشد ضخم متراكم، وموثق في كتاب الفته سيليا غرين (celia green)، بعنوان: (احـلام شـفـافة)، تبدو كلها انها احـلام توضح ان العـقل الحـالم ينطوي، في بعض المناسبات في الاقل، على بـعض الخبرات التي ليست هي في اي حـال من الاحـوال مجرد انعكاسـات للحـيـاة الواعـيـة الشـعـورية او انعكاسات لحياة اليقظة. وهنا يطرأ سؤال: ترى مـا هي بالضـبط طبـيـعة هذا النمط الجديد من الشعور الحالم، وما هو مـعنى اية نشـاطات قـد تزمع الاقـدام عليـها حالما ندرك اننا حالمون واننا في حـالة حلم جـار وأخـذ مسراه؟ ثمـة شيء يبـدو مؤكدا، الا وهو أننا نمتلك القـوة التي تمكننا من تغـيير عـالم احـلامنا بطرائق يمكن ان نطلق عليـها في الحياة الواعية ، حياة اليقظة، مصطلح طرائق (سحرية) magical ، فقد روى لي احـد فـريق دراسـة الاحـلام، مثلا وجد فيه نفسه يسير وسط منظر طبـيـعي مـغطى بالثلج مـتـجـمـد، وكـان يشعر انه يرتجف من شدة البرد. فـخطرت له فكرة، وهو في حالة حلمه ذاك، الفكرة تقول: كم يكون ذلك المنظر جميـلا لو ان الوقت كـان ربيـعـا، وفي ومـضـة ادرك انه انما كـان يحلم فـصـمم على ان يحسبه ربيعا فتخيله كذلك، وان يجعله في عين عقله ربيعا. فما كـان، وهو يلقي بنظرته تلك علي ما هناك من ثلج وجليد، الا أن يكون المنظر اخضر والجـو دافئا، فتحول كل شيء على التوالي إلى ما اراد.

فما كـان هو فاعلا بالضبط يا ترى؟ لو أن هذا الحلم الخاص بتغير المنظر الطبيـعي علي النحـو الموصـوف، كـان قـد حـصل، ولم يكن حلماً شـفـافـا لفسرته طبـعـا كما هو متبع في هذا الكتاب، لفسرته بالقول بأن ما حدث انما هي حـيـاة انفـعـاليـة مـتجمدة وقد تحولت الى حياة دافئة، ولقد عرفت من خـصـوصـية حياته فيما بعد ان هذا هو ما كان قائماً بالفعل، وان هذا ما كان حـاصـلاً في حـياته؛ ولكن السؤال هو: هل كان بمقدوره ان يفعل اي شيء بمـحض ارادته ليـجعل ما حصل في الحلم يحصل بالفعل وليجعل ما حدث يحدث؟ أم أنه كـان وكأنه يحرك عـصـا سـحـرية كـانت في يده تمكنه من أن يتـفـادى مـواجهة برودة كامنة في طبيعته ؟ طالب أخر روى لي انه كلما حلم حلما يرى فـيـه نفـسـه محلقـا، فيدرك على الفور انه انما يحلم وكان يرى ذاته قـادرا على القـيـام خـلال الحلم باعمال وحـركـات بهلوانيـة مـصحوبة بمتعة جـسـدية كبيرة ومستمتعا خلالها بخفة جسمه الحالم. أكان هذا عمل ابداعي ام انه عمل هروبي؟

فـمن المؤكـد ان معظم ما تم من تجارب ممتعة انجزت في هذا المجال تنزع الى المحـافظة على جـعل الحلم مستمرا مع يقين المجرب بأن الشخص النائم هـو في حـالة حلم، ولكن دونما تدخل في حلمـه. وهذه الطريقـة شـبـيـهـة بطريقـة يونج المتـعلقـة بما اسماه ب(الخيال الفعال)، وتقع ضمن اطار الحلم نفـسـه، فـلا يجري احـداث خـيالات مفتعلة لجعل الحلم مستمرا في نشاطه حـتى لحظة اليقظة. فلو أن الطالب الاول من الطلاب الذي ورد ذكر حلمه قـبل قليل، قـد حلم مـرة ثانيـة بمنظر طبيعي متجمد فانه يكون من الممتع حـقـا بالنسبة له لو انه سمح او اذا هو سمح لنفسه، بالاستمرار على السير فـوق الجليـد المتـجمد، لو سمح بذلك واستمر لتبين اين ينتهي به المطاف، في حين يكون مـثل تلميذي الثاني في حلمه مثل افراد قبيلة السينوي، يحلق الى مكان ما، بدلاً من الأنغمار في اعمال بهلوانية.

ان تحـري هذه الاحـتمالات يمـثل جزءاً من منهجية جديدة في البحث قد

انتهجتها. وكنت قد ذكرت قبلا انني رأيت سلسلة من الاحلام مرت بي تشير في مجملها الى قلق كان كامنا في اعماق عقلي وان مصدر هذا القلق يعزى الى ما كان يساورني من هواجس لازمتني مردها الى ان ذهني قد ينضب معينه من افكار تمكنني من المضي في بحوث اوفر واغزر، وفي خاتمة سلسلة تلك الاحلام، حلمت كأن (لورد(٤)بومنت)Lord beaumont، زارني وقدم لي طعاما طازجا، وقد فسرت ذلك بأنه توكيد لي نابع من داخلي يطمئنني بان (الرب الخالق سيمنحني رزقا). ان ما منحني اياه الخالق (او ما كان كامنا عندي في اللاشعور الابداعي في اعماقي) كان يتمثل في الحقيقة في سلسلة من الاحلام الشفافة التي اتاحت لي الفرصة لان ابحث ما يترتب من نتائج تأتت من محاولتي القاصدة الرامية الى ان أنتهج في بحوثي في الاحلام منهجا مماثلا لمنهجية يونج او طبقا لخطوات الجشتالت ووفق خطوطها نفسها في تأويل الاحلام. وسيكون هذا موضوع كتاب أخر غير الكتاب الحالي. لكن الحلم الاول من سلسلة الاحلام الشفافة هذه، والذي سأنقله فيما يأتي، كان حقا ملفتا للنظر وجديرا بالملاحظة.

كان الحلم هذا قد اوردت جذوته محادثة جرت، في ليلة سابقة للحلم، بيني وبين صديقة لي مختصة بعلم الاناسة(٦)، وكانت هذه الصديقة قد سمعت حديثا لي في المذياع، فذكرت لي انها تغبطني وتحسدني على قدرتي في تبسيط افكاري وتوصيلها الى الرأي العام، واضافت انها ليس بمقدورها ان تستجمع قواها الفكرية على نحو كاف لتبسيط افكارها على النحو الذي استطيعه أنا. وكنت وقتئذ قد استشفيت من حديثها ان جهودي في نشر معرفتي وشهرتي بين الناس، لم تكن محترمة من الناحية الاكاديمية. كأنها كانت تلغز في كلامها بأنني ابسط ارائي للعامة ولكني اكاديميا لست على ما يرام حسب ظنها الباطن. هكذا ظننت بها. لكن عقلي الشعوري الواعي قد نحى هذا الظن واطرحه جانباً على اساس قاعدة العنب الحصرم(٧) الذي لم تستطع هي الوصول اليه. على انه من الواضح ان عقلي اللاشعوري الباطن

لم يكن في تلك الليلة بالأنا الأعلى المسيطر الاكاديمي في داخلي الماثل (أهو ممثل بالبروفسور ما كبث؟).

حلمت تلك الليلة كأنني كنت اتناول العشاء مع جماعة من النفسانيين المتشددين نوعاً ما المتزمتين، عندما انبرت فجأة امرأة من وراء المائدة فراحت تبادلني اتهامات مليئة باللوم بسبب عزوفي عن عالم النخبة الاكاديمية، والتخلي عن مكانة النخبة والانحدار، حسب اتهامها، الى مستويات متدنية تتمثل في العمل اليومي في صحافة يوم الاحد. وقد اعترضت على اتهامها ذاك، ورددت عليها بان ما قالته كان مجرد مبالغة ومحض مغالاة، وذكرت في معرض ردي ان للانسان العادي الحق بشيء من افكارنا في اقل تقدير، لا سيما انه يدفع ضرائب يذهب قسم منها لمنفعة دعم ما نجريه من بحوث. وعندما بلغ الجدل هذا الحد، فما كان منها الا ان بصقت عبر المائدة وهي تقول: اننا قد جلبنا على المهنة سوء السمعة، وان علينا ان نبقي على البقية الضئيلة الباقية من هيبتنا وسلطتنا، وما الى ذلك من كلام. وقد ثارت ثائرتي، وبلغ مني الغضب حدا واستبد بي الى درجة هممت معها بان أضربها او كدت، وما ان ادركت هذه الرغبة حتى ايقنت بمنتهى الوضوح انني كنت في حالة حلم وانني كان بوسعي ان انفذ تماما ما اردت، ذلك لان الاجسام الحالمة، كما ادركت وقتئذ، لا تتأثر بالاذى ولا بالايذاء.

فما كان مني الا ان مددت قامتي عبر المائدة فامسكت بشعرها ولكمتها في وجهها لكمة اسقطت اسنانها الامامية. وقد حملني الحماس هذا الى الاندفاع في العنف اكثر، ونشوة حماسة لم أشاهد لها في نفسي من قبل مثيلا سحبتها على الغرفة سحبا وهناك طرحتها ارضا ورحت اضرب جسمها بنفس تلك الحماسة ضربا مبرحا، وهي ايضا، بطبيعة الحال، كانت تقاوم وتقاتل، واني حتى هذه الساعة التي ادون فيها وقائع الحلم احس وكأن في وجهي ما يشبه الخدوش والخرمشة من اثار اظافرها، وما فتئت احس كأن

في ظهري ما يشبه آثار مسامير الجزمة. وعودة الى الحلم، ادركت عند ذاك ضعف قوتها في النهاية، ثم انتهى الاقتتال وتوقف. ثم تغير المشهد وانا ما لبثت في ذلك الحلم نفسه، اذ وجدتني في غرفة اخرى أسير باتجاه تلك المرأة نفسها، وقد تحولت إلى هناك وهي ترتدي بدلة ممرضة. واثناء سيرنا الواحدة نحو الاخرى، ذكرت نفسي بان يتعين علي الا اغير احداث حلمي الشفاف ذاك تغييراً سحريا، بل علي ان ادعها تسير تلقائيا حسب مسارها الطبيعي، وان ارقب ما عسى ان تكون عليه النتائج؟ لاحظت انها اخذت تبتسم، ورأيت اسنانها الامامية قد عادت الى مكانها من الفم؟ ثم افردت لي ذراعيها على سعتهما تعبيرا عن ودادتها نحوي وصداقتها لي، ثم احتضنت كل واحدة منا الاخرى وتعانقنا.

استيقظت من حلمي ذاك وانا احس بالراحة احساسا كثيرا، وكأن جانب الاستحذاء الانساني لدي قد احتج في داخلي على التحكم المسيطرة الاكاديمية، على نحو قد استحضر ما كان كامنا في داخلي من طاقة، وقد اطلعت هذه الطاقة باتجاه التكامل- طاقة لم احس قوتها في فكري فحسب، بل سرت حيويتها في اوصال جسمي كله بصورة قلما احسست بمثلها في حياتي من قبل، وهي نادراً ما تحصل من خلال الحوار (البرليزي(٨) Perl-sian)، الذي يتم في حالة اليقظة على المستوى اللفظي كاجراء شفاهي فقط. ان هذا الاكتشاف لما يمكن ان يسمى ب(بنية الحلم) او هيكل الحلم، الذي يتم من خلاله التنفيس عن التوتر الجسمي من غير ان يكون هناك اي اذى يلحق باي فرد اخر، يبدو انه اكتشاف وثيق الصلة بالافكار التي تعتقد بها قبيلة السينوي، كما أنه يعكس صدى فكرة قديمة غامضة مؤداها ان الحلم الشفاف يمكن ان يمهد السبيل الى (حالة رابعة من حالات الوجود) كائنة فيما وراء النوم، بواسطتها يتمكن المرء من بناء (جسد روحاني) له المقدرة على الارتقاء فوق الحياة الاعتيادية وتجاوز مداها. وهنا يمكن ان تتوفر آفاق جذابة بوسعها ان تفضي الى مزيد من

البحوث، وان الخطوة الاساسية الاولى في هذا المجال بالذات هي ان نستبين كيف ندرب انفسنا ونروضها في حدود قدراتنا لكي نستفيد من الاحلام الشفافة. وهذا شيء شرعنا في نطاق فريقنا الدراسي، بدراسته بالتداخل مع اهتمامنا الواقعي بالاحلام بوصفها وسيلة تمكننا من اماطة العوائق عن دروب الحياة.

احلام التصعيد(٩) (الانتشاء)

منذ سنوات خلت عندما كنت طالبة، رأيت حلما يختلف تمام الاختلاف من حيث النوع عن اية خبرة مرت بي سواء قبل النوم او اثناء اليقظة التامة. اذ رأيت نفسي في ذلك الحلم واقفة في شرفة البيت الذي يسكنه والداي، اطل منها على الحديقة، وكانت الحديقة في اتم إزهارها ورونقها، وفجأة رأيت الحديقة حفلت وملئت بنوع من الحياة جديد كل الجدة. رأيت الازهار والاشجار كأنها حقا تتنفس بطاقة ملحوظة بادية للعيان بوضوح وتشع بالوان غريبة غير مألوفة، فكل شيء بدا وكأنه يرقص في الطبيعة واحسست بان جسمي جعل يشارك الطبيعة الراقصة في رقصها ذاك بدت لي تلك الخبرة انها استمرت دقيقة، او دقيقتين، ثم عادت الحديقة بعد ذلك الى سابق حالتها الطبيعية الاولى، وما كانت عليه من جمال، ثم استيقظت بعد هذا من نومي، لبث هذا الحلم عالقا بذاكرتي على صورة خبرة فريدة واستثنائية خارقة الى وقت متأخر جدا عندما اخذت اشارك في بعض بحوث التجارب الخاصة بالعقاقير المخدرة، وعند ذاك رحت ادرك واحس بان دماغي صار، بطريقة غريبة، ولمدة لحظات قليلة، في حالة اشبه بل مماثلة لتلك الحالة التي يحدثها عقار ال (L.S.D) ،(١٠) وعقار الميسكالين(١١)، وكانت حالتي اشبه الى حد ما الحالة التي تحدثها الحشيشة(١٢).

وأبرز اثار هذه العقاقير هو انها تجعل المناظر والمشاهد، وكأنها تتنفس او

تتحرك، وكأنها تنبض بالحياة القوية، مما يجعل اجمل مناظر الطبيعة تبدو وكأنها عديمة الحياة اذا ما قورنت بتلك التي تلوح لمتعاطي تلك المخدرات؛ فتعطي احساسا غير طبيعي كأنه يشارك ما يحيط به من مشاهد اهتزازاتها وحركاتها ورقصاتها. بتعبير اخر، تصبح حالته الوجدانية على غير طبيعتها الحقيقية. انني خبرت ما اسماه تشارلس تارت (CARLES TART)، في كتابه بعنوان: (حالات الشعور المتغيرة)او المتبدلة (ولم يكن منشورا بعد يومذاك)، ب(احلام العلو) او التصعيد، لكن الحالات التي ذكرها في كتابه، كانت تصدر فقط عن اناس يمرون بتلك الخبرات بعد تناولهم عقاقير مخدرة ابان حياتهم اليومية، في حين ان حلمي المذكور كنت قد رأيته ولم اكن قد تناولت شيئا من تلك العقاقير. وهذا من شأنه ان يتيح امكانية تدريب العقل على ان يحقق حالة وجدانية خارقة من غير حاجة الي تناول عقاقير علي الاطلاق.

وقد رأيت عدة احلام من احلام التصعيد هذه، وكان ذلك اثناء وبعد فترة اجراء البحوث والتجارب على اثر العقاقير، وان احد تلك الاحلام ما برحت اتذكره بكل وضوح وانه لما يزل بمثابة لغز بالنسبة لي. ففي هذا الحلم رأيت نفسي في جزيرة وسط صحراء مع عدد من الاصدقاء، وقد هبت علينا عاصفة. وبينما كنا واقفين نراقب لمعان البرق في عرض السماء ونلاحظ امواج المياه وهي ترتطم بالصخور، خطرت على ذهني فكرة هي: (اتمنى لو معي شيء من الحامض)، ان امنيتي تلك قد تحولت الى حقيقة في الحال، وقد رأيتني بلغت مكانا عاليا وانا في حالة الحلم.. وفي اقل من لمح البصر وجدتني ارقص، واومض، وازمجر مع العاصفة، فبدأ لي وكأنني امتزجت بالوجود من حولي، فصرت كأنني جزء منه، في وسطه، في بؤرته، وعندما استعدت حالتي الاصلية في الحلم، التفت الى اصدقائي وقلت لهم: (انكم بحاجة الى حامض لتروا الشيطان وسط العاصفة)، فهزوا رؤوسهم اشارة منهم توحي بفهم ما قصدت، ثم استيقظت من

نومي وانا احس بالنشوة والزهو على نحو يفوق التصور ويتجاوز حدود الاعتقاد، انه احساس بقي حيا في نفسي لمدة عدة ايام. وهنا في هذه الحالة ايضا شاهد اخر يدل على ان حالة التصعيد الوجداني يمكن ان تتحقق من غير حاجة تدعو الي تعاطي العقاقير ففي هذه المرة جاءت في حالة (تصور عقلي) واستحضار صورة عقلية mental image ، لمادة ال(L. s. d.)، وقد نجح التصور العقلي وافلحت الصورة العقلية في استجلاب خبرة من الحلم الوجداني.

لعل انواعا معينة من الاحلام، بما فيها احلام التصعيد، لا ينبغي بالضرورة ان يتم تقييمها في حدود التبصر النفسي او باستعمال تعابير الالهام الابداعي، فنبدأ بان نستمد من تلك الاحلام ما نستمد ونستخلص منها ما يزيد، ثم نروح نعكسه على الحياة الواعية فقط، وانما ينبغي النظر اليها ايضا على أنها خبرات قائمة بذاتها. اذ فما الذي يحول دون ان تحتوي احلام الحياة عندنا، شأنها في هذا شأن حياتنا الواعية، على خبرات هي غايات في ذاتها، وما المانع من ذلك- كما هو الشأن في النظر الى مناظر خلابة او مشاهدة صور جميلة، او الاصغاء الى الموسيقى، او التحدث الى الناس، او الاندماج في محبة الاخرين- فما هو الحائل دون اعتبارها هكذا، بدلا من مجرد عدها وسائل الى شيء اخر؟ وبعد، فان الطبيعة، كانت ولا تزال سخية فيما يتعلق باوقات احلامنا، وبوسعنا بكل تأكيد ان نوفر لانفسنا قليلا من ذلك الوقت من اجل متعة جمالية اصيلة خالصة لا شائبة فيها.

ان ابرز حلم من هذا النوع مررت به بلوته كخبرة بعد ان انتهيت من بحث اجريته بشأن العقاقير وتأثيراتها- وكان ذلك بفترة وجيزة بعد ان وعدني (الرب) بان يلهمني افكارا جديدة. تراءى لي في ذلك الحلم وكأنني استيقظ، واغادر فراشي، واتجول في ارجاد الغرفة، كل شيء كان يبدو طبيعيا وعلى ما يرام، باستثناء وجود شباك كبير من جهة الجدار الداخلي، وهذا التفاوت جعلني ادرك بانني لست في حالة يقظة، وانما كنت احلم.

حدثت نفسي، بأن استذكر نصيحتي التي طالما اسديتها لسواي بضرورة مجاراة مثل هذه الاحلام، دونما محاولة لمعالجة وتناول الاشياء نفسها او المساس بها، وحدثت نفسي خلال ذلك بان انظر الى الخارج من خلال ذلك الشباك الذي كنت ادرك واعرف تماما انه لا وجود له في الواقع، فشعرت وانا في احداث الحلم باحساس معين يبعث على الضحك والسخف، كل هذا وانا في وضعي ذلك. وان ما اثار دهشتي، وانا في الحلم، هو بدلا من النظر عبر ذلك الشباك الى غفوة نوم ابنتي كما كنت اتوقع، وجدتني اجيل النظر واحدق عبر ارض خضراء فسيحة مغطاة كلها بازهار الاقحوان، وهي تمتد على مرمى البصر بما يبدو وكأنها غابة وراءها، تتخللها ازهار زرقاء اللون جرسية الشكل.

بقيت في موقفي ذاك دقائق قليلة مشدوهة، وكأني فقدت الاحساس بالزمان والمكان، شعرت وكأنني واقفة على شباك من شبابيك البيوت الانجليزية الجميلة وقد زينته يد صناع وسوت ارضه بالخضرة والنفاسة. وعندما حولت نفسي اخيرا من تلك النافذة والتفت الى الوراء وجدت غرفة ابنتي تماما كما هي عليه دائما، وتساءلت مع نفسي عما اذا كنت في حقيقة الامر في حالة جوال(١٣)، او لم اكن في الواقع حالمة. ولما اعتزمت ان أتحقق من مدى شفافيتي تلك، رحت الطم الفراش والكمه في محاولة مني لاتأكد عما اذا كان ملموسا حقا وكما هو عليه في دنيا اليقظة وهذا ما تأكدت منه. ثم اني رأيت زوجي في الفراش نائما بجنبي، وقد تساءلت: ترى اي شيء يشبه جسم الانسان تماما وهو في حالة الحلم؟ وكيف يمكن ان يكون؟ كل هذا جرى خلال احداث الحلم. وقد رحت اململه ليستيقظ. وكنت اثناء ذلك بالذات اتساءل بجدية تامة عما اذا لم اكن في الحقيقة مستيقظة وفي تمام وعي. وفجأة وجدت نفسي متكورة في الفراش وحدي، وقد وجدت ان زوجي كان قد غادر الفراش منذ ساعة في الاقل وانه كان قد ذهب الى عمله، وكان حرصي هذا نابعا من معرفتي بمواعيد

مـغادرته كل يوم. هذا كله جرى وانا في حالة حلم.

ومن ثم داخلني احـسـاس اشد ما يكون غرابة. اذ ان دفقات من الطاقة والحـيـوية قـد سرت في اوصـالي وانسـابت في ثنايا جـسـمي كله، ثم ولجت ابـواب التـصـعـيـد، وخـلاله انتـقلت الى نوع من انواع الرحلة الداخليـة لا يـدرك مـغـزاها الا اولئك الذين خبروا بانفـسـهـم مـا تحـدثه لهم العـقـاقير المنشطة. والمنبـهـة، كنت في الواقع احس بجـسـمي يتحرك بهذه الطاقة وان كنت اعـرف تمامـا اني كنت نائمـة. فـمن بعـيـد كنت اسـمع وقع طرقـات البنائين في الطابق التـحـتـاني (تحت الارض تمـيـيـزا له عن الطابق الارضي)، وعلى مـسـافـات كنت اقـدر ان اسمع نباح الكلب في حديقة الجيران، وعلى بعـد كان بمقدوري ان اسمع صوت حركة السير البعيد، واحسست بعاطفة جـيـاشـة ازاء جميع البشر، وتعـاطف معهم لعدم قدرتهم على مشاركتهم اياي خبرتي الغـريبـة العـجـيـبـة تلك خـلال تلك اللحظات وكما وصـفت. هذه الاحـداث قـد تمت وانا في حلم الانتـشاء ذاك. في هذه اللحظة دخل زوجي الغـرفـة حـاملا القهوة واني قد استيقظت حقا في هذه اللحظة. الآن عرفت انني كنت في حـالة حلم ورأيت خـلاله مـا رأيت، وكما وصـفت بها في ذلك النظر الى سـاعتي وتقدير الوقت. ان (الرب الخالق) قد هيأ لي حلما لم اسمع به مـوصـوفـا ولا بمـثله من قـبل- انها لخبرة خـارقـة لا يسعني الا ان انعتها بانها حـالة حلم من احلام التصعيد والانتشاء الشفافة- حلم حري بان يفتح آفـاقـاً جـديدة لمزيد من البـحـوث هي بكل مـعنى الكلمة (خارج مجال هذا العـالم). ولقد لاح لي وكأن التاريخ قد بدأ في ذلك الصباح.

لكن (الغـرابة كل الغـرابة)، كما كـانت تقـول (اليس)، جـاءت عندمـا رويـت هـذه الخبرة الى زوجي، اذ فما كـان منه الا ان ترك الغـرفـة لحظات مـعـدودة ليـعود بعدها في الحال، وفي يده ورقة مدون عليها حلمه الخاص به وكـان قـد رآه في تلك الليلة ايضا. قد حصل له قبل حلمي بحوالي ساعات تقـريبـا، وانه رأى فـيـه بانني هزته ليستيقظ لانه كان نائما في الجهة المغايرة

من الفـراش وانه لاحظ في حلمـه شباكا على الجدار في المكان الغلط، وليس في مكانه المعـهـود، وعندمـا لاحظ هذا التناقض، استيقظ بالفعل من نومه، وقـد دون حـلمـه الذي رآه على قطعـة الورق تلك التي جـاءني بها، خبرات مـن هـذا النوع تبـدو انها تأخـذنا من عـالمنا الاعـتيـادي المألوف باحـداثه المحـسوسـة هذه، فـتنقلنا هذه الخبرات الى آفـاق جديدة تماما حيث تتوفر، من بين مـا تتـوفـر، ادراكـات خـارقـة تتـجاوز مدى الحواس المعروفة. وهنا يجـدّ سـؤال هـو : ايـمـكـن ان يكون الادراك الحسي الخـارق الماورائي(١٤) (ESP)، والذي يتـعـذر الحصول عليه في المختبر، هو ما يرتبط على نحو ما بهذه الحـالات الشـعـورية غير الاعـتيادية؟ وما عسى ان تخبرنا هذه الحالات الشـعـورية عن انفسنا وبما نحن عليه، وعن العالم الذي نعيش فيه، والافاق المرجـوة لحـيـاة ارحب؟ ان بحـثي الحـالي موجه للتنقيب عن اجابات لبعض هذه الاسئلة في الاقل لكن تلك، كما قـالت (اليس)، يجب ان تكون قـصـة اخرى.

هوامش الفصل الثاني عشر

(١) أحلام اليقظة reverie أو daydreams : هو إستغراق في التفكير قد يكون نافعاً إذا ما أستتلى ما يفيد حياة الفرد، ولكن بشرط الا ينطوي على ما يبعد المرء عن دنيا الواقع........ (المترجم).

(٢) الأناسة وتترجم أحياناً علم الأنسان الحضاري (المترجم).

(٣) فيما أوردته المؤلفة عن سيرورة قبيلة السينوي هذه في تربية أبنائها عظة عميقة من ذلك مثلاً أن القبيلة بفطرتها وبحكم تراكم خبرتها أفادت من الأحلام في تعليم أبنائها كيف يتجنبون مخاوف الكوابيس، كما علمتهم كيف يدمجون في حضارة القبيلة كل جديد يجدّ في حياتهم الواعية كما هي الحال في أحلامهم التي تعكس في الغالب الجوانب اللاشعورية. (المترجم).

(٤) لورد Lord تعني عضواً في مجلس اللوردات في انكلترا، وتعني الخالق سبحانه، وهذا مما حمل المؤلفة على تفسير حلمها بأنه ينبئها بأنفراج فكري . (المترجم).

(٦) علم الاناسة أو الأنسنة والأنثروبولوجيا كلها تعني علم الأنسان الحضاري كما في الهامش (٢). (المترجم).

(٧) المثل العربي المألوف المستمد من القصة المألوفة (المترجم).

(٨) نسبة إلى (بيرلز) والنفساني المهتم بتفسير الأحلام والمؤلفة تشير إليه بأستمرار في ثنايا كتابها هذا، فهو ينتهج في أسلوبه المنهج الجشتالتي في علم النفس .... (المترجم).

(٩) هذه ترجمة لكلمة High وقد آثرت ترجمتها بالتصعيد لأن هذا نمط جديد يبحث أول مرة في مجال الأحلام، والتصعيد يختلف

عن التسامي الذي ينطوي على الجانب الشعوري وعلى الوعي التام. أما التصعيد فيتضمن معنى الأنتشاء الروحي شعورياً ولا شعورياً. . . . . (المترجم) .

(١٠) L.S.D حروف مختصرة من Lysergic Diethylemide ويعني هذا التعبير ثاني أثيل أمين حامض الليسرجيك، وهو عقار يسبب الهلوسة، ولهذا يسمى عقار الهلوسة (المترجم).

(١١) الميسكالين تنتج عنه إهتلاسات غير طبيعية ويترتب عليه تغيير في الأنتباه واضطراب في الحالة الوجدانية. . . . . (المترجم) .

(١٢) الحشيشة Cannabis مخدر يتسبب في إحداث آثار سيكولوجية . . . . (المترجم).

(١٣) الجوال (بضم الجيم) أو النوام (بضم النون) أو الروبصة، أو السرنمة، كلها تعني المشي أثناء النوم (المترجم).

(١٤) ويطلق عليه علم النفس الميتافيزيقي، أو ما ينجم عنه من ادراكات ميتافيزيقية، ويسمى كذلك الباراسيكولوجي، وهو علم له أسسه العلمية وجوانبه الروحية . . . . . (المترجم).

ملاحق

الملحق (أ)

اقتراحات لاستذكار الاحلام وتسجيلها

١- احتفظ دائما بجنب فراشك بورقة وقلم- بل ولعل من الافضل ان تحتفظ بمسجل قريبا منك.

٢- تأكد ان ثمة ضوءا او مصباح بطارية يدويا موجود على مقربة منك يمكنك انارته عند الحاجة في حالة تدوين حلمك او تسجيله.

٣- قبل استغراقك في النوم اوح الى نفسك عدة مرات ايحاءا من قبيل التالي مثلا: (ساستيقظ من حلمي في هذه الليلة، ساستيقظ بعد ان ارى حلما)، او اي ايحاء اخر تراه مناسبا وفق الخطوط المذكورة.

٤- لعل الذين لا يستيقظون بعد احلامهم دائمًا، او لا يستذكرون احلامهم باستمرار، وهم بحاجة الى عون اضافي وذلك باستخدام اسلوب ساعة التنبيه. وفي هذه اتبع ما يلي: وقت منبه الشاعة بمقدار ساعتين بعد استسلامك للنوم، ثم مدد هذا التوقيت بمقدار ساعتين بعد كل مرة تستيقظ بها. اجعل هذه العملية تستمر طول الليل باكمله، واعلم انك لا تضمن الاستيقاظ عندما تكون في حالة فترات ال (REM)، وهي (فترات الحركات السريعة للعين) وهي فترات من النوم العميق. ولكنك، على اية حال، ستضمن الاستيقاظ مرة او مرتين خلال الليلة الواحدة، إذا انت اتبعت الاشارات المتقدمة واذا كانت فكرة الاستيقاظ لا تنسجم وما تريد، فعليك ان توقت المنبه على وقت متأخر من وقت نومك، (فبدلا من توقيت المنبه لينبهك بعد ساعتين، وقته لينبهك بعد ٣-٤ ساعات مثلا...)، وذلك لان فترة(REM) هذه تكون اطول كلما اقترب الصباح، وبهذه الطريقة بوسعك ان تضمن حالة استيقاظ واحدة في الاقل، قبل حلول فترة

(REM)وبهذا يأمل المرء ان يستيقظ وفي ذهنه حلم جيد.

٥- اذا ما استيقظت خلال الليل، سواء أكان استيقاظك هذا تلقائيا ام بسبب منبه الساعة، وفي ذهنك حلم ما، فعليك ان تجلس في فراشك بهدوء وسكينة، ثم اسرج الضياء الخافت، اذ انه من الاهمية بمكان ان لا تقلقل نفسك بقوة بقصد جلب الصحوة التامة لنفسك، لان هذا النوع من العمل يمحو ويطمس ذاكرة الحالم ويؤدي الى تشتيت لمحات الحلم، اي ان يمحو ما يكون عالقا لفوره في الذاكرة. اذ ان العنف والقوة الجسمية والفكرية تطغى عليه فتبدد تركيزه. (بعضهم يجدونه من المفيد الجلوس في الفراش واغماض العينين، ومن ثم البدء باستذكار الحلم واستحضاره في الذاكرة رويدا رويدا)

٦- ابدأ حالا بكتابة الحلم او سجله مباشرة على شريط التسجيل، وليكن ذلك باسهاب وباوسع تفصيل، حاول الا تتوانى، والا تتكاسل او تسلم نفسك الى اغفاءة خفيفة، لانك ان فعلت ذلك فان حلمك سيختفي من معالم الذاكرة.

٧- استجمع ما تستطيع استجماعه من الارتباطات والاقترانات التي تطرأ على ذهنك فيمكن ان تأخذ في الأعتبار، مثلا، ارتباط الحلم بما سبقه من احداث ذلك اليوم، حاول نفسك: ما الذي يمكن ان يعنيه الحلم للوهلة الاولى، ويلزمك ان تفتش وتنقّب في ثنايا احداث اليوم السابق، وما عسى ان يكون قد أوضحه، ابحث في تضاعيف أحاسيسك وما هي عليه خلال الحلم وبعده مباشرة، تذكر اي شيء تحسب انه ذو اهمية، ستجد ان هذه الاسس كم هي نافعة ومجدية، عندما تشرع بدراسة الحلم في اليوم التالي، وسترى كم الامر مدهش.

٨- عندما تستيقظ من نومك صباحا وفي ذهنك حلم ما، فلا تقفز رأسا من فراشك، ظنا منك بانك تستطيع التفكير به على مهل خلال النهار وانت متأهب تماما لمزاولة عملك. الغريب في الامر هو انك ستخسر تذكر

الحلم، فعليك، اذن، بتدوين الحلم او تسجيله على شريط التسجيل وانت لما تزل بعد في فراشك، ثم أضف اية ارتباطات مناسبة لها صلة بالموضوع كما مر وصف ذلك انفا.

٩- يفضل ان تعكف على دراسة الحلم مباشرة بعد حدوث الحلم، وذلك باتباع الطريقة التي وصفتها في هذا الكتاب- ويتم ذلك بتمحيص الحقائق الموضوعية اول الامر والتحقق عما اذا كنت قد اغفلت قسما منها خلال فترة اليقظة وثانيا، عامله وكأنه مرآة ترى خلالها نفسك ومواقف حياتك، واخيرا حاول ان تمثله تمثيلا طبقا للاسس والقواعد الجشتالتية، وذلك لكي تكشف عما هنالك من متناقضات مستترة في طوايا شخصيتك، ومن ثم يجديك ان تحاول تحويل المتناقضات تلك الى عناصر متكاملة.

١٠- احتفظ باحلامك مضافا اليها تأويلها وتفسيرها في ملف خاص او في دفتر معد لهذا الغرض، وان تكون مؤرخة على نحو متسلسل ومنظم، نظرا الى ان لسلسلة الاحلام المتتابعة اهمية نافعة في تسليط الضوء على الاحلام المفرحة وفي توضيح ما يطرأ على المرء من تقدم سيكولوجي داخلي.

١١- اذا وجدت ان احلامك ما فتئت تتهرب منك وتتفاداك، او تراوغك، فاتبع طريقة الجشتالت وذلك بتوحية ذاتية اليها مثل لماذا هي تتمنع عليك حسبما هو موصوف في الفصل السابع من هذا الكتاب.

١٢- واذا ما اخفق هذا الاسلوب، فحاول اطلاق الخيال المتضمن في الحياة الواعية عند اليقظة، فتطلق لفكرك العنان للامساك بما يجري فيما تحت سطح العقل الشعوري، اذ ان تحليق الخيال من شأنه استقطاب قوى العقل الواعي، ولكن هذا طبقا لما هو موصوف في الملحق (ب) التالي. اذا واظبت على طريقة التحليق الخيالي هذه، فانك واجد لا ريب ان المنبه لقواك الداخلية سيعيد اليك تدريجيا احلامك المفقودة.



الملحق (ب)
خيالات اليقظة : طريقة لاولئك الذين يجدون صعوبة في استذكار الاحلام

وفر ما يناهز نصف الساعة تقريبا من الوقت خلال ساعات اليقظة للتجربة التالية، وذلك عندما تكون مستقرا والا تتعرض ابان ذلك لاحتمالات من الازعاجات:

استرخ على كرسي او في الفراش ودع عقلك يتجول بحرية تامة ويحلق بخيالاته، واذا كان لديك مسجل، فاعمل على ان تتحدث بافكارك بشكل منتظم ليتم تسجيلها فيه. ابدأ باي شيء يخطر على بالك مهما كان سواء اكان شخصا ام موقفا من مواقف ذلك اليوم- وعندما تخطر لك صورة واضحة او يعن لك خيال سجله بصوتك على المسجل او دونه كتابة على الفور. وغالبا ما تكون اول صورة تطرأ على ذهنك ذات اهمية خاصة فيما يتعلق ببعض الصراعات الجارية في حياتك اليومية: وهنا اقتبس مثالا استقيه من حقائق فريق الدراسة التي اقوم باجراء تجاربي عليه وبين افراده: ها هنا ليز (Liz) تستلقي مسترخية وهي بكامل راحتها، على اريكة الفحص المفروشة فوق ارضية الغرفة، تنطلق تتحدث فتقول: (انا الآن مرة اخرى موجودة في الريف بالقرب من منزل ابوي. آخر مرة كنت فيها هناك كان الوقت خريفا وكان الجو رائقا وكنت اتمشى في الغابة. واني لاتذكر شجرة قائمة هناك جذعها وجذورها اشبه بهيئة رجل هرم تغضنت ملامحه وتجعدت تقاسيمه، الى حد انني كنت على وشك ان اقف لاتحدث اليها).

وعند هذا القدر، فما كان مني الا ان تدخلت فطلبت من (ليز) ان تتوقف عن الاسترسال في تداعي كلامها وتوتره. وان توجه كلامها الى الشجرة مباشرة، فاعتدلت في جلستها وانشأت تقول:

ليز: مسكينة انت ايتها الشجرة الشائخة تبدو عليك حيرة تعريك وانت ساخرة مستنفدة. هل انت اياي تلومين على خطأ اتيته او لذنب اقترفته؟

الشجرة: (وقد غيرت ليز مكانها في الجهة المعاكسة المقابلة لمكانها الذي تحدثت منه قبل لحظات، وجعلت تتحدث بلسان الشجرة)" . حسن، لا اعنيك علي وجه اليقين، وانما اعني الناس الذين هم هناك، فأنت واحدة منهم وتمثلينهم. كان من المألوف ان يكون المكان هنا بين هذه الاشجار هادئا مطمئنا رائقا، لكن الناس في هذه الايام يأتون في صحوة النهار فيفسدون كل شيء. واني لابصر بام عيني ان جمة(١) من بنات جنسي وجميات(٢) من الاشجار قد اختفت فتوارت عن الانتظار، فما الذي طحا(٣) هذا العالم وما الذي دهاه؟

ليز: تكاثر الناس في هذه الدنيا فامسوا اكثر مما كانوا عليه من قبل. عن الحواضر(٤) ارتحلوا وعلى حرمات الريف تجاوزوا واعتدوا، إنّهم يبنون لانفسهم منتجعات ليروحوا عن انفسهم فيها وليعيشوا فيها. وهذا بعض ما اودى بحياة خليلاتك اللاتي تذكرين، انهن قد اجتزت اصولهن من فوق الارض ليخلو المكان لمساكن تشاد للبشر من الانام، ولعلك في قابل الايام ستكونين انت المستهدفة مثل غيرك من هذه الآجام.

الشجرة: يا الهي، يا الهي، ما عساي ان افعل، ماذا انا فاعلة؟ لا اريد ان اجتز من على وجه الارض اجتزازا، ها انني قد نموت فوق هذه الارض وعليها انتصبت منذ قرون كما ترين، افلا تقدرين ان تمدي يد العون لي فتساعدين.

ليز: حسن، انني لا ادري. فلولا انك علي هذا الضرب في اعماق الارض راسخة لاقتلعتك وفي مكان اخر غرستك، انك ماثل جميل واصلك في جوف الارض أثيل. فما عليك الا بان تضربي في اغوار هذه التربة بجذورك واصولك (وقفة تأمل صغيرة). وهذه هي المشكلة مع اخرين امثالك،، فانت بثبات في ابعاد الارض تتجذرين، تحسبا منك لما

تـريدين تأمنين، وتناسـيت انك رويدا رويدا بمكانك تتـشـبـثين، فـلا على الحـركـة انت تقـدرين ولا من منبـتك بعـد تتـزحـزحين، وحين يدهمك هذا الخـطر فـانك من مـسـتـقـرك هذا لا تريمين. (وقـفـة تأمل قـصيرة)؛ انك لـتـعـلـمين ان جميع شرائع السماء من هذا قـد حـذرت وانذرت- وها انت في مـفـاوز الارض قـد ارسيت قيمك، لو انك كنت مثلي فابقيت جذورك فوق وجـه الارض سـابحـة او في الاقل على سطحـهـا سـارحـة، لامنت الغـوائل ولتـحـاشـيت العـثـرات عندمـا تستجد الضرورات، حقا انها منك لاحدى الهـنات والزلات، واني لاحـسب ان عليك الآن ان تتلقي نصـيـبك من ذلك مثلما هو الانسان.

نلاحظ في هذه المحـادثة او المحـاورة ان الجـانب المتـحكم المسيطر (الانا الاعلى او الذات العليا)، يتجلى فيها احكامه على الجانب المستكين (الذات)، المنفـذ المتلقي، وان هذا ليبدو واضحا، وليز ما برحت تتحول من اريكة الى اخرى، تابعت من موقعها في كل من الاريكتين تقول:

الشـجـرة: بيـد اني شجرة ومن احكام طبيعتي ان اضرب بجذوري بعيدا في اغـوار الارض وانك كما اظن تنسين اني علي اية حـال سـامـقـة اتطلع الى العـلا نحـو السماء، واني كـذلك اوفـر عشاشا للطير وملاذا لها من كل اذى ومـن كل نفس، واني اغـذو الحشرات من كل جنس... واني مع هذا وذاك ابدو جد جميلة.

ليـز: اجل، اجل، اننا لكل هذا مدركون، لكن الناس اكثر منك في هذه الحـيـاة اهميـة، ولو اني اطلق لي حق الخيار، لكي اختار بين الايواء والاكساء واطعـام ذوي الحاجة من بني أدم وحواء، وبين الابقاء على ديمومة حياتك، فاني لانزع الى التضحية باستنباتك.

الشـجـرة: لكن الناس لا يسـعهم العيش بفقدي وغيابي، فانا احيل ثاني اكـسـيـد الكربون الى اوكـسـجين لتتنفسوه انتم البشر وبه تحيون. تذكروا ولا تنسـوا مـا حل بكم يوم اقـتطعـتم واجـتـثـتم من قارة افريقية الاشجار، لقد

عـدت عليكم بعـدها سوافي الرمال وزحفت نحوكم عوادي الصحارى.

ليـز: اني من هذا على يقين، واصبـحنا نحن بني الانسان- لناصية العلم الان مـالـكـين، وانـنـا اليـوم نملك القـدرة لصنع ادوات بواسطتـهـا نتنفس الاوكـسـجـين، وان البـشر فـوق الـقـمـر، عما قـريـب لـسـوف يـصنعـونه (الاوكـسـجـين) حـيـث لا شـجـر هـناك يستنبت، بل يجب ان تزولي انت وتختـفـين من هذا الوجـود، وان للانسـان ان يـبـقى ويتطور، اذ لا نسـتطيع ارجـاع عقارب الساعة الى الوراء.

الشـجـرة: اني لا احب ان اعـرقل مـا انتم عليـه سـائرون، وما انتم فيه مـتطورون، ومع هذا فـاني لمستـيـقنة من اني لا زلت لي في حـياتكم مكان، طالما انا شجرة نابتة اطاول كرور الزمان.

كـان الجـانب المستكين (الأنا) لا يدافع الا دفاعا فاترا متوانيا، كما يبدو، وهنا سألت ليـز اذا كـان بمـقـدورها ان تؤدي دورا على نحـو انشط وبشكل افـضل. فـقـد سألتـهـا مثلا ماذا بوسعها ان تفعل ازاء تهديد الجانب المسيطر (الانا الاعلى) وعليـهـا ان تقوم بشيء ما، بدلا من مجرد المرافعة عن وجوده، وعندئذ فكرت ليز برهة ثم انشأت تقول:

ليـز: ها انني قـد استذكرت لتوي قصة من ايام حياتي البيتية ابان بواكير طفـولتي الاولى. اتذكـر يوم كنا انا وامي وخـالتي اليـزابيث، واقـفـات امـام النافـذة نطل من خـلالها على جنينة البـيت الخلفـية، وهناك في نهايتها كانت تنتـصب شـجرة عملاقة باسقة جميلة، وكانت خالتي تقول يجب قطعها لانها تحـجب مـا وراءها من منظر ريفي لطيف. لان تلك الشـجـرة كانت احب صـديقة الى نفسي، فقد كنت اتحدث اليها، احتضنها، ابثها كل ما في نفسي من بنات صـدري(٥) فـهي مختزن اسراري، وهي بالنسبة لي بمثابة مواقيت، فـمن لون اوراقـهـا اميـز مـتى يحل الربيع ومتى يحين الخريـف، ودائماً كانت محـاطـة بالطير محوما حـواليـهـا. وهي دائماً كـانت هناك لا تريم اراها مـتى أطـللت من النافـذة نحـوها. فكأنها كـانت دائما بانتظاري، فـهي لا تشـبـه

صديقـاتي من جنسي اللواتي كن في حـركة دائبة بين غدوٍ ورواح. انطلق انا صوب الشـجـرة محذرة اياها من نوايا خـالتي، فـتجـيـبني صـديقـتي تلك الشـجرة تقول: (لا تقلقي ولاقوال الناس لا تأبهي، فان أي انسان يريد ان ينال مني او حـاول ان يؤذيني، فـسـادعـو الطبيـعـة كلها بجميع مخلوقاتها، لتـتـداعى عليـه، وعلى رأسه تؤلب مخبثاتها، ان الاناسي لينسون او يتناوسون ان جـذوري ضـاربة في جـوف الارض لوطيـدة. وان وشـائجي بكل ما فيها لاكـيدة، بما في هذا العجماوات والحشرات، الطير تبتني بين اغصاني اكنانها، فـهـي سـتـهب الى نجـدتي، ان طالني احـد بسـوء، وان جـدت الضرورة، فـاسـتنجـد بالشـمس والريح والاعـاصير، لتقيني شر مهوى الفأس الحاطمة وتـطلعـا نحـو السماء، وفي داخلي تختـبيء اسرار كلهـا تزخـر بالخير والنماء، وان هـم اجـترأوا وحـاولـوا احـتـطـابي، فـانهم بفـعلهم هذا، وقـبل تدميري اولا، انما يجلبـون لانفسهم البوائق)(٦).

لقـد بدأ هذا الاسلوب واثبت انه خير اختراق يمكن التـوصل من خـلاله الي خفايا الفعل وما يكمن فيه هناك من كوامن.

ومما يبـهـر افـراد فريق الدراسة هو ان (ليز) قد عادت بذاكرتها الى بواكير طفـولتـهـا لتـسـتكشف قـوة الشجرة. وانها في مكان ما، خلال رحلتها عبر مـسيرة حـيـاتها، وبخـاصة فيما بين مرحلتي الطفولة وسن الرشد، كانت قد افـتـقـدت شـيئا مـا، يمـثل عنصر القـوة، وانها راحت الان تستذكر موقف خـالتـهـا (اليزابيث) وتتمثله في نفسها، وانها سميت باسم خالتها (٧). وقد فسرت ليـز خـيـالها المشـبـوب ذاك، والذي ضـمنته الحوار المذكور، بانه يقع ضـمن حـدود الصراع القـائم بين الميل الى اندمـاج الطبـيعة له بهجته ومتعته ومسراته، وبين مـا هو كـائن بالفـعل في الحياة الفيزيقية المادية العامة، والتي كـانت قـد تلذذتها اثناء ايام طفولتها، وما شاب لذة طفولتها تلك وما رافقها مـن تـقـاليـد صـارمـة تمسكت بها اسرتها في تنشئة ابنتـهـا، يوم تطلب منهـا اخـضـاع نوازع الجـسـد البريئة لمتطلبات الروح المتسامية التي لا يدرك كنهها

دفعة واحدة ولا سيما بالنسبة للناشئين الاغرار.

فـهي- ليز- وان كانت منذ سنين كثيرة مضت قد اعرضت كشحا(٨) من الناحـيـة الشـعـورية عما تلتزم به الطقوس المعتادة المتزمتة، بيد انها ما برحت تسـاورها شكوك بشأن طبـيـعـة الانسان البهيمية في الحياة. فهي قد عوضت عما كـانت قـد جـانبت من جـوانب مـتزمـتـة بها حـقـقـتـه من تقدم علمي وتـكـنولوجي، ومـضت تصر على ان الانِسـان يجب ان يطرد في تقـدمـه والا تكون مـتطلبـات الجـسـد عـوائق تحولِ دون ما يصبو اليه من تطور وتقدم. وكـان واضحا خلال فترات خيالها ان الجانب المسيطر عندها كان هو المهيمن المستـحـوذ، وان الجـانب المسـتكين المنفذ لديها، فمثلا بالشجرة، كان يبدو وكأنه في خطر مـريع فظيع، خطر يتـهـدده بالاقـتلاع، ان الخيال عندها قد انطوى على عنصر الحـذر والتـحـذير وعلى رسـالة الوجـود والكينونة والبـقـاء، وبعـبـارة اخـرى، فـان تأويل الامـر هو كـالتالي: إذا ما فصمت ليز صلتها بالارض، فـان طبـيـعـتها (الحيوانية)، وطبيعتها (الجوهرية)، برمتها ستنقلب عليـهـا فـتـثـور في داخلها وتدمرها. لكنها اذا رسخت اقدامها بقوة لا تزداد قـوة ومـتـعـة وجمالا كما الشـجرة فحسب، بل انها سترتفع ايضا فوق الارض وتسـمق طولا لتلامس باطراف اصابعها مداني السماء.

ان منبـهات الخيال، مثلها مثل منبهات الاحلام، تكمن كلها في احداث اليـوم الذي يمـر به المرء، فـفي صـباح ذلك اليوم بالذات كانت ليز تقرأ في كتاب هو من احسن كتب الفن توفلر (Alvin Toffler) وهو: صـدمة المستقبل Future shock. فـهـو افـضل كـتـبـه مـبيعا، وفيه يرسم المؤلف صـورة لـزمن آت يتطور فـيـه النوع البشري تطورا سريعـا وسـيـبلغ عصرا له اهميتـه وتحـولاته، ولكن لا عـلاقـات فـيـه تبقى قائمة ولا مواقف في الحياة تلبث مسـتـقـرة، وسـتبقى الحال علي ذلك المنوال ردحا من الزمن طويلا، وان اطـروحـتـه التي يطرحـهـا الفن توفلر في كـتـابه هي اننا لن نتـمكن من ارجـاع الـزمـن الى الـوراء، وانـه يـتـعـين عـلـيـنـا ان نـسـير بـاتجـاه الثـورة

التكنولوجيـة، وانه يلزمنا ان نتـعلم كـيف نواكب الاحوال والظروف الجديدة القـادمـة، وقـد ذكـرت ليز ان المؤلف قد احسن مناقشة الحالة وانها احست انها توافـقـه في ما ذهب أليه من اراء، ومع هذا فقد بقيت ولديها شعور بعدم الراحـة واحـســاس بالضـيــاع يتـضح من هذا ان الكتاب قد اثار في داخلها صـوت الجـانب المتـحكم المسيطر (ممثـلا بالشجرة) وان احساسها هذا اخذ يتـفـاعل في ثنايا ذاتها مـشحونا بمختلف مشاعر التهديد والوعيد الذي ينتظر العـالم، وهذه كلهـا افكار تضـمنها كتاب توفلر. وحينها انطلق الخيال عندها وحلق، لم يكن بوسـعـه ان يجد في الحـياة الطبيعية ما هو انسب من الشجرة رمـزا للقـوة والثبـات والاسـتـقرار، والامر من هذه المثابة انما هو شديد الشبه بالحلم وبما يكتنفـه من ظروف تتـسـبب في تنبـيه احداثه، والرسالة، بطبيعة الحـال، مـوجـهـة الى نفس ليـز وليس الى العـالم، ولكننا جميـعـا- نحن بني البـشر- لـدينا احـسـاس بان عـالمنا هذا سيكون امتع مـا يمكن ان يكون وسـيـزدهـر، اذا نـحـن تـفـادينا الأنغمار في تدميره عن طريق تحطم حيـاتنا الطبيعية مستقبلا.

ثمـة خـيالات اخرى افضى بها افراد اخرون من فريق الدراسة ممن كانت لديهم صـعـوبات في اسـتـعـادة احلامهم. بما فيها احلام تخص رجال المرور وهم يلصـقـون اوراق الغـرامـات على السيارة المخالفة، وما هناك من احلام ومـا يحصل فـيـهـا من شـجار بين الابوين، ومع ذكريات عن اعتلاء سطح المنزل والاطلال منه على دار مـقـابلة، فـفي حـالة رجل المرور، مـثـلا، فان الخيال فيه يمثل الجانب المسيطر في الذات العليا الذي يرفض الاستجابة من منطلق مـسـؤوليـة الامتثال الى الامر الرادع، فالجانب المسيطر في الحلم يقول انما انا رجل مـرور انفـذ اوامـر سلطة عليـا، هذا في حالة الخيال الاول، اما في حـالة الخـيـال الثـاني الخـاص بالشـجار بين الابوين، فانه ينزع الى تبيان الجـانب المتـحكم المهـيـمن (الام) وهو يوجـه لوما الى الجانب المنفذ (الاب) لضـعـفـه وتراخـيـه واسـتـخذائه اما الخيال الثالث المتعلق بارتقاء اعلى البيت

والنظر منه الى البيت المقابل، فانه وان كان يكشف عما قد يكون عليه الانسان الناشيء المتحلل من القيم الضرورية وقد شرع يطل من على الاسرة الموسرة المرفهة القاطنة في المنزل المقابل، مع الايقان بهذا كله، فانه سرعان ما اتضح ان في اللاشعور هناك كانت نظرة الى تلك الاسرة وما تنعم به من رفاهة، وهذا باكمله مجتمعا يمثل توقان الشباب وسعيه للتخلص من سلطة الابوين.

مهما تكن عليه الخيالات من قوة كاشفة لما هناك من مشاعر كامنة. فانها ليست في قوتها تماما بمستوى جودة الاحلام التي تجعلنا على بينة مما هناك من احاسيس خافية وصراعات مختبئة غير واضحة تظهر عندما ينام المرء، ذلك لان محاذير الشعور الواعي ومراقبته تسترخي فيذهب العقل منطلقا عبر مسالك غير ممهدة عادة، في حين ان الخيالات التي تطرأ في الغالب في حالة اليقظة، تكون بالضرورة اكثر انتظاما وتماسكا لان العقل الواعي وراء توجيهها، ورغم هذا وذاك، فان الخيال البديل له جدواه، وفائدته تتمثل فيما اذا حاول الحلم الروغان ليتحاشى الامساك به والتمكن منه، اي عندما ينسى او على وشك ان ينسى. وللخيال في معظم الاحيان تأثير على الشخص الذي لا يستطيع تذكر احلامه، فيكون تأثير الخيال هنا اشبه بتأثير وجود الطفل المتبنى على حياة ام لا تستطيع الانجاب او لم تستطع ان تنجب ابدا. بتعبير اخر، ان الخيال ينبه ويساعد، بطريقة غامضة، على استذكار الاحلام، ولعل ذلك يتم بسبب الانتباه الزائد المضاف، الذي يوجه اعماق الحياة الداخلية لدى الانسان.

الهوامش

(١) الجـمة (بضم الجيم وتشديد الميم): الكثرة . . . . . (المترجم)
(٢) جميات رسي: من بنات جنسي العـزيزات المقربات (المترجم)
(٣) طحاه: اصابه، دهاه. . . . (المترجم)
(٤) جمع مـفرده حاضرة ويراد بها الحواضر المدن. . . . (المترجم)
(٦) جمع بائقة: ويراد بها الهلاك والشر (المترجم)
(٧) الـتـنـويـه بـان الاسم (ليـز) هو مختصر او تصـغير للاسم اليـزابيث (المترجم)
(٨) اعـرض كـشحا وضرب كشحا: ترك، وابتعد، وهجر (المترجم)

من آثار المترجم

نبذة عن السيرة العلمية للدكتور الحسماني

١- بعـد اتمام الدراسـة الابتدائية والمتوسطة التحق بدار المعلمين الابتدائية ببـغداد- مدة الدراسة فيها ٣ سنوات.

٢- حـصل علي شـهـادة الثـانوية العامة بجهده الذاتي خلال دراسته بدار المعلمين الابتدائية.

٣- حـصل علي شـهـادة الليـسـانس في اللغـة الانجليـزية وادابها من دار المعلمين العالية (كلية التربية ببغداد).

٤- حصل على الدبلوم العالي في علم النفس من المملكة المتحدة.

٥- حصل علي الماجستير في علم النفس من المملكة المتحدة.

٦- حصل علي الدكتوراه في علم النفس من المملكة المتحدة.

عـمل مـعلما في التعليم الابتدائي وعمل في الادارة فيه كذلك عمل مدرسا في التعليم الثانوي.

٧- عمل مدرسا لعلم النفس بجامعة بغداد.

٨- عـمل مـدرسـا لعلم النفس بجـامـعة الرياض (جامعة الملك السعود الآن) في المملكة العربية السعودية، لموافقة جامعة بغداد.

٩- عـمل استاذا مساعدا في مادة علم النفس في جامعة الامارات العربية المتحدة، بموافقة من جامعة بغداد.

١٠- عمل رئيسا لقسم علم النفس بجامعة بغداد.

١١- عـمل وكـيل كليـة (نائب عـمـيـد) ثم عـمـيـدا بالنيـابة في جامعة الامارات.

١٢- عمل خبيرا لمفردات علم النفس في المجمع العلمي العراقي.

١٣- حـصل علي مـرتبـة الاستاذية في علم النفس وبقي استاذا لمادة علم

النفس ورئيسا لقسم علم النفس حتى طلب الاحالة على التقاعد بناء على طلبه الشخصي.

١٤- حاليا استاذ متمرس في علم النفس.

١٥- له حوالي (٣٠) كتابا منشورا، تأليفا وترجمة.

١٦- له اكثر من (٢٠) بحثا ميدانيا موسعا.

١٧- له اكثر من (٨٠) بحثا القيت في موتمرات وندوات علمية متخصصة محلية وعالمية.

١٨- له عشرات المقالات العلمية والبحوث المنشورة في المجلات العلمية والصحف.

١٩- له اكثر من (١٠٠) حديث اذاعي سجلها تصب في الميادين العلمية والتربوية والاجتماعية.

٢٠- حضر العديد من المؤتمرات العلمية والمحلية والعالمية، وله فيها اسهامات نالت شهادات تقديرية.

٢١- عضو في عدد من جمعيات علم النفس العالمية.

٢٢- حاصل على عدة شهادات تقديرية من مجالس علمية محلية وعالمية.

٢٣- عمل خبيرا لعلم النفس في المجمع العلمي العراقي.

٢٤- اشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه وعمل ممتحنا لعشرات الطلبة في الدراسات العليا- الماجستير والدكتوراه.

٢٥- خبرة واسعة في مجال الدراسات العليا.

٢٦- اسهم في صياغة حقوق الطفل النفسية العالمية.

من الانجازات العلمية المترجمة / الدكتور الجسماني

اولاً: مبتكرات

Students Altitudes Towards Various
Aspects of Teachers Training
A Psychological study
H. Dcp. Ed. Psych

Psychological Reserich into Progressive
Educational Theory and Practice
M. Ed. psych.

Mc Dougall,s Hormic Theory and
its Influence on subsequent
Psychological Thought.
ph. D

ثانياً:

كتب مؤلفة ومترجمة

- الطفل السوي وبعض انحرافاته: مقدمة عامة في سيكولوجية الطفولة (ترجمة)
- المدخل الى علم النفس الحديث ترجمة

- مأدبة افلاطون في الفلسفة ترجمة

- مقدمة عامة في فلسفة التربية ترجمة
- سيكولوجية الطفولة والمراهقة تأليف
- علم النفس العام تأليف (مع اخرين٩
- علم النفس والتعليم ترجمة
- علم النفس التربوي تأليف
- علم التربية وعلم نفس الطفل ترجمة
- علم النفس وتطبيقاته التربوية والاجتماعية تأليف
- موسوعة نفسية تربوية اجتماعية الجزء الاول تأليف
- موسوعة نفسية تربوية اجتماعية الجزء الثاني تأليف
- موسوعة نفسية تربوية اجتماعية الجزد الثالث تأليف
- اتجاهات الطلبة نحو مختلف جوانب اعدادهم تأليف
دراسة نفسية - ميدانية
- البحث عن الذات دراسة نفسية تحليلية ترجمة
- التربية المتجددة دراسة ميدانية تأليف
- علاجك النفسي بين يديك ترجمة
- مذكرات فتاة مراهقة ترجمة
- دكتور جيكل ومستر هايد: قصة نفسية ترجمة
- النظرية الغرضية النفسية واثرها في تغيير اتجاهات
علم النفس الحديث الجزء الاول تأليف
- الوراثة والسلوك الجزد الاول تأليف
- الوراثة والسلوك الجزء الثاني تأليف
- الاحلام وقواها الخفية ترجمة
- رسائل نفسية لها قصة ترجمة

ثالثا :

- آفاق جديدة في علم النفس: ترجمة للجزء الثاني
- المجتمع المعاق

رابعاً :

- التفكير الواضح
- علم النفس لكل رجل وامـرأة
- القلق

بحوث ميدانية موسعة

- التكيف النفسي والاجتماعي للشباب: دراسة ميدانية
- دراسة نفسية لظاهرة الخجل عند الشباب.
- دراسة لاتجاهات الطلبة الجامعيين: دراسة نفسية
- تحصيل الشباب ضد الجريمة: دراسة نفسية ميدانية
- بناء اداة القياس دافعية المعوقين نحو العمل.
- دراسة نفسية- اجتماعية تربوية لمشكلات الاطفال من وجهة نظر الاباء والمعلمين.
- دراسة تحليلية للقيم المستنبطة والمستقرأة من عملية تدريب الشباب.
- دراسة ميدانية نفسية- اجتماعية لمعوقي الحرب
- الشخصية العراقية الجديدة كما عبرت عن نفسها خلال الحرب: دراسة تحليلية
- دراسة نفسية ميدانية لكيفية استثمار اوقات الفراغ لدى الطلبة الجامعيين.
- دراسة ميدانية للاطفال المودعين في دور رعاية الدولة
- دراسة ميدانية للتوافق الزواجي والتفكك الاسري.
- دراسة ميدانية لبعض حالات الاجرام
- دراسة نفسية تحليلية لشخصية المتنبي من خلال شعره
- دراسة نفسية ميدانية لميول واتجاهات الطلبة في كلية الاداب.
- دراسة ميدانية لبعض مشكلات الطالب المراهق في الوطن العربي- دراسة نفسية تحليلية
- دراسة نفسية ميدانية لاتجاهات الطلبة حول التخصص في علم النفس والتوجه المهني للتدريس
- دراسة مقارنة في خصائص الشخصية للطلبة الجامعيين المدخنين وغير

المدخنين.

- دراسة القيم ومفاهيمها لدي الطلبة
- دراسة نفسية ميدانية للعلاقة بين البيت والمدرسة واثر ذلك في تنشئة المراهقين.

سادسا:

بحوث تطبيقية وتحليلية نشرت في مجلات متخصصة اجنبية وعربية ومحلية

سابعاً:

بحوث القيت في مؤتمرات وندوات خارج العراق وداخله، عالمية ومحلية.

ثامنا:

مقالات نفسية وتربوية كثيرة نشرت في الصحافة العربية والعراقية

تاسعاً:

اكثر من (١٢٠) حديثا اذاعيا نفسيا وتربويا واجتماعيا.

95 - 03 - 30 - 05029



هذا الكتاب

كانت الأحلام على مدى العصور وما زالت تشغل بال الانسان فتثير فيه مختلف الانفعالات سلباً أو إيجاباً، حتى أنها قد أوحت إلى بعض الأنبياء كما أدت إلى اكتشافات واختراعات عديدة. وتتعدد أنواع الأحلام من تحذيرية وتذكيرية وإستبصارية وغيرها لدرجة أنها كرّست لنفسها مكانة خاصة وهامة في حياة الإنسان اليوميّة. فهي جزء من شخصيته وصورة عن حياته الغير ظاهرة للعيان، وهذا ما كشفه علم النفس التحليلي الحديث في دراسات فرويد ويونج وغيرهما، وهذا التحليل يُعوِّل كثيراً على الأحلام في اكتشاف باطن الانسان وطريقة تفكيره ومعالجته للأمور. فالأحلام حياة أخرى للإنسان لا ينبغي إغفالها إذ هي رسائل نابعة من الذات وموجّهة إلى الذات، ومرآة يرى من خلالها ما هناك من تناقضات وخوف وتمنيات وأحلام يقظة في شخصيته.

الناشران